جوزيه ساراماغو

ثورة الأرض

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير: دكتور: ناصر الأنصارى
نائب رئيس مجلس الإدارة: دكتور: وحيد عبدالمجيد
نائب رئيس التحرير: دكتور: سهير المصادفة
الإشراف التنفيذى: السيد أبو شادى
مدير التحرير: السماح عبدالله
سكرتير التحرير: وردة عبدالحليم
التصميم الجرافيكى: دكتور: مدحت متولى
الإخراج الفنى: صبرى عبدالواحد
على أبوالخير

سارماجو، خوزيه، ١٩٢٢ .
ثورة الأرض: رواية/ جوزيه ساراماجو؛ ترجمة: احمد عبد اللطيف. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩ .
٥٢٨ ص ؛ ٢٢ سم .
تدمك ٧ ١٦٨ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص البرتغالية.
(أ) ـ عبد اللطيف، أحمد (مترجم)
(ب) ـ العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٩٩٦ / ٢٠٠٩
I.S.B.N- 978 - 977 - 421 - 168 - 7
ديوى٨٦٩,٣

ثورة الأرض

رواية

جوزيه ساراماجو

ترجمة : أحمد عبد اللطيف

منتديات مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
معرفتي

٢٠٠٩

- الكتاب: **ثورة الأرض** Levantado do Chao
- تأليف" **جوزيه ساراماجو** José Saramago
- ترجمة: أحمد عبداللطيف.
- يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من المؤلف للهيئة المصرية العامة للكتاب.

- جميع حقوق الإصدار باللغة العربية محفوظة للهيئة العامة للكتاب فى مصر والخارج.
- جميع الحقوق الأخرى محفوظة للمؤلف.

© José Saramago & Editorial caminbo, S.A., lisboa, 1980

- الطبعة الأولى ٢٠٠٩.
- طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

«سلسلة الجوائز»

مازال أمام سلسلة الجوائز الكثير من الأحلام الكبرى، التى تعمل بدأب على تحقيقها، فلقدْ شهدت السنوات الأخيرة احتفاءً غير مسبوق بالأعمال الأدبية فى شتى أنحاء العالم، وزادت أعداد الجوائز المهمة وأشكال تكريم المبدعين، فازدادت بالتالى الروائع الأدبية، التى تنتظر الترجمة والنشر فى سلسلة الجوائز.

ولأننا نضع نصب أعيننا قطع المسافة بين الواقع والمأمول.. بين الممكن والمستحيل فقد قطعنا خطوات كبيرة وجادة للتغلب على التحديات التى تواجه عملية الترجمة بداية من احترام حقوق الملكية الفكرية للمؤلف ومرورًا بتطوير شكل الكتاب، ووصولاً إلى قناعة بأن النصوص الأدبية لها وضعها الخاص باعتبارها مؤلفات جمالية متفردة ومن ثم تكون ترجمتها إبداعًا موازيًا يتحمل المترجم وحده عبء النهوض به. كما أننا استحدثنا «ذاكرة الجوائز» كرافد للسلسلة لتقديم الآثار الأدبية، التى شكلت ذروة خالدة

فى مسيرة الإبداع العالمى ولم تترجم بعد، أو أنها ترجمت ونفدت طبعاتها، إيمانًا من السلسلة بأن الأعمال الأدبية يكون لها دائمًا تأثير لا يمحى بمرور زمنها وحتى يتسنى للأجيال الجديدة قراءتها.

لقد انطلقنا من نجاحات تحققت فى مجال ترجمة الأدب فى مصر والعالم العربى، ولذا شرعنا فى تأسيس بنك معلومات رأينا أن الترجمة بحاجة إليه، ويشمل هذا البنك كل الأعمال الأدبية التى حازت جوائز دولية أو محلية فى كل أنحاء العالم، أو حققت أصداء قوية، وأثرت فى وجدان مجتمعاتها بشكل يؤهلها للحصول على جوائز أكبر، كما أنه يوفر قاعدة بيانات كبيرة عن كل المترجمين من كل اللغات، لكى يتابع القارئ العربى ما تم إنجازه والمهمات التى تنتظر السلسلة.

إن الترجمة كانت وستظل هى الحل السحرى للعديد من مشكلات الاختلاف بين الشرق والغرب، وهى وسيلة التواصل والحوار، وترجمة الأدب بالذات هى الجسر، الذى تعبر عليه أفكار الشعوب وعاداتها ومعارفها بدون قيود، فالأدب كان وسيظل أساس التقدم والخير والحق والحرية والجمال.

ولذا ستسابق سلسلة الجوائز الزمن لتحتفى بأكبر قدر ممكن من حائزى الجوائز فى العالم، تلك الجوائز التى حققت مصداقية كبيرة وسمعة حسنة حتى يتوفر للقارئ المصرى والعربى عمل اتفقت على جودته لجان

متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتّاب.

ولسوف تتنوع اللغات المُتَرجم عنها فى أعداد السلسلة القادمة، ولسوف تقتحم سلسلة الجوائز جوائز جديدة. وأصواتًا لم يتعرف إليها بعد القارئ العربى، وذلك بفضل زخم الأعمال الإبداعية فى العالم وبفضل تنوع الجوائز المستحدثة، التى لاقت اختياراتها ترحيبًا واحترامًا من النقاد والمتابعين للمشهد الإبداعى.

د. ناصر الأنصارى

إلى ذكرى الشهيدين:

جيرمانو فيديجال وجوزيه أديلينو دوس سانتوس،

" وأنا أسأل علماء الاقتصاد السياسيين وعلماء الأخلاق: هل أحصوا عدد من حُكِم عليهم بمعاناة البؤس و العمل الشاق وتثبيط الهمة والنمو المتأخر والجهل المفسد والمصائب التى لا تقهر والفقر المدقع، كل ذلك من أجل خلق ثرى واحد!".

الميدا جاريت(*)

(*) الميدا جاريت: (١٧٩٩ ـ ١٨٥٤) كاتب برتغالى رومانتيكى شهير (المترجم).

تتمتع الأرض أيضًا بالمنظر الطبيعى. ومع أن بقية الأشياء ينقصها شىء، إلا أن المنظر دائمًا فائض بغزارة، تلك الغزارة التى يمكن تفسيرها فقط بالمعجزة التى لا تكل، ذلك لأن المنظر الطبيعى بلا أدنى شك أقدم من الإنسان، وبرغم هذا الوجود السرمدى، مازال باقيًا لم ينفد. وقد يرجع ذلك لتغيُّر المنظر المستمر، ففى بعض فترات السنة تصير الأرض خضراء، وفى فترات أخرى تصير صفراء، ثم كستنائية اللون، أو حتى سوداء. وفى بعض الأماكن تصبح حمراء، وهو لون الطين أو الدم المسفوك. لكن ذلك يتوقف بالطبع على ما نزرع به الأرض أو نغرسه فيها، أو ما ولدت به الطبيعة البسيطة، بدون أن تمتد إليها يد إنسان، وتموت فقط لأن نهايتها المحتومة قد جاءتها. ليس هذا بالتحديد حال القمح، الذى يحصدونه حياً. ولا حال السنديان، الذى فى قمة حياته، ينتزعونه من قشرته، حيث لغلظة ساقه لا يبدو حيًا. فيصبح صارخاً.

هذا المنظر الطبيعى ملىء بالألوان، لكن علينا ألا نتحدث عن الألوان فحسب. فهناك الطقس، حيث نجد أياماً شديدة القسوة مثل الشتاء، وأياماً أخرى لا تعرف معنى الهواء بسبب الحر القائظ. لا راحة أبدًا فى الدنيا، وإن عرف أحد الراحة فى يوم ما، فلابد أنه يوم وفاته. هناك أيضًا الروائح التى تملأ الدنيا، وهذه الأرض بالطبع، فهى جزء منها ومزودة بمنظر من مناظره، فلو مات حيوان تافه فى الأرض الوعرة، ستنتشر رائحة الجيفة التى تفضح موته. وحينما تسكن الرياح لا أحد يلاحظ هذه الرائحة، حتى ولو مر بجانبها. بعدها ينسلخ العظم، ويصير سياناً غسله بقطرات المطر أو احتراقه بأشعة الشمس، ولو كان الحيوان ضئيلاً لن يصل لهذه المرحلة؛ لأن الديدان و حشرات القبور تصل سريعا وتلتهمه.

إن أردنا أن نصفها، فهى أرض رحبة، حدباء، بها شىء من ماء الضفاف، تجود به السماء أحيانًا وتبخل أحيانًا أخرى، وصوب الجنوب تمتد مستوية، ملساء مثل كف اليد، مع أن جزءاً كبيراً منها، بقصد من الزمن، مال للانغلاق على نفسه مع مرور السنين، فصارت مثل يد الفأس أو المنجل أو المحش. إنها الأرض، التى تشبه أيضًا كف اليد فى أنها مغطاة بخطوط وسُبُل، وطرقها الحقيقية، التى ستصبح فيما بعد قومية، عندما لا تتبع المجلس المحلى، تصل لثلاثة طرق، لأن الرقم ثلاثة رقم شاعرى، سحرى، وكنسى، وكل الأمور الأخرى نجدها مفسرة فى هذه الخطوط

ذهابًا وإيابًا، بسككها ذات القدم الحافية والعارية، بين الحقول و الشجيرات، بين جدامات القمح والزهور الحسناء، بين السور و الصحراء. منظر طبيعى هائل. يستطيع المرء أن يمشى من هنا طيلة حياته دون أن يعثر على نفسه أبداً، إن ولد تائهًا. وإن جاءت ساعته، فلن ينفعه سوى الموت. إنه ليس أرنباً ولا فأراً حتى يتعفن من الشمس، لكن علينا أن نتخيّل أن الجوع أو البرد أو الحر سينهكه فى أرض لم يحسبوا له فيها حسابًا، أو يصيبه مرض من تلك الأمراض التى لا تمهل أحدا للتفكير فى شىء، ولا حتى لطلب النجدة، مع أنهم حتمًا سيعثرون عليه ولو بعد فوات الأوان.

من الحروب وأوبئة أخرى مات الكثير فى هذا المكان و أماكن أخرى داخل المنظر الطبيعى، ومع ذلك، كل ما نراه هنا نجده حياً، هناك من يقول إن ذلك يرجع للغز لا يسبر غوره، إلا أن الأسباب الحقيقية مرتبطة بهذه الأرض، بهذه الوسية التى تمتد عاليًا للروابى وأسفل للأرض المستوية حتى يصل مدى البصر. ولو لم تكن الأسباب مرتبطة بهذه الوسية، فقد تكون بوسية أخرى، فالفرق بينهما لا يهم سواهما، وليسكن الاختلاف بين رأيى ورأيك : قد تم تسجيل كل شىء فى زمن محدد ومناسب فى إحصاء، حدود فى الشمال و الجنوب، فى الشرق و الغرب، كما لو كان ذلك قد تقرّر فى بداية الخليقة، حينما كانت الدنيا مجرد منظر طبيعى، يقطعه حيوانات كبيرة وقلة من الرجال هنا وهناك، ترتعش فرائصهم . فى

تلك الأزمنة، وبعدها، تقرّر ما كان يجب أن يكون عليه المستقبل، خطوط اليد المعوّجة، حاضر هذه الأرض المقسّمة الآن بين أصحاب الفأس، حسب حجم الفأس وحديده أو حافته. على سبيل المثال : هل أنت سيد ملك أم دوق، دوق وبعد ذلك سيد ملكى، أسقف أم رئيس رهبانية، ابن شرعى أم ابن زنا، أم إنك ابن محظية، بقعة تم غسلها وإعادة الشرف لها، صديق عابر لابنة محظية، أو قائد حرب، نصف مملكة فى الحال، وفى بعض الأحيان يقال : أصدقائى الأعزاء، هذه أرضى، خذوها، عمّروها من أجل خدمتى وأولادكم، وحافظوا عليها من الخونة والعصاة. إنه كتاب الساعات المقدسة، العليا، الذى يضم حسابات غاية فى القدسية تقدم للقصر والدير، ترتل داخل البيوت الأرضية الكبرى أو داخل أبراج من الشمع، كل مليم يساوى صلاة، وكل عشرة تساوى الكلام الملائكى، وعندما تصل للمائة تفوز بالصلاة الكبرى، مريم هى الملك. خزائن عميقة، مطامير بعيدة الغور، مخازن غلال مثل ناووس بلاد الهند، أحواض وبراميل، خزائن سيدتى، كل هذا تم وزنه بالذراع، بالعصا والهراوة الحديد، بالإمداد، بالمتر و القدم، كل أرض واستعمالاتها.

هكذا جرت الأنهار، وجاءت أربعة فصول فى السنة منضبطة فى ميعادها، بشكل يقينى، حتى فى تغيراتها. وجاء الزمن بصبره الجم، وبشىء آخر، ليس أقل أهمية، هو المال، الذى يعد أغلى من كل الأشياء،

ماعدا الإنسان، حتى عندما يتغير مثل فصول السنة. لكن فى كل مناسبة، كما نعلم، كان الإنسان مباعًا ومُشتَرى. لكل زمن ماله، ولكل مملكة إنسان يُباع ويُشترى بمسكوكات متنوعة ما بين إطارات من ذهب وفضة، ريالات، دوبلات، كروثادات، ريسات ودوبلونات ذهبية، أو حتى فلورينات من الخارج. المال، معدن شديد التقلّب والتغيّر، كثير الطيران مثل روح الزهرة أو روح النبيذ، يصعد، كما لو له أجنحة فقط من أجل الصعود، لكن لا يهبط أبدًا. السماء هى مكان المال، مكان عال يبدل فيه القديسون الأسماء حين يحلو لهم ذلك، لكنهم لا يبدلون الوسية.

الأرض، أم بضة الثدى، للأفواه الكبيرة والجشعة. الأرض رَحِم؛ أرض مقسّمة من الأكبر للأصغر، أو من الأصغر للأكبر لو تراءى لهم ذلك، بالشراء أو بالإنفاق، أو بالسرقة الخبيرة، أو بالجريمة المغالى فيها، إرث الأجداد والأب النافع، رحمهم الله. تأخر ذلك قرون، من يستطيع أن يشك أن كل شىء سيستمر هكذا حتى نفاد الزمن ؟

والناس الأخرى، الكثيرة المتناثرة، الذين امتلكوا أراضى، كيف امتلكوها مع أنها غير مسجلة بأسماء الأرواح المتوفاة ولا حتى الأرواح الحيّة ؟ إن حكمة الله، أولادى الأعزاء، لا حدود لها. فهنا الأرض ومن يجب عليه زراعتها، فلتنمُ وتتكاثر. فتقول الوسية: فلأنمُ وأتكاثر. لكن هذه الحكاية يمكن روايتها بشكل آخر.

بدأت الأمطار تهطل فوق الرءوس عند ساعة الغروب، عندما كانت الشمس نصف شبر فوق التلال المنخفضة الواقعة على اليد اليمنى، بعدها جلست العجائز ليمشطن شعورهن، فهذا هو وقت الفضيلة الذى يخترنه. أوقف الرجل الحمار، ودفع حجراً بإحدى قدميه أمام عجلة عربته الكارّو، حتى يستريح حماره من الأثقال التى يحملها على كاهله فى التل القصير. كم هى رائعة تلك الفكرة التى عبرت بذهن مَلاك المياه السماوية ! فهذه الأمطار تأتى فى غير موسمها، لهذا نجد غباراً كثيرًا فى الطريق، كما نجد بعض الروث الجاف، أو فضلات حصان، ولأنها نائية عن الأماكن المعمورة لم يقترب أحد ليأخذها. لم يجازف أى صبى بسبب معلق بذراعه ليأتى إلى هنا بحثًا عن روث طبيعى، وبكل حيطة يمسك بأصابعه القرص المنهك، المشقق أحيانًا مثل ثمرة الفاكهة الناضجة. تحت المطر، تلطخت الأرض الشاحبة والساخنة بنجوم سوداء، مباغتة، تساقطت سراً فوق التراب الرخو، وبعد دفعة ماء كما الضرب بكف اليد،

غمر الماء الأرض. لكن كان أمام المرأة وقت لتخرج الطفل من العربة، من العش المكوّن من مرتبة تبنية بين صندوقين. ضمته إلى صدرها، غطت وجهه بالجزء المتدلى من شالها، وقالت: لم يستيقظ، الطفل أهم ما نعتنى به، بعده يأتى أى شىء.، كل سيُبتل، نظر الرجل للسحب العالية، كَرَشَ أنفه وقرّر بحكمته كرجل، إنه لا شىء، مجرد وابل من المطر ، لكن على سبيل الاحتياط فكّ إحدى بطاطينه، وفردها فوق الأثاث، لابد أنها ستمطر اليوم، لعنة الله علىّ .

دفعتْ عصفة ريح قطرات الماء فتناثرت، نفض الحمار أذنيه بشدة عندما ضربه الرجل على ظهره بكف يده، وسحب عُرُش العربة بينما الرجل يساعده بدفع العجل. استأنفوا الصعود بالسفح الصغير. مازالت المرأة فى الخلف، تحمل ابنها بين ذراعيها، وبينما تتذوق سكينة الطفل تنظر فى وجهه وتهمهم: ابنى. كان العشب يمتد على جانبى الطريق الممهد للعربات، بالإضافة لبعض السنديان التائه والمخنوق حتى منتصف جذعه، هذا السنديان المهجور أو المولود هنا بالمصادفة. وبين الأرض المبلولة كانت العجلات تشق طريقها، محدثة ضوضاء جافة، مثل ضوضاء الحقول المسحوقة، ومن آن لآخر كانت تقفز قفزة فجائية، ذات ارتداد، عندما تطأ حجراً يهز العُرُش. كان الأثاث يصر صريرًا تحت البطانية. والرجل بجانب الحمار، بيده اليمنى مسنودة على عريش العربة، ملتزمًا الصمت. وهكذا وصلوا لأعلى الطريق.

كانت تأتى من الجنوب، فى مواجهته، كتلة هائلة من السحاب، كثيفة ومكوّرة، تعلو السهل الذى يتميز بلون التبن. والطريق يختفى من بُعد، يصعب تمييزه بين الطرق المتاخمة التى تهدمت و كنستها رياح البادية. هناك فى العمق كان ينضم مع طريق عريض، وهى طريقة طموحة للتحدث عن أرض بها طريق جانبى. على اليسار، فى مستوى الأفق تقريبًا، توجد قرية تطل حوائطها البيضاء صوب الغرب . السهل هائل، كما قد قيل، أملس، مستوى، به أشجار السنديان مفردة أو مزدوجة، وأشجار أخرى قليلة. من هذا التل لم يكن من الصعب تصديق أن الدنيا لا حدود معروفة لها. أما القرية، التى هى المقصد، والتى تُرى كضوء أصفر تحت لوحة من رصاص الضباب، فكان يبدو أن الوصول إليها محال، مدد يا قديس كريستوبال، قال الرجل. بينما كانت المرأة، التى لم تسافر أبدًا صوب الجنوب بهذه المسافة، وأقصى ما وصلت إليه كان جبل لافرى، فكان يبدو لها مكاناً متشابهاً، ربما كان نوعاً من النوستالجيا.

كانوا فى منتصف الربوة عندما عاد المطر مجدداً. تساقطت فى البداية عدة قطرات، مهددة بقدوم شلال، حيث سيغزو وابل المطر. بعدها، مرّ الريح بالسهل، كنسه كما تفعل المكنسة، ارتفع الغبار والتبن، وتقدم المطر من الأفق، مثل ستارة غامقة ستغطى سريعًا المنظر الطبيعى النائى. كان مطراً منتظماً، مثل الأمطار التى تأتى فى ساعات كثيرة،

يتساقط ويغمر الأرض بمياهه، جاء و لم يتوقّف، وحين لا تستطيع الأرض احتمال غزارة المياه، فمن الصعب معرفة إن كانت السماء هى التى تبلّلنا أم أن الأرض هى التى تفيض علينا بمياهها. عاد الرجل ليقول، لعنة الله علىّ إنها فضفضة الناس عندما لا يتعلّمون لكثرة قناعتهم. كل البيوت بعيدة، ولا مفر من شلالات المطر المتساقط بدون لحاف يحمى الظهر. من هنا حتى القرية، بخطوة الحمار هذه الذى يمشى الهوينى وبلا عزيمة، سيتأخر على الأقل ساعة كاملة، وأثناء ذلك سيعُمّ الليل بظلامه. بعد أن تشرّبت البطانية التى تحمى الأثاث بالكاد ما يكفيها من المطر، بدأت تقطر حبات تنزلق من أطرافها البيضاء، فكيف حال الملابس المختبئة فى الصناديق ! وهى أملاك مقتصدة نازحة لأسرة تعبر للوسية لأسباب ما. نظرت المرأة للسماء، وهى طريقة قديمة وريفية من خلالها تُقرأ صفحة كبيرة ومفتوحة فوق رءوسنا، تلك الصفحة التى توضّح، و لا توضّح، إن كانت السماء محمّلة بحبر غامق أم لا. تقدّموا فى طريقهم، كما المركب يسوقه الفيضان، كل شىء على وشك السقوط، لهذا كان الرجل يضرب حماره ليسرع فى الوصول لشجرة السنديان تلك، فقد تهبهم شيئًا من الحماية. ها قد وصل الرجل والعربة و الحمار، ومازالت المرأة تغرز فى الوحل، لا تستطيع الركوض كيلا توقظ الطفل، هذه هى الدنيا، لا يتقى البعض شر البعض الآخر، حتى ولو كانوا شديدى القرب كالأم و الابن.

تحت شجرة السنديان صدرت من الرجل إيماءات تعبر عن ضيق صدره، من الواضح أنه لا يعرف ما معنى حمل طفل بين ذراعين، من الخير أن يشد الحبال التى تراخت من كثرة الجرى حتى أصبح الأثاث مهددًا بالانزلاق، هذا ما ينقص، أن ينكسر القليل الذى خرجنا به من الدنيا! تحت الشجرة يقل المطر، لكن قطرات كبيرة تتساقط من الأوراق، فتلك الأغصان الهائلة والمفتوحة ليست رأس شجرة برتقال، فأنت تحتها كما لو كنت تحت سقيفة مكشوفة، لا يعرف الواحد منا أين يحتمى، ولتكتمل المأساة شرع الطفل فى البكاء، وصار هو الآن الشغل الشاغل، فتحتْ أمه بلوزتها وأعطته ثديها شبه الجاف، كنوع من خداع فمه. أسكته الثدى قليلا، وبقت الأم والابن فى جانب فى سكينة، يغلفهما خرير المطر الواسع، بينما الأب يلف حول العربة يفك ويعيد عقد العُقد، يرتكز على ركبتيه فوق العُرُش ليلقى الحبال، أما الحمار، بعيدًا، ينفض أذنيه بقوة وينظر لبرك المياه والخيوط التى تتشكل فى الطريق. حينئذ قال الرجل:، راق للأمطار أن تهطل ونحن على وشك الوصول! كانت كلمات تعبر عن غضب رقيق، قيلت بقلق وبلا أمل لن يتوقف المطر لأنه يضايقنى، إنه قول الراوى، المعفى منه. انتبه جيدًا لحركات الأب، الذى يسأل فى النهاية، وكيف حال الولد؟ ويقترب، ينظر تحت تعرجات الشال، إنها حرية الزوج، لكن المرأة غطت نفسها سريعًا بحياء حتى أنه لم يعرف حقيقة إن كان

يريد رؤية الطفل أم حلمة ثديها البارزة. مع ذلك ميّز عينىّ الطفل الزرقاوين بشدة من بين الظل المحيط به، بين سخونة ثنيات الملابس ذكية الرائحة، بينما نظر أيضًا لهذا الثدى الحميم. كانت نظرة الطفل فريدة فى وضوحها، تلك النظرة التى اعتادها منه منذ مولده، شفافة وصارمة، مثل إنسان يشعر أنه فى منفى بين عينين سوداوين وأخريين عسليتين، فى أية أسرة ولدتُ !

تلاشت الغيوم الكثيفة قليلا، وانكسرت حدة الأمطار الأولى. خرج الرجل للطريق ليتفحص الجو، التفت للجهات الأصلية الأربع وقال لزوجته: علينا أن نمضى، فلن نبقى هنا حتى تزداد علينا ظلمة الليل. فأجابته الزوجة، هيا بنا. ونزعت حلمة ثديها من شفتىّ ابنها، الذى كان يمص لا شىء. كان يبدو أنه سيشرع فى البكاء لكنه لم يفعل، فقط فرك وجهه بثديها متنهدًا، وسقط فى سراديب النوم. كان رضيعاً هادئاً، جميل المحيا، صديقاً لأمه.

الآن يسيرون جنبًا لجنب وقد اعتادوا المطر، لن يوقفهم شىء عن مقصدهم ولا حتى كوخ مريح، البيت والبيت فقط. كان الليل متعجلا لينشر ظلمته، فحلّ سريعًا. وفى الغرب كان النور الأخير باهتًا يختبئ، مازال فى مكانه لكنه ينطفئ، وفى غمضة عين تتحول الأرض لبئر حالكة الظلمة، شديدة السكون ممتلئة بالهمسات، برحابة العالم عند سقوط الليل! كان صوت صرير عجلات العربة يُسمع جيدًا، وأنفاس

الحيوان المتهدّجة مفاجِئة مثل سر خرج من بئره بغتة بصوت عالٍ، حتى حكّة الملابس المبلولة كانت تبدو كحوار متتابع، هامس، بلا وقفات، مثل حديث الصحبة المحبّ للقلوب. كانت الدنيا مظلمة لدرجة أنهم لا يرون شيئًا على بعد فراسخ من حولهم. صلّبت المرأة على نفسها، وأشارت بعلامة الصليب على وجه رضيعها. فى هذه الساعات من الأفضل الدفاع عن الجسد وحماية الروح، فقد تظهر فى منعرجات الطريق أشباح موتى، تركض متدافعة أو تجلس فوق أحجار فى انتظار المسافرين، وتسأل ثلاثة أسئلة لا جواب لها: من أنت، من أين جئت، أين تقصد. الرجل الذى يسير بجانب العربة يعشق الغناء، لكنه لا يستطيع، فهو يدّخر كل جهده لمداراة خوفه من الظلام. لقد سِرنا الكثير ويتبقى القليل، فحين نصل للطريق المرصوف سيكون الطريق مستويًا والسير أسهل، قال الرجل:

أمام أعينهم، لكنه شديد البعد عنهم، أنار برق السحاب، لم يكن أحد يتوقع شدة انخفاضه. بعدها، حدثت وقفة تبعها صوت الرعد المجلب للصمم. هذا ما كان ينقص، قالت المرأة : نستغيث بالقديسة باربارا. لكن الرعد، إن لم يكن بقية العاصفة القادمة من بعيد، كان يبدو أنه يسير فى اتجاه آخر أو ربما وجهته القديسة باربارا المذكورة سلفًا إلى أماكن أخرى أقل إيمانًا. ها قد وصلوا إلى الطريق الممهد، عرفوا ذلك لأنه أكثر عرضًا، أيضًا لأنهم سيجدون اختلافات

أخرى بعد مثابرة جمّة وعند ضوء النهار، لقد جاءوا من مطبات ووحل، وساروا فوق مطبات ووحل، والآن، فى هذا الظلام، لا يمكنهم حتى أن يروا ما تحت أقدامهم. كان ظهر الرجل وزوجته غارقًا بالماء. من حين لآخر كان الرجل يركض بلا بصيرة تقريبًا، متمنيًا أن يفتح الطريق أفقاً جديدًا حتى يرى كم يتبقى للوصول إلى سان كريستوبال. فجأة توقف المطر دون أن ينتبهوا، عندما ظهرت لهم بالتحديد حوائط البيوت الأولى. كانت تُمطر و كفت عن المطر. كما لو امتدت مظلة فوق الطريق.

ما أجمل أن تسال الزوجة أين بيتنا؟ إنه حنين من ترغب فى رعاية ابنها وتفريغ أثاثها ووضعه فى مكانه، قبل أن تفرد جسدها المرهق فوق سريرها. فيجيبها الرجل، على الجانب الآخر. كل الأبواب موصدة، فقط من خلال بصيص ضوء خافت يطل من فتحات ضيقة يمكن تخمين وجود بشر بالداخل. فى فناء ما يوجد كلب يعوى . إنها العادة، دومًا نجد كلبًا يعوى عندما يمر أحد، أما الكلاب الأخرى، التى ربما كانت تشعر بالأمان، فتتخذ وضع الحارس وتقوم بدورها ككلاب. فُتِح باب صغير و أُغلق. والآن وقد توقف المطر واقترب البيت، يشعر أكثر بالهواء البارد الذى يجوب الشارع، ينغمس فى الطرقات الجانبية الصغيرة، يهدهد السَعَفة التى تطل من الأسطح المنخفضة. وبفضل الهواء، بدا الليل أكثر جلاءً. كانت السحابة الكبيرة تنسحب، والآن تضىء السماء هنا وهناك. لقد

انقطع المطر ، قالت المرأة لابنها النائم، حيث كان الوحيد من بين الأربعة الذى لم يعرف الخبر السعيد بعد.

كانت هناك ساحة صغيرة، بها عدة أشجار جافة يهدهد الريح أغصانها. أوقف الرجل العربة وقال لزوجته: انتظرى هنا. ومضى تحت الأشجار صوب باب مُضاء. كانت حانة وجد بداخلها ثلاثة رجال جالسين حول منضدة، ورابعاً يشرب منعزلا على البار، ماسكًا الكأس بين إبهامه و سبابته، كما لو كان فى انتظار التقاط صورة له. وخلف البار يقف رجل عجوز نحيف، جاف، وجّه ناظريه صوب الباب، حيث دخل رجل العربة وقال، مساء الخير على الصحبة كاملة. هذه هى تحية من يأتى ويرغب صداقة الجميع، سواء من أجل الأخوة أو من أجل مصلحة عمل. جئت لأعيش هنا فى سان كريستوبال، اسمى دومينجو المنحوس، وأعمل إسكافياً. حينها أطلق أحد الجالسين دعابة، إذًا فقد جئت بالنحس يا صديق. فقام الآخر الذى يشرب منعزلا بطرقعة لسانه تو انتهاء كأسه قائلاً، المهم ألا يأتى بنعال مرتقة. انفجر الجالسون فى الضحك، وكانوا محقين. تلك الكلمات لا تعد سوء استقبال أو كراهية، إنهم فقط ليلا فى سان كريستوبال، وكل الأبواب موصدة، وجاءهم فجأة رجل غريب يلقب بالمنحوس، فأى أحمق لن يستغل هذه الفرصة خاصة إن المطر قد توقف منذ قليل. ضم دومينجو المنحوس ضحكته الصفراء لضحكاتهم، ماذا

يفعل ! الحمد لله إن الرجل العجوز فتح صندوقاً وأخرج مفتاحًا كبيراً، هاهو المفتاح، كنت أعتقد أنك لن تعود. حملق الجميع فى المنحوس، كما لو أنهم يقيّمون جارهم الجديد، هذا الإسكافى الذى دائمًا يأتى بالنفع حيث يحتاجون إليه فى سان كريستوبال. أعطى المنحوس تبريره، إن هذه القرية لنائية عن جبل لافرى، لقد أمطرت علينا فى الطريق. لم يكن هناك سبب ليقدم كشف حساب عن حياته، لكن ذلك وقع منه موقعًا حسنًا وحينها قال، ضع هنا مشروباً للجميع. إنها طريقة ذكية ومعروفة للوصول لجيوب القلوب. ينهض الجالسون، ينظرون للبار مان وهو يملأ الكئوس، إنها حفلة. بعدها، بلا عجلة، يتناول كل منهم نخبه، بحركة بطيئة ومحترسة، إنه نبيذ، وليس عرقًا يرمى فى الحنجرة. اشرب أنت أيضاً يا صديق، يقول دومينجو المنحوس، ويرد العجوز، فى صحتك، يا جارى، فهو بار مان محنّك فى الأعراف الاجتماعية للقرى الكبيرة. كانوا يتناولون نخبهم عندما دنت المرأة من الباب، لم تدخل، فالحانة مكان الرجال، وتقول برقة، محترمة للعادات، يا دومينجو، الطفل يتلوّى، والأثاث غارق فى الماء ويجب إنزاله .

كانت المرأة محقة فيما قالت، لكن دومينجو المنحوس لم يرُق له أن تأتى زوجته لتناديه أمام الرجال، فماذا سيفكّرون، وبينما يسير بجانبها فى الساحة الصغيرة يغمغم، إن كررتِ فعل ذلك مرة أخرى، سترين! لم ترد الزوجة، المشغولة بتهدئة

الرضيع. تحرّكت العربة للأمام ببطء، مثيرة جلبة. فلقد نمّلت أرجل الحمار من البرد. دخلوا فى حارة متتابعة البيوت والبساتين الصغيرة، ووقفوا أمام بيت منخفض. حينئذ سألت المرأة أهنا ؟ وأجابها الزوج، هنا .

فتح دومينجو المنحوس الباب بالمفتاح الكبير. وليدخلا، تحتّم عليهما الانحناء، فهذا البيت المتواضع ليس قصرًا بأبواب شاهقة. لم يكن بالبيت نوافذ. على اليسار كان المستوقد، فى أرض الدار. أشعل المنحوس النار، فهبت قبضة من التبن وبدأ يدور بالشعلة الموقدة لترى المرأة بيتها الجديد. كان هناك حطب فى ركن ما من المطبخ. هذا يكفى. فى دقائق قليلة أنامت الطفل فى ركن آخر، بجانب الفِلَق والحطب، وفرقع اللهب ممتدًا على الحائط الجيرى. صار المسكن معموراً.

من باب الحظيرة أدخل دومينجو المنحوس الحمار والعربة وبدأ فى تفريغ الأثاث وإلقائه بأية طريقة، حتى تستطيع زوجته مد يد العون له. أحد جوانب المرتبة التبنية تشرّب الماء. تسرّب الماء أيضًا لصندوق الملابس، أما طبلية المطبخ فكانت إحدى أرجلها مكسورة. كانت هناك حلّة على النار بها ورق كرنب وقبضة أرز، عاد الرضيع ليرضع ونام فى الجانب الجاف من المرتبة التبنية. ذهب دومينجو المنحوس للزريبة ليقضى حاجة. وفى منتصف البيت ظلت منتبهة سارة دى لا كونثيبثيون، زوجة دومينجو وأم جوان، متأملةً النار، كمن تنتظر أن تبعث لها

رسالة لا تفهمها. لاحظت حركة طفيفة فى بطنها. تبعتها حركة أخرى. لكن عندما دخل الزوج لم تنبس بكلمة. كان لديه أشياء أخرى يفكّر فيها.

لن يبلغ دومينجو المنحوس سن الشيخوخة. وذات يوم، بعد أن تنجب له زوجته خمسة أولاد، سيربط حبلا بغصن شجرة فى بادية تطل على جبل لافرى، وسيشنق به نفسه، لكن ليس لهذا السبب المعروف. وأثناء ذلك، سيتنقل ببيته على كاهله من مكان لآخر، يهرب من أسرته ثلاث مرات وفى المرة الأخيرة لا يستطيع أن يصالح أسرته لأن ساعة موته قد آنت. إنها نهاية تعيسة تنبأ بها حماه، لاوريانو كارّانكا، عندما تحتّم عليه التنازل أمام عناد ابنته سارة، العاشقة لدرجة أنها أقسمت إن لم تتزوّج المنحوس فلن تتزوج أبداً. صرخ الرجل فى ابنته فى شدة غضبه، إنه رجل منكوب، ميت من الجوع، صعلوك، مشهور بأنه سكير، والحجر الدوّار لابد من لَطّه. هكذا انفجرت المعركة الأسرية، و ظهرت سارة حبلى، فكان برهاناً نهائياً وقاطعاً أحدث شقاً بين أصحاب الإقناع وأصحاب الترجى. ذات صباح خرجت سارة من بيتها، فى أحد أيام مايو، اجتازت الحقول حتى بلغت مكان الميعاد مع دومينجو المنحوس. ظلا هناك

أقل من نصف ساعة، بين أعواد القمح الطويلة تضاجعا، وعندما عاد المنحوس إلى قوالب الأحذية وسارة إلى بيت أبيها، كان هو يصفّر مبتهجا بينما هى ترتجف كما لو كانت الشمس لا تصلها. وعندما اجتازت النهر بالعبّارة، مالت لتغتسل تحت شجرة صفصاف، حيث كان دم بكارتها ينهمر نهرًا بين ساقيها.

تكوّن جوان فى نفس اليوم، أو كما يقول الإنجيل، حبلت فيه، قد يبدو ذلك غريبًا من المضاجعة الأولى، فبسبب الارتباك الذى يصيبهما لا يصيب ماء الرجل. وإن كان حقا أنّ عينيه الزرقاوين، مع عدم وجود أحد فى العائلة له نفس العينين ولا يذكرون أنهم رأوا قريبًا من قريب أو بعيد له عينان مماثلتان، قد أثار فى نفوسهم الحزن، إن لم يكن الشك، إلا أننا نعرف أن هذا افتراء على المرأة التى لتتزوج باستقامة انحرفت عن طريق العذراوات المستقيم وضاجعت وسط حقل القمح رجلها الوحيد، فاتحة فخذيها بكل إرادتها، بالرغم من أن ذلك سبّب لها ألماً. أما الصبية الأخرى فلم تفتح فخذيها بنفس الإرادة، تلك الصبية التى منذ خمسمائة سنة كانت ذات يوم عند الينبوع تملأ إبريقها فرأت أحدهم يقترب، وكان من هؤلاء الأجانب القادمين مع لامبيرتو هوركيس الألمانى، صاحب قلعة بجبل لافرى بإمرة الملك دون جوان الأول، وهم أناس بلغة لا تُفهم، وبلا مبالاة لصرخات وتوسلات الصبية، حملها إلى أرض السرخس حيث

اغتصبها بكامل حريته. كان رجلا ممشوق القوام أبيض البشرة بعينين زرقاوين، لم يكن به عيب سوى حمية دمه، مع ذلك لم تستطع أن تعشقه وأنجبت وحدها عندما جاءها المخاض. وهكذا، بعد أربعة قرون، ظهرت تلك العيون الزرقاء التى جاءت من الجيرمانيين واختفت، مثل تلك المُذنّبات التى تتوه فى الطريق وتعود عندما لا ينتبه لها أحد، أو ببساطة لأن أحدًا لم يهتم بتسجيل خطواتها و كشف دورتها.

هاجرت الأسرة الآن فى هجرتها الأولى، جاءوا من جبل لافرى إلى سان كريستوبال فى يوم صيف انتهى بعاصفة. اجتازوا جميع القرى من الشمال للجنوب، يالها من فكرة لمعت فى ذهن دومينجو المنحوس، فكرة الهجرة تلك، كان يعمل رقّاع أحذية، كسولاً عاصياً، ولأنه مدمن للخمر وأشياء أخرى تعقدت حياته فى جبل لافرى. حماى، اقرضنى عربتك وحمارك لأنى سأعيش فى سان كريستوبال . اذهب إذاً، لعلك تستقر فى مكان، ولعل فى ذلك خير لك ولزوجك وابنك، لكن أعد لى سريعًا حمارى وعربتى، فأنا فى حاجة إليهما . اختصروا السفر من خلال السُبُل فى الجبال، مستغلين كلما استطاعوا الطريق الرئيسى، ليسيروا فيما بعد بأعماق الأرض، من خلال بوادٍ، بالقرب من التلال. تناولوا طعامهم فى ظل شجرة، وبين صدره وظهره أدخل دومينجو المنحوس زجاجة نبيذ ما لبثت أن نفدت مع حرارة طقس اليوم. رأوا مونتيمور من بعيد، على الجانب الأيسر، فساروا

ناحية الجنوب. أمطرت عليهم السماء قبل وصولهم لسان كريستوبال بساعة، وكان غزيرًا لدرجة تبشر بالشؤم، لكن اليوم أصبح الجو مشمسًا، وسارة جالسة فى الحظيرة، ترتق جلبابها بينما الابن مهزوزًا فوق قدميه، يجرّب المشى بطول الحائط. أما دومينجو المنحوس فقد توجه لجبل لافرى ليعيد لحميه حماره وعربته وليخبره أنهم يعيشون فى بيت جميل، وأنه لا ينقصه عمل فقد بدأ الزبائن بطرق بابه. سيعود فى اليوم التالى، سيرًا على قدميه، وليأذن الله ألا يثمل، فهو ليس رجلاً خسيساً، مع أن به نقيصة الشُرب، لكن، إذا شاء الله، سيستقيم، فهناك من هو أسوأ منه وصُلِح حاله. وحتمًا سيحدث ذلك إن كانت هناك عدالة فى الأرض، فمع ابن صغير وآخر فى الطريق، يجب على كل أب أن يحترم ذاته، فأنا افعل كل ما أستطيع لنحيا حياة هانئة .

وصل جوان إلى آخر الحائط، حيث يبدأ حاجز من جذوع النخل. أمسكه بيديه برسوخ، فذراعاه أشد صلابة من ساقيه، ونظر للخارج. أفقه ضيق، يرى فقط شريط الشارع الملطّخ بالوحل، ببِرك الماء التى تعكس السماء وقطًا أصفر يرقد على ظهره عند عتبة البيت المواجه. ديك يؤذّن فى مكان ما. يُسمَع صوت امرأة تصرخ ، يا ماريا ، وصوت شبه طفل يرد ، أمرك. بعدها يسود صمت الحر الخانق الذى بدأ يحلّ، وسريعًا ما تجف المستنقعات لتعود إلى تراب كما كانت. يترك جوان الحاجز، يكتفى مبدئيًا بمشاهدة

المنظر، يلّف بصعوبة نصف دائرة ويعود الطريق الطويل ناحية أمّه. تنتبه له سارة، تضع إبرة الخياطة فى حجرها، تمد ذراعيها نحو ابنها. تعال هنا، يا بنى، تعال هنا. الذراعان مثل سياجين حاميين. بينها وبين جوان عالم مشوش، متقلقل، لا بداية له ولا نهاية. ترسم الشمس فى الأرض ظلا مذبذبا، ساعة مرتعدة تتقدم. إنه عقرب ساعة فى الوسية.

لم تكن عينا لامبيرتو هوركيس الألمانى تبلغان رؤية الأفق المتسع أمامه، عندما كان يصعد ساحة السلاح بقلعته، لم تبلغ عيناه رؤية الأفق الرحب أمامه. كان سيد القرية وحدودها، تلك القرية التى تصل لعشرة فراسخ عرضًا وثلاثة طولا، فكان يفرض على من يشاء الضرائب ويعفى من يشاء، ومع أنه كان مفوّضًا بتعمير تلك الأرض، إلا إنه لم يصدر أمرًا باغتصاب الفتاة عند الينبوع ، لكن لو كان ذلك قد حدث، فذاك أفضل. هو نفسه، بالرغم من كونه متزوج امرأة شريفة وله منها أولاد، كان يحاول نثر نطفه حيث يروق له، ليشبع رغبات أحاسيسه الصعلوكة. يجب تعمير هذه الأرض ولا يمكن تركها هكذا، فالأماكن المعمورة فى تلك الوسية يمكن عدّها على أصابع اليد أما الأرض الوعرة فمثل شعر الرأس. يعلم سيادتكم أن أولئك النسوة غامضات، بذور ملعونة لسيدات العرب، وأن الرجال صامتون وأحيانًا منتقمون، فضلا عن أن الملك سيدنا لم يستدعنا للنكاح و التناسل مثل سليمان، وإنما لنحرث الأرض

ونسودها، وبالتالى يأتيها الناس ويستقرّون فيها. هذا ما أفعل وما سأفعل، كلما راق لى، فهذه الأرض أرضى ومن عليها، مع ذلك لا يجب أن يزيد عن الحد عدد الحوامل والوالدات، كما رأينا من قبل. معك حق، سيدى، لقد اكتسبت خبرة كبيرة من الأرض الباردة التى جئت منها والتى هى أكثر علمًا من هذا المنفى الغربى من العالم. بما أنكم متفقون معى، فلنتحدث الآن عن الضرائب التى تفرض فى أرض إقطاعيتى وقلعتى. كان ذلك حدثًا صغيرًا فى تاريخ الوسية الطويل.

هذا الإسكافى رقّاع أحذية، يركّب نعالاً وكعوبًا، ويُنهى عمله عندما يفقد الرغبة فيه، فيترك القوالب والسكاكين و المخارز ليذهب إلى الحانة، فيتشاجر مع زبائنه ضيقى الصدر، ولكل هذا يضرب زوجته. يضربها أيضًا لأنه يتحتم عليه تركيب/أنصاف نعال وترقيعات للأحذية، إنه رجل لا يعرف السلام مع ذاته، يسير كالممسوس، ليست له مؤخرة يعرف الجلوس عليها، وبمجرد أن يجلس ينهض واقفاً، وقبل أن يصل إلى قرية يفكّر فى النزوح لقرية أخرى. إنه ابن الريح، دومينجو الذى أصابه النحس، يترك الحانة ويدخل البيت كالذى يتخبطه الشيطان من المس، قليلاً ما يلقى نظرة على ابنه، ولأقل كلمة ينفض زوجته ضربًا، خذى أيتها الجائرة حتى تتعلّمى. ويعاود الخروج، إلى الخمر، لابسًا قبّعته وحاملا جعبته مثل رفاقه، ضف هذا الحساب فى دفترى يا صاحب الحانة ، فيجيب البارمان، بكل سرور، يا زبونى، بكل سرور، لكن انظر إلى دفترك، لقد امتلأ. لا يهم، أنا دائمًا أسدّد ديونى ولا أترك أحدًا يديننى و لو بريال. وعندما يحلّ الليل

تخرج سارة بحثاً عن زوجها، تاركة ابنها عند جارتها، مدارية دموعها فى منديلها وتحت الظلام، تجوب سان كريستوبال من حانة لحانة، نعم ليست حانات كثيرة لكنها متعددة، فلا تدخل أيًا منها، وتظل من بعيد تبحث بعينيها، وإن وجدت زوجها تسمّرت فى مكانها كالظل، كظل آخر، فى انتظار خروجه، ولم يحدث ذلك مرة أو مرتين. حدث أيضاً أن عثرت عليه فى الطريق، مخموراً تائها، يسير فى غير اتجاه البيت، وقد هجره أصدقاؤه، وحينئذ كانت الدنيا تتجمّل من جديد، لأن دومينجو المنحوس، الممتنّ لأنه تم العثور عليه فى صحراء مرعبة بين جيوش من الأشباح، يمرّر ذراعه بكتف امرأته ويترك نفسه لها فتحمله كما الطفل الذى أغلب الظن مازال يعيش بداخله.

وذات يوم، عندما زاد العمل ولم توفِ يداه بالغرض، استعان المنحوس بمساعد، وتمتّع هكذا بالراحة التى تكفى رغباته الضالة، لكنه، سريعاً، فى يوم سيئ الذكرى، أقنع نفسه أن زوجته المسكينة، سارة البريئة، تخونه فى غيابه مع مساعده، وكانت تلك نهاية حياته فى سان كريستوبال. فرّ المساعد بلا ذنب اقترفه هارباً من سن السكين، أما سارة، الحامل حملاً شرعيًا، فعانت الأمرين فى درب الألم، وعادا من جديد يُحمّلان العربة، و يتوجهان لطريق العودة لجبل لافرى. سير طويل. حماى، من حيث الصحة نحن بحالة جيدة، حفيدك وابنتك سعيدان، وفى الطريق حفيد جديد، لكننى وجدت أن الخير فى الذهاب

لقرية تورّى دا جادانيا، حيث يعيش أبى وسيمد لى يد العون. وهاهما يغتربان مرة أخرى ناحية الشمال، لكن عند الخروج من سان كريستوبال كان صاحب الحانة واقفاً له بالمرصاد. قف مكانك، أيها السيد المنحوس، فمازلت مديوناً لى بإيجار البيت والخمر الذى تجرّعته، وإن لم تدفع ما عليك سترى ما سأفعل أنا وابنّى هذان، بمعنى آخر إما أن تدفع وإما أن نمزقك إرباً .

كان السفر قصيرًا، والحمد لله أن كان قصيرًا، فبمجرد أن وضعت سارة قدمها فى البيت وضعت مولودها الجديد، الذى أسموه أنسيلمو، ولا أحد يعرف لمَ أسموه بهذا الاسم. ومن المهد كان هذا الصغير مدللا لأن جده لأبيه كان يمتهن النجارة وراق له أن يولد له حفيد عند باب بيته. كان أستاذًا فى العمل الريفى، بلا معلم ولا صبى، ولا زوجة أيضًا، يعيش بين ألواح خشبية وهراوات، وتفوح منه رائحة النشارة، ويستخدم مفردات خاصة بمهنته مثل شرائح خشب، فُرش، قدوم، ألواح صغيرة. كان رجلاً وقوراً، قليل الحديث، لا يغيب مع الخمر، لذا كان ينظر نظرة قبيحة لابنه الذى كان يسىء لسمعته. وظل على ما كان عليه من الانتظار، فلم يمهله الزمن وقتًا طويلاً ليمارس دوره كجد، بعد ما رأى من سوابق دومينجو المنحوس. وحمدًا لله أن عاش أياماً علّم فيها حفيده الكبير أن هذه المطرقة ذات أذنين، وأن هذه فرشاة وهذا إزميل، مع أن المنحوس كان لا يطيق كلامه ولا

صمته، وهيا بنا، لقد تأخرنا، فلنذهب إلى لانديرا، بالشرق الأقصى للبلدة، فأنا مثل عصفور ألقى بصدره فوق حديد قفص، فى مثل هذا القفص مسجونة روحى، وثلاثون شيطاناً يتقافزون أمامى. عربة أخرى، يجرّها الآن بغل، تم تأجيرهما بسعر زهيد، وهاهو الحما قد بدأ يشطط غضبًا من كثرة الترحال وغياب الأمان، لكن الأفضل أن يسكت ويحتمل. زوجى، إننا أصبحنا نشبه اليهودى المذنب، لا نعرف الهدوء و لا السكينة فى الدنيا، بالإضافة لكوننا ننزح بطفلين. اخرسى يا امرأة، أنا أعرف جيدًا ما أفعل، فأهل لانديرا أناس طيبون، وهناك عمل يعوّضنا، وأنا رجل صاحب حرفة، ليس علىّ أن أسير حاملا فوق كتفى فأسًا مثل أبيك وإخوتك، لقد تعلّمت حرفة أستطيع أن أعمل بها. لا أنكر ما تقول، يا زوجى، لا أنكر، فلقد كنت إسكافيًا عندما تزوجتك وهكذا أحببتك، لكننى أتمنى أن نعرف للطمأنينة طريقاً ذات يوم وننتهى من الترحال ببيتنا فوق كاهلنا. لم تتحدث سارة عن سوء المعاملة، ولم يكن من العدل أن تتحدث فى ذلك، فدومينجو المنحوس كان يسير صوب لانديرا كمن يتوجه إلى الجنّة حاملاً فوق كتفيه ابنه الأكبر، ماسكًا بكعبيه الرقيقين، المتسخين، نعم، كانا هكذا لكن ذلك لا يهم. قليلا ما كان يشعر بثقله لأن شد الخيط قوّى لديه العضلات وأوتارها. سار بالبغل خلفه، تقدّم، تقدّم، والشمس ترافقهم، حتى بحثت سارة عن مكان بالعربة. لكن عندما وصلوا

للبيت الجديد، رأوا أن الأمتعة قد لحقها أذى كبير. لو بقينا هكذا، يا دومينجو، سننتهى بلا أثاث .

وهناك فى لانديرا وجد جوان المُدلل من قبل آباء روحيين فى جبل لافرى، أباً روحياً جديداً وحسن الهيئة. كان هذا الأب هو القس أجاميديس، الذى كان يعيش مع امرأة يقول إنها ابنة أخته، والتى جعلها أيضًا أمًا مستعارة لجوان. كان الطفل إذاً يتمتع بالبركات، محمياً فى السماء ومُدافعًا عنه فى الأرض حتى ذلك الحين. وزادت تلك البركة عندما وافق دومينجو المنحوس، بتشجيع من الأب أجاميديس، على أن يقوم بعمل سادن، يساعد فى قيام القداس وفى الدفن، وبفضل هذا العمل صادقه القس واتخذ جوان ولداً. عندما آوى إلى كنف الكنيسة، لم يكن لدى دومينجو المنحوس أية نية سوى العثور على سبب محترم للأكل و الراحة لتسكن همومه المستمرة كرجل متسكّع. لكن الرب كافأه كلما رآه أمام المذبح يقوم بحماقة بخطوات الطقس التى تعلّمها، وحدث أن كان الأب أجاميديس أيضًا من هواة الخمر، فاجتمع خادم الكنيسة و القس فى هذا القربان الآخر. كان الأب أجاميديس يمتلك محلا تجاريًا ليس ببعيد عن الكنيسة، وكان يديره فى ساعات الفراغ من الواجبات الكهنوتية، وإن لم يكن، كانت ابنة أخته تنزل للعمل وتجلس خلف المنضدة لتدير تجارة العائلة الأرضية. كان دومينجو المنحوس يمر ويشرب كأسًا، ويمر مجددًا ويشرب كأسًا أخرى، بينما لم يبلغ القس شُرب كأسين معا. كان الرب يحيا مع الملائكة.

لكن لكل سماء إبليسها ولكل جنّة وسواسها. بدأ دومينجو المنحوس يلاحق بعينيه الجشعتين جمال الجارة القريبة، فلمّحت لخالها بنصف كلمة كانت كافية، فهى مهانة بوضعها ابنة أخته، وكانت كافية أيضًا لتخلق العيشة المضطربة بين خادمى الكنيسة الأم المقدسة، المُعيّن أحدهما طبقًا للقانون بينما الآخر مؤقت العمل. لم يتجرأ أجاميديس على استخدام الصراحة التى قد تسمح بإثارة أفكار أبناء الإبرشية السيئة، الذين يرتابون فى قرابتها منه، فلجأ للحديث عن وضع الجانى كرجل متزوج، ليبعد الخطر بذلك عن شرفه. وبعد أن حُرِم من الشرب السهل، وتعب من تشرده فى الأرض من أقصاها لأدناها، صرخ دومينجو المنحوس فى البيت معلنًا أنه سينتقم من القس. ولماذا سينتقم لم يقل، ولم تسأله سارة. لقد عاشت دائما متألمة وصامتة.

كان أبناء الأبرشية فى الكنيسة قلائل، ولم يكن كلهم معينين من قبل القانون. لم يكن ذلك شرًا يُرى، ولن يكون إلزامًا أن يتكاثر عددهم. لم يكن هذا هو العيب. إن النشاط البابوى بضعفه لم يستطع أن يحث على التقوى، ليس فقط لأن الأب أجاميديس يتخذ ابنة أخت ويتاجر فى الغث و الثمين، فالذين لا ينتمون إلى طبقة الشعب هم الذين يجهلون معنى الاحتياج، وإنما أيضًا لسوء معاملة كتاب القدّاس، وصرف المستجدين و العرسان والموتى بنفس الوحشية التى بها يقتل و يأكل خنزيرَه وبأقل اهتمام لآداب المعبد وروحه. إنه سوء الظن طبيعة الناس. من أجل

هذا عرف المنحوس كيف يستطيع أن يملأ الكنيسة بمجد. إن القداس القادم سيكون شيئًا رقيقًا، لقد نبّه الأب أجاميديس أنه فيما بعد سيعتنى جيدًا بالتعاليم المقدّسة، بالوقفات السامية، بذبذبات الصوت، مجنون من يفوّت القداس القادم، ولا يشتكى أحد بعد ذلك. اندهش الأب أجاميديس عندما رأى الكنيسة ممتلئة. فلم يكن يوم قديس القرية ولم يصل الجفاف لدرجة طلب التدخل الإلهى. لكنه التزم الصمت. فخير للراعى والمالك أن يأتى الغنم برجله إلى الحظيرة. ومع كل، وحتى لا يبدو ناكرًا للجميل، بالغ فى إجادته، وبدون أن يدرى، أكّد الإتقان الذى أدى به دومينجو المنحوس. لكن الإسكافى الذى تحوّل لسادن، وبجولة داخل رأسه، أعدّ الضربة القاضية. فى لحظة قَرْع القديسين، أعلى لحظات القداس سموًا، رفع الجرس بهدوء وهزه. كان كما لو يهز ريشة دجاجة. رأى المتدينون أنه كما لو فرض صممًا عامًا، وانحنى بعض آخر بسبب عادة الإيماءة، وظل بعض ثالث يتبادل النظر بينما استمر دومينجو المنحوس، فى صمت تام ودرامى، يقرع الجرس بوجه برىء. اندهش القس، وسرت همهمة بين المتدينين، وانفجر الصغار فى السن فى الضحك. ياللعار، القديسون ينظرون جميعهم، والرب يرى كل شىء. لم يحتو الأب أجاميديس غضبه، وقاطع القربان لضرورة قصوى، أخذ الجرس بيد وأدخل يده الأخرى فيه، وحرّك لسانه، لكنه لم يجد لسان الجرس. ولن ينزل سهم ليعاقب الكُفر. متشددًا فى غضبه الدينى، وجّه الأب أجاميديس صفعة

للمنحوس، داخل المكان المقدس، كيف يمكن أن يحدث ذلك. فبادله المنحوس سريعًا صفعة بصفعة متصنعًا مواصلة القداس. وعلى الفور اختلطت حلة قداس القس بقميص السادن وامتزجا كعاصفة دوّارة، مَنْ أعلى ومَنْ أسفل، وتمرغا على درجات المذبح مدنسين المقدسات، بضلوع مكدومة، تحت العين المستديرة لوعاء القربان المقدس. تدخل الناس فى محاولة لإبعاد القوتين المتشاجرتين، وهناك من استغل تشابك السيقان والأذرع ليقتل عطشًا قديمًا، من جانب والجانب الآخر. اجتمعت العجائز فى ركن ما يصلينّ لكل ملكوت السماء، وعندما تزودنّ بقوة بدنية وطاقة روحية، تقدمنّ للمذبح لينقذنّ قسيسهم، بالرغم من خسته. وكان هذا، بكلمات قليلة، انتصار العقيدة.

فى اليوم التالى، خرج المنحوس من القرية فى موكب صاخب بصحبة صبية صغار يزفونه، هو وعائلته، حتى وصلوا الخلاء. مطرقة، كانت سارة تشعر بالخزى. جوان يلاحظ كل شىء بنظرته الزرقاء الصارمة. الطفل الآخر يغرق فى النوم.

حينذاك تم إعلان الجمهورية (*) كان الرجال يربحون اثنى عشر أو ثلاثة عشر ريالاً، أما النساء فنصف ما يربح الرجال كما جرت العادة. كلاهما كان يأكل نفس الخبز الأسمر ونفس أوراق الكرنب وسيقان النبات. جاءت الجمهورية مبعوثة من لشبونة، وانتشر خبرها من قرية لقرية عبر التلغراف، إن وجد، ونُصح بها من خلال الصحافة، ومَنْ يستطيع قراءتها ومن فم لفم، وهى دائمًا أسهل الطرق. كان قد سقط العرش، والمذبح كان يكرِّر أن هذه المملكة لم تكن الآن عالمه، أما الوسية فقد فهمت سريعًا كل شيء وبقت هادئة،وكان سعر لتر الزيت يساوى عشر مرات يومية رجل.

تحيا الجمهورية، فلتحيا. يا رئيسى، كم اليومية الآن ؟ . أنظر، دعنى أفكّر، سأدفع ما يدفعه الآخرون،

(*) تم اغتيال كارلس وابنه الأمير سنة ١٩٠٨، وجاء ذلك بعد حالة التدهور التى مرت بها البرتغال سواء على المستوى الاقتصادى أو بالنسبة للمستعمرات التابعة لها، وتولى الحكم من بعده ابنه الملك مانويل الذى لم يستطع تحسين صورة الملكية ولا مقاومة الحركة الجمهورية، فتم الإطاحة به وإعلان أول جمهورية برتغالية فى الخامس من أكتوبر سنة ١٩١٠ (المترجم).

يجيب رئيس العمال. كم اليومية. ريال زيادة هذا لا يكفى احتياجاتى. إن لم يعجبك الأجر، اترك العمل، هناك آخرون ينتظرونه بكل سرور. آه يا إلهى، كم على الإنسان أن يموت جوعاً، والأولاد، أى طعام أعطيه لأولادى. فليعملوا. وإن لم يجدوا عملا . فلا تنجب كثيرًا امرأتى، أرسلى الأولاد لجمع الحطب والبنات لجنى الثمار المهملة، وهيا بنا إلى السرير . أنا أمة السيد، افعل بى ما تمليه عليك رغبتك، ها أنا جاهزة، بعلى، ها أنا حامل، متورّمة، منتفخة، وسأنجب ولداً، ستكون أباً، فأنا لى ذنوبى. ماذا سيحدث، فحيث لا يأكل سبعة لا يأكل ثمانية.

اجتمعت حينئذ مجموعة من العمال الأبرياء وتوجهوا لمدير الوسية ليطلبوا منه تحسين ظروف معيشتهم، حيث لا فروقات بين الوسية فى عهد الملكية و الوسية فى الجمهورية، فكل الأمور تشابهت. ولأن الأجر، لقلة الأشياء التى تُشترى به كان يساعد فقط فى يقظة الجوع، اجتمع هنالك مجموعة من العمال، الأبرياء، وتوجهوا لمدير الوسية وطلبوا منه تحسين ظروفهم المعيشية. كان أحدهم حسن الخط فكتب التماسهم، متغنيًا بالرموز البرتغالية الجديدة وبالآمال الشعبية بنات الجمهورية، "وفى انتظار ردكم، نتمنى لكم وافر الصحة ودوام الإخاء ". بعد أن انصرف مقدمو الالتماس، جلس لامبيرتو هوركيس فى كرسيه باتحاد الهانسيا، وتفكّر بعمق فيما قد يلائم مصلحة الوسايا، سواء الخاصة به أو العامة، وبعد أن تأمل

بعينيه الخرائط المحدد بها الوسايا، أشار بإصبعه على أكثر وسية ممتلئة بالعمال واستدعى رئيس الحرس. كان ذلك الرجل ينتمى للشرطة المدنية، وكان رجلاً حربياً بارزاً فى زيه الجديد، مع أنه ضعيف الذاكرة وبالتالى نسى الزمن الذى فيه استخدم الشريط الأزرق والأبيض فى كُمّه الأيسر. باجتهاده ومراقبته عرف لامبيرتو أن الفلاحين فى حالة هياج، يعترضون على السُخرة الإجبارية وبعض الخدمات الأخرى، يشتكون من حياة الكلاب التى يعيشونها بسبب الضرائب المفروضة والتبرعات المتعددة، وهو الأمر الذى بشكل قاطع عبّروا عنه تقريبًا فى التماسهم وبنبرة مهذبة، ربما ليداروا نوايا أخرى أشد سوءاً. انتشر التمرّد فى كل الوسايا كالنار فى الهشيم، وعلا عواء الذئب المحبوس والجائع الذى قد يلتهم من يقع تحت فكيه. يجب أن يأخذوا عظة، درساً. بعد أن انتهى الاجتماع، وتلقوا الأوامر، انصرف النقيب مسرور، ضاربًا كعب حذائه فى الأرض، واستدعى قواته فى عرض عسكرى. تشكّل الحرس الوطنى الجمهورى، بالسيف المحدّب على الكتف، فى وضع انتباه، بزينات لامعة، بشوارب وشعر ممشطين، وعندما وصل لامبيرتو لنافذة مجلس البلدية، ألقى الحرس التحية على صاحب السلطة الذى رد التحية بحركة من طرف أصابعه، فجمعت هذه الحركة ما بين الإيماءة المؤثرة و الانضباط. بعدها انصرف إلى حجرته وأمر أن يستدعوا زوجته، التى ارتاح بجوارها.

هاهو الحرس الجمهورى يصطف فى حقول الرب هذه. إلى العدو، إلى الركض، تسقط الشمس فوق دروعهم، تموج الخِرق فى رُكب الخيول، آه من الفروسية، من رولدان و أوليفيروس وفييرابراس، ملعونة تلك الأرض التى أنجبت هؤلاء الأبناء. على مرأى النظر نجد الوسية المختارة، والنقيب مسرور يأمر بنشر سرية الخيّالة فى صفوف على أهبة الاستعداد، وبصيحة بَوق تتقدّم القوات الغنائية والحربية، مشهرين سيوفهم المحدّبة، والوطن يطل على المنظر ليتأمل الواقعة، وعندما يخرج الفلاحون من بيوتهم، من عششهم، من إسطبلاتهم، بصدورهم يملؤها قوة التبن و الطين، يتلقون فى ضلوعهم ضربات السوط حتى يقبض فييرابراس، الهائج كثور قرصته ذبابة، على السيف ويبتر، يقطع، يشرّح، يخرق من يشاء، أعمى من الغضب، والسبب لا يعرفه. ظل الفلاحون ممددين فى هذه الأرض، يرتجف آلمهم، بعدها تم حملهم لأكواخهم حيث لم يعرفوا الراحة، لكن قبلها عالجوا جراحهم بأفضل الطرق الممكنة، بالماء الكثير و الملح والهلاهل. الموت أفضل، قال أحدهم، يأتى الموت حينما تأتى ساعته، رد آخر.

تعود سرية خيّالة الحرس، الابنة المدللة لهذه الجمهورية، ومازالت الخيول ترتجف والزبد يوزعه الهواء فى ندف ، وينتقلون الآن للمرحلة الثانية من خطة المعركة، وهى التوجه للشقوق والجبال للبحث والنداء على الأُجراء الذين يسيرون على تحريض

الآخرين على التمرد والإضراب، تاركين الأعمال الزراعية للهلاك و الغنم بلا رعاة، وهكذا سجنوا ثلاثة وثلاثين، بينهم المحرضون الرئيسيون، الذين انتهى بهم الأمر فى السجون العسكرية. هكذا سحبوهم، كقافلة من الحمير المخططة من ضرب الأسواط، من الركلات والسخرية من كل لون، يا أبناء العاهرات، انتبهوا حتى لا تصطدموا بقرونكم، فليحيا حرس الجمهورية، فلتحيا جمهورية الحرس. وسار الفلاحون مقيدين، كل منهم بحبل، وكلهم يقيدهم حبل واحد، مثل عبيد يجدّفون على سفينة شراعية، لعل ذلك يكون مفهوماً، إنها حكايات من زمن همجى، من زمن لامبيرتو هوركيس الألمانى، القرن الخامس عشر، ليس إلا.

ومن يأخذ زعماء التمرد لشبونة؟ تخرج السرية السابعة عشرة من المشاه فى صمت قطار الليل، بقيادة نقيب يسمى أيضًا مسرور، وثمانية عشر جنديًا، وثمانية وثلاثون جاسوسًا لمراقبة خمسة أُجراء متهمين بالتمرد والتحريض على الإضراب. سيتم تسليمهم للحكومة، أخبرنا بذلك مراسلنا المجتهد، هذه الحكومة رحمة، لها يد طويلة لتحقق هذا التسليم. ويهل شهر مايو من جديد، أيها السادة. هنا يعبر القطار، هنا يعبر، طالقًا صفارته، وهنا يسير الحمّالون الخمسة، صوب سجن ليمويرو. فى هذه الأزمنة البدائية تسير القطارات بطيئة، تتوقف فى البوادى بلا سبب معروف، ربما هو مكان للكمين

والموت المفاجئ. للعربة المغلقة التى ينقل فيها المجرمون ستائر مرتخية، إن وجدت ستائر فى زمن لامبيرتو هوركيس، إن كانوا يستخدمون هذه الفخامة فى عربات الدرجة الثالثة. تسير السرية السابعة عشرة للمشاه بالبنادق فوق حواملها، وربما بالحربة منصوبة فيها. من يمر من هنا عليه ألا يتوقف. يخرج إلى الحقل عشرة كلما توقف القطار، متوقعين حدوث هجمات ومحاولات لتحرير السجناء. غير مسموح بالنوم للجنود المساكين، وينظرون باضطراب لوجوه الأشقياء الخمسة الخشنة والمتسخة، تلك الوجوه التى تشبه وجهك. الله يعلم يا أخى، عندما تنتهى خدمتك كمجند، ربما يأتى جندى آخر يقبض عليك ويسوقك هكذا إلى لشبونة، فى قطار ليلى، فى ظلمة هذه الأرض. الآن نعرف من نحن وأين نكون، وغدًا من يدرى. إنهم يعطونك بندقية، لكنهم لم يأمروك أبدًا أن تصوّب ناحية الوسية، كل تعليماتك للتصويب وإطلاق النار تتوجه ضد من هم بجانبك، وصوب نفسك، والقلوب المخدوعة تنظر لماسورة سلاحك، أنت لا تفهم شيئًا مما تفعل وذات يوم سيعطونك أمرًا بإطلاق النار، وتقتل نفسك. اسكتوا نهائياً، لا تنبسوا بكلمة، أيها المتمردون، ففى لشبونة سيكلبشونكم، ولن تتخيلوا حتى السنوات التى ستقضونها فى الظل. نعم، إن لشبونة لمدينة كبيرة، لقد قالوا لنا إنها أكبر مدن العالم، وهناك تحيا الجمهورية، ومن المؤكد أنهم سيطلقون سراحنا، هناك قوانين .

ذهب المتمردون للشبونة، وجاء صوت صاحب الوسية بأجراء آخرين. الآن تقف مجموعتان من الأجراء وجهًا لوجه، يفصل بينهما عشر خطوات. يقول أبناء الشمال : هناك قوانين، لقد تعاقدوا معنا ونريد أن نعمل. فيرد أبناء الجنوب : أتحتملون أن يدفعوا لكم أقل مما كنا نتقاضى، أجئتم هنا لأذيتنا، هيا انصرفوا إلى أرضكم، أيها الأجراء المؤقتون. فيعلل أبناء الشمال : ليس هناك عمل فى أرضنا، ليس فيها سوى الحجارة والجَولق، نحن من بيرا، ولا تسمونا بالأجراء المؤقتين، فهذه إهانة. يصر أهل الجنوب على الإهانة : أنتم لستم عمالا مؤقتين، بل أنتم فئران، جئتم هنا لتقرضوا كسرة خبزنا الناشف. يقول أهل الشمال : نحن جوعى. ويرد أهل الجنوب : ونحن مثلكم، لكننا نرفض أن نخضع لهذا البؤس، وإن قبلتم أنتم أن تعملوا فى هذا المكان، سنبقى نحن بلا عمل. يقول أهل الشمال : الذنب ذنبكم، لا تكونوا متعجرفين، اقبلوا ما يقدمه لكم رب العمل، فهذا أفضل من لا شىء، وسيجد الجميع عملا، فأنتم هنا قلة وجئنا هنا لمساعدتكم. يرد أهل الجنوب : إنها خدعة، إنهم يريدون خدعتنا جميعًا، انضموا إلينا وسيضطر صاحب العمل أن يدفع لنا جميعًا أكثر مما كان يدفع. يقول أبناء الشمال : كل واحد منا يعرف عن نفسه والله يعرف عن الجميع، لا نريد تحالفات، جئنا من بعيد، ولا نستطيع الآن أن ندخل فى مشاكل مع رب العمل، نريد أن نعمل. يرد أهل الجنوب : إذاً، فلن

تعملوا هنا. يرد أهل الشمال : سنعمل بكل تأكيد. يلح أهل الجنوب : هذه الأرض أرضنا. يجيب أهل الشمال : لكنكم لا تريدون العمل بها. يتحجج أهل الجنوب : بهذا الأجر لن نعمل. يرد أهل الشمال : نحن نقبل بهذا الأجر. يقول رئيس العمل : كفى، لقد تحدثتم بما فيه الكفاية، ارجعوا للخلف واتركوا هؤلاء الرجال يعملون. يرد عليه أهل الجنوب : لن يحصدوا. يؤكد الرئيس : بل سيحصدون، لقد أمرت بذلك وانتهى الأمر، ولو تعرضتم لهم سأبلغ الحرس. يتحدى أهل الجنوب : قبل أن يصل الحرس سنسفك دماءهم. يقول الرئيس : وإن جاء الحرس ستُسفك دماؤكم أنتم، بعد ذلك لا تشتكوا. يقول أهل الجنوب : أيها الإخوة، اتحدوا معنا لنحقن الدماء. يرد أهل الشمال : لقد قلنا لكم، نريد أن نعمل.

حينئذ تقدم أول أبناء الشمال ناحية القمح بمنجله، فأمسك أول أبناء الجنوب بذراعه، فالتحما بحركة ثقيلة، بفظاظة، بخشونة، بعنف، جوع يصارع جوعاً، بؤس يقاتل بؤساً، يا رغيف الخبز، كم يكلفنا الحصول عليك ! جاء الحرس وانتهت المشاجرة، ضربوا جانبًا واحدًا فقط، دفعوا أبناء الجنوب بالسيف، أدخلوهم فى حظيرتهم كما المواشى. قال الشاويش، أتريد أن ألقى بهم جميعًا فى السجن. رد رئيس العمل، الأمر لا يستحق، إنهم مجموعة بؤساء، احتجزهم هناك فقط بعض الوقت حتى يهدأوا. يقول الشاويش، لكن أحد أجراء الشمال قد شُقت رأسه،

لقد وجد اعتداء، القانون هو القانون. يقول رئيس العمل، الأمر لا يستحق، أيها الشاويش، إنه دم حيوانات، سواء دم أبناء الشمال أو الجنوب، إنه مثل بولة صاحب العمل. يقول الشاويش، بمناسبة صاحب العمل، نحن فى حاجة لعدة حزم من الحطب. يرد رئيس العمل، سأرسل لك عربة محملة بالحطب. يقول الشاويش، وبعض القراميد. يرد رئيس العمل، لا تشغل بالك بهذا الأمر، فلن تنام فى برودة الليل. يقول الشاويش، الحياة غالية، يجيب صاحب العمل، سأرسل لك بعض السجق ".

يتقدم أجراء الشمال بين الحقول المزروعة، تتساقط السنابل البيضاء فوق الأرض السمراء، ياللجمال، تشيع رائحة جسد يعلم الله منذ متى لم يغتسل، ومن بعيد تمر وتقف كاريتا بحصان. يقول الرئيس، إنه صاحب الوسية . يقول الشاويش، بلّغه شكرى، وأننى دائمًا تحت أمره، يقول رئيس العمل، انتبه لهؤلاء الأوغاد، لا تغب بعينيك عنهم. يقول الشاويش، يمكنك أن تذهب مطمئنًا فأنا أعرف جيدًا كيف أعاملهم. يقول بعض أبناء الجنوب، سنحرق حقول القمح. يقول آخرون، سيكون ألما للنفس. يردد الجميع، ليس هناك ألم لهذه الأنفس.

هذه الأنفس لاتعرف الألم.

لقد طافوا بقرية لانديرا، سانتانا دو ماتو، تجولوا بداخل وخارج البلدة، ب تارّافيرو و افيتيرو، وخلال هذا الترحال جاءهم مولودهم الثالث، وكانت أنثى، أسموها ماريا، وابن رابع، أسموه دومينجو، مثل أبيه. فليهبهم الله حياة أفضل، لأن حياة أبيهم كانت مليئة بالمآسى، ما بين الخمر والعرق، مابين المطرقة والمسمار، كانت تسير من سيئ لأسوأ. أما عن الأثاث، فالأفضل ألا نتحدث، حيث مصيره يدور من العربة للبيت، من البيت للعربة، و يصطدم بعضه ببعض فى التلال ومسيلات المطر، من مكان لمكان، جاء إسكافى جديد، اسمه المنحوس ، سنرى كيف سيكون المايسترو الذى حسبما نرى يشرب الخمر طوال العام كشرب الماء فى أغسطس، رجل نشيط، أفضل مايسترو يمكن أن يكون لو أراد. أما سارة، التى تعيش الآن مع زوجها و أولادها فى كانيا، فقد أصابتها حمى الثِلث خلال عامين، يوم نعم ويوم لا، لمن لا يعرف. لهذا، عندما تكون أمه ملازمة للفراش، كان جوان المنحوس، ذو العينين الزرقاوين، اللتين لم تتكررا مع أحد من إخوته،

يذهب إلى الينبوع، وذات مرّة، عندما أدلى بدلوه، انزلقت قدمه، من يأتى لإنقاذ الطفل البرىء، وسقط فى الماء، الذى كان عميقًا مقارنة بجسمه الضئيل، ابن السبعة أعوام. عاد للبيت بين أحضان المرأة التى أنقذته، فضربه الأب ضرباً مبرحاً بينما الأم ترتجف فى سريرها من الحمى، حتى أن رأس السرير بكوره النحاسية كانت ترتج. لا تضرب الطفل، يا دومينجو. لكنها كانت تؤذن فى مالطا.

وجاء اليوم الذى فيه نادت سارة على زوجها ولم يجبها. كانت هذه هى المرة الأولى التى فيها يزدرى المنحوس أسرته وينأى بعيدًا عنها. حينها، طلبت سارة، التى التزمت الصمت طوال حياتها، من جارة متعلمة أن تكتب لها خطاباً، أخرجت فيه ما تجيش به نفسها، لم أختر زوجًا من أجل هذا البؤس، يا أبى، إن كنت تحب الله أطلب منك أن تأتى لتبحث عنا بعربتك وحمارك لتأخذنا معك نعيش بجانبك، فى أرضنا، وأن تغفر لى المشقة التى حملتك إياها و الضيق الذى سببته لك، مع ندمى على عدم طاعتك عندما لم أستمع لنصائحك التى أسديتها لى كثيرًا وبلا كلل لكيلا أتمم هذه الزيجة التعيسة، من هذا الرجل الذى لم أتجرع منه سوى المرارة تلو المرارة، وعانيت معه الأمرين، فقر مدقع وكسرة نفس وضرب مبرح، نعم لقد حذرتنى، لكننى سرت بلا حيطة. وكانت العبارة الأخيرة من الينبوع الأدبى لجارتها، موفقة ما هو كلاسيكى مع ماهو حديث بنتيجة تستحق التصفيق.

ماذا سيفعل الأب الجدير بالأبوة فى موقف كهذا حتى ولو لم ينس الفضائح التى وقعت ؟ ماذا فعل لاوريانو كارانكا ؟ أرسل ابنه، وهو رجل عنيد متجهم الوجه، لكن ليس ليلحق ضررًا بأحد، وإنما فقط ليبحث عن أخته وأولادها حيث يكونون. لم يفعل ذلك لأنه يجبهم، فهم أبناء الإسكافى الثمل، لم يكِن حبًا لهم، فهؤلاء الأشبال من هذا الأسد، خاصة عندما يكون لديه أولاده هم المفضلون بالنسبة له. عاد المهجورون الحزناء من قبل الأب والزوج لجبل لافرى، وعاد من جديد الأثاث المنزلى المتهالك، الذى خرّبته الدنيا، وبقى بعضه كنوع من الشفقة المضادة فى بيت الآباء والأجداد، والبعض الآخر تكوّم فى ظلة قبل امتلاكهم بيتًا خاصًا. وعندما اضطروا لإيجاد بيت يأويهم، فرشوا الحُصر فى الأرض وصنعوا منها غرفة نوم، وليتحصلوا على طعامهم، ذهب الأطفال الكبار ليطلبوا صدقة، قائلين حاجة لله، أما الخزى فهو السرقة. كانت سارة تعمل كما يقول الكتاب، فالحياة لن تكون إنجاب أطفال للعالم، وكان أبواها يحملان معها بعض الهم، وكانت أمها أكثر كرماً، فمن أجل هذا خُلقت الأم. وهكذا مرّت الحياة. لكن لم يمر سوى عدة أسابيع حتى ظهر دومينجو المنحوس يدور بجبل لافرى، مراقباً من بعيد زوجته و أبناءه، بعدها قطع عليهم الطريق، مقدماً ندمه وتوبته، كما قال، وهى الكلمات التى تعلمها ربما عندما كان خادم كنيسة. اشتاط لاوريانو كارانكا من الغضب، لا يريد أن يرى

ابنته مرة أخرى إن عادت لتعيش مع هذا الرجل المتشرد، ولتضع ذلك الأمر نصب عينيها. جاء المنحوس يتحدث بحيطة شديدة، حالفاً اليمين إنه قد انصلح حاله من أخطائه وذنوبه، وإنه كان ينقصه هذا الغياب ليفهم كم يحب امرأته وأولاده الأعزاء. حماى العزيز، أقسم لك بهؤلاء، واركع بين يديك إن استلزم الأمر. هدأ حينئذ غضب الجميع، ورقتْ قلوبهم أمام الدموع المنهمرة، وخرجت العائلة لقرية قريبة، تسمى كورتيكاداس، تطل تقريبًا على بيت الأب. ولأن المنحوس لا يتمتع بما يسمح له بالعمل لحسابه كما كان يحب، اضطر للعمل فى ورشة المايسترو جراميتشو، كذلك كانت سارة تعمل خادمة، لتعين زوجها وتحمى أطفالها. والقَدَر ؟ بدأ المنحوس فى السقوط فى هاوية الأحزان، كحيوان معزول، وهذه هى أشد الأحزان، كما نرى فى قصة الجميلة والوحش، وسريعاً ما قال لزوجته، علينا أن نرحل من هنا، فأنا لا أشعر بالراحة فى هذه الأرض، ابقى انت عدة أيام بينما أبحث أنا عن عمل فى أرض أخرى. لم تجد سارة مخرجاً أمامها، وخاب ظنها فى عودة زوجها، انتظرت شهرين وها هى تجد نفسها من جديد أرملة و مهجورة، فيظهر المنحوس، مسروراً غاية فى السرور، وبكلمات ملاطفة يقول، سارة، لقد وجدت عملا وبيتًا جميلاً، هيا بنا إلى ثيبورّو. فنزحا إلى ثيبورّو، ولم تكن رحلة تعيسة، فالناس هناك مسالمون ويدفعون فورى. سار العمل على ما يرام، وكان يبدو أن

الإسكافى قد أقلع عن عادة ارتياد الحانات، على الأقل جزئياً، ولم يطلب منه أحد تسديد دين، وربح ما يكفيه كرجل محترم. جاءت فترة الرخاء هذه فى الوقت المناسب حيث افتتحوا آنذاك مدرسة ابتدائية هناك، وذهب جوان المنحوس، الذى بلغ السن الرسمية، لهذه المدرسة ليتعلم القراءة و الكتابة والحساب.

والقدر ؟ ركضت الذئاب التى فقدت صوابها فى مفترق الطرق، أصابتها اللعنة التى لا أعرف ما سرّها، أيها السادة، ربما سحر أسود، حيث هجرت الذئاب بيوتها ذات يوم وفى أول مفترق طرق خلعت ملابسها وارتمت على الأرض، وتشقلبت، وتغيّر شكلها للأشكال التى وجدت هناك. كل الأشكال أم شكل حيوان ثديى ؟ كل الأشكال، سيدى، حتى أن رجلاً قد تحول لعجلة عربة، وسار هناك يدور ويدور، إنه ألم مبرح، لكن الطبيعى أن يتحول لحيوان، كما حدث مع حالة حقيقية ومعروفة لرجل لا أذكر اسمه، كان يعيش مع زوجته فى المونتى دو كورال دا ليجوا، بالقرب من بيدرا جراندى، وكانت فتنته الخروج ليلة كل ثلاثاء، لكن هذا الرجل كان يعرف مرضه لهذا نبه زوجته ألا تفتح له الباب إن هو عاد، أيًا كان ما يتطرق لسمعها، فتطرقت صرخات و همهمات تقشعر لها الأبدان وتجمّد الدم فى جسد المؤمن، لم يكن أحد نائمًا، لكن عندما تحرّكت الوساوس فى صدر الزوجة، و هن كثيرات الفضول، يردن أن يتحققن من كل شىء،

قرّرت فتح الباب. ماذا رأت هناك ؟ يا إلهى، رأت أمام عينيها خنزيرًا ضخمًا، فحلا، برأس هائل هكذا، بهذا الحجم، انقض عليها كأسد ليلتهمها، الحمد لله إن استطاعت أن تُغلق الباب، مع أنها لم تكن بالسرعة الكافية التى سمحت للخنزير أن ينتزع جزءًا من فستانها ببوزه، ولكم أن تتخيلوا الرعب الذى شعرت به المرأة المسكينة عندما عاد زوجها للبيت، عند الفجر، بهذا الجزء من الفستان فى فمه، الحمد لله أن شرحتُ لك كل شىء، قال لها إنه يتحول عند خروجه لحيوان، وهذه المرة تحول لخنزير، وكان بإمكانى أن ألحق بك أذى أكبر، وألا تفتحى لى الباب مرة أخرى . فهو لا يستطيع أن يرد بنفسه. إنه لشأن عظيم. ذهبت المرأة لتروى الأمر لحمويها، اللذين أصابهما الضيق لأن ابنهما قد تحول لرجل ذئب، وهو مرض لم يصب أحدًا فى العائلة، حينئذ سعوا أن تقوم سيدة فاضلة بالدعاء له وإلقاء التمائم الخاصة بهذه الأحوال وقالت لهم إن أحرقوا له قبعته عندما يصير ذئبًا، يالها من وسيلة مقدسة، فحرقوا له قبعته ولم يمسه من يومها سوء. ربما لأنه كان مريضاً فى رأسه تم علاجه عندما حرقوا له قبعته. لا أعرف، و المرأة لم تقل شيئًا حول الأمر، لكن سأحكى لكم حالة أخرى، فهنا بالقرب من ثيبورّو كان يعيش منذ زمن رجل وزوجته فى بيتهما، وعادة ما تحدث الغرائب مع الأزواج، لسبب ما، وكانا يربيان دجاجاً وطيوراً أخرى، وليلا، كل ليلة، كان الزوج ينهض ويخرج لحوش البيت ويقول قاق،

تخيّل ! وعندما كانت المرأة تراقبه من الباب الصغير كانت تراه يتحول لدجاجة كبيرة. بحجم الخنزير ؟ آه، أنت لا تصدق، إذاً، اسمع بقية الحكاية، كان لهما ابنة، ولأن الابنة كانت على وشك الزواج، ذبحوا دجاجا كثيرا من أجل الزفاف، كان هذا الدجاج كل ثروتهما، لكن فى هذه الليلة لم تشعر الزوجة بقيام زوجها ولم تسمعه يقاقى، ولا كانت تتخيّل ما يمكن أن يحدث، أخذ سكينًا وتوجه الرجل ناحية المكان الذى ذبحوا فيه الدجاج، جلس بجانب طست وغرز السكين فى رقبته، وسقط فى نفس المكان، وعندما لاحظت الزوجة خلو السرير وذهبت لتبحث عن زوجها، وجدته قد فارق الحياة ودمه ينزف فائرًا. إنه القدر، هذا رأيى.

عاد دومينجو المنحوس لنقائصه الأولى، الخمر، اللكمات، سوء المعاملة باليد و اللسان. آه يا أمى، يبدو أنه أب ملعون . لا تقل هذا يا ولد، إنه أبوك. إنها كلمات تُقال عادة فى هذه المواقف والمواقف المشابهة، لا يجب أن تؤخذ مأخذ الجد لاهى ولا الكلمات الأخرى، سواء التى تدين أو التى تريد أن تحل المشكلة. لكن البؤس قد خط بتعرجاته وجه هؤلاء البشر، والأطفال الذين أدركوا عظم المحنة يتجولون الآن ويطلبون صدقة. الناس الطيبون وذوو الضمائر الحية مازالوا موجودين، مثل أصحاب البيت الذى يسكنه آل المنحوس، فيتصدّقون عليهم بالطعام الكثير، لكن الطفولة قاسية، وعندما يخبز أصحاب البيت

يحتفظون لجوان برغيف، لكن أبناءهم، الذين يذهبون أيضًا للمدرسة وكانوا جميعهم أصدقاء، كانوا يسخرون من جوان المنحوس، كانوا يربطونه بحبل فى غرفة الطعام ويضعون الأكل أمامه، إن لم يأكل لا يفكونه. ومازالوا يتحدثون عن وجود إله!

حينئذ حدث ما كان يجب أن يحدث. وصل دومينجو المنحوس لقمة بؤسه ومحنته. وذات ظهيرة، عندما كان جالسًا فوق مقعد يصقل كعب حذاء، نهض فجأة وترك كل شىء، خلع مريلته، دخل بيته، أعد ملابسه للرحيل، وأخرج من المشنّة نصف خبزة، وضعها فى جعبة السفر، ورحل. كانت الزوجة فى عملها، بالطفلين الصغيرين، وجوان فى المدرسة والابن الآخر فى جمع الثمار. وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى ترك فيها دومينجو المنحوس البيت. سيعود بعد ذلك ليقول بعض الكلمات و يسمع بعضًا آخر، لكن قصته قد انتهت. وخلال عامين سيسير هائمًا على وجهه.

تخلق الطبيعة كائناتها المختلفة بوحشية مثيرة للإعجاب. بين موتى ومشوهين تخلقهم، وبالتالى تعتبر طريقتها مزدوجة وملتبسة فى تشكيل الإنجاب وتطوره، بهامش مريح من عدم الدقة الذى يؤدى لتغيرات ما يقال وما يفعل وما يكون، لكن هناك من يهرب ليضمن نتائج الإدارة. الطبيعة لا تحدد المناطق المحظورة، لكنها تستفيد منها. وبعد الحصاد إن لم يجد آلاف النمل مطمورة مساوية، تأتى المكاسب والخسائر على حساب الكوكب ولا تبقى نملة بدون حصتها المعروفة من التغذية. الإحصاء النهائى لا يهمه كثيرًا إن مات أربعة ملايين بسبب الفيضان، أو بسبب ضربة فأس أو حتى بتنافس قطرات البول، من عاش منها أكل، ومن مات ترك طعامه للآخرين. الطبيعة لا تحصى الموتى، وإنما تعد الأحياء، وعندما يزيد عدد هؤلاء، تبتكر طريقة جديدة لإماتتهم. كل شىء غاية فى اليسر، غاية فى الوضوح والعدل، لأنه، بذاكرة نملة أو ذاكرة فيل، لم يعترض أحد فى مملكة الحيوانات الكبيرة.

ولحسن الحظ، الإنسان هو ملكها. يستطيع أن ينهى حساباته بالورقة و القلم، أو بطرق أخرى أكثر ذكاء، يعبر عنها بالهمسات، بأنصاف كلمات مفهومة جيداً، بغمزات العين وحركات الرأس. فى هذا التمثيل الصامت والمحاكاة تجتمع، فى خشونة شديدة، رقصات وأغنيات الصراع، الإغراء أو الخديعة التى تستخدمها بعض الحيوانات للحصول على غاياتها. قد يفهم هكذا بشكل أفضل لعبة الأثقال و المقاييس التى يمارسها فى حياته اليومية لاوريانو كارّانكا، الرجل الصارم وصاحب المبادئ، أنظر لتعصبه، لرفضه غير القابل للمرونة لعرس ابنته سارة، واليوم يحتضن فى بيته ورغم أنفه وكصدقة حفيده جوان المنحوس، وحفيدًا آخر يسمى جوزيه نابيزا، حفيده المُفضل بطريقة أخرى. سنقول سبب التفرقة، مع أن ذلك لا يهم كثيرًا للفهم الجيد للقصة، فقط لنعرف أنفسنا بشكل كاف، فتلك تعاليم الإنجيل. جوزيه نابيزا هو ابن إحدى أخوات سارة من أب مخادع، ويستمتع بحالته هذه، مع أن بنوته لأبيه كانت شديدة الوضوح ويستطيع أى أحد أن يشير إليه بإصبعه. فى هذه الحالات ليس غريبًا أن يحدث تواطؤ عام، يثبته البرهان الذى يعرفه الجميع، والفضول الذى يراقب سلوكيات المشكوك فيهم، وهو الشىء الذى لا يجب انتقاده نهائيًا، فالتسالى قليلة. ينجبون هؤلاء الأطفال لوجه الله ثم يهجرونهم، للأطفال أحيانًا أب وأم، ومع ذلك ينتهون فى ملجأ لقطاء، أو على الأرصفة، فتأكلهم الذئاب أو

إخوان الرحمة. لكن جوزيه نابيزا المحظوظ، بالرغم من عار مولده، وهبه القدر أبًا واسع الرزق وأجدادًا بخلاء سيرثهم فى المستقبل، احتمال بعيد، على أى حال هناك ادخار ما، كافٍ ليكون وعدًا بثروة لبيت آل كارانكا. أما جوان المنحوس، فكانوا يعاملونه كما لو كان لا يستحق لا شربة الماء و لا الملح، فابن الإسكافى المتشرّد حاليًا يعد شيئًا لا تراه العائلة. بينما الآخر، مع أنه ابن سفاح لم يُصلّح بالزواج، كان جده يحمله على كفوف الراحة، ويعمى ويُصم أمام الأصوات والبراهين التى تلوث شرفه، على أمل الوصول لمنفعة لم تتحقق فى نهاية الأمر. فلتعرف هكذا أنه لا يوجد عدل إلهى.

واصل جوان المنحوس فى الدراسة عامًا آخر، بعده انتهت قصة التعليم بالنسبة له. نظر الجد كارّانكا لهذا الجسد الصغير كالدمية، وارتاب للمرة الألف فى هاتين العينين الزرقاوين اللتين تنظران للأرض بخوف، وأمره، اذهب مع خالك للفلاحة، وسنرى كيف تعمل، لا تعتاد الأخذ فقط. كانت كلمة فِلاحة تعنى حرث الأرض وإزالة الأغصان و الأوراق الجافة، وهى أعمال تحتاج لقوة وحشية ليست بالضرورة متوافرة لدى طفل، والفائدة الوحيدة من ذلك تكمن فى أنه سيعرف المكان الذى سينتهى إليه مصيره عندما يكبر. وحشيًا كان جواكيم كارّانكا، الذى كان يتركه ليلا فى الحقول، غفيرًا من كوخه، أو عند حوض الزرع، بينما لا يتلاءم هذا العمل مع نحافته

الشديدة. وأكثر من ذلك، ليلا، بنفس شريرة صرف، كان يذهب ليرى إن كان ابن أخته نائمًا، حينها يلقى فوقه زكيبة قمح، فيُفزع المسكين باكياً، وكما لو أن ذلك غير كاف، كان يغرز فى بدنه عكازًا له رأس معدنية مثل الحربة، وكلما زاد بكاء الطفل وصراخه، كلما زادت ضحكاته هو، عديم الضمير. إنها وقائع حقيقية، تلك الوقائع، لهذا من الصعب أن يصدقها من يتخذها خيالا. أثناء ذلك، أنجبت سارة بنتًا أخرى ماتت فى يومها الثامن.

ذاع فى جبل لافرى خبر نشوب حرب فى أوروبا، وهى مكان قليلون من يعرفون أخباره وأضواءه. هنا أيضاً تنشب حروب، وليست تافهة، فطول اليوم يعملون، إن وجد عمل، وطوال اليوم يتضورون جوعا، مع وجود عمل وعدمه. لكن الأموات ليسوا كثرة، وعادة ما يدخلون قبورهم بكامل جسدهم. مع ذلك، كان هناك موت يأتى فى ساعته، كما قلنا من قبل.

عندما وصل لمسامع سارة أن زوجها يتجول بكورتيكاداس، اجتمعت بأبنائها الذين يعيشون معها، وبريب فى حماية أبيها كارّانكا، أخذت جوان من الطريق وأخبأته فى بيت بعض أقارب لها يدعون آل بيكانزو، وهم طحانون فى مكان على بعد نصف فرسخ من قرية تسمى جسر كافا. لم يتبق من هذا الجسر سوى عقد منكسر وأحجار كبيرة فى قاع النهر، وكان هناك خزان يستحم فيه عرايا جوان المنحوس والأطفال من سنه، وعندما كان الصبى يمثل أنه ميت

بوجهه للسماء الزرقاء، كان كل شىء فى عينيه سماء وماء. هنا اختبأت الأسرة، خائفة من التهديدات التى تصل إلى كورتيكاداس عبر أفواه المشاءين بالنميمة المعروفين. ربما لم يكن ليعود دومينجو المنحوس لجبل لافرى إن لم يكن الرسول، عند عودته، قد أخبره بهروب أسرته المذعورة. ذات يوم حمل جعبته على كتفه، عبر سبل الجبال و الوديان الصغيرة، لا يرى سوى هدفه، وظهر أمام المطحن طالباً الرضا والحصول على زوجته و ذريته. خرج جوزيه بيكانزو على الطريق، بينما كانت المرأة تخفى اللاجئين فى آخر البيت. يقول دومينجو المنحوس، صباح الخير، يا بيكانزو، فيرد جوزيه بيكانزو ، صباح الخير يامنحوس، ماذا تريد ؟ جئت أبحث عن أهلى الذين هربوا منى، وأخبرنى شخص ما أنهم يختبئون فى بيتك لم يخدعك من قال لك ذلك، فهم فى بيتى. إذاً، قُل لهم هيا بنا، فكفانا ذهابًا وإيابًا. انظر يا منحوس، ربما تستطيع أن تخدع بعض الناس، لكنك لا تستطيع خداعى، فأنا أعرفك. إنهم أسرتى، وليسوا أسرتك. إنهم فى يد أمينة، ولن يخرج منهم أحد من هنا، فهم لا يريدون صحبتك. أنا الأب والزوج لا ترو لى حكايات، فأنا شاهدت بعينى عندما كنا جيرانًا كيف كنت تعامل زوجتك، التى كانت تعمل بشرف، وكيف كنت تعامل أولادك، المساكين، ورأيت البؤس الذى عاشوا فيه، ولولا أننا، أنا وأناس آخرون، قاتلنا جوعهم لما كنت أنت الآن هنا، لأنهم كانوا سيصيرون فى تعداد الاموات جميعهم . أنا الأب والزوج . أنظر،

سأكرر لك ما قلته، اذهب إلى حيث لا يسمعون صوتك، ولا يرون سحنتك، ولا يخاطبونك، لأن الرب لن يغفر لك.

أصبح الجو معتدلاً والصباح مشمسًا بعد أن أمطرت، فنحن فى الخريف. يحدّد دومينجو المنحوس بعكازه خطأً فى الأرض أمامه، يعنى على ما يبدو علامة تحدى، بداية مشاجرة، يفهمها جيدًا بيكانزو، لهذا يستعد، يمد يده ليسحب نبوته. هذه الآلام ليست آلامهم، لكن كم مرة يعجز الإنسان عن الاختيار حيث يجد نفسه فى حلبة ما. وراء ظهره، خلف الباب، يقبع أربعة أطفال مرتعشين وامرأة إن استطاعت، ستدافع عنهم بجسدها، لكن القوة غير متساوية، لهذا يخط بيكانزو أيضًا خطًا فى الأرض. مع ذلك، لم يستحق الأمر كل هذا. لا ينبس دومينجو المنحوس بكلمة، لا يصدر منه إيماءة أخرى، ومازال يتردد على سمعه صدى ماقالوه له، ولكى يدركه جيدًا لا يمكن أن يبقى هنا. يعطيه ظهره، يرجع على عقبيه، يسير بمحاذاة النهر الهابط ويترك جانبا جبل لافرى. هناك من يراه ويقف، لكنه لا ينظر. ربما يهمهم، أرض ملعونة. يقول ذلك من حزنه الهائل، فقد لا يجد سبباً واحداً خاصًا به، أو كلها أسبابه، وحينئذ لن تهرب و لا أرض واحدة من المحاكمة، فكلها ملعونة، مدانة ودائنة، ألم الميلاد. يهبط من منحدر، يصل لمعبر النهر، يعبره فوق ثلاثة أحجار بخطوة واحدة، ويصعد للجانب الآخر. يوجد هناك تل محاذ لجبل لافرى، لكل امرئ شجرة زيتون

وأسباب لوجوده هناك. يرقد دومينجو المنحوس تحت ظلة زيتونة ممتدة وينظر للسماء بدون أن يدرك إلى ما ينظر. إنه لا يفكر، إلا إذا كان التفكير هو هذا المنظر الطبيعى الملىء بالصور البطيئة، للوراء وللأمام، وكلمة منطوقة، لا يمكن فك شفرتها، تلك الكلمة التى تدور من حين لآخر مثل حجر يسقط بلا سبب من أعلى منحدر لأسفله. يسند على كوعيه، يقع أمامه جبل لافرى مثل صورة المسيح فى المذود وحوله أهله، وفى أعلى نقطة، فوق برج، يوجدُ رجل كبير جداً يضرب نعل حذاء، يرفع المطرقة وينزلها بضجة. يرى تلك الأشياء وهو ليس ثملا. فقط ينام ويحلم. الآن يرى عربة محملة بأثاث وسارة جالسة، تقع أو لا تقع، وهو يمضى يسحبها، حمل ثقيل، أيها الأب أجاميديس، ويحمل فى عنقه جُلجُل بلا لسان جرس، يهزه بشدة كى يدق، يجب أن يدق، إنه جرس من الفلين، ياله من قداس ملعون. وقريبه بيكانزو يدنو، يشد منه الجلجل ويضع مكانه حجر الرحى، هذا الرجل لن يغفر له الرب.

قد يكون قضى الظهيرة كاملة فى هذا الحلم، لكن لم يكن ذلك سوى دقائق معدودة. فالشمس بالكاد تحرّكت من مكانها. لا يوجد أى اختلاف فى الظلال، فجبل لافرى لم يكبر و لم يصغر. نهض دومينجو المنحوس، يمرر يده اليمنى فوق لحيته النابتة فتلتصق بإصبعه قشة. يجعلها تدور بين شحمة أذنه، يكسرها ويرميها. أدخل يده بعد ذلك فى جعبته، أخرج حبلاً،

دخل بين أشجار الزيتون، مختبئًا من عيون جبل لافرى. سار، نظر، كان يبدو مثل صاحب وسية يقيم الحصاد، حسب الأطوال والمقاومة، وحدد فى النهاية المكان الذى سيموت فيه. لف الحبل حول الغصن، ربطه بكل شدة، جلس فوقه، عقد العقدة، رمى نفسه. لم يمت أحد أبدًا بهذه السرعة مشنوقاً.

الآن صار جوان المنحوس رب البيت، الكبير، الحاكم بلا إمارة، المالك للا شيء، وظله في الأرض مازال صغيرًا. يجر القبقاب الذى أمرته أمه بصنعه، لكنه قبقاب كبير وثقيل، يهرب من قدميه، لذا اخترع له دوبارة بدائية تمر من تحت النعل وتشبك بثنيات البنطلون. إنها صورة مضحكة، صبى يحمل على كتفه فأساً كبيراً، أكبر منه. ينهض عند الفجر من سريره على ضوء القنديل الزيتى والبارد، يرى كل شىء ضبابًا، ومازال غارقاً فى النوم يتحرك حركات حمقاء، ربما يخرج من مرتبته التبنية بقبقابه فى قدميه، وفوق كتفه فأسه، تلك الآلة البدائية ذات الحركة الواحدة، يرفعه ويتركه يسقط من تلقاء نفسه، فمن أين له من قوة ؟ تقول له سارة، ابنى، عطفًا علىّ منحونى عملا لك، حتى تربح شيئًا، فالحياة شديدة الغلاء وليس لدينا من يعولنا. ويسأل جوان المنحوس، العارف بالحياة، أأحرث الأرض يا أمى ؟ إن استطاعت سارة ستقول له، لا تذهب يا بنى، فأنت ابن العاشرة، وهذا ليس عملاً لطفل. لكن ماذا سيفعل فى

هذه الوسية التى تتلاشى فيها سبل العيش وحرفة أبيه المتوفى مشئومة. فى ظلمة الليل التى مازالت ممتدة، ينهض جوان المنحوس، وليصل لوسية بيدرا جراندى، لحسن حظه، يعبر بجسر كافا، هذا المكان سعيد بالرغم من كل شىء، كما برهنت على ذلك الحادثة السابقة، عندما تم إنقاذ المسكين من غضب دومينجو المنحوس، مكان سعيد مرتان لأنه، حتى وإن انتحر بطريقة مزرية، ورغم ذنوبه الكثيرة، لابد أن الإسكافى جالس الآن على يمين الإله الأب، وإلا فلا توجد رحمة. فدومينجو رجل مسكين، منكوب، لا يمكن أن تدينه أبدًا النفوس الطيبة. سيعبر الإبن إذاً بين الظلال التى لم تبددها الشمس البعيدة بعد. تقطع عليه الطريق زوجة بيكانزو وتقول له، جوان، أين تذهب ؟ يجيبها الابن ذو العينين الزرقاوين، إلى بيدرا جراندى لأستئصل الأعشاب الصغيرة، فتجيبه السيدة، يالك من مسكين، أنت لا تقدر على هذا العمل ولا حتى بفأسك الكبير، بالإضافة إلى أن رقعة الأعشاب متسعة جدًا. من الواضح أنها محادثة فقراء، بين امرأة ناضجة ورجل لم ينضج بعد، يتحدثان عن أشياء قليلة الأهمية ولا شأن روحى لها لأننا نرى بوضوح أنهم خشنون، بلا علم ينيرهم، ولو كان لديهم بعض النور، سينطفئ مع مرور الوقت . يعرف جوان المنحوس الإجابة التى سيقولها، لم يملها عليه أحد، فأية إجابة أخرى ستكون بلا شك خارج الزمان والمكان، فلتكن مشيئة الرب، يجب أن أساعد أمى

المسكينة، فحياتنا كما تعرفين، وأخى انسيلمو يشحذ مستجديًا صدقة لوجه الله ليشترى لى شيئًا ويأتى حيث أعمل، فأمى لا مال لها لشراء الزاد. تقول زوجة بيكانزو، يا ابن الرب، لا تقل لى إنك ستعمل بلا جوالق. يرد الصبى الذى نساه الرب، نعم سيدتى، أسير بلا شىء.

قد تكون الفرصة مواتية ليصرخ الكورال اليونانى بذعره ليخلق جواً دراميًا ملائمًا للسمات الكبرى الكريمة. أفضل صدقة هى صدقة الفقير للفقير، حيث تكون على الأقل من ند لند. كان بيكانزو يعمل فى الساقية ونادته زوجته، اسمع زوجى، تعال هنا . اقترب الطحان. نظر لجوان. وكررا الكلمات المعروفة جيدًا، وبالقول والفعل بقى جوان المنحوس فى هذا البيت خلال كل الأيام التى استمر فيها العمل فى وسية بيدرا جراندى، وأعدت له زوجة بيكانزو سلة طعام كبيرة كما لو كان صبياً مقدساً. يجلس الصبى أيضاً على يمين الرب، وفى حديث عذب بلا شك مع دومينجو المنحوس، يحاول كل منهما معرفة لماذا تكون النكبات كبيرة و الجزاء قليل .

كان جوان المنحوس يربح ريالين، وهى أجرة رجل ناضج منذ أربع سنوات فائتة، لكنها أجرة بائسة اليوم، فالحياة أصبحت فى غاية الغلاء. كان الصبى يستفيد من نِعَم رئيس العمل، الذى تربطه به صلة قرابة بعيدة، حيث كان يغض النظر عن ضعف الصبى فى اقتلاع جذور العشب، التى كانت أشد من أن

تقتلعها هذه النحافة. طوال اليوم، خلال ساعات وساعات داخل الحقل، يطحن الجذور بفأسه بجد، لكن إن كان طفلا، سيدى، فما الداعى لتنهكه بهذا الشكل. هذا الصبى، يا رئيس العمل، ماذا يفعل هنا، فلن ينفعنا بشىء، هذا ما يقوله لامبيرتو كلما مر. فيجيبه الآخر، إنها صدقة نتبرع بها، فهو ابن دومينجو المنحوس، رجل بائس. فينهى لامبيرتو، حسناً. ويدخل الإسطبلات ليطمئن على الخيول، التى كثيراً ما يقدرها. كان الجو حاراً بالداخل، ورائحة التبن كانت مريحة، هذا الحصان يسمى سلطان، وهذا ديليكادو، وهذا تريبوتو، وهذه كامارينيا، وهذا المهر الصغير سنسميه المحظوظ .

أنهى جوان شغل الجرف وعاد إلى بيت أمه. لكنه كان محظوظاً، فلم يمر أسبوعان حتى طلبوه لعمل آخر، فى وسية سيد آخر، يسمى نوربيرتو، وتحت يد رئيس عمل يسمى جريجوريو واسم شهرته لاميراو. كان جريجوريو هذا من أسوأ الحيوانات المفترسة. فهو لا يرى فرقاً بين الأجراء وزمرة المتمردين الذين لا يروضون سوى بالعصا و السوط. لم يكن نوربيرتو يتدخل فى هذه الشئون، كما أن منظره يوحى بالوقار، فهو مسنّ، أشيب الشعر، نبيل العائلة غزيرها، ابن ناس رقيقة مع أنهم ريفيون، يقضون الصيف فى حمامات فيجيرا. كانوا يملكون بيوتًا بلشبونة، وبدأ فتيان العائلة، رويداً رويداً، يهجرون جبل لافرى، فلقد كان العالم بالنسبة لهم منظرًا طبيعياً أكثر رحابة من

هذا، وظلوا يرددون ما وصل لمسامعهم من غيرهم، حتى حانت اللحظة التى فيها رفعوا أرجلهم من الوحل وذهبوا بحثًا عن أماكن الحضارة المبلطة. لم يعترض نوربيرتو طريقهم، حتى أنه بتحفظ مسرور كان راضياً عن نسله وأقاربه البعيدين. وبين خلايا النحل وحقول القمح، بين البلوط وخنازير المراعى، كانت الوسية تطعم العائلة بفوائض كبيرة، تتحول فيما بعد لنقود سائلة، طبعاً كلما خضع الأجراء، هؤلاء وغيرهم. من أجل هذا وجدنا رؤساء العمل، الذين يشبهون النقباء "مسرور" لكن فى ملابس مدنية، وبلا حق بالتالى، يمتطون الخيول ويعلقون السيوف، وبنفس سلطة صاحب الوسية. وبعصا تحت الإبط، يستخدمها كما السوط، يطارد جريجوريو لاميرو صف الأجراء، بعين منتبهة لأقل لحظة راحة أو أية إيماءة تراخٍ. كان رجل لوائح، عليه السلام، لأنه ليعطى عبرة كان يعاقب حتى أولاده. هناك كان يشتكى البعض والبعض الآخر، نتحدث عن الغلمان، لأنه كان يوماً غريباً اليوم الذى يمر دون أن يوزعهم ضربًا بعصاه، ويضربهم علقتين، أو ثلاث إن كان مزاجه عكرًا. عندما كان جريجوريو لاميرو يخرج من بيته أو معسكره، كان يترك قلبه معلقاً خلف الباب ويسير خفيفاً، دون اهتمام سوى بكسب ثقة صاحب الوسية وربح النقود الكثيرة وحضور أفضل المآدب الفاخرة التى تليق بموقعه كرئيس عمل وجلاد لهؤلاء الجنود. غاية فى الجبن نعم كان، فذات مرة، قاطع عليه الطريق أب أحد

ضحاياه المنكوبين وهدده إن عاد لضرب الصغار بلا وجه حق، سيرى رأسه تتكسّر على عتبة بابه، إن كان يستطيع أن يرى وقتها. أثر فيه التهديد فى هذه الحالة، لكنه عاد ليضاعف العقاب على الآخرين.

فى بيت نوربيرتو، كانت السيدات تعشن بالنعومة التى تناسب أنوثتهن، يتناولن الشاى، يثرثرن، وكنّ أمهات روحيات لبنات الخادمات الأكثر قربًا. وفوق أرائك الصالون توجد مجلات الموضة، آه يا باريس، يا مدينة قرروا الذهاب إليها بمجرد أن تنتهى الحرب الحمقاء التى، من بين أضرارها الكبيرة و الصغيرة، يأتى تأخير مشروعهم . فظائع ليس بأيدينا تفاديها. أما عجوزنا نوربيرتو، فعندما كان يسمع رئيس عمله يعلمه بأخبار سير بعض أعمال الأرض، مهمهماً بكلمات تهدف أن يقيّمه كجلاد، كان يفرغ صبره كما لو أنه يقرأ تقارير الحرب فى جريدة رسمية. كان محباً لألمانيا بميل إمبراطورى وذاكرة غير واعية لوطن لامبيرتو هوركيس، الذى ربما يكون جده. وذات يوم، على سبيل التسلية الصرف والحكيمة، قال ذلك لجريجوريو، الذى ظل يحملق فيه بعينين جاحظتين، بدون أن يفهم شيئًا مما كان يُقال له، فهو رجل خشن، أمىّ . لكن، على سبيل الاحتياط، ضاعف إذلال الأجراء وزاد فى صرامته، لدرجة أن أبناءه الكبار كانوا يرفضون العمل تحت سوطه، فكانوا يبحثون عن عمل فى وسايا أخرى، يكون رؤساؤها أكثر إنسانية،

ويجدون فيها أمانا أكبر، حتى ولو وافتهم المنية بعد ذلك بقليل .

كانت تلك فترات تمتع فيها الانضباط بالرخاء. فسارة، التى بحق لدغتها الأيام لما رأته من زوجها وألم قلبها الذى يأكلها ويلقى عليها الذنب لموت وليدتها الكارثى، كانت تصرخ فى كل لحظة وساعة، أنا أحذرك، إن لم تفق سأضربك ضربًا مبرحًا، فعلينا أن ننظر لحياتنا. هذا ما كانت تقوله الأم، أما جريجوريو فكان يشدّد، اسمع يا منحوس، لقد قالت لى أمك إنها لا تريد منك سوى عظمك لتصنع منه مقعدًا وجلدك لتجعله طبلة. وإذا تحدثت هكذا السلطتان بتوحد ودقة، ماذا سيفعل جوان غير تصديقهما. لكن ذات يوم، عندما بلغت الروح الحلقوم من الكلمات اللاذعة والعمل المفرط، تحدى تهديدهما بسلخ جلده وكسر عظامه وحدّث أمه المذهولة بعبارات واضحة، حدّث سارة المسكينة، التى لم تتعلم بعد ماهية الحياة. انطلقت حينئذ الآهات والصرخات" إنه رجل ملعون، فأنا لم أقل له ذلك، ولا أنا أنجب ولدًا من أجل ذلك، كل الأثرياء يحتقرون الفقر، وهذه اللعنة لا تصيب أولادهم" . لكن هذا الكلام قد قيل من قبل .

لا يتمتع جوان المنحوس بجسد بطل . إنه غلام هزيل له من السنين عشرة منحوسة، فمازال الصبى ينظر للأشجار على أنها مأوى للأعشاش أكثر منها منتجة للفلين و البلوط والزيتون. فمن الظلم إجباره على الاستيقاظ بينما الليل مازال باسطًا ظلامه،

والسير شبه نائم وبمعدة خاوية فى طريق طويل أو قصير ينتظره ليصل مكان عمله، وبعد ذلك يقضى هناك اليوم بأكمله، حتى تغرب الشمس، ثم يعود للبيت مرة أخرى بعد هبوط الظلام، ميتاً من التعب، إن أمكن أن نسمى ذلك تعباً، إن لم يكن سكرات الموت.
لكن هذا الطفل، وكلمة طفل تقال فقط من قبيل الاستخدام الشائع، ففى الوسية لا يصنفون الأجراء هكذا ولا يُحترم ولا يُحمى هذا التصنيف، فكلهم أحياء وهذا يكفى، أما الموتى ففى المقابر يدفنون، فلا يعملون، أقول هذا الطفل ماهو إلا طفل بين آلاف، كلهم متساوون، كلهم يتجرعون المرارة، كلهم يجهلون الشر الذى اقترفوه ليستحقوا هذا العقاب. من جهة أبيه هو من أصل حرفى، فأبوه إسكافى وجدّه نجار، لكننا نرى ترتيب القدر، فهنا لا يوجد مخرز ولا فرشاة، كل ما يوجد أرض خشنة، قيظ مميت، برد قاتل، جفاف هائل فى الصيف، ماء مجمّد فى الشتاء، تجميد قاس فى الصباح، ترصيع غصات فى الحلق كما تقول السيدة رحمة، قشف أحمر مشقوق ومدمى فى الأيدى و الأرجل، إن حكت اليد المتورمة فى جذع أو حجر، لصار الجلد ناعماً، ومن الداخل، مَنْ يستطيع أن يصف هذا الألم والبؤس! ليست هناك حياة سوى هذا السير الشقى دوماً، حيوان يتعايش فوق الأرض مع حيوانات أخرى، حيوانات أليفة وشرسة، نافعة وضارة، هو نفسه، مع البشر أمثاله، يعاملونه كحيوان نافع أو ضار، حسب احتياجات الوسية له، الآن أستدعيك، الآن تعفن فى مكانك.

وتأتى البطالة، ويبدءون بطرد الغلمان ثم النساء، وينتهون بالرجال. يتجولون فى قوافل فى الطرقات بحثاً عن يومية بائسة. لا يرون فى هذه الأحوال رؤساء عمل ولا مديرين، ولا أصحاب وسايا بالطبع، فهم محبوسون فى بيوتهم، أو بعيداً، فى العاصمة أو فى محميات أخرى. الأرض ليست إلا قشرة جافة أو مستنقع، لا يهم. ينضج العشب، يعيشون منه، و تحترق أعينهم، تصير المعدة طبلة، ويأتى الإسهال، إسهال مؤلم، يهجر الجسد الذى يتفتت من تلقاء نفسه، إسهال نتن، حمل لا يمكن احتماله . تتولد الرغبة فى الموت، وهناك من يموت .

نشبتِ الحرب فى أوروبا، كما قُلتُ. ونشبت أيضاً فى إفريقيا. هذه الأمور تشبه الصراخ فوق ربوة، من صرخ يعلم أنه صرخ، وأحيانًا يكون آخر من يعلم، لكن، من أعلى الربوة لأسفلها، يتضاءل الصوت، حتى يختفى تماماً. لم يصل لجبل لافرى عن الحرب سوى أخبار من جريدة، تلك الأخبار لم يعرفها إلا من يجيدون القراءة. أما الآخرون، عندما كانوا يرون ارتفاع الأسعار وندرة المواد الغذائية الأساسية، كانوا يتساءلون عن السبب. السبب هو الحرب، كان الفاهمون يخبرونهم. الحرب تلتهم الكثير، والكثير تثريهم . فالحرب هى هذا الحيوان الخرافى الذى قبل أن يلتهم الرجال يفرغ جيوبهم، رجلاً رجلاً، عملة وراء عملة، حتى لا يضيع شىء وينتقل كل شىء، كما يقول قانون الطبيعة البدائى، الذى سيتعلمونه بعد

ذلك. وعندما تشبع من الأطعمة، عندما تقلس نفسها من الشبع، تستمر بمهارتها المكررة، بأصابعها الرشيقة، ساحبة دومًا من نفس الجيب، واضعة دومًا فى نفس الجيب . إنها عادة، بشكل نهائى، تأتيها من السلام .

فى بعض القرى المجاورة، هناك من ارتدى لبس الحداد، قريبنا مات فى الحرب. كانت الحكومة تبعث تعازيها، مواساتها الحزينة، وتقول إنه الوطن.كانت تردد ما قاله من قبل ألفونسو انريكيز[1] ونونو الفاريز بيريرا[2]، " نحن من اكتشفنا الطريق البحرى لبلاد الهند، المرأة الفرنسية تُجن بجنودنا"، أما المرأة الإفريقية فلسنا على يقين، إلا إذا صح ما هو معروف، من أنهن كن معفيات بالصدفة. كانت القوات مشغولة بما يحدث فى روسيا، استعداد كبير للهجوم فى الجبهة الغربية، سلاح المستقبل هو الطيران لكن المشاة هى ملكة المعارك، لا شىء يتحقق بدون حاجز المدفعية، لا يمكن الاستغناء عن السيطرة على البحار، ثورة فى روسيا، بلشفية. يقرأ أدالبيرتو جريدته، ينظر من نافذته، ويداهمه القلق من زمن الغيوم، يشارك الجريدة فى قلقها، ويقول بصوت مرتفع غمامة ستعبر .

ليس كل ما يجنيه الجانب و الجانب الآخر ورودا فقط، بل أيضًا شوكاً، كما أسلفت، لكن توزيع الشوك

---

(١) ألفونسو انريكيز (١١٠٩ ـ ١١٨٥) أول ملك للبرتغال، وكان يلقب بالفاتح. (المترجم)

(٢) نونو الفاريز بيريرا (١٣٦٠ ـ ١٤٥١) قائد برتغالى شهير (المترجم).

يأتى طبقًا لقواعد الخلل المعروفة، ويكون إنكاراً جلياً للمكتوب، وربما يكون صائبًا فى مسائل البحر" يواجه المركب الكبير عاصفة كبيرة"، لكن على الأرض المسألة مختلفة. فزورق عائلة المنحوس صغير، عمقه قليل، و لم يغرق كل من فيه فقط بسبب الصدفة والحاجة لهذه القصة. مع ذلك أعطى الزورق إشارات مؤكدة لتحطمه على صخرة قريبة، أو لتحطم أجزائه عندما صار أرملاً جواكيم كارّانكا، أخو سارة، ولم يتحمس للزواج مرة أخرى، ولم يكن لديه خبر عن عاشقات له، فلديه ثلاثة أولاد ليربيهم وخُلُق سئ بما فيه الكفاية، حينئذ اتحد الجوع مع شهية الأكل، وهو ما يعنى اتحاد الأخوين فى الحياة والذرية.

وجاءت نتيجة الصفقة متوازية، صار هو أباً لأولادها، وهى أماً لأولاده، والأولاد أولاد خال وعمة، وسنرى نتيجة هذا الاندماج. لم يحدث أسوأ مما يمكن توقعه، بل ربما أفضل. كف أولاد المنحوس عن طلب الصدقة على الأبواب، وكسب جواكيم من تعتنى بملابسه، وهو أمر يحتاجه الرجل، وتعتنى أيضًا بملابس أولاده. ولأنه ليس من العادة أن يضرب الأخ أخته، ولو فعل ذلك، لن يكون كثيراً مثل الزوج لزوجته، فقد عاشت سارة فترة أفضل فى حياتها. وهناك من يحيا هذه الفترات قليلاً. قد نقول إنهم أناس لا يعرفون شيئاً عن الحياة .

كل يوم له حكايته، فكل دقيقة تمر يمكن حكى ما حدث فيها فى سنوات، بكل ما فيها من إيماءة، من كلمة، من مقطع، من صوت، ولن نتحدث عن الأفكار، فمن المجهود الشاق أن نفكر فيما يفكر الآخرون، أو فيما فكروا، أو فيما يفكرون فى تلك اللحظة، أو ما هى الفكرة التى ستشغل العقول الأخرى، فلو فعلنا ذلك لن ننتهى أبداً. من الأفضل أن نوضّح أن هذه السنوات ستكون سنوات التربية المهنية لجوان المنحوس، بالمعنى التقليدى والريفى الذى ينص على أن الرجل الذى يعمل يجب أن يحيط علماً بعمله، أن يجيد حصد الثمار كما يجيد استئصال الفلين من شجره، أن يكون ماهرًا فى وضع السياج كما هو ماهر فى بذر البذور، أن يكون قوى الظهر للشيل كما هو قوى الكليتين للعزق. هذه المعرفة تنتقل عبر الأجيال، بلا امتحان ولا جدال، وهى هكذا لأنها دائماً كانت هكذا، فهذه تنقية من الأعشاب الضارة، وهذا منجل كبير، وهذه قطرة عرق. أو ريق أبيض وغليظ وقت ظهيرة الخبيز، أو ضربة شمس فى الرأس، أو

عراقيب منهكة من سوء التغذية. بين سن العاشرة والعشرين يجب تعلم كل شىء و بسرعة، وإلا فلن نجد صاحب عمل يقبلنا.

ذات يوم قال جواكيم كارّانكا لأخته إن عليها أن تبحث عن صاحب عمل ليستأجرهم باليومية، فوافقتْ هى، وتلك عادة اكتسبتها منذ سنوات خضوعها كزوجة، وبزغ أمامها أمل فى البقاء طوال العام محمية من البطالة، وقد يكون ذلك طموحها الصغير، فلم يكونوا يطمحون فى شىء آخر. تزامن هذا مع انتقال ملكية جبل بيرا بورتاس إلى الإخوة الثلاثة بالإرث بعد وفاة السيد العجوز، أبو الثلاثة، الذى ألقى بنطفته فى رحم عشيقة ذكية، عندما كانت تبدو خاضعة لهوى البطريرك المخيف، وكانت ترتجف بالصرخات لعدم توافقهما، لكنها سريعًا ما عادت للحظيرة، كما الخروف، لتحرم الأقارب الأقربين من الإرث فى مصلحة الأبناء غير الشرعيين. كان يأتى ثلاثتهم، بيدرو وباولو وساؤل، ليديروا الجبل بالتناوب، كل منهم موسماً، وبينما يأمر بيدرو يطيع الآخرون، وكان هذا نظاماً مضحكاً حيث يصير كل منهم جاسوساً على أخطاء أخيه، فيجأر ساؤل أن بدون إدارته ستغرق السفينة، ويفتخر باولو أنه الوحيد الذى يعرف الإدارة، ويستهلكون أنفسهم باتحادات وخيانات أسرية، كما هى العادة فى العائلات. إن حكاية هذه الحكومة الثلاثية ستترك السفينة محطمة. هذا بدون الحديث عن الأم التى تصرخ قائلة إن أولادها قد نهبوها،

سرقوها، وهو قول شديد الوضوح، فبعد أن ضحت كثيرًا من أجلهم، وصارت خادمة لخنزير عجوز، والآن خادمة لأولاده، يضنون عليها بالمال ويحبسونها. وأثناء الليل، عندما يغطى الصمت الجبل ليختبئ أفضل فى اسرار الظلمة العظيمة، كان أهله يسمعون صرخات خنزيرة مذبوحة وركلات وحشية فى الأرضية الخشبية، كانت هذه حرب الأم وأولادها .

عمل مع هؤلاء المُلاّك جواكيم كارّانكا، وأبقى جوان المنحوس أجيراً. أجرتهما مجتمعة كانت بائسة، حيث كانت تكفى، إن كفت، لتسد ارتجاف الجوع المستمر، وما كان ينقذهم من وطأة الجوع سوى استغلال أيام الأحاد وأعياد القديسين للعمل فى الحدائق ليعاقبا جسديهما. كانت أجرة جواكيم كارّانكا ستين كيلو دقيق ذرة، ومائة إسكودو، وثلاثة لترات من الزيت، وخمسة مكاييل فاصوليا، ومسكناً وحطباً، وفى نهاية العام إكرامية معقولة. أما أجرة الأصغر سناً، فكانت تُقدّر بأربعين كيلو دقيق ذرة، لتر ونصف زيت، ثلاثة مكاييل فاصوليا وخمسين إسكودو. وكانت هذه أجرة شهرية . كانوا يحملون الأجولة والمكاييل إلى مخزن الحبوب، والدوارق لمصنع الخمور، حيث يكيّل الناظر المؤن، ويدفع المدير الراتب، وبهذا كان يجب أن يحكموا الأجساد ويستعيدوا القوة التى يستهلكونها كل يوم. لكن لم تكن كل القوة تُستعاد، وكانوا يرضون بذلك، مع أن أسوأ ما فى الأمر أن خطوات الزمن كانت تظهر بإفراط تحت الجلد، فتطل

الجماجم. من أجل هذا يولدون. مات جواكيم كارّانكا بدون أن يمرض مرض الفراش، فذات يوم جاء بعد حرث الحديقة، كان يوماً من أيام الآحاد تلك التى فيها ليس من الصعب الإيمان بالرب ولا كان من الضرورى وجود القس أجاميديس، المؤسف أن الفأس الكبير كان شديد الثقل، وجلس تحت جذع شجرة فلين أمام باب بيته، شاعراً بتعب أكثر من العادة، وعندما دنت منه سارة لتقول له إن العشاء جاهز، لم يكن لجواكيم شهية للأكل. كان بعينين مفتوحتين، بيدين ساقطتين فى حِجْره، مستريحًا راحة لم يكن يستطيع أن يحلم بها، ولم يكن رجلاً شريراً، ولا سيداً، نعم له حركاته الفجائية، نعم كان غاية فى الهمجية مع ابن أخته الكبير، لكن ماحدث، حدث. والموت مثل مسطرة يسوى بها الحبوب فوق سطح مكيال الحياة فيسقط ما علاها مما يزيد، رغم أننا لا نعرف معايير ذلك، كما فى حالة جواكيم كارّانكا، الذى مازالت عائلته تحتاج إليه .

تريد الحياة، أو من يتحكّم فيها، بيد قوية أو غير مبالية، أن تتزوج التربية المهنية من التربية العاطفية. هناك خطأ جلىّ فى هذا الزواج، ربما أدى إليه قصر الأعمار، الذى لا يسمح بفعل كل شىء براحة وفى موعده المناسب، وبالتالى لا يربح من يملك بل يخسر من يشعر. لكن، بما أن الدنيا لا يمكن أن تتغير فى هذا، سار جوان المنحوس، بينما كان يعتاد على العمل، يعشق فتيات القرى المجاورة، يرقص حيث يجد

الأوكورديون، وراقصاً بارعًا كان، تتنافس عليه الصبايا، مَنْ كان سيقول ذلك . كان له، كما نعرف، عينان زرقاوان، ورثهما من جده الرابع مائة، الذى بالقرب من هنا، فوق بعض نبات السرخس الأقدم من هذا، اغتصب صبية جاءت هنا لتأخذ ماءً من الينبوع، كم مرة شاهدت المخلوقات الهوائية هذا المنظرمنذ بداية الخليقة! من علاها، من بين ورق الشجر، وبزينة ريشها التى لم تتغير، تشاهد بتأمل تعارك الرجل والصبية . هاتان العينان تحركان قلوب صبايا اليوم، فيغرقن فى غرامه فجأة بعد رقصة واحدة، عندما تكفهر نظرة جوان المنحوس، بدون أن ينتبه أن نار نظرته ترسم له حنقاً غرامياً قديماً، يالعظمة تلك القوة المختبئة لأحداث الماضى! إنها خواص الشباب. حقيقةً، كان جوان المنحوس كثير العشق قليل المغامرة. لم يتقدّم بعيداً عن التلميحات، وفى اليوم الذى يتجرع فيه ثلاث كئوس يكون أكثر جرءة، فيعطى قبلة حمقاء مازال ينقصها كل الخبرة التى يدخرها له المستقبل.

هذه القصائد الرعوية هكذا. يشكّل الرعاة عيدانها، أما الراعيات فيصنعن قلانس من الزهور، لكن جوان المنحوس، فى فترة عقده الذى استمر عشرة أسابيع فى سالفاتيرّا، لتقشير شجر الفلين، استطاع أن يتحرر من عشيقاته شبيهات البعوض، أو أن ينأى بنفسه عن هذا الحلم، عندما أكل ثومًا كثيرًا لدرجة أن انتشرت رائحته الخبيثة على بعد عشر خطوات . هناك تعلّم المهنة، بشوق، ليكسب الثمانية

عشر إسكودو التى كانت تدفع آنذاك للمقشرين المحترفين، لكنه لحسن الحظ كان بعيداً عن الطامحات إليه، المتسامحات فى مسألة الروائح الخبيثة، لكنهن ربما عدوات لأمر آخر. فكما هو معروف، سعادة الإنسان تتوقف على صغائر الأمور.

الآن تأتى قرعة جوان المنحوس العسكرية. يحلم مستيقظًا، يرى أبعد من جبل لافرى، ينظر ربما للشبونة، وبعد ذلك، بعد أن يؤدى الخدمة العسكرية، سيكون غبياً إن لم يستطع أن يجد عملاً فى الترام، أو فى الشرطة، أو فى الحرس القومى، فقد نال شيئاً من التعليم، ليس عليه سوى الاجتهاد أكثر قليلا، فلن يكون أول من يفعل ذلك. إنه يوم عيد يوم الكشف هذا، ستوجد صواريخ وخمر، سيستحق الغلمان بجدارة اسم رجال، كلهم بملابس نظيفة، وعندما يكونون هناك، بروح حماسية، يقولون دعابات ذكورية ليخففوا خجلهم فتحمر خدودهم أمام الطبيب، الذى يوجه لهم أسئلته. بعد ذلك يعقدون جلسة ويقررون. بعضهم تم قبوله ومن الأربعة، الذين انصرفوا كان واحد فقط حزينًا. هذا الواحد هو جوان المنحوس، الذى تبخر حلمه بالزى الرسمى فى الهواء، حلم ارتداء بدلة عامل الترام، الذى يدق الجرس بكعب حذائه، أو رجل الشرطة، الذى يتجول شوارع العاصمة، أو الحرس، الذى يحرس، من أجل مَنْ، الحقول التى تغم الآن، وهذا الافتراض يعكّر مزاجه لدرجة أنه عالجه من خيبة الأمل . ليس من الممكن التفكير فى كل شىء وفى ذات الوقت .

فيما يجب أن يفكر جوان المنحوس؟ لقد بلغ العشرين ربيعاً، ونال الإعفاء من الخدمة العسكرية، ولم يكن كبير الجسد، نسبياً، منذ الزمن الذى كان فيه يكافح، كما القزم، أمام جذور العشب بوسية بيدرا جراندى ويأكل قطعة ذرة تهبها له زوجة بيكانزا كصدقة أقارب. اشترى فى سالفاتيرّا أول معطف وبه كان يتنزه، معتزًا بنفسه كقط مُنمّر . كان المعطف يصل حتى كعبيه، يبدو دمية متحركة، لكن تلك الأرض لا تستوجب أناقة شديدة، فليس هناك أناقة أشد من الملبس الجديد، أياً كان ثمنه. عندما يضرب جوان المنحوس فأسه الكبير فى الأرض يتذكر معطفه، رقصاته، عشيقاته الجادات وغير الجادات، وينسى حزنه على المعيشة هناك، سجيناً فى تلك الأرض، بعيداً عن لشبونة، لو تجرأ ذات مرة على الطموح، لو لم يكن كل شىء مجرد حلم صبيانى، بل هو من أجل ذلك، فليكن الحلم .

تأتى فترة ذات عواصف جارفة، بعضها سيأتى بجلبة طبيعية، وبعضها بنعومة، بدون أن تطلق طلقة واحدة، تلك العواصف قادمة من براجا البعيدة، وعنها لا يأتى خبر حقيقى إلا متأخراً، عندما لا توجد وسيلة أخرى غير الانتشار. لكن بما أن كل شىء يجب حكيه فى وقته المناسب، حتى ولو قدمنا موت جواكيم كارّانكا، الذى حدث فى سنوات لاحقة، هكذا يجب أن نقول حتى لا نهين دائمًا القواعد الروائية، وبما أن كل شىء، عندما يكون ذلك ملائمًا، يجب معالجته فى وقته، علينا أن نتحدث الآن عن تلك العاصفة

الجامحة التى بقت فى الذاكرة لأسباب الحداد وأضرار أخرى. كان ذلك، يا سادة، فى فصل الصيف، على غير المتوقع، رغم أنه أحياناً تأتى هذه الرعود المهيبة التى تدوى فوق جُذامات القمح، صارخة، لكنها الآن بعيدة وشبه خامدة ؛ الآن تبرق السماء فوق رءوسنا، تطرق الأرض العزلاء بمطرقة، كيف سيكون حالنا بدون القديسة باربارا! . يبدو أن القدر قد اختار آل المنحوس للنكبات السوداء، لكن هذا افتراض ناتج عن ضيق الإدراك. فالعاصفة ليست إلا موت شخص، وإن كنا نفكر فى الجوع والبؤس إشفاقًا، فهذه العائلة تشبه العائلات الأخرى، حيث يفيض البؤس والجوع فى هذه القرية. بالإضافة إلى ذلك، فالميت لا يربطه بالمنحوس صلة دم. الشخص المتوفى هو زوج أخت سارة، يعمل عربجى باختياره فى وقت فراغه، وأجرى فى أكثر الوسايا عملاً، ويدعى أوجوستو بينتيو وكان على موعد محدد مع الموت، لكن انظر لحقيقة الأمور، هذا الرجل البسيط، الحنون، قليل الكلام، لاقى نهاية درامية، بتسلط هائل من قبل القوى السماوية و الأرضية، مثل أية شخصية تراجيدية. لم يرحل عن الحياة بنفس الهدوء الذى رحل به جواكيم كارّانكا، مع أنه كان أكثر منه طيبة . الحق أن هذه الأشياء تجعلنا نعيد التفكير فى تناقضات الحياة.

بقى أن نقول، حتى نكون أكثر دقة، إن أوجوستو بينتيو كان يقوم أيضًا بعمل بغّال بين فينداس نوفاس

وجبل لافرى. كانت هناك محطة سكة حديد يحمل لها الفلين والكربون والخشب، ويحضر منها البضائع، مثل البذور، أكثر ما يحتاجون إليه، وذلك برفقة بغلتيه وعربته الكارّو، ولم يكن هناك الكثير يحيا حياة أفضل منه. فى هذا اليوم، الذى لابد أنه كان طويلاً وصافياً، مثل بقية أيام الصيف، انتهى مكتسيًا بالسحب السوداء الكبيرة وبعدها هبت ريح عاصفة. حينها فتحت السماء فيوضها وأفرغت المياه التى كانت فى حوزة الرب. لم يقلق أوجوستو كثيرًا، فعواصف الصيف تأتى وتذهب بلا ضرر، فقام مطمئنًا بأعمال الشحن والتفريغ، بدون أن يفكّر فى أضرار قد تحدث أكبر من الوصول لبيته مبتلا. عندما خرج من فينداس نوفاس كان الظلام قد حلّ، لم يشقه سوى البرق الذى يشبه مهرجانًا شعبيًا فى السماء وموكبًا للسيد الإله. كانت البغلتان تعرفان الطريق بعيون مغمضة، قادرتين على التعرف والعثور عليه حتى لو كان مغمورًا بالماء مثل البرك فى تلك اللحظات. وبينما كان أوجوستو محميًا بجوالين غليظين فوق رأسه، كان يسلى نفسه مفكرًا أن المطر على الأقل أقصى خطر قُطّاع الطريق الذين هاجموه فى مرات سابقة. بسبب هذه العاصفة، سيكن اللصوص فى جحورهم، يشوون شرائح لحم من صلب الخنزير المسروق ويتجرعون قِرْبة نبيذ قوى حاد الطعم، وهى أشياء لا تحدث فى مراحيض أخرى، مع وجود استثناءات . بين فينداس نوفاس وجبل لافرى مسافة تصل لثلاثة فراسخ، لكن الفرسخ الأخير قد لا

يمشيه أوجوستو. لا هو ولا البغلتان. وصلوا للوادى، وإن كانت الدنيا ظلاماً، فالوادى أشد ظلمة، والماء يهطل بخريره وزئيره القادر على بث الرعب فى أى إنسان . من هنا كان يعبر معبر النهر، عندما يريد، فى الطقس الحسن، حتى عندما تصل المياه للرُكب، كان هناك للمشاه لوح خشبى يصل من الضفة إلى شجرة لسان العصفور الهائلة المولودة هناك والتى تتأكد ضخامتها فى الفترات التى فيها يمر قاع النهر من بعيد. كانت أغصان لسان العصفور تتمدد فى وسط الماء، وتدافع بجذورها السميكة عن أرضها، أما الآن فهى مهددة بسرعة وقوة التيار. كم مرة عبر من هنا أوجوستو بينتيو بصحبة عريته وبغلتيه. قد تكون هذه آخر مرة . بمجرد أن اعتلى اللوح الخشبى ليعبر النهر سقطت أرضيته فجأة حتى شكّلت نقرة غاية فى العمق، ولأننا يجب أن نسمى كل شىء، فهذه تسمى نقرة ماء. أوجوستو كان على ثقة فى العذراء المقدسة وفى فطرة بغلتيه، وهكذا استطاع الوصول حتى منتصف التيار، حيث لمس الماء أرضية العربة. وهنا، مخافة من التيار الذى كان يصدم الحاجز، ومخافة أن يحمله الماء الهابط بلا أمل فى النجاة، أدار البغلتين فى المواجهة. قاومت البغلتان قدر المستطاع، لكنهما استسلمتا فى النهاية بسبب الأسواط و الألجمة. وفى لحظة لم تجد البغلة اليمنى مكانًا لرجلها، فتزحلقت العجلة من اللوح الخشبى وغرق، بصراخ وصخب

هائل، أوجوستو بينتيو وبغلتيه وعربته وبضاعته وما تعهد به، والآن يغوصون فى صمت الماء وظلماته الكثيفة، صمت مميت، لا حل له. جثموا فى عمق الماء ساكنين، أوجوستو مربوط فى اللجام، والبغلتان فى العربة، حيث توقفت المياه عن الجريان، كما لو لم يكن هناك مياه أخرى غيرها منذ بدء الخليقة. فى اليوم التالى أخرجوه رجال شجعان بجهد كبير وباستخدام الأحبال، بين صرخات أرملته ودموع اليتامى، وحشد من أناس جاءوا من ضواحى كثيرة حولهم كانوا يتزاحمون حول ضفتى النهر . لم تكن السماء تمطر. كان صيفًا كثير المحن. تُسقط عواصفه الرجال الذين يستأصلون القشر من شجر الفلين، وعند سقوطهم كانت البُلَط تقطعهم. إنها حياة مليئة بالكرب، أكثر بكثير مما يمكن أن يُقال .

فى ذلك الحين كان آل المنحوس يعيشون فى جبل بيرّا بورتاس مع الخال والأخ جواكيم كارّانكا. وفى العام التالى، ذهب جوان المنحوس للعمل فى مربى للماشية مع أخيه انسيلمو وأخته ماريا، لحساب صاحب وسية مختلف، فى جبل يسمى راية النساء، ولا احد يعرف سبب الاسم، وكان ذلك بعد ستة أشهر من الزحف على البرتغال من طريق براجا (*). كان

(*) دخلت البرتغال الحرب العالمية الأولى وانضمت للحلفاء، وعانت بعد الحرب الكثير وتوالت عليها الأزمات، أدى ذلك إلى الانقلاب العسكرى الذى يشير إليه المؤلف فى الثامن والعشرين من مايو ١٩٢٦، بقيادة الجنرال جوميس، وكان ذلك بداية عصر الدكتاتورية (المترجم).

الزحف على بعد أربعة فراسخ، وتم على الأقدام وفى طريق وعر، هذا ما حكوه فى جبل بيرا بورتاس، لكن من جبل لافرى سيكون الطريق على بعد فرسخ ونصف. كان عدد الفتيات أكبر من عدد الفتيان، ولم يكن قليلات، وكان هذا يبرر سرور الأولاد الذين كانوا يصحبونهم طوال الإسبوع، حيث يعودون لبيوتهم يوم السبت فقط. نهاية الأمر أن أكثر من يعمل هناك كانوا فى سن الشباب. وظهرت حمى العشق والهيام التى حرقت بعضاً منهم . كان لجوان المنحوس خطيبة بعيدًا عن مربى الماشية هذا، لكن لم يفرق معه الأمر، حيث كان يتصرف كما لو كان خالياً، بالإضافة لشهرته كراقص بارع، تلك الشهرة التى كانت تمهد له الطريق.

بين العمل والنزوة طار الوقت، حتى جاءت إلى هناك من جبل لافرى شابة صديقة له، وكان مجيئها بمثابة استجابة لصلواته أثناء صوم الأربعين، فلم تكن هناك أسباب أخرى. كانت علاقته بها شديدة الحميمية، لدرجة أنهما رقصا معًا وغنَيا متنافسين مرات لا عد لها، لكن علاقتهما لم تكن خطبة، بل وحتى لم يخطر ببالهما هذا الأمر. وكان يسمى كل منهما الآخر بين الجد والهزل، الصديق جوان والصديقة فاوستينا، وكان ذلك اسمه. وكما يبدو، لم يكن هناك ما يدعو للتفكير فى شىء آخر. لكن الأمر لم ينته كذلك. بل انتهى بالحرية الممتعة حيث آن الأوان لربط تلك العقدة، فلقد وقع جوان فى هوى فاوستينا ووقعت فاوستينا فى هواه. ففى مسائل

الهوى، ينبت العشق وحيدًا فى قطع زجاج خلف النوافذ كما يزدهر النبات الجبلى بين شجر السنديان، الاختلاف يكمن فقط فى اللغة. وبدأت تطلع جذور الخطبة، ونسى جوان المنحوس خطيبته الأخرى، لكنه، لكونه جاداً، اتفق مع فاوستينا ألا تبوح بسرهما لعائلتها، لأن المنحوس، الذى لم يكن لديه من يلومه، قد ورث عن أبيه اسمه القبيح، وتلك أشياء تلتصق بالمرء، فمن شابه أباه فما ظلم، كما يقول المثل. ومع كل، كان سرهما أكبر من أن يخفى على أبوى فاوستينا، ومن هنا بدأت مشقات المسكين. لا يمكن أن يكون صالحاً، فله منظر قبيح بهاتين العينين الزرقاوين التى لم ير أحد مثلهما أبدًا، ولزيادة الطين بلّة، كان أبوه عربيدًا سكيراً أفضل ما فعله فى حياته كان نصب مشنقة لنفسه فوق شجرة . هكذا يقضون أحيانًا سهراتهم فى القرية، تحت السماء المرشوقة بالنجوم، بينما يطارد الثور الجاموسة فى الحقول ويجامعها بكل حرية . حياة البشر أكثر تعقيدا، ولهذا فنحن بشر .

كانوا فى شهر يناير، فى عز البرد، وكانت السماء ملبدة بالغيوم المتناثرة، والأجراء فى طريق عودتهم لجبل لافرى، فى إجازتهم نصف الشهرية، بينما كان جوان يتحدث إلى فاوستينا، خطبة يسودها الاحترام، أما هى، مرتعدة من العقاب الأسرى الذى ينتظرها، كانت تصرّح له بآلامها. وهنا يقفز لهما فى الطريق صوت أختها الساخط وإيماءتها العدائية، تلك الأخت التى هى مستشارة البيت نظرًا لوهن عظم أمهما،

والتى وقفت بالمرصاد للخيانة فجعلتهما يرتجفان. وقالت ناتيفيداد، وكان هذا اسمها، أنتِ لا تعرفين الحياء، يا فاوستينا، فلا النصيحة ولا الضرب سيؤتيان بنتيجة معك، فأنت عنيدة، وسترين بعد ذلك كيف ستصير حياتك. وكلما زاد قولها كلما زاد قرب فاوستينا من جوان. وقفت ناتيفيداد بينهما لتقطع عليهما الطريق والمقصد، إن كان ذلك من سلطة الأخت، وحينها وضع جوان حياته بين يديه ليعرف أهميته لأنه بداية من الآن وهنا، سيكون رجلا جديدًا فى عالم مختلف، بيت، أبناء، حياة مزدوجة. وضع يده فوق كتف فاوستينا، الذى سيكون فى النهاية دنيته، وقال وهو يرتجف أمام جرأتها، هيا نقضى على تلك الحياة، فإما أن تنهى خطبتنا، حتى لا تعانى أكثر من ذلك، وإما أن تأتى لتعيشى معى فى بيت أمى، حتى نتمكن من شراء بيت خاص بنا، ومن اليوم فصاعدًا سأفعل كل ما فى وسعى. كانت السماء ملبدة بغيوم متناثرة، كما قلت من قبل، وظلت كما كانت، مبرهنة بذلك، بحجج طبيعية، إن السماء لا تريد أن تعرف شيئًا عنا، أو ربما فى تلك اللحظة كانت تفتح أبوابها ذلك لأن فاوستينا، الفتاة الجريئة والثابتة التى لم نصف حتى لون عينيها ولا تعبير وجهها، قالت بنبرة راسخة، جوان، سأذهب معك إن وعدتنى أن تحنو على وتهتم دائمًا بى. فقالت ناتيفيداد، آه منك أيتها المنكوبة، وابتعدت بصرامة، متوجهة للبيت كما السهم يعرف هدفه، لتخبر أبويها بالمصيبة . بقى العاشقان

على انفراد، غربت الشمس، وأمسك جوان يد محبوبته. سأفعل من أجلك كل شىء ما دُمتُ حياً، فى الصحة والمرض، والآن فلنفترق، وليذهب كل منا فى طريق، وعندما نبلغ القرية نتقابل لنتفق على ساعة الرحيل .

كان يعيش برفقة جوان المنحوس فى راية النساء أخوه أنسيلمو وأخته ماريا، اللذان اقتربا منه وحضرا جزءًا من الواقعة. اقترب منهما وقال لهما بصوت راسخ، اذهبا إلى الجبل وقولا لأمكما إننى سأحضر خطيبتى إلى البيت، فأنا قد استأذنتها وسنتحدث فى هذا الأمر بعد ذلك وسأشرح لها كل شىء. وقال انسيلمو، أخى، فكّر جيدًا فيما تقدم عليه، لا تُدخِل نفسك فى مشاكل . وقالت ماريا، لا أريد حتى أن أفكر فيما ستقوله أمى وخالى. وقال جوان المنحوس، أنا أصبحت رجلا، ومعفى من الخدمة العسكرية، وإن كان يجب أن تتغير قبلة حياتى، فلماذا الانتظار، فخير الأمر عاجله. فأجابه أنسيلمو، فى يوم ستأتى عصفة ريح على خالنا جواكيم كارانكا وسيرحل، فهو رجل أنانى، وساعتها سنحتاجك فى البيت. وقالت ماريا، فكر جيدًا فى أمرك، لا تخطئ. لكن جوان المنحوس قال كلمة النهاية، أخوتى، عليكما بالصبر، فهذه هى الحياة. ابتعد كلاهما، وسارت ماريا بالدموع فى عينيها .

فى الذهاب و العودة الإسبوعية بين راية النساء وجبل بيرّا بورتاس كان آل المنحوس يستريحون فى

جبل لافرى فى بيت الخالة ثيبريانا، المرأة التى كانت تبكى على ضفاف النهر عندما خطف تيار المياه زوجها، وهى حكاية سبق أن رويناها، ترتدى لبس الحداد وستظل ترتديه حتى يأتيها الموت، بعد سنوات طوال، بعد أن تزوغ عن نظرنا. بواقعة ابن أختها تكسب مواهب أخرى كخَطبة، شريفة لا قوادة، وتكرس حياتها لحماية العشق المأزوم بدون أن يساورها الندم وبدون أن تتعرض للعتاب العام . لكن تلك قصة أخرى. عندما جاء جوان المنحوس قال لخالته، يا خالة، أطلب منك أن تسدى لى معروفاً، أن تتركى فاوستينا تأتى لتعيش معى فى بيتك، بعدها سنمضى لبيت أمى فى جبل بيرّا بورتاس. فأجابته ثيبريانا، انظر جيدًا لما أنت مقدم عليه، يا جوان، وضع أمام ناظرك أننى لا أريد مشاكل، فلن أدنس ذكرى خالك المتوفى. رد جوان، لا تحملى هماً، ستأتيك فقط عندما يطل الليل.

كان هذا ما استطاع جوان أن يفعله من أجل فاوستينا، بعدها ذهب لمقابلتها، يمشى الهوينى عمداً، فتلك مهارات أساسية، يكفى أنه يهواها، بينما هى لم تتمكن تفادى الذهاب أولا لبيتها، حيث لا تريد الصبية أن تهرب بدون رؤية امها، ولا حتى بدون أن تخبرها أين تذهب. قرّر جوان أن يذهب للحلاق، ليكتسب مظهر العريس، أعنى حلاقة لحيته، حتى لا يبدأ حياته الجديدة بلحية لم يحلقها منذ خمسة عشر يوماً . فهذه الوجوه، التى تسير معظم الوقت مكسية باللحية، عندما تمر عليها الأمواس تصبح بريئة،

عزلاء، وتهز قلوبنا هشاشتها. عندما عاد لبيت الخالة ثيبريانا، كانت فاوستينا هناك، فى انتظاره، باكية العين بسبب لعنات أختها، وحنق أبيها القاصف، وحزن أمها المؤلم. خرجت فى الخفاء، لكن من المؤكد أنهم ساروا فى جبل لافرى بحثًا عن المكان التى اختبأت فيه، لذا كان عليهم الهرب فى أقرب وقت ممكن. قالت ثيبريانا ، ستكون رحلة شاقة، فالليلة ستكون شديدة الظلمة مليئة بالأمطار، فلتأخذا معكما هذه المظلة، وقليلا من الخبز واللحم لتأكلا فى الطريق، وانتبها لأنفسكما حتى لا تضلا فى المستقبل، فلقد قمتما بخطوة دون النظر أسفل القدم، هذا ماكانت ثيبريانا تقوله، لكن فى أعماق نفسها كانت تبارك برضا تصرف الشباب المتعسف، آه، من يعيد لى هذا الشباب .

المسافة من هناك لجبل بيرّا بورتاس تصل لفرسخين ونصف، وهاهو الليل قد حلّ والسماء تنذر بالمطر. فرسخان ونصف يمتلئان بالأشباح والمخاوف، يكفى تذكُر القصص المروية عن الرجل الذئب، وتيار المياه الذى خطف زوج خالته، فليس هناك طريق آخر. الصلاة على روح زوج خالتى، فقد كان رجلاً طيباً لا يستحق هذا الموت الحزين. كان شجر لسان العصفور يحرك ببطء أغصانه، والمياه تجرى مثل حرير أسود ويعلو خريرها، من يستطع أن يقول إنه فى هذا المكان ذاته، فهو أمر لا يُصدّق . كان جوان المنحوس يسير ممسكًا يد فاوستينا، المرتعشة أصابعها المتألمة، كان

يصطحبها تحت الأشجار ويطئان العشب الرطب ومنابته، وفجأة، بدون أن يعرفا كيف حدث ذلك، ربما من تعب أسابيع العمل الطويلة، ربما من الخوف الذى لا يحتمل، وجدا نفسيهما مستلقيين على الأرض. وفى وقت قليل فقدت فاوستينا عذريتها، وعندما انتهيا، تذكر جوان الخبز و اللحم وكزوج وزوجته اقتسما الطعام.

لقد رأينا أن لامبيرتو، سواء عندما كان ألمانياً قبل ذلك أو عندما صار برتغالياً الآن، ليس هو الرجل الذى يعمل فى وسيته بيديه. عندما ورثها، اشترى الرهبان وسرق ما استطاع مستغلاً عمى العدالة، وجاءه مكبلين، مثل الطين فى الجذور، عدد هائل من الحيوانات لهم أرجل وأذرع، كانوا هؤلاء خدماً لهذا المصير، بإنجاب الأولاد والحفاظ عليهم ليخدموا من بعدهم. ولأن الأمر كذلك، يريد الأمر العالى، أو القاعدة العرفية، أو الإتيكيت، أو الحيطة البسيطة والمهمة، ألا يتعامل أدالبيرتو مباشرة مع هؤلاء العاملين فى أراضيه. حتى هنا لا خلاف . فلو كان الملك، فى عصره، أو رئيس الجمهورية، فى زمن الجمهورية، مضى ويمضى مزدرياً بالكلمات والإيماءات المتعسفة هذا الشعب الطيب، فمالك الوسية قد يبدو أسوأ منه، فهو فى الواقع أكثر ملكاً من الملك وأكثر رئاسة من الرئيس، بل يمكن وصف فلوريبيرتو بأنه وقح فى المعاملة. على أن هذا التحفظ المتأمل يقبل فى كل الأحوال وجود استثناءات

محسوبة، موجهة بتفنن آخرلإخضاع الإرادة وجذب رعايا مخلصين، هم خدام الخدم الذين يتناولون الجزرة بعد ضرب العصا فيفرحون بالأولى كما يقدرون الثانية. فالعلاقة بين المالك وتابعه هو عمل ذو حساسية عالية، لا يقرر ولا يشرح فى ست كلمات، فمن الواجب أن نذهب لنرى ونسمع حيث تقبع الأسرار. إن خلط القوة الغاشمة بالجهل والعُجب و النفاق، وبحب المعاناة والحقد الكثير والمهارة والفن فى المكائد، لهى دبلوماسية كاملة لمن يريد أن يتعلم . لكن عددًا من القواعد التجريبية التى قدمتها خبرة القرون تساعد على فهم الأمور بشكل أفضل .

بعد الأرض، أول ما يحتاجه لامبيرتو هو رئيس عمال. رئيس العمال هو السوط الذى يفرض النظام داخل سرب كلاب الصيد. رئيس العمال هو فى الأصل كلب تم اختياره من بين الكلاب ليعض الكلاب. لابد أن يكون كلباً ليعرف مهارات الكلاب ودفاعهم. فلن يبحث عن رئيس عمال بين أبناء نوربيرتو. ألبيرتو هو هومبيرتو. رئيس العمال، فى المقام الأول، خادم، له مزايا ومكافآت تتناسب مع كثرة العمل القادر على أدائه فى الوسية . لكنه خادم . موقعه بين الأوائل والأواخر، إنه نوع من البغال البشرية، من الضالين، إنه يهوذا، فرد يخون إخوانه فى مقابل نيل سُلطة أكبر وكسرة خبز ناشفة أخرى .

أما السلاح الأقوى والأقطع فهو الجهل. كانت سيجيسبيرتو تقول فى عشاء يوم ميلادها إنه من

الملائم ألا يعرفوا، ألا يقرءوا، ألا يكتبوا، ألا يحكوا، ألا يفكروا، أن يعتبروا ويقبلوا أن الدنيا لا يمكن تغييرها، وأن هذه الحياة هى الاحتمال الوحيد الممكن، بما هى عليه، إن وراء هذه الحياة تنتظرهم الجنة، وأفضل من يشرح ذلك هو الأب أجاميديس، وإن العمل يمنح المال و الكرامة، لكن بدون أن يفكروا أنى أربح أكثر منهم، فالأرض أرضى، فعندما يأتى يوم دفع الضرائب والتبرعات لا أطلب منهم قرضاً، فضلاً عن أن الحياة كانت هكذا دومًا ودومًا ستسير كذلك، ولو لم أهبهم أنا عملاً، من سيهبهم! أنا وهم فى مركب واحد، أنا الأرض وهم العمل، وما يأتى فى مصلحتى يأتى فى مصلحتهم، والرب أراد أن يكون هذا حال الدنيا، وأفضل من يشرح ذلك هو الأب أجاميديس، بكلمات سهلة لا تزيد تشوشًا على التشوش الدائر فى الرءوس، ولو لم يكن القس كافياً، يؤمر الحرس القومى بالتجول فوق خيوله بالقرية، فبمجرد ظهوره فقط، تصل رسالة الإنذار بلا صعوبة. لكن قولى لى يا أمى، هل يضرب الحرس أيضًا ملاك الوسية ؟ أنا أرى أن هذا الولد مريض فى عقله، أين شاهدت ما تحكيه! الحرس يا بنى تم خلقه والإنفاق عليه لكى يسوق الشعب. كيف يكون ذلك ممكنًا يا أمى، أيصنعون حرساً فقط ليسوق الشعب، وماذا يفعل الشعب ؟ ليس لدى الشعب من يجعله يسوق مالك الوسية الذى يأمر الحرس ليسوقوا الشعب. لكننى أعتقد أن فى مقدور الشعب أن يطلب من الحرس أن يسوقوا ملاك الوسايا. أنا قد قلت من قبل، ياماريا،

إن هذا الولد ليس له عقل تام، لا تتركيه يسير فى الوسية يقول هذه الأشياء، فمازالت لدينا مشاكل مع الحرس.

لقد خُلِق الشعب ليعيش قذرًا وجائعًا. فشعب يستحم هو شعب لا يعمل، ربما الأمر يختلف فى المدينة، لا أنفى ذلك، لكن هنا، فى القرية، فى الوسايا، يستأجرون الرجل للعمل بعيدًا عن بيته ثلاثة أو أربعة أسابيع، وأحيانًا يصل لعدة أشهر إن رأى ذلك ألبيرتو، ويعد شرفًا للرجل ألا يستحم خلال فترة استئجاره بل وعدم غسل وجهه ويديه، وعدم حلاقة لحيته بالطبع. ولو فعل ذلك، قد يتلقى السخرية من أصحاب الوسية ومن زملائه، وذلك افتراض ساذج غير مستبعد . هذه هى فترة رخاء الزمن، تباهى المعانين بمعاناتهم، فخر العبيد بعبوديتهم . لابد أن يكون حيوان الأرض حيوانًا بالفعل، أن يرقد عماص الصباح فوق عماص المساء، أن تكون وساخة اليد والوجه والإبط وأعلى الفخذ والرِجل وفتحة الجسد، هالة مجيدة للعمل فى الوسية، لابد أن يكون المرء أقل مرتبة من الحيوان، هذا المخلوق الذى ينظف نفسه بلحس جسده، لابد أن يحط من قدر المرء حتى لا يحترم ذاته ولا يحترم أقرانه .

وبالإضافة لذلك، يفتخر العمال باللطمات التى يتلقونها فى أعمال الحرث. كل لطمة تعد ميدالية للعُجب فى الحانة، بين كأس وكأس. فى عملى لدى بيرتو وهومبيرتو تلقيت كذا وكذا من اللطمات. هؤلاء

هم العمال الطيبون، الذين، فى فترات الضرب بالسوط، قد يظهرون آثار الضرب الحمراء، ويكثرون من ذلك إن كانوا ينزفون، وهذا صلف يضاهى صلف الرعاع بالمدن، الذين يتفاخرون بفحولتهم الجنسية فى سن العجز كلما زادت تعقيبتهم أو قرحتهم التناسلية اللينة وقيدتهم فى سريرالمتعة: آه، كم هى قرية تسبح فى سمن الجهالة وعسلها، ودائماً ما تجد من يهينها. واعمل، اقتل نفسك عملاً، إنهك نفسك لو لزم الأمر، فبهذه الطريقة ستترك فى نفس رئيس العمل أو صاحب الأبعدية ذكري جميلة، وياويلك لو اشتهرت بالكسل، فلن تجد بعد ذلك من يستأجرك. تستطيع أن تجلس على أبواب الحانات، بصحبة زملاء البؤس، الذين سيحتقرونك أيضاً، وسينظر لك رئيس العمل أو صاحب الوسية، إن مرا من هناك، نظرة اشمئزاز، وستبقى وحيداً بلا عمل، حتى تتعلّم. فالآخرون قد تعلموا الدرس، سيذهبون كل يوم ليعملوا حتى الموت فى الوسية، وعندما تصل أنت إلى بيتك، إن كان يمكن أن يُسمى ذلك بيتًا، فبأى وجه ستقول إنك لم تجد عملاً، نعم وجد الآخرون أما أنت فلا. أصلح من أمرك إن لم يفت القطار بعد، أقسم إنك احتملت أكثر من عشرين وخزة، اصلب نفسك، مد ذراعك ليشقوه نصفين، افتح عروقك وقُل هاهو دمى، اشربوا منه، هاهو لحمى، كلوه، هاهى حياتى، خذوها، اطلب البركة من الكنيسة، من تحية العلم، أمام عرض القوات العسكرى، من مكتب أوراق الاعتماد، ودبلومة

الجامعة، افعلوا فى ما تمليه عليكم إرادتكم، هكذا فى الأرض كما فى السماء .

آه، لكن الحياة أيضًا لعبة، تدريب مُختمر، فاللعب حدث ذو جدية عظيمة، خطيرة، فلسفية، يمثل للأطفال طوراً مهمًا للنمو، ويمثل للبالغين ارتدادا للطفولة، يستلذه البعض. عن هذه الأشياء كتبوا مكتبات كاملة، راسخة كلها، متعقلة، الأحمق فقط هو الذى لا يقتنع بها فى النهاية. لكن الخطأ يكمن فقط فى الاعتقاد بأن الأهمية القصوى توجد فقط فى الكتب، بينما، فى الحقيقة، تكفى نظرة، لحظة انتباه واحدة، لنقيّم كيف يلعب القط والفأر، وكيف تنتهى اللعبة بأكل القط للفأر. لأن القضية الوحيدة التى تهمنا هى معرفة من يستغل فى الواقع البراءة الأولى للعبة، وبهذا نستفيد من مثال اللعب هذا الذى لم يكن أبدًا بريئًا، عندما يقول رئيس العمال للأجراء، هيا سريعًا، لنرى من يصل الأخير، اركضوا. والأبرياء، العميان عن الخديعة الجلية، يمضون من جبل لافرى إلى وادى الكلاب مسرعين، عدواً، جرياً، لينال كل منهم شرف أن يكون الأول، أو ليشعر بالرضا المؤكد بعدم كونه الأخير. لأن الأخير، ودوما هناك واحد هو الأخير، ولا يمكن تفادى ذلك، سيتحتم عليه سماع السخرية، واستهزاء المنتصرين اللاهثين، المتسارعة أنفاسهم، كل هذا قبل أن يشرعوا فى عملهم، ويطلقوا جميعًا صياح الاستخفاف، كم هم حمقى مساكين. هاهو جوان المنحوس يصل الأخير، فليعزف له المزمار،

ولا أحد يعرف أى مزمار هذا، لكنه أى مزمار، أية إشارة لحماقته، لضعف ساقيه البطيئتين، للدلالة عن أنه ليس رجلا ولا شئ. إن البرتغال بلد رجال، والرجال هنا بالكوم، وليس منهم من يأتى الأخير، فلتبتعد من هنا، أيها التنبل، فأنت لا تستحق الخبز الذى تأكله .

لكن حتى هنا لا تنتهى اللعبة. فالأخير فى الوصول، للحفاظ على ماء الوجه، يريد أن يكون الأول فى رفع الحمل فوق ظهره، فدومًا هناك تعويض. إنهم يجمعون كومة من الحطب يستخلصون منه الفحم، وأنت تقول، بعد أن تضع جوالاً فارغًا على ظهرك لكيلا تشعر بألم جم يأتيك من هذا المكان، هيا، أعطنى هذا الجذع، فأنا من أحمله. يراقبك رئيس العمال بعينيه ويجب أن تبرهن للزملاء أنك أيضاً رجل مثلهم، فضلا عن أنك لا تستطيع البقاء بلا عمل الأسبوع القادم، فلديك أولاد، وحينها يقترب اثنان ويرفعان الجذع، الاثنان ليسا ابنيك، لكنهما فى مكانتهما، ومرتجفين من الجهد، يضعانه فوق كتفيك، فتثنى نفسك كما الجمل لتتلقى الحمولة، كما لو كنت قد رأيت حيوانًا من هؤلاء، عندما تشعر بالحمل، تثنى ركبتيك، تضغط بأسنانك، تتحامل على كليتيك، ورويدًا رويدًا تزن اعتدالك، ياله من جذع هائل، غصن عملاق، لدرجة أنك تشعر أنك تحمل فوق كتفيك شجرة سنديان من مئات السنين، تخطو خطوتك الأولى، كم هى بعيدة كومة الحطب، الزملاء ينظرون،

كذلك رئيس العمل، هيا احتمل أيها الرجل". هذا هو مربط الفرس، الرجولة هو أن تحتمل الجذع فى لوح كتفك الذى يخشخش، أن يحتمل قلبك، ليحترمك رئيس العمال، الذى سيقول لأدالبيرتو إن هذا المنحوس، ومن يقول المنحوس يستطيع قول اسم آخر، رجل بحق، حمل الجذع، لا تستطيع حضرتك أن تتخيل، إنه رجل شديد، وما فعله كان بطولة. قد يحدث ذلك ، لكنه حتى الآن لم يخط سوى ثلاث خطوات . لديك رغبة فى رمى الحمل فوق الأرض، هذا ما يطلبه منك جسدك المنتهك، لكن روحك، إن كانت سوية، ونفسك، إن استطعت أن تطردها من داخلك، سيقولان لك إنك لا تستطيع، إنك ستفضل أن تنفجر قبل أن تسقط على الأرض وتبقى كما الرجل العاجز، فليحدث اى شىء إلا هذا العار. لقد جاءت سفسطات كثيرة منذ ألفى عام حول المسيح وحمله الصليب لأرض الصلب، مع أنه فعل ذلك بمساعدة قورينى(*)، لكن عن المنحوس المصلوب لن يتحدث أحد، المنحوس المصلوب الذى بالكاد تناول عشاءه بالأمس واليوم لم يأكل شيئاً تقريباً، ومازال أمامه نصف الطريق ليمشيه، وتحدق فيه العيون، هذا هو الاحتضار، يا سادة، الجميع يحدقون، ويصيحون، ها أنت لا تستطيع، ها أنت عاجز. وانت قد كففت عن أن تكون ذاتك، والحمد لله أنك لم تصل لحيوان، فتلك نعمة كبرى، لأنك لو تركت ساقيك للتراخى سيدفنك

(*) قورينى: منسوب لمدينة قورينة الإغريقية القديمة الواقعة فى منطقة برقة بليبيا (المترجم).

مـا تحـمـلـه، وأنت، أنت لـست رجلاً، أنت كـومـبـارس مـحـتـال فى حـفـلـة عـالمـيـة مـخـمـورة، لـهـو، مـاذا تـريـد، الأجرة لا تـكـفـى لـلـطـعـام لـكن الحـيـاة هـى هـذه اللـعـبـة المرحة. هـا قد اقترب، هـا قد اقترب. تسمعهم يقولون، وتشـعـر أنك لست من هـذا العـالم، حمل ثقيل، وأنتم لا رحـمـة عـنـدكم، سـاعـدونـى، أيـهـا الـزمـلاء، فـلـو اتحـدنـا لبذل كل منا مجهودًا أقل. لكن لا، هذا مستحيل، إنها مـسـألـة شـرف، قـد لا تـعـود لـلـحـديث مـرة أخـرى فـى حياتك مع من يحاول مسـاعدتك، هـنـا يكمن الخطأ، خطأ الجميع . تترك الجـذع يسقط فى المكان الـذى يجب أن يبقى فيه بالضبط، عمل بطولى عظيم، بينما الـزمـلاء يـحـيـونـك، لـست أنت الأخـيـر، ويـقـول رئـيـس الـعـمـل، نـعـم يـا سـيـدى، إنه عـمـل بـطـولـى. تـرتجـف سـاقـاك، وتشعر بإرهـاق كإرهـاق بغلة كانت تحمل مـا لا طـاقـة لهـا به، وتتنفس بـصـعـوبـة، يـاللـوخـزات، إلـهـى. وخزات! يالك من جاهل، إن ما أصابك تمزق عـضـلـى، انـزلاق غـضـروفـى، أنت لا تـعـرف الـكـلام لـتـسـمـى مـا أصابك، يا لك من حيوان مسكين .

العمل والعمل. الآن يهجرون جبل لافرى، بعضهم يصطحب عـائـلـته معه، لـيـصـنـعـوا الـفـحـم فـى أراضـى إنفـانـتـادو، فـيـنـظـم الرجـال بمـفـردهـم بلا امـرأة واحـدة داخل الـهـنـجـر الـكـبـيـر، أمـا الـذين جـاءوا بـصـحـبـة زوجـاتهـم فينظمون أنفسهم فى هـنـاجـر أخـرى، يضعـون حـصـائـر أو سـتـائـر من الـكـرتـون أو بـعض الألـواح الخـشـبـيـة لـتـفـصـل بـين المتـزوجـين، يـنـام الأولاد مع

أبويهم، وهناك من لا يمتلك حتى أبويه . البق يلدغ بلا رحمة، إلا أن النهار أسوأ من الليل، حيث يأتى الناموس فى قوافل تشكّل سحبًا، فيضبب الرؤية أمامنا، ويسقط فوقنا بأزيزه كأمطار من الزجاج المطحون، كم كانت جداتنا محقات، تلك النسوة الخبيرات بمعنى الحياة، آه يا أحفادى، يامن لن أعود لرؤيتكم من جديد، ستموتون بعيدًا عن بيوتكم. يعرفون ذلك عن يقين، فتلك أشياء لا يجب أن تُنسى، ستبقى أجساد الأطفال الصغار بأكملها كجرح مفتوح، كعاصفة، أجساد مثخنة بالجراح تنام ليلا فوق خِرق، بمعدة خاوية ينهشها الجوع، الجسد بأكمله لا يكفى، فينمو، بدون حتى سلوى من الآباء الذين يربتون عليه بحنو. الآباء يرتجفون ويتنهدون، أشياء لازمة ليكبح الصمت الحواس هكذا، بينما بجانبهم زوج آخر يكرر اللمس، الرجف والتنهيدات، سواء بشهوة منه أو باقتراح تلقاه برضا، وكل الصبية بالهنجر يفتحون عيونهم منصتين، يجربون إيماءاتهم الخاصة ووهمهم .

من أعلى أشجار السنديان تلك تُرى لشبونة عندما يكون النهار صافيًا، من يقول إنها شديدة القرب هكذا، لقد كنا نعتقد أننا نعيش فى ذيل العالم، إنها أخطاء من لا يعرف ومن ليس لديه من يعلّمه. جاء ثعبان الفتنة، تسلق الشجرة ذات الأغصان الجالس فوقها جوان المنحوس يتأمل لشبونة وتعده بالمعجزات وثروات العاصمة مقابل حفنة نقود ثمن التذكرة، لكن هذه الحفنة ليست بالشىء الهين، لو

وضعنا فى الاعتبار إمكانات الصبى، مع ذلك، بما أن الموت قادم قادم، سيكون مجنونا من يرفض. سننزل من المركب فى مرفأ سودريه وسنقول مذهولين، هذه هى لشبونة، يالها من مدينة كبيرة، والبحر، انظر للبحر، ماء غزير، وبعدها نسير فى شارع القوس المسمى شارع أوجوستا، ياللحركة، ونحن حيث لم نعتد هذه الطرق المرصوفة، نسير نتزحلق طوال الوقت، يدفع بعضنا البعض بشعور من الخوف من الترام، ويسقط الاثنان، فيضحك أبناء لشبونة ويقولون: انظر للفلاح، فنرد عليهم: انظر لهذا الفرفور، وانظر لشارع الحرية، ماهذه العصا المغروزة فى الأرض، إنها أثر للمرممين، آه، لم أكن أعرف، وبينى وبين نفسى أقول: ومازلت لا أعرفه، فعار الجهل هو أكثر الأشياء التى من الصعب علينا الاعتراف بها، لكننا متغلبون على خوفنا سنصعد لشارع الحرية لزيارة أختنا التى تخدم هنا، فى هذا الشارع، نعم سيدى، فى رقم ٩٦ انظر أنت فأنت تعرف القراءة. لا أفهم، هذا مستحيل، فالأرقام هنا من ٩٥ إلى ٩٧، ولا يوجد رقم لكن من جد وجد، هاهو، لقد سخروا منا لأننا لا نعرف فى الجانب الآخر، كثيرًا ما يسخر أبناء لشبونة .

هاهو البيت، ياله من شاهق، هنا تعمل أختنا، السيد يسكن فى الدور الأول، إنه دون ألبيرتو، صاحب الوسية التى أحيانًا نعمل بها، كلهم من عائلة واحدة. انظر من يقف هناك، ستقول ماريا، آه ياللسعادة، كم أصبحتى بدينة، ليس هناك أفضل من

الخدمة فى المنازل. بعدها سنخرج كلنا معًا، فالسيدة امرأة كريمة وتسمح لى بالخروج، لكنها تستقطع من الخروجات القادمة، عادة أخرج كل أسبوعين مرة، طوال النهار، بين الغداء و العشاء. سنزور بعض أبناء عمومتنا الذين يعيشون هنا مشتتين، فى الشوارع والأزقة، وفى كل مكان سنجد نفس الحفلة. انظر من يقف هناك، ونقرر أنه بالليل سنذهب جميعًا لنشاهد عرضا غنائيا راقصًا، لكن قبل ذلك لا يمكن أن نفقد زيارة حديقة الحيوانات، حيث خفة ظل القرود طويلة الذيل، وهذا أسد، وانظر إلى الفيل، لو قطع علينا الطريق حيوان كهذا فى القرية، ستهر على نفسك من الرعب، والعرض هو عرض الميخا، تؤديه بياتريث كوستا وفاسكو سانتانا، ياله من رجل شيطان، حتى بكيت من الضحك. سننام هنا فى المطبخ و الممر، لا تشغلى بالك ابنة عمى، فنحن قد اعتدنا على كل شىء، ليالى لشبونة مختلفة فى نومها، إنه الصمت، وليس كل الصمت سواء . ماذا، استرحتم فى نومكم، ولا أحد يتجرأ على قول إنه لم يسترح فى نومه، متقلبًا طوال الليل، هيا بنا الآن لتناول الإفطار وبعد ذلك نتجول بالمدينة، هذه ليست مدينة، إنها عالم، وفى القنطرة نتقابل مع بعض عمال السكة الحديد ويصيحون فينا: أيا فلاحون، ألا تعرفون ولا حتى السير، ويغضب الصهر ويتشاجر معهم، هيا، كرر ما قولت، وينتهى الأمر بالصفعات، لكن بعد ذلك نركض خجولين، ويصيح الآخرون: انظر للولد مرتدى

الجاكيت، انظر للفلاح، ويراه على الفرسخ الذى ينزل من السلسلة الجبلية، لكننا لسنا من السلسلة الجبلية، مع أننا من هناك. سنعود لنعبر النهر، ياله من بحر كبير، ورجل يركب المركب يقول بكل لطف: هذا هو نهر التاجو، أما البحر فمازال بعيدًا، وحينئذ ننتبه، لا نرى أرضًا، قد يكون ذلك ممكنًا . عندما ننزل من المركب فى مونتيجو يكون أمامنا عدة كيلومترات يجب أن نمشيها، ثمانية كيلوات، حتى نصل للمكان الذى سنعمل فيه، لقد أنفقنا نقودًا كثيرة، لكن الأمر يستحق، وعندما نعود لجبل لافرى سيكون لدينا الكثير لنحكيه، وليقل من يستطيع الآن إن الحياة ليس بها أيضًا أشياء جميلة .

عندما تقام حفلات الزفاف تلك، أحيانًا تأتى الصبية بابنها فى بطنها. يلقى القس البركة على الاثنين ويميل على الثالث، حيث يرى استدارة البطن من البلوزة، المرفوعة فى بعض الأحيان. لكن حتى عندما لا يكون الأمر كذلك، سواء كانت العروس عذراء أم افتضت بكارتها، فمن النادر أن ينتهى العام دون حلول مولود. وإن أذن الرب، تتم ولادة الأول وسريعًا يحل الثانى، فبمجرد أن تلد المرأة تحمل من جديد. يالهم من أناس خشنين، جهلاء، أسوأ من الحيوانات، فللحيوانات على الأقل دورتها النزوية وتتبع قوانين الطبيعة. أما هؤلاء الرجال فيأتون من العمل أو الحانة، يدخلون فى سريرهم النقال، يهيجون على رائحة المرأة، أو تنعش شهواتهم جمرات النبيذ أو

الجوع الذى ينهكهم، فينامون فوقهن، لا يعرفون طرقًا أخرى، يلهثون، بخشونة لا تعرف الرقة، وهناك يتركون عصارتهم تسبح فى الأغشية المخاطية، فى خفايا المرأة التى لاهى ولا هو يفهم عنها شيئًا. هذا أمر جيد، أفضل من أن يفعل ذلك مع امرأة غريبة، لكن العائلة تزداد، تمتلئ بالأولاد، حيث لا يأخذون حذرهم، أمى أنا جائع، والدليل على أن الرب غير موجود هو أن الرجال لم يخلقوا مثل الكباش التى تأكل عشب المنحدرات، ولا مثل الخنازير التى تأكل البلوط. وحتى لو كانوا يأكلون العشب و البلوط، فلن يستطيعوا الحصول عليه فى سلام، لأن الغفير والحراسة هناك، بعينين يقظتين وبندقية فى وضع الاستعداد، ولو أن الغفير، باسم وسية نوربيرتو، لم يتردد فى إطلاق النار على السيقان، أو القتل لو تراءى له ذلك، فالحراسة، التى تفعل أيضًا نفس الشىء عندما تتلقى أمرًا أو بدون انتظاره، فسيجدون فى السجن وسائل الترفيه، مجرد غرامة وعلقة بين أربعة حوائط. لكن هذا، يا سادة، ماهو إلا سلة كريز، ترمى واحدة وتطلع ثلاثة أو أربعة معلقين ولا ينقص هناك وسايا بسجونها الخاصة وقانونها الجنائى . فى هذه الأرض تطبق العدالة كل يوم، وحيث سنذهب إن اختفت السلطات .

العائلة تتكاثر، و حتى إن مات فيها أطفال كثيرون بداء الجفاف الناتج عن الإسهال، وتحلل هؤلاء الملائكة الصغار فى صورة غائط وانطفأوا كما الفتائل،

وصاروا مجرد إيماءات باليد والقدم أكثر من أى شىء آخر، بينما بطن تنتفخ، ويظل الصغار هكذا حتى تأتى ساعتهم فيفتحون عيونهم للمرة الأخيرة فقط لمشاهدة نور النهار، هذا إن لم يموتوا فى ظلام الليل، فى صمت الكوخ، وعندما تستيقظ الأم تجد الابن قد مات فيبدأ الصراخ، دائمًا نفس الصرخات، فتلك الأمهات اللاتى يموت لهن أولاد لسن قادرات على ابتداع شىء. أما الآباء، فيبقون جافين، وفى اليوم التالى يذهبون للحانة بوجوه من سيقتلون أحدًا أو شيئًا. ويعودون سُكارى وبدون أن يقتلوا أحدًا أو شيئًا.

يذهب الرجال ليعملوا بعيداً، حيث تتاح فرصة لمكسب أكبر. هم فى أعماقهم رجال متوحشون، يتجولون من هنا لهناك ويعودون لبيوتهم بعد أسابيع أو أشهر ليلقوا فى نسائهم بذرة طفل جديد. وفى أثناء ذلك، فى إزالة الأوراق والأغصان الجافة من البلوط، أو انتزاع الفلين، على عاتق حراس الزرع، تعد كل قطرة عرق قطرة دم مفقودة، والمنكوبون منهم يقضون اليوم المقدس بطوله يتكبدون الألم، وأحيانًا يتكبدونه بالليل أيضًا، يعدون ساعات العمل على أصابع ثلاثة أيدى، عندما لا يستلزم الأمر العد على اليد الرابعة للحيوان حيث يكتمل عد ما نقص، وخلال أسبوعين لا تجف الملابس على الجسد. وليستريحوا، إن صح استخدام هذا الفعل هنا، يرقدون على سرير من الخلنج يعلوه التبن، يرتجفون ليلا، قذرين، مهانين، هذا لا يصح، فلا يمكن الايمان بالقس أجاميديس

الذى يتناول غداءه الملكى فى بيت فلوريبيرتو، غداءً قيماً، كما يدل على ذلك تجشؤه الذى يرن صداه فى الوسية بأكملها .

تلك هى قوة السماوات. فضلاً عن ذلك، لاحظ هذا، القصة تتكرر كثيرًا. الرجال قابعون فى الأكواخ، يمزقهم الكلل، يرتدون ملابسهم، بعضهم يغوص فى نومه والبعض الآخر لا يستطيع، وبين ثغرات الأعمدة القائمة مقام الحوائط يطل بصيص ضوء لم يشهده أحد من قبل، مازال الصبح بعيدًا، فهذا ليس ضوءه، يخرج أحدهم ويظل مأخوذًا من الخوف، فالسماء فى مجملها تمطر عددًا هائلاً من النجوم، تسقط مثل المصابيح، والأرض مضاءة بشكل لم يستطع القمر أبدًا ان يضيئها به. يخرجون كلهم ليشاهدوا المنظر، هناك منهم حقًا من يرتعش خوفًا، والنجوم تتساقط فى صمت، إنها نهاية العالم، أو بدايته أخيرًا. يقول امرؤ اشتهر بالحكمة، إنها حركات الكواكب، حركة الأرض. وكلهم بجانب بعض ينظرون لأعلى، برقبة ملتوية، وتنعكس فى وجوههم المتسخة الغيمة المضيئة للنجوم المتوهجة، إنه مطر لا يُقارن يترك الأرض بعطش مختلف وكبير. ويؤكد رجل متشرد شبه أحمق عَبَرَ من هناك فى اليوم التالى مقسمًا بروحه وروح أمه التى مازالت حية ترزق أن تلك العلامات السماوية كانت تعلن أنه فى حظيرة قريبة، على بعد ثلاثة فراسخ من هنا، قد ولد، من أم أخرى، غير عذراء فى أغلب الظن، طفل ليس هو المسيح وإنما عمدوه بهذا الاسم.

لم يصدّقه أحد، وبفضل هذا الشك أصبحت مهمة الأب اجاميديس أكثر يسرًا، حيث فى يوم الأحد التالى، داخل الكنيسة الممتلئة والقلقة بشكل لم يحدث من قبل، سَخَرَ من الأغبياء الذين يعتقدون أن المسيح سيعود للأرض بهذا الشكل، دون شكل آخر، ولأقول ما سيقوله المسيح إننى هنا من أجل ذلك فأنا القس، ولدىّ أوامر مقدسة وتعليمات وآباء للكنيسة الكاثوليكية الحوارية الأم و الرومانية، أفهمتم جميعًا، أم تريدون أن أفتح لكم أذنًا أخرى فى أعلى رءوسكم.

كان محقًا هذا الحكيم الذى تنبأ أنها حركات الكواكب، حركة فى الأرض، وأكد الأحباش ذلك على الفور، من استطاع منهم، بعدهم الإسبان، ثم نصف العالم. هنا تتحرك الأرض طبقًا للتعاليم القديمة. يأتى يوم السبت، ومعه السوق، لكنه كان غاية فى الشح فلم يعرف أحد كيف يملأ للأسبوع القادم حقيبته المصنوعه من الخيش. كانت المرأة تذهب لصاحب الدكان وتقول له، من فضلك، انظر إن كنت تستطيع أن تبيع لى بالآجل هذا الإسبوع، فنحن لم نعمل سوى القليل لسوء أحوال الطقس. أو تقول نفس المعنى بكلمات أخرى، بادئة بنفس الطريقة، من فضلك، انظر إن كنت تستطيع أن تبيع لى بالآجل هذا الإسبوع فزوجى عاطل. أو، بنظرة خجولة مثبتة فى البنك كمن ليس لديه عملة أخرى ليدفعها، سيربح زوجى أكثر هذا الصيف، حينها سندفع لك كل دَينك. أما صاحب الدكان، مسددًا لكمة فى دفتر الحساب،

يجيبها، أسمع منك هذه القصة منذ زمن طويل، ويأتى الصيف وينتهى ويعود الكلب مرة أخرى للنباح". الديون كلاب، هذا شىء مثير للفضول، مَنْ أول من خطر بباله هذا التشبيه، هذه قرية ذات اختراعات صغيرة وضرورية، تخيل دفتر البقال أو الخبّاز، بأرقام كبيرة مكتوبة بالقلم الرصاص، يسجلها الأول والأخير، هذا الدفتر يشبه المسدس، كله طلقات، وقد يتكاثر، وهذا الوحش، بأسنان ذئب، هو دين ثقيل من العام الماضى. إما الدفع وإما ينتهى البيع بالآجل. لكن أولادى جوعى، ومرضى، وزوجى بلا عمل، وليس لنا من نلجأ إليه. ما تقولينه لا جدوى منه، لن أبيع لك شيئًا قبل قبض ثمنه. وتنبح الكلاب فى كل هذه الأرض من أقصاها لأدناها، نسمع نباحهم على الأبواب، يأتون خلف من لم يسدد، يعضونه فى سمانة رجله، يعضون روحه، ويذهب البقال حتى الشارع ويقول لمن يريدها أن تسمع، أخبرى زوجك بهذا، والباقى هو يعرفه. وهناك من يتلصص من نوافذه ليرى من تلك التى لحقت بها الفضيحة، إنها وحشية الزمن على الفقير، اليوم أنت، غدًا أنا، فلا يجب أن تفسر الأمر تفسيرًا آخر .

عندما يشتكى الإنسان فلابد أن هناك شيئًا ما يؤلمه. فلنشتكِ نحن من هذه الوحشية التى لا اسم لها، ومن المؤسف أن لا اسم لها. وماذا سنفعل اليوم، ونحن لا نملك سوى تلك النقود، والدكان يديننا، والبقال لا يبيع بالدين، وكلما ذهبت له يهددنى بأن رصيدنا لديه

قد انتهى، ولن يبقى سنت واحد. يا امرأة، حاولى مرة أخرى، ما كلماته سوى كلمات بلا أفعال، إنه إنسان وقلبه ليس حجراً. إذاً فلن أذهب بمفردى، فليس لى وجه لأقف على بابه، تعال أنت معى فقط. إذاً فلآت معك، مع أنى أعرف أن الرجل لا ينفع فى مثل هذه المواقف، فواجب الرجل أن يكسب المال، أما تليين القلوب فهذا واجب المرأة، فضلا عن أن النساء قد اعتدن ذلك، فهن يعترضن، يقسمن، يفاصلن فى الشراء، يبكين، بل لديهن المقدرة أيضًا على المرمغة فى التراب، آه، هاتوا لى كوب ماء لقد وقعت المسكينة مغشيًا عليها. ويذهب الرجل، لكنه مرتجف، لأنه كان يجب أن يكسب رزقه ولم يكسبه، لأنه كان يجب أن يحكم العائلة و لم يحكمها. سيدى القس أجاميديس، كيف أوفى ما وعدت به عند زواجى، هيا أخبرنى. نصل إلى الدكان ونجد هناك قساوسة آخرين، بعضهم يدخل والبعض الآخر يخرج، لا يقوم جميعهم بشراء مسالم، ونبقى نحن فى الخلف، فى هذا الركن، بجانب جوال الفاصوليا، لكن انتبه، لم نأت لنسرقه. لا يوجد زبائن إلا نحن، فلنستغل هذه الفرصة الآن، إذًا سأتقدم أنا فأنا الرجل، ترتجف يداى. يا سيد جوزيه، انظر إن كنت تستطيع أن تقدم لنا شيئًا، لن استطيع هذا الأسبوع أن أدفع كل دينى، فلقد كان اسبوعا غاية فى السوء، لكن عندما أكسب شيئًا ..سأدفع لك كل دينى، كن متأكداً من ذلك، فلن أترك اية ديون . فلنعترف أن تلك الكلمات ليست جديدة، فقد قيلت سلفا فى الصفحة السابقة، بل قد قيلت

فى صفحات دفتر الوسية بأكملها، فكيف ننتظر إذاً أن يختلف الرد. لا يا سيدى، لا أبيع لك بالآجل مرة أخرى. لكن البقال قبلها مد يده كالمخالب وأخذ كل النقود التى وضعتها أنا فوق البنك، لألين قلبه، وحينها أجابنى. وأنا قلت له، بكل هدوء أمكننى والله يعلم أنه قليل، يا سيد جوزيه، لا تفعل ذلك معى، فما أطلبه ليس إلا طعامًا لأولادى، كن رحيمًا بى. فكان رده، لا تحك لى هذه الحكايات، فلن أبيع لك بالآجل مرة أخرى، فبعد ما دفعته الآن مازال عليك الكثير. وقلت له، يا سيد جوزيه، من فضلك، اعطنى على الأقل شيئًا بتلك النقود التى أخذتها، فقط لأسد جوع أولادى بقليل من الطعام. فكان جوابه، لا أستطيع أن أبيع بالدين مرة أخرى، فما قد أخذته منك لا يصل لربع ما أدينك به ". سدد ضربة للبنك، إنه يتحدانى، سأضربه، أو أوخزه بالسكين، أو بالمطواه، هذا السلاح المنحنى، هذا الخنجر العربى. يا ويلتى، وتضيع أنت، فكّر فى أولادنا، لا تعبأ به، يا سيد جوزيه، ولا تأخذ كلامه مأخذ الجد، فما ذلك إلا يأس الفقير. دفعونى حتى الباب. اتركينى يا امرأة، سأقتل هذا التيس. لكن فى داخلى كنت أفكر أننى لن أقتله، فأنا لا أعرف القتل. بينما هو من الداخل يقول لى، إن بعت بالدين لكل الناس ولم يدفع لى أحد، من أين سأعيش أنا. كلنا معنا الحق، فمن عدوى إذاً ؟

وبسبب هذا الفقر المدقع والاحتياج المشابه كنا نؤلف حكايات عن الكنز المدفون، أو أننا وجدناها

مؤلفة وجاهزة، لتبقى رمزًا لسرمدية الفقر، فتلك حكايات لا تنتسب فقط لليوم. وهناك تحذيرات ينبغى أن ندركها بانتباه شديد، فبسبب أقل خطأ يتحول الذهب قارا والفضة دخانا، أو يبقى المرء أعمى، وتلك أحوال قد شاهدناها. هناك من يقول إنه لا يقين فى الرؤى، لكن لو رأيتُ فى المنام ثلاث ليال متتالية كنزاً ولم أحدث عنه أحداً، ولم أحدث أحدًا عن مكانه الذى رأيته فيه فى المنام، فمن المؤكد أننى سأعثر عليه. لكن لو فتحت فمى، لن أعثر عليه، لأن للكنوز مصيرها المحدد، ولا يمكن توزيعها نزولاً لإرادة البشر. وتلك حكاية قديمة لصبية رأت فى المنام خلال ثلاث ليال أنه فى غصن شجرة يوجد أربعة عشر ريالا وتحت الجذع قدر من الصلصال مليئًا بنقود من ذهب. بهذه الأشياء ينبغى أن نؤمن دوماً، حتى ولو كانت أكاذيب. حكت الفتاة رؤيتها لجديها اللذين تعيش معهما وذهبوا جميعًا للشجرة. وهناك وجدوا أربعة عشر ريالا فى الغصن، فتحقق نصف الحلم، لكن شعروا بالحزن من الحفر حتى الجذوع، لأن الشجرة كانت شديدة الجمال، ولو رأت الشمس لماتت، إنه ضعف الروح البشرية. لا أحد يعرف كيف انتشر الخبر، لكنه انتشر، وعندما قرروا العودة، معافين من حزنهم، كانت الشجرة ساقطة على الأرض وفى عمق الثقب قدر من الصلصال مكسور، ليس إلا. واختفى الذهب بفن السحر، أو بقدرة قادر قليل الوساوس أو محنك الحس، فأخذ الكنز والتزم الصمت. ربما .

هناك حكاية أخرى أكثر جلاء، حكاية الصندوقين الحجريين اللذين دفنهما المسلمون،أحدهما يفيض ذهبًا والآخر يفيض مصائب. يُحكى أن أحدًا لم يتجرأ على البحث عنهما، خشية أن يفتح خطأً صندوق المصائب . لو لم يكن الصندوق مفتوحاً ما صار ذلك حال الدنيا، مليئة بالمصائب .

لقد تزوج جوان المنحوس من فاوستينا، وهى نهاية سلمية للحدث الرومانسى الذى أشبع رغبة كل منهما فى ليلة مغيمة وممطرة من شهر يناير، ليلة كان ينقصها القمر والعنادل، كانا يرتديان فيها ملابس رثة مفكوكة الأزرار ببذاءة. وأنجبا ثلاثة أطفال، الأول جاء ولدًا، أسمياه أنطونيو، وكان شبيها بأبيه، باستثناء الجسد الذى يعد بقوة أشد، والعينين الزرقاوين اللتين لم يتكررا مرة أخرى فى أى مكان وطأته أقدامهم. أما الطفلان الآخران فكانتا بنتين، وقد شابها أمهما فى الرقة و الحشمة. الآن بدأ أنطونيو المنحوس فى العمل كراعى خنازير بينما لم يبلغ سناً ولا ساعدين يؤهلانه للقيام بهذه المهمة ذات الشأن. وكعادة هذه الأرض وهذا الزمن، كان رئيس الرعاة يسىء معاملته، وعلينا ألا نغضب من هذا الأمر التافه. واحتراماً أيضًا للعادات المعروفة جيداً، كانت جعبته لا تزن طعامًا كثيرًا ليومه، فهو بالكاد قطعة سمك ونصف رغيف. وعندما يخرج من بيته، يلتهم قطعة السمك، حيث إن هناك رجالاً لا يطيقون صبرًا، وتلك عادة

قديمة. يتبقى له لبقية اليوم قطعة الخبز، قضمة هنا، قضمة هناك، لقمة من خبز ناشف، شديد الحيطة حتى لا يفقد فتفوتة بين عشب الأرض، وبالتالى يبقى النمل، برأسه المرفوع كما الكلاب، يائسًا من ملء خزائنه بتلك الفضلات القليلة. كان رئيس الرعاة يستريح فوق ربوة عالية، ومستخدمًا سلطته كرئيس، يصرخ منادياً، يا ولد، تعال هنا، اعتن بتلك الحيوانات يا ولد. فيقوم أنطونيو المنحوس، كمقشة كنس، بالدوران حول قطيع الخنازير مثل كلب الراعى. وبعد أن يستريح الرئيس مع من يؤدى له العمل، كان يتسلى بقطف ثمرات الصنوبر الناضجة، يشويها، يفركها و يأخذ حبّها، يحمصه بعد ذلك بحيطة، ويدخله فى صُرّته، كل ذلك فى سكينة ريفية، بين جمال تلك الأرض المشجرة . كان اللهب يلمع، وينشق الصنوبر الممتلئ بسوائله أمام حرارة النار، بينما يتابعه أنطونيو المنحوس بلعاب سائل، متمنياً أن تهبه العناية الإلهية أية ثمرة صنوبر ساقطة فى متناول عينيه الشرهتين، حينها من الأفضل أن يداريها، فلن تُغنى هذه الثمرة تلك الثروة الممتلكة للآخرين كما قد حدث فى عدة مرات مأسوية. حقد الطفولة حقاً كبير، لكنه عادل. وذات يوم كان رئيس الرعاة فى تسليته هذه يشوى الصنوبر، فى مكان قريب من حقل القمح، فقال لأنطونيو المنحوس، وكان ذلك أمراً عاديًا نظراً لعمل كل منهما، خذ جولة هنا، وانتبه حتى لا تدخل الخنازير حقل القمح. كان يومًا عاصفاً رياحه تصدّع

الجسد، وحينئذ، بجسد قليل الغطاء، ولكل وجهة نظره، أطلق أنطونيو المنحوس الخنازير وركض ليحتمى فى شجرة. أية شجرة ؟ شجرة سنديان صغيرة. وما السنديان؟ إنه البلوط، ياله من سؤال! والجميع هنا يعرفونها. إذاً البلوط هو السنديان. نعم بالطبع، البلوط هو نفسه السنديان . آه، كنت أقول إن أنطونيو احتمى فى شجرة سنديان، ملفوفًا بجوال، كان هذا الجوال ملجأه وقت أية عاصفة، سواء جاءت بماء أم بثلج، وكان من الخوص، فالله يعطى البرد بقدر الغطاء، المهم، كانت غبطة جمة، الخنازير فى حقل القمح، والرئيس يشوى الصنوبر، وأنطونيو المنحوس فى ملجأه يقرض خبزته الناشفة. ومازال هناك من يتحدث بسوء عن الوسية! نعم، لكن أسوأ ما فى الأمر أن رئيس الرعاة كان لديه كلب، حيوان خبير استغرب غياب أنطونيو المنحوس فشرع فى النباح بشكل تعسفى . حقًا ما يقولونه، الكلب أوفى صديق للإنسان. لكنه ليس صديقًا للمنحوس، لذا أسرع وأخبر الرئيس، ودلّه على مكان البرىء، الذى كان نائمًا، فأنزل عليه ضربة عصا لو أصابت لقضى عليه، فانتفض الصبى لتفادى ضربة أخرى، أحمق إن انتظر، ورمى نفسه فوق الهراوة وألقاها فى منتصف جقل القمح، والآن أعثر عليها، حتى أحبكم. ألم تدم متعة الخنازير وقتًا طويلاً؟. لا ودومًا ما يحدث ذلك.

تلك أحداث تروى فى الأناشيد الرعوية، وتُعد فضائل الطفولة السعيدة. يجب أن نشاهد يسر الحياة

فى الوسية، وفى هذا يتفق الجميع . فالهواء نقى على سبيل المثال، وتلك منحة يفوز بها من يجدها. والعصافير تغرد فوق رءوسنا عندما نتوقف لنقطف الزهور أو لنلاحظ سلوكيات النمل، أو عندما نتأمل الجعران الأسود المتأنى الذى، بدون خوف من شىء، يعبر الطريق بسيقانه الطويلة ببسالة، ويموت تحت حذائنا إن راق لنا ذلك، إنها مسألة استعداد، حيث فى أحيان أخرى يروق لنا أن نعتبر الحياة مقدسة فتهرب منا حتى أم أربع وأربعين. وعند مجىء ساعات الشكاوى، لأنطونيو المنحوس أب يدافع عنه. لا تضرب الولد، فأنا أعرف ما جرى، فحضرتك تجلس هناك لتحمص البذور ولتثرثر مع من تجده، بينما هو يعمل كالكلب، يجرى ويحرس القطيع، إذًا فلتعلم، ابنى ليس جعرانا لتضع حذاءك فوق رقبته. بحث رئيس الرعاة عن غلام جديد، وذهب أنطونيو المنحوس ليرعى خنازير مالك آخر حتى يكبر ويتعلم ما ينقصه.

إن الرجل بوسعه أن يعمل أعمالا كثيرة. تحدثنا عن بعضها ونضيف الآن بعضًا آخر لتكتمل الصورة، حيث إن سكان المدينة، بجهلهم، يعتقدون أن القرية ماهى إلا الزرع و الحصاد، وبذلك يعيشون مخدوعين إن لم يكونوا قد تعلموا قول الكلمات كلها وأدركوا معانيها، فهناك الحصد وحمل الغبيط والخَش ودرس الحبوب بالمكنة أو بالدم وهرس الشَّيْلَم وتغطية المَتبن وتعبئة التبن أو القش ودق الذرة والتسميد بالسماد العضوى وبذر البذور والحرث والقص وإزالة الأوراق

الجافة وحفر الذرة ووضع الأطر وتقليم الشجر وإقامة العُرُش وتسوية الأرض وفتح المسقى وإزالة الأعشاب الضارة وتقسيم الأرض إلى قطع وعزقها وتطعيمها وكبرتتها وتفريغ عناقيدها والعمل فى المطامير والحدائق وحفر الأراضى للبقول وإسقاط الزيتون والشغل فى معاصر الزيت واستئصال الفلين وقص شعر الغنم والعمل فى الآبار وأحواض النباتات التزينية وأحواض الزرع وقطع الحطب وشق الصبار ليسقط منه سائله والخبازة. ياإلهى! تسوية الأرض وعزقها ووضع الحبوب فى زكائبها، إن تلك الكلمات الكثيرة والجميلة تثرى المعجم، يالهم من محظوظين من يعملون، وتخيل أننا لم نشرع فى شرح كيفية أداء كل عمل، ولا فى أية فترة من العام، ولا الأدوات والعُدد التى يتم من خلالها، وهل هو عمل رجل أم امرأة، ولماذا .

شخص يجلس فى بيته بلا عمل، ولنفترض أن هذا الشخص رجل، والأفضل أن نتخيله فى بيته بعد الانتهاء من عمله، يدخل عليه من الباب كلب حراسة، لا يسمى جوارديانا ولا بيلوتو، فهو كلب بساقين فقط وله اسم إنسان، لكنه حيوان يعض، ويقول عند دخوله، لقد أحضرت لك ورقة لتوقّع عليها، وهى تتعلق بأمر سفرك إلى إيفورا يوم الأحد، لتحضر اجتماعاً سياسياً لتأييد القوميين الإسبان ضد الاشتراكيين والباص مجانًا، سيتكفل الملاك والحكومة بكل المصاريف، فكلاهما واحد. لديه رغبة ليقول لا، لكن

الرغبة لا تدرى كيف تدفع الكلمة، فيصاب الواحد منا بسهم الله ويتصنع أنه لم يسمع جيداً، لكن ما فائدة ذلك، فالآخر يظل يكرر، وبنبرات صوت مختلفة، حتى تبدو تهديداً، وينظر جوان المنحوس لزوجته، الجالسة بجانبه، وتبادل فاوستينا زوجها النظر، بينما يظل كلب الحراسة واقفًا بالورقة فى يده منتظراً الرد، ماذا تريد أن أقول لك، وفيما سيهمنى ما تحكيه لى، فأنا لا أفهم شيئاً عن الاشتراكيات، حسناً، الأمر ليس هكذا حقيقة، لقد عثرت فى الأسبوع الفائت على عدة أوراق تحت أحجار، طرفها كان خارجها، كما لو كانت تناديني، فتأخرت عن المشاة وانحنيت واحتفظت بها، لم يرنى أحد، فلماذا إذاً جاء هنا هذا الكلب ويبرز لى اسنانه، لابد أن أحدًا أخبره، وجاء ليرى إن كنت سأتجرأ على قول لا أريد أن أذهب إلى إيفورا، لا أريد أن أوقّع، وساعتها سأرى أسوأ مالا يتوقع، فهذا الكلب يعرفه الجميع، اسمع، وسيحكى كل ما جرى، وهنا نجد من نسمع أنينه، لكننى قد أجد عذرًا، أستطيع أن أقول إننى مريض، إننى يجب أن أصنع قفصًا للأرانب، لن يصدّق، وربما يأتون بعد ذلك ويحبسوننى، اتفقنا، ريكينتا، سأوقّع .

وقّع جوان المنحوس حيث وقّع الآخرون، أو بصموا لأنهم لا يعرفون الكتابة، وكانوا هؤلاء أغلبية. وعندما خرج ريكينتا ليواصل جمع التوقيعات، بأنفه فى السماء، وبصدره منفوخ هذا الحقير، شعر جوان المنحوس بعطش شديد، مفاجئ، فشرب مباشرة من

الدورق، ليفيض الماء فيحيط النار المباغتة التى كانت فقط إحدى علامات العار غير المفسرة، البعض ربما سيشرب الخمر. فهمت فاوستينا شيئاً، لم يرق لها ما قد سمعته، لكنها أرادت أن تهدأه، على الأقل ستذهب إلى إيفورا، إنها فسحة، وبدون أن تكلفك شيئاً، وستذهب فى عربة من هنا لهناك، من المؤسف إنك لن تستطيع أن تصطحب أنطونيو معك، فلابد أنها ستعجبه. لم تكتف فاوستينا بقولها هذا فقط، بل واصلت مهمهمة، بدون أن تنتبه حتى لما تقوله، وكان جوان المنحوس يعلم يقينا أن الكلمات فى نهاية الأمر مثل الإيماءات لا ينتظر منها النجاة، لكن المريض يمتن لها، مثل اليد الناعمة أو الخشنة التى تعتقد حضرتك أنها على جبينك، الأمر هكذا. لكن الأمر هكذا ليس صحيحاً، فبأى حق يجبرون رجلاً على شىء، هذا إجبار، إن ما أتمناه هو أن أتظاهر أننى مريض. قالت فاوستينا، افعل ما تؤمر، فهذه نزهة، ولن يتلطخ وجهك فى الطين، أعتقد أنه لن يتلطخ، فلابد أن الحكومة لا تفعل سوى الصالح. فيرد جوان، لا تفعل سوى الصالح!. وأمام هذا الحوار هناك من يقول إن القرية ضائعة لا تعرف ما يحدث، لقد حان الوقت لنقول إن القرية تعيش بعيداً، فلا تصلها الأخبار، أو لا تفهم ما يصلها، فهى تعرف فقط صعوبة البقاء على وجه الحياة .

جاء اليوم، حانت الساعة، والرجال قد تجمعوا على الطريق، دخل بعضهم الحانة ينتظر، يتجرعون

خمراً كل حسب نقوده، يرفعون الأكواب على شفاههم فتترك الفقاعات أثرًا فوق شواربهم، آه يا خمر، فليمنح الله الجنة لمن ابتكرك. بعض آخر أكثر رقة واطلاعاً كان ينتظر عجائب إيفورا، ويحتفظون بشهيتهم لهناك، سيلحق بهم العقاب، سيتركونهم جميعًا على باب ساحة الثيران ومن هناك سيأخذونهم بعد انتهاء الحفلة. الشمعة الأمامية تضىء مرتين، جرعة واحدة أبقى من جرعتين أعطيهما لك، بهذه الأقوال يتسلى الناس، ومنهم من يحيا فقط من هذه الحكمة بل ويشعر بسعادة ولا يموت بسبب ذلك. هذه المرة كان هؤلاء محقين، كانوا راضين بغبطة عندما جاءت العربات النقل، وبطونهم يغنون جُشأة الخمر الأرضى المقدس، بمذاق الخمر الذى مازال يحلى أفواههم، هذه هى متعة الجنة .

إنها رحلات. فى المنعطفات كانت العربات النقل تتمايل يمنة ويسرة، مع أنها لا تسير بسرعة مغامرة، فيتحتم عليهم أن يمسك بعضهم ببعض حتى لا يسقطوا جميعًا، فيطأون أقدام بعض، ويضرب الريح قبعاتهم فيمسكون بها حتى لا تطير. سِرْ على مهلك أيها القبطان، لئلا يسقط أحد فى الماء. رجل مرح قال هذه الجملة، الحمد لله أن هناك أناسًا هكذا، فلولا وجودهم لصارت الحياة غاية فى التعاسة. توقفوا فى فوروس ليحمّلوا أفرادًا آخرين، ومن هناك ساروا فى طريقهم مباشرة، كانت مونتيمور على مرئى البصر، لكن لم يحن الوقت بعد لندخلها، كذلك سانتا صوفيا

وسان ماتياس، لم أذهب هناك أبدًا، لكن لى أقرباء هناك، ابن عم صهرتى، يعمل حلاقًا، وقد صار ثريًا، ربما عاش فقيرًا لو لم يكن للرجال لحية تنمو. ما يتحدث هكذا إلا رجل مشغول بلحيته، مرة فى العام لن يضر، فمنذ تركت الجيش لم أعد أحلقها، لكننى أشعر بالضيق. إنها ثرثرة رجال. لقد بذلت البشرية جهودًا كبيرة لتحسن وسائل المواصلات، وفى هذه الوسايا مازالت هناك العربات النقل. إيفورا على مرئى البصر، وريكينتا، حيث جاء الكلب، يصيح، عندما ننزل، فليتبعنى الجميع. وبهذه الكلمات البذيئة تبدأ الرغبات المختلفة فى الخمر والنساء فى التلاشى، فالرغبة فى نساء إيفورا مرت بأحلامهم فى الليلة الخيالية التى لم يناموا فيها جيدًا، لكن لا يقين فى الأحلام .

الساحة زاخمة. يأتى الفلاحون فى أسراب، فى أفواج، وكلهم مُلقنون، أحيانًا من قبل سيدهم الذى يجىء باسماً أنيقًا، ودوما يوجد خادم يتملقه باعثًا الخجل فى نفوس من ذهبوا هناك مخافة أن يبقوا بلا عمل. لكن بشكل عام يهمزون أنفسهم ليتظاهروا أنهم سعداء. فى القرية تسود تلك الفضائل، التى منها عدم اصابة من ينتظر منا خيرًا بخيبة أمل، ومع أن هذه لا تبدو حفلة، إلا إنها ليست مأتمًا، وهيا أخبرنى، أى تعبير يجب أن أرسمه على وجهى عندما يبدءون فى الصياح قائلين فليحيا فلان وليمت الآخرون، أنضحك أم نبكى، هيا أخبرنى. يجلس بعضهم على الرصيف،

البعض الآخر يملئون الرمال، كان من الأفضل أن يجدوا ثيراناً، ولا يعرفون ماذا سيحدث ولا معنى كلمة اجتماع سياسى. أين ريكينتا. يا ريكينتا، متى ستبدأ الحفلة. الأصدقاء و المعارف يتبادلون التحية بالإيماءة، والخجولون يبدلون أماكنهم بحثًا عمن يظهر جراءته. تعال هنا، وحينئذ يقول ريكينتا، لا تتفرقوا، وانتبهوا إن الأمر غاية فى الجدية، لقد جئنا هنا لنعرف من يحب لنا الخير ومن يحب لنا الشر، وليس من السوء فى شىء أن يكون الأمر هكذا الذهاب فى يد ريكينتا لتعرفوا الخير والشر، فالأمر شديد البساطة، وفى نهاية الأمر، يا قس أجاميديس، بدون تفكير اضرب مؤخرات الجالسين على الرصيف . بماذا تهذى يا ريكينتا، إن الحديث بهذا الأسلوب قلة أدب . فيعقد ريكينتا حاجبيه، ويتصنع أنه لم يسمع، والآن يرد، الآن يبدأ، سيداتى ساداتى، إنه لأمر مضحك أن أكون أنا سيد فى ساحة ثيران فى إيفورا، لا أتذكر أننى كنت سيدا فى مكان آخر، ولا حتى سيدًا لإرادتى الخاصة، فماذا يقول الرجل تحيا البرتغال، لا أفهم شيئًا. نحن هنا مجتمعون، إخوة فى نفس الهدف الوطنى المثالى، لنقول ونبرهن لحكومة الأمة اننا رمز للتواصل المخلص للبطولة البرتغالية العظيمة ولآبائنا العظام الذين وهبوا حيوات جديدة للحياة ونشروا الإيمان والإمبراطورية، وبقرعة جرس نلم شملنا كرجل واحد لنلتف حول سالازار، العبقرى الذى أوقف حياته على خدمة الوطن ضد همجية موسكو، ضد هؤلاء

الشيوعيين الملاعين الذين يهددون عائلاتنا، الذين سيقتلون آباءكم ويستحيون نساءكم وبناتكم ويرسلون أبناءكم جبرا للعمل فى سيبيريا ويدمرون الكنيسة الأم المقدسة، فكلهم ملحدون، كلهم بلا إله، بلا أخلاق، بلا حياء، فلتسقط الشيوعية، فلتسقط الشيوعية، فليمت خونة وطنهم، فليمت خونة وطنهم. تصيح الساحة بالشعار، كلهم فى صوت واحد، هناك منهم من لم يفهم بعد ماذا يفعل هنا، آخرون بدءوا يفهمون وأصابهم الحزن، وهناك من هو مقتنع، أو مخدوع، وعامل يلقى خطبة، والآن يأتى واعظ آخر، هذا من الفوج البرتغالى، يفرد ذراعه ويصيح، أيها البرتغاليون، من يأمر، من يعيش، سؤال وجيه، يأمر السيد، أما الحياة، فماذا تكون !. هاهى الساحة المطيعة تصيح بشكل طقسى، وبالكاد تسكت الأفواج، وهنا يصرخ آخر بأعلى صوته، يتكلمون كثيرًا هؤلاء الناس، إنها خصائص إسبانيا، قوميون ضد الحمر، وفى حقول قشتالة و الأندلس يدافعون عن قيم الحضارة الغربية المقدسة والأبدية، فواجب الجميع مساعدة إخواننا فى العقيدة، والوسيلة ضد الشيوعية تكمن فى العودة للأخلاق المسيحية التى يجسد سالازار رمزها الحى، ياللعجب، لدينا رمز حى، لا يمكن أن نتهاود مع الأعداء، ثرثرة، ويتحول الحديث عن الشعب الطيب الحاضر، أهل تلك المنطقة، ليقدم نموذجًا للعرفان بالفضل،إلى الحديث عن رجل الدولة الخالد والبرتغالى العظيم الذى كرّس كل حياته لخدمة

الوطن، فليحفظه الله، وسأذهب أنا لأقول للسيد رئيس المجلس ما رأيته بأم عينى فى مدينة إيفورا التاريخية، ولأقدّم له الثقة والبرهان على أن آلاف القلوب تنبض بالإجماع مع قلب الوطن، الخالد، السامى، الأجمل من كل الأوطان، ذلك لأن الدنيا قد ضحكت لنا عندما منحتنا حكومة تضع المصالح العليا للأمة فوق مصالح أية طبقة، فالجميع يذهب وتبقى الأمة، فلتمُت الشيوعية، فلتسقُط الشيوعية، ما الفرق بين الموت والسقوط ! فى وسط الزحام لا شىء يُلاحظ، وعلينا أن نتذكر أن الحياة فى الينتيجو، على عكس ما يعتقدون، غير مواتية لتطور الأفكار الثورية، حيث نجد أن العمال شركاءُ حقيقيون لأصحاب الأراضى، يتقاسمون معهم خير العمل وشره!!!، اللعنة، اللعنة، اللعنة! . أين أستطيع أن أتبوّل، اسمع يا ريكينتا، أنا أمزح، فلا أحد يمكنه أن يتجرأ ليطلب شيئا كهذا فى لحظة حاسمة كهذه اللحظة، عندما يكون الوطن، الذى لا يتبوّل، مَدعُوّا من قبل رجل الدولة المهيب هذا، الذى يفتح الآن ذراعيه كما لو يريد أن يعانق الجميع، ولأنه لا يستطيع ذلك يقوم الحاضرون بعناق بعض، قائد الوحدة العسكرية، الرائد القادم من سيتوبال، البرلمانيون، أبناء الوحدة القومية التابعون لهم، رائد وحدة الفروسية رقم ٥ أحد الذين ينتمون للـ i.n.t.p إن لم تفهم فاسأل، إنه المعهد القومى للعمل والتخطيط، أما الباقون فمن لشبونة، يبدون مثل الغربان المتسلقة لشجرة سنديان،

هذا خطأ ارتكبته، نحن هم الغربان ، نصطف هنا فى المدرجات، نحرك أجنحتنا، ننقر بمناقيرنا، والآن ستبدأ الموسيقى، النشيد، فينهض الجميع، بعضهم لأنه يعرف البروتوكول، وأغلبهم تقليدًا لهم، يسلّم ريكينتا مجلة لأتباعه، فلتنشدوا جميعًا، هذا ما أرغبه أنا، لكن من يعرف النشيد؟ حتى لو كان نشيدًا مريمياً، كلمة ما سيرددونها،، هيا نخرج، لا، ليس الآن، لم تحن لحظة الخروج، من له جناحان ليطير؟ فليفتح جناحيه ولينصرف من هنا، فوق الحقول، ليرى من علاه الباصات التى تعود، ياللحزن، كل شىء كان محزنًا، وفى الآخر نصيح كما لو دفعوا لنا، ولا حتى أنا أعرف ما هو أشر، هذا ليس عدلا، هذا يبدو رقصة الدب. أيعنى ذلك أنك لم تتسلّ هناك يا جوان ؟ ولا شىء من هذا يا فاوستينا، لقد ذهبنا كما الخرفان، وكما الخرفان عُدنا. غربت الشمس ومازالوا فى العربات، وهو ما يبعث على الحزن، كان منهم من ظل يجرب صوته منشدًا ومعه اثنان يصطحبانه، لكن عندما يصل الحزن مداه، يصمت حتى الصوت الحزين، وحينها يتطرق للسمع ضجيج موتور العربة، وكلهم فى صمت يميلون معها من جانب لآخر، إنها حمولة سيئة الرص، جاءت جزافًا، هذا ليس عملا يقوم به الرجال، يا جوان. تتركهم العربة بجانب جبل لافرى، يشبهون سرب العصافير السوداء المتناثرة بحماقة دون أن تعرف السير، منهم من يتجه للحانة ليروى عطشه ويمسح مرارته، ومنهم من يهمهم

بكلمات مصعوقة، وأكثرهم حزنًا ينزوون فى بيوتهم. من نحن سوى دُمى تتطاوحها الأيدى، مَنْ يدفع لنا يوميتنا الآن ؟ وبالتالى كان على ريكينتا الملعون، الذى يومًا ما سيسمعنى، أن يذيع فى الحديقة أقوالا ووعودًا لا طائل من ورائها سوى الوجع الذى يُستشف، هذا الوجع الذى قليلا ما يمكن التعبير عنه، فهو شىء مشوش، ربما يؤلم لكنه لا يميت. من أجل هذا تسأل فاوستينا أجئت مريضًا؟ " فيجيبها جوان المنحوس بالنفى، ولو أنه تعبان بعض الشىء، لكنه لا يعرف التعبير عما يشعر به. ومازالا يتحدثان حتى بعد أن رقدا، إذاً أنت لم تتسلّ. ولا شىء من هذا. يسند جوان المنحوس رأسه على كتف فاوستينا، ويكون ذلك ملاذه وراحته الكبرى، فيغرق فى سبات عميق .

ياله من منام فظ هذا الذى رأه جوان المنحوس: يعتلى سادة الوسية الربوة حتى تدفئهم الشمس وحدهم، السادة لا وجوه لهم ولا للربوة اسم؛ حتى عندما استيقظ كانوا على حالتهم، وظلوا عليها عندما عاد للنوم مرة أخرى، تتقدم قافلة من السادة يتقدمهم هو، طاحنًا بضربات فأسه الأعشاب الضارة والجذوع، فاتحًا طريقًا لتلك الصحبة الجميلة، مقصيًا الجوالق بيديه، ينزف دمه، ويسير سادة الوسية يتكلمون ويضحكون، يتمتعون بالصبر والكرم عندما يتأخر هو فى الأحراش، يبقون فى انتظاره، لا يسيئون معاملة ولا ينادون الحرس، هم فقط ينتظرون وفى انتظارهم يخرجون الطعام، يأكلون شيئًا، وهو يتغلب على

مخاوفه بضرب الفأس، الآن تم، يخدش الأرض، يقطع الجذوع، لقد أثبت رجولته، ومن أعلى، من فوق قمة الربوة، يشاهد عربات تحمل لافتات تقول: ما يفيض من البرتغال يتوجه لإسبانيا، ويُحرم الحُمر حتى من قرن الحيوان، أما الآخرون، الأنقياء، القديسون، الذين يدافعون عنى، عن جوان المنحوس باسمى وصفاتى، من خطر الذهاب للجحيم، فإلى الهاوية والموت، والآن يأتى خلفى رجل فوق سرج جواده، الجواد هو الشىء الوحيد الذى أعرفه فى هذا المنام، يُسمى المحظوظ . تتمتع الجياد بالعمر الطويل. استيقظ يا جوان، لقد حان الوقت، تقول زوجته، بينما ظلام الليل مازال باسطاً جناحيه.

مع ذلك، نهض الآخرون بالفعل، لكنه ليس بالمعنى الحرفى للنهوض الذى يشير للقيام متثائباً من راحة المرتبة التبنية، إن وجدت، وإنما بالمعنى الآخر الفريد الذى يعنى فتح العيون وسط نور الصباح واكتشاف أنه منذ دقيقة كانت ظلمة الليل جانحة؛ بالمعنى الآخر الذى يعنى أن الزمن الحقيقى للإنسان وما يتضمنه من تغيير لا يُحكم بذهاب الشمس و القمر ومجيئهما، وتلك أشياء تشكل قطعيًا جزءاً من المنظر الطبيعى، ليس فقط المنظر الأرضى، كما سبق وقلت بكلمات أخرى. إنها لحقيقة واضحة أن هناك لحظة يحدث فيها كل شىء، وهذه اللحظة كان وقتها موسم الحصاد. أحيانًا يتطلب من الأجساد أن تفقد صبرها، أن تعلن حنقها، حتى تتحرك الأرواح، وعندما نقول الأرواح، نقصد حقيقة هذا الشىء الذى لا اسم له، وربما يكون جزءًا من الجسد، إن لم يكن جسداً كاملاً. ذات يوم، إن واصلنا، سنعرف جميعًا ماهى تلك الأشياء والمسافة التى تقطعها الكلمات التى تحاول وصفها، والمسافة التى تقطعها تلك الكلمات عندما

تكون هذه الأشياء معروفة الكينونة. عندما نكتبها هكذا تبدو معقدة .

أيضًا تبدو معقدة، على سبيل المثال، تلك الماكينة، مع أنها شديدة البساطة، فالماكينة هى درّاسة الحبوب، وهو اسم يناسب المسمى هذه المرة، ذلك لأن هذا بالتحديد هو ما تعمله، تستخرج الحبوب من السنابل، تضع التبن فى جانب و الحَب فى جانب آخر. عند رؤيتها من الخارج، تجد صندوقًا كبيرًا من الخشب فوق عجل من الحديد، متصل بسير لموتور يهتز، يجأر، يعوى، يدوى، وتفوح منه، معذرة، رائحة خبيثة. دهنوا الصندوق بلون أصفر كصفار البيض، لكن الغبار والشمس العمودية قضت على لونه، فصار نتوءًا فى الأرض، بجانب نتوءات أخرى تمثلها أكداس التبن، ومع هذه الشمس من الصعب أن تفرق بينها، لا يوجد شىء ساكن، الموتور يتقافز، الدراسة تتقيأ تبنًا وحبوبًا، السير المتكاسل يرتجف، والهواء يهتز كما لو كان انعكاسًا للشمس فى مرآة تهزها من السماء أيادى ملائكة لا تفعل شيئًا أفضل من ذلك. هناك بعض الظلال فى وسط الضباب. قضوا اليوم بكامله هنا، كذلك قضوا الأمس وأول أمس و أول أوله، منذ أن بدأت يد المهراس. عددهم خمسة، أحدهم وهن العظم منه، أما الباقون فسنواتهم قليلة، ثمانية عشر عامًا، فمن أجل هذا العمل لا تكفى سبعة عشر . ينامون فى حوض الزرع، أمام الأحمال، لكن الموتور يصمت فقط عندما يهبط الليل، وعندما تكون الشمس بعيدة فى

فضائها يهرب للأسماع الدوى الأول لهذا الحيوان الذى يتغذى من تنكات بها سائل أسود ولزج، وبعدها، طوال ساعات النهار المقدسة، عليها اللعنة، يظل صوت الدراسة الحاد ينهش أسماعهم. إنه هو الذى يحدد إيقاع العمل، فالماكينة لا تستطيع أن تلوك كذبًا، فذلك سريعًا ما يُلاحظ، ويأتى رئيس العمل ويجأر، يطلق صرخاته من مكان مراقبته . فم الدرّاسة بركان من الداخل، حلق شاهق، أكثر من يكرس وقته ليغذيها هو أكبر الخمسة رجال. أما الآخرون فيعملون على إنماء أكداس التبن، يدورون كالمجانين فى هيام التبن الغزير، يرفعون القمح الجاف والخشن، السيقان الحادة، السنبلة ذات الجذور، الغبار، أين نجد خُضرة الحب الرقيقة هذه فى فصل الربيع، عندما تبدو الأرض حقيقة كما الفردوس. لا يمكن احتمال هذه النار. ينزل الرجل العجوز، يصعد أحد الشبان، والماكينة كما لو أنها بئر بلا نهاية. لا ينقص سوى أن نلقى فيها رجلاً. وهكذا قد يظهر الخبز بلونه الأحمر، لا الأبيض البرىء ولا الغامق المحايد .

يأتى رئيس العمل ويقول، اذهب أنت إلى الغربال. الغربال هو هذا الشىء هائل الحجم خفيف الوزن، هو هذا التبن المتحول إلى غبار يتسلل عبر فتحات الأنف فيسدها، بل ويتسلل أيضًا للجسد بأكمله كلما كان بالملابس فتحات فيلتصق بالبشرة، كمعجون من الطين، الغربال هو حكة الجلد، يا سادتى، وهو الظمأ. ماء الإبريق الذى أشربه ساخناً، مضر بالصحة، كما

لو كنت الآن أشرب من مستنقع، مستلقى على بطنى، فأنا لا تهمنى الديدان والحشرات، التى نسميها هنا عَلَقة. يتوجه الغلام للغربال، يتلقى الغبار الخانق فى وجهه كعقاب، ويبدأ البدن فى الاعتراض برفق، وتخور قواه فلا يحتمل العمل، لكن بعد ذلك، ويعرف ذلك فقط من عاشه، يتغذى اليأس من تعب الجسد، ويسترد قواه وتعود له بعنف ، وحينها، بعد أن تتضاعف قوته، يقوم الغلام، المسمى مانويل السيف والذى سنتحدث عنه فيما بعد فى هذه القصة، وينادى زملاءه ويقول، أنا ماشى، لأن هذا ليس عملاً وإنما موت. فوق الدرّاسة نجد العجوز من جديد، وأكداس التبن. لكن الصرخة تختنق فى حلقه ويستريح ساعده بجانبه، ذلك لأن الأربعة غلمان يمشون معًا، منفضين ملابسهم، يشبهون دُمياً من الطين لم تنضج بعد، لونها غامق، وبوجه تغطيه خيوط العرق، يبدون كالبهلوانات، ويسيرون بلا شهية للضحك. يقفز العجوز من الدرّاسة، يطفئ الموتور. الصمت يخترق الآذان كما اللكمات. يأتى رئيس العمل راكضاً، مخالفًا للعُرف. ماذا حدث، هيا احكِ، ماذا حدث. فيقول مانويل السيف، أنا ذاهب. ويقول الآخرون، ونحن أيضًا. يبقى الحوض مندهشاً. ألا ترغبون فى العمل؟ يسأل. من يفتح عينيه، من ينظر حوله، سيرى الهواء يرتجف، إنه حفيف القيظ، لكن يبدو أن الوسية تهتز مع أنهم ليسوا إلا أربعة غلمان قرروا ترك العمل، ولديهم أسبابهم التى تدفعهم والتى منها ألا زوجة لديهم ولا

أولاد يعولونهم. فمن أجل هؤلاء تركتهم يسوقوننى إلى إيفورا، يقول جوان المنحوس لفاوستينا. فترد عليه زوجته، لا تفكر أكثر من ذلك فى هذا الأمر، وانهض، لقد حانت الساعة .

سيذهب مانويل السيف وأصدقاؤه لمقابلة رئيس العمل، المدعو اناكليتو، وهو رجل أعور، ليطالبوه بأجر الأيام التى عملوها، وليخبروه أنهم تركوا العمل، وأنهم لا يحتملون أكثر من ذلك. يبحلق فيهم أناكليتو بعينيه الصعلوكتين، يرى أمامه أربعة غلمان، ياللحسرة، من يستطيع أن يستغلهم. أجر، عن أى أجر تتحدثون، سأوشى بكم الآن بما إنكم محرضون على الإضراب عن العمل. المعترضون لا يعرفون ما معنى كلمة إضراب، لصغر سنهم من ناحية وللجهل بممارسته من ناحية أخرى . يعودون لجبل لافرى، البعيد، يسيرون فى طرق قديمة، فى طرق مختصرة، أكثرها مباشرة إن استطاعوا، لا يشعرون بسعادة ولا بخزى، فالحياة هكذا، ماذا سنفعل، لا يمكن أن يقضى الإنسان حياته كلها فى كبد، وهؤلاء الرجال الأربعة، بعيدًا عن المبالغة، يتحدثون ويقولون أشياء خاصة بأعمارهم، حتى أن أحدهم يرمى بحجر هدهداً قطع عليه الطريق، وعندما يفكرون فى الأمر جيداً يجدون أن الشىء الوحيد الذى يحزنهم هو تركهم لنساء الشمال اللاتى كن تتمشين معهم بأحواض الزرع، بدون أن تتطاول أيديهم عليهن فى وقتها .

خير من يسير هو من يسير على قدميه، فلديه وقت لفعل كل شىء، لكن عندما يكون أناكليتو متعجلاً ولا يستطيع تحمل الظمأ الشديد، بعد أن وضع الشر والأشرار الوسية فى خطر، فأفضل حل هو أن يذهب بكاريتّا حتى مونتيمور، غاضباً و خائفاً، بهذه الحمرة المقدسة التى تصبغ وجوه المصارعين، والمشتعلة فوق الخدود لتدلل على أن العالم بخير، وخير ما فعل أن ركض لمونتيمور، حيث هناك تحل تلك القضايا، وليقول للحرس إن أربعة غلمان من جبل لافرى قد أعلنوا الإضراب، وماذا سيكون موقفى عندما يطلب منى صاحب الوسية الدرس، بعد أن غاب عنى العمال. قال النقيب مسرور، اذهب و اطمئن، سنقوم نحن بالواجب. ويعود أناكليتو للحوض مطمئناً، ومازال فى طريقه، يسير الهوينى، مستمتعًا براحة من أدى واجباً يحبه. وعندما تعبر بجانبه عربة حرس مليئة بالناس، يشير له أحدهم من داخلها بيده، كان ناظر البلدية، الوداع يا اناكليتو. وبرفقته كان النقيب مسرور وعربة دورية، ومحملين ضد العدو عربة حربية من طراز بانزر شيرمان معبأة بالأسلحة من كل سمك، من الطبنجة العادية حتى المدفع الذى لا يتقهقر، هاهم هناك، والوطن ينظر إليهم، يقدمون صدورهم للطلقات، يدق البوق ويدعو للتعبئة، بينما فى مكان ما من الوسية، فى طرق قديمة كما سبق وقلت، يسير أربعة غلمان مجرمين يسلّون وقتهم بلعبة طفولية مضمونها من سيتبول لأبعد مسافة و أعلى طولاً.

تعوى الكلاب على السيارة المسلحة عند مدخل جبل لافرى، لكن ذلك قد لا يبدو حقيقة إن لم نشر للتفاصيل، فلأن الطريق الصاعد شديد الارتفاع، نزلت السرية وتقدمت فى خط رماة، بصحبة السلطة المدنية التى كانت هذه المرة فى المقدمة و بحماس شديد. المهمة الأولى، نفذها بمهارة من كان فى مناورة ويعرف أن كل الأمر غاية فى اليسر، يصلون للعمدة، الذى يصاب بالخرس من الدهشة عندما يرى النقيب وناظر البلدية يدخلان الدكان، بينما عربة الدورية، على الجانب الآخر من الباب، تتأمل بريبة المناطق المجاورة. ها قد جمعوا على الجانب الآخر من الشارع عدة فتيان، ومن أماكن بعيدة لا يمكن رؤيتها أو معرفتها تأتى صرخات الأمهات فى أولادهن، كما فعلوا فى مذبحة الأبرياء. دعوهن يصرخن، فصراخهن لم ينفعهن أبدًا فى شىء، ولنمض نحن لما يخصنا، استرد العمدة صوته، الآن لا ينطق سوى بالتقدير و التملق، سيدى الناظر، سيدى النقيب، بينما الناظر يخرج الورقة المسجل فيها هوية المجرمين، كما بلّغ اناكليتو . هيا، أخبرنى أين يعيش هؤلاء: مانويل السيف، أوجوستو باتراكاو، فليسبيرتو لامباس، جوزيه بالمينيا؛ العمدة لا يُسرّ بإرشادهم، لكنه ينادى لزوجته لتجلس على البنك والدرج، تجلس، وينطلقون جميعًا فى متاهات جبل لافرى، بعيون يقظة للكمائن، كما يفعل فى إسبانيا الحرس المدنى، رعاه الله. جبل لافرى صحراء تتحمص فى الشمس، حتى أن الغلمان

يفقدون الرغبة فى التعرف عليه، ياله من قيظ شديد، كل الأبواب مغلقة، لا تبقى سوى الفجوات، الفجوات هى حيطة من لا يريد أن يراه أحد، وحيث يمضى الحرس تتبعه عيون النسوة وعينا رجل مسن يملؤه الفضول، ماذا سيفعل إن لم يتلصص. تخيلوا أننا لو توقفنا الآن لفك شفرة وشرح تعبيرات تلك العيون، قد لا نصل أبدًا لنهاية القصة، برغم أن كل شىء، ما يبدو نادرًا ومايبدو مفرطًا، يشكل جزءًا من نفس القصة، إنها طريقة حسنة مثل أية طريقة أخرى للحكى عن الوسية .

هناك مواقف كوميدية تحدث، على سبيل المثال قدوم قوات مسلحة بصحبة السلطة المدنية للبحث عن أربعة متمردين خطيرين، والعودة بدونهم جارين أذيال الخيبة . مازال المتمردون يسيرون بعيداً جداً. لا يمكن أن يلمحهم أحد حتى من أعلى نقطة فى جبل لافرى، ولا حتى من البرج، إن أمكن أن نسمى هذا برجاً، هذا المكان الذى استخدمه لامبيرتو هوركيس ليشاهد تعبئة سريته فى القرن الخامس عشر الذى تحدثنا عنه. ولا الشمس تسمح أن تكشف للآخرين، وسط ارتباك المنظر الطبيعى، عصابة الأربعة رجال الصغيرة، الذين ربما يرقدون الآن تحت ظلة، أو يغفون، فى انتظار إطلالة نسيم الغروب. أما اللاتى يحملن همّ الدنيا فوق رءوسهن فهن الأمهات، حيث حذّرهن النقيب والناظر أنه فى اليوم التالى إن لم يذهب الأولاد لمونتيمور، سيأتى الحرس لجبل لافرى ويقبضون

عليهم ويجرونهم من آذانهم ويضربونهم بالشلاليت، وتلك عبارات خشنة نستخدمها فى لغتنا. تسير العربة فى طريقها، تثير ضباباً من الغبار، لكن قبل ذلك يتوجه الناظر ليقدم فروض الطاعة لصاحب الوسية العظيم المقيم هناك، سواء كان اسمه لامبيرتو أم داجوبيرتو، فيستقبلهم الإقطاعى بترحاب، باستثناء الجنود، الذين ذهبوا إلى الخمارة، ويكرم النقيب مسرور والناظر ويجلسهما فى صالة رطبة بالدور الأول، ياله من ظل ممتع، نساؤنا وأبناؤنا بحالة جيدة، يا سيدى، هم دائمًا بحالة جيدة، أعطنى كأسًا أخرى من هذا المشروب الروحى، وعند خروجهما يضغط النقيب على يده، كما هى العادة المتبعة، ويحاول الناظر أن يحدثه الند للند، لكن صاحب الوسية رجل أكثر عظمة، يمد لامبيرتو يده ويضغط بقوة ويقول، لا تتركهم يكبرون. فيرد الناظر جونثيجو، هذا هو اسمه النادر، لا أحد يفهمهم، عندما لا يوجد عمل فعذرهم عدم وجود عمل، وعندما يوجد عمل لا يستطيعون القيام به. إنه حديث الأتباع، لكنه خرج هكذا، ومن إمارات الحرية فى الوسية، تلك الجيرة الريفية. يبتسم نوربيرتو متفهمًا، إنهم بؤساء، هؤلاء الفقراء الشياطين لا يعرفون ماذا يريدون. إنهم ناكرون للجميل"، يقول الناظر، بينما النقيب يؤمّن على كلامه مرة أخرى، فلا يعرف عمل شىء آخر، حسنًا، لديه خبرات أخرى، خاصة فى الأمور العسكرية، فقط ينقصه الفرصة .

عندما يصل المجرمون لبيوتهم تكون الشمس قد غرُبت. بمجرد أن تراهم أمهاتهم تنطلق الصرخات. ماذا فعلتم، آه يا إلهى. فيردون عليهن، لم نفعل شيئًا، تركنا العمل لأن شغل الماكينة لا يحتمله أحد. لكنه أصبح عملكم، وفى اليوم التالى ستتوجهون لمونتيمور، لن يسجنوكم، قال آباؤهم. هكذا مرت الليلة، بشدة حرارتها الخانقة، كان من المفروض أن يناموا تلك الليلة فى حوض الزرع، وربما تأتى إحدى نساء الشمال للتبول بجانبهم وتبقى هناك لتستنشق هواء الليل أو لتنتظر تحسن أحوال الدنيا، فيدور الحديث بين الغلمان، إما أن تذهب أنت أو أذهب أنا، حتى يقرر أحدهم التجاسر، بقلب سريع النبضات وساقين مرتجفتين، ابن السابعة عشرة، ماذا سنفعل له، والمرأة لا تبتعد، تبقى فى مكانها، ربما نعم، تتحسن أحوال الدنيا الآن، وهذا المكان بين أكداس التبن يبدو مهيئًا لهذا الأمر، اضطجاع جسدين أحدهما فوق الآخر، إنها ليست المرة الأولى، والغلام لا يعرف من هى تلك المرأة، والمرأة لا تعرف من هو هذا الغلام، هذا أفضل، فلن يشعر أحدهما بخزى أمام الآخر فى ضوء النهار كما لم يشعرا بخجل فى ظلام الليل، إنها لعبة تُلعب بإخلاص، فيها يهب كل لاعب ما يستطيع، وهكذا يقضون الليالى بلا نوم، بخيالات الدوخة الطفيفة عندما يدخلون بين أكداس التبن، ويشمون هذه الرائحة الحلوة، بعدها رجفة الأجساد، ورجفة كل شىء، وغدًا، يجب أن أذهب لمونتيمور .

يمتطى الأربعة عربة كارّو يجرها بغل نحيف لكنه لا يكل، هى ثروة آباء جوزيه بالمينيا. إنهم غلمان صامتون، بقلوب مكسورة يعبرون الجسر والمطلع الذى يليه، والآن يصلون إلى فوروس، متناثرة البيوت، هكذا تكون الأرض القانونية، وقبلها، على اليد اليسرى، تقع بيدرا جراندى، ورويدًا رويدًا يظهر فى الأفق، فى الصباح الدافئ، حصن مونتيمور، ماتبقى من الأسوار المهدومة، شىء يثير فى النفس الحزن. يقف رجل ذو سبعة عشر عامًا لينذرهم بعاقبة مستقبلهم، ماذا سأكون، أنا المتهم بأننى متمرد، بلّغ عنى اناكليتو، وزملائى هؤلاء الذين لم يرتكبوا ذنبًا سوى الوقوف بجانبى، أما الذنب الآخر، الذى لا يُغفر، فهو أننا ينقصنا القوة الكافية لنحتمل عذاب العمل بالدراسة التى تدرس القمح وتدرسنى أنا أيضًا، أدخل فى فمها وتخرج عظامى مشفية، وأتحوّل لقش، غيمة من غبار القش، وبعد ذلك يتحتم على أن أشترى القمح بسعر لم أختره. يتملك أوجوستو باتراكاو أعصابه بحذاقة، وهو المعروف بصياحه، لكن بطنه تؤلمه، إنه ليس بطلا ولا يعرف ما معنى هذه الكلمة، أما جوزيه بالمينيا فلا يهمه سوى مهمة قيادة العربة، وهو العمل الذى يؤديه بمهارة، حيث تركض البغلة كما الجواد المدرّب. وأخيرًا، فليسبيرتو لامباس، الذى ينادونه فليسبيرتو، ولا علاقة قرابة له بأصحاب الوسايا، هى مجرد سدفة، يجلس مضجرًا، مُدليًا ساقيه خارج العربة، معطيًا ظهره للطريق، وهكذا ستكون حياته دوماً. وفجأة وجدوا أنفسهم فى مونتيمور .

تركوا العربة عند شجرة موز، وضعوا للبغلة زادها من البرسيم أمام فمها، ليست هناك حياة أفضل من ذلك ؛ يصعد الأربعة للحرس فيقول لهم أونباشى بطريقة سيئة اذهبوا للمجلس المحلى فى الساعة الواحدة . يقضون ساعات الصباح ذهابًا وإيابًا متنزهين، بدون أن يدخلوا حتى الحانة، مازالوا غلمانًا. لا يمكن وصف الساعات التى سبقت الاستجواب، سواء ما حدث فيها داخل رأس كل منهم من خوف وريبة، أو الحزن الذى استولى عليهم ورسم ملامحه فوق وجوههم، أو غصة المرارة فى حلقهم والتى لا يذيبها لا الماء و لا الخمر. مازال مانويل السيف يقول، أنا الذى ورطتكم فى هذا الأمر، لكن الآخرين يرفعون أكتافهم، لم يحدث شىء، ويرد فليسبيرتو لامباس، إن ما يتحتم علينا أن نفعله هو أن نحتمل لا أن نتنازل".

كانت نتيجة الأمر بالنسبة لصبية قليلى الخبرة نتيجة جيدة. فى الساعة الواحدة كانوا فى رواق المجلس المحلى، منصتين لصرخات الناظر جونثيجو، التى كانت ترعد المبنى بأكمله. ها قد حضروا رجال جبل لافرى. أجابه مانويل السيف كما لو أنه يصارعه، فهو رجل الثورة، ها نحن هنا، نعم سيدى. وقفوا الأربعة فى صف، فى انتظار ما يحل فوق رءوسهم. وضع الناظر زى سلطته المدنية، وكان النقيب مسرور معه. إذاً أنتم من فعلتم ذلك، سترون أيها الوقحون ما ينتظركم، سنرسلكم لإفريقيا، حتى تتعلموا احترام من

يـأمـرون، هـيـا، أدخـلـوا لى مـانـويل الـسـيف. وبـدأ الاستجواب. مَنْ يعلّمكم، مَنْ علمكم ذلك، لابد أن لكم أساتذة عظماء، أنتم تحرضون على الإضراب. ويجيب مانويل السيف بقوة براءته القاطعة، لم يعلمنا أحد، ولا نعرف أحدًا، ولا نعرف حتى ما معنى كلمة إضراب، لكن الماكينة كانت تأكل كثيرًا، وأكداس التبن كانت هائلة" . يقول الناظر، أنا أعرفكم جيدًا، وأعرف أنكم لا تقولون سوى ما أمروكم أن تقولوه ؛ كان جونثيجو يقول ذلك ليكسب أرضًا، حيث إنه عندما عرف فى مونتيمور أنه فى جبل لافرى هناك غلمان يحرضون على الإضراب، قال له وللنقيب مسرور شخصان أو ثلاثة ممن يتمتعون بالرصانة عدة كلمات رصينة، لا يجب أن تحملا تصرفات الغلمان محمل الجد، إنها أفعال صبيانية، فماذا يعرفون هم عن الإضراب. مع ذلك أصّر أن يمثل الجميع للاستجواب، وبعده، ألقى الناظر خطاباً قال فيه ما هو معروف، سنرى إن كنتم ستمتثلون للطاعة وتتعلمون احترام من يهبونكم عملا، سأفوّت هذه المرة، شريطة ألا أراكم هنا مرة أخرى لأنكم لو عدتم سنكسّر عظامكم ونرميها للحيوانات، وخذوا حيطتكم، خاصة عندما يظهر أحد ويعطيكم أوراقًا أو يورطكم فى حوارات ثورية، عليكم حينئذ أن تبلغوا الحرس وهم سيقومون بأداء الواجب، وأشكروا من تشفع لكم لنطلق سراحكم، ولا تعضوا اليد التى امتدت لكم بالإحسان، والآن انصرفوا، وألقوا التحية على النقيب

مسرور، فهو صديقكم، وأنا أيضًا صديقكم و أريد لكم الخير، لا تنسوا ذلك.

هذا هو حال هذه الأرض. قال الملك لامبيرتو هوركيس " اهتم بهذه الأرض وعمّرها، اسهر على مصالحها بدون أن تنسى أهلك، أنصحك بذلك من أجل مصلحتى، إن فعلت ذلك، دائمًا وأبدًا، سنعيش جميعا فى سلام". وقال الأب أجاميديس لنعاجه التى يرعاها" مملكتنا لا تقبع فى هذه الدنيا، عانوا فى حياتكم لتفوزوا بالسماء، وبقدر الدموع التى تزرفونها فى وادى البلايا هذا، ستكونون بقرب الرب عندما تتركون هذه الدنيا، فكل ما فيها خسارة، شيطان ولحم، وانتبهوا أننى لا أُغمى عيونكم، ستكونون مخدوعين إن اعتقدتم أن الرب إلهنا يترككم أحراراً فى الخير والشر، فى اليوم الآخر توضع الأعمال فى الميزان ، ومن الأفضل أن نؤدى ديوننا فى هذه الدنيا من أن نؤديها فى الآخرة ". إنها عقائد خيّرة تلك العقائد، وربما بسببها تحتم على الأربعة غلمان قبول أن يذهب الأجر الذى عملوا به ولم يقبضوه، وهو تسعة إسكودو فى اليوم، فى ثلاثة أيام وربع عملوها فى أسبوع الجريمة، أقول إن يذهب الأجر لدار المسنين، برغم أن فليسبيرتو لامباس هَمهَم فى طريق العودة ، من المؤكد أنهم سينفقونه على البيرة. ولم تكن تلك حقيقة، وعلينا أن نغفر خطأ الشباب الذى يسىء الظن بكل سهولة فيمن هم أكثر منه خبرة وحنكة. فبفضل السبعة عشر والمائة إسكودو الذين تبقوا فى يد ناظر المجلس المحلى، أكل مسنو الدار أكلة هنيئة،

وقضوا سهرة حقيقية، لم يكونوا يتخيلونها، لقد مر على هذا الحدث عدة أعوام ومازالوا يتحدثون عن هذه الوليمة، وأبرز ما قاله أحد المسنين شديدى الهرم، الآن أستطيع أن أموت وأنا مستريح .

إن البشر لحيوانات غريبة، والغلمان أشدهم غرابة، فهم من عرق آخر. لقد تحدثنا عن فليسبيرتو لامباس بما فيه الكفاية، فقد كان غاضبًا ومسألة الأجر المسلوب هى فقط مجرد حجة. لكن فى الحقيقة كلهم عادوا لجبل لافرى حزناء، كما لو كانوا قد سلبوا منهم شيئًا آخر أغلى من الأجر، من يدرى ربما سلبوا عزمهم، هم لم يفقدوه بالمعنى المفهوم، لكنهم بلا شك تعرضوا للإهانة، فقد عاملوهم باحتقار، وسمعوا، مصطفين، خطبة الناظر، بينما كان النقيب ينظر لهم شزرًا، حابساً أنفاسهم وتصرفاتهم. بل كانوا يشعرون أيضًا بالغضب على من تشفّع لهم. تلك الشفاعة التى لم تنفع فى عدم حدوث واقعة وضع قنبلة لسالازار(*) قبلها بيومين، لكنه نجا منها .

ذهب الأربعة غلمان يوم الأحد إلى الميدان ولم يجدوا صاحب العمل . نفس الشىء حدث يوم الأحد التالى، و الأحد الذى يليه. أصحاب الوسايا يتمتعون بذاكرة حديدية وسهولة اتصال، لا شىء يهرب منهم،

(*) سالازار هو رئيس الحكومة البرتغالية من سنة ١٩٣٢ ـ ١٩٧١ وهو مشيد ماسمى بالدولة الجديدة، وكان محافظًا متزمتًا فأقام دكتاتورية وفق نموذج موسولينى. والحادثة التى يشير إليها المؤلف كانت محاولة اغتيال فاشلة، بعد وفاته تولى مارسيلو كايتانو رئاسة الحكومة حتى عام ١٩٧٤ ، حيث نشبت ثورة القرنفل (المترجم).

تلك تعاليم يتوارثونها، وعندما يروق لهم، يغفرون، لكنهم أبدًا لا ينسون. عندما وجد الغلمان عملاً فى النهاية، مضى كل منهم فى جانب . عمل مانويل السيف فى رعى الخنازير، وفى حياته الرعوية تقابل مع أنطونيو المنحوس، الذى سيصير صهره، عندما يأتى الوقت المناسب .

أصاب صحة سارة الوهن. أصبحت الآن تقضى ليلها تحلم بزوجها وقد لا تمر ليلة بدون أن تراه راقدًا فوق أرض الزيتون، بأثر الحبل فى رقبته، بلونه البنفسجى، هكذا لا يستطيع الذهاب للقبر، وتبدأ حينئذ فى غسله بالخمر حتى تتمكن من إخفاء الأثر، وإن استطاعت، سيستعيد الزوج حياته من جديد، وهو الشىء الذى لا ترغبه لو كانت مستيقظة، لكن الحلم جاء بهذه الصورة ، ومن يستطيع أن يفسّره. إن هذه المرأة، التى اغتربت كثيرًا فى شبابها، تعيش الآن هادئة وصامتة، لكن الحقيقة التى لا مفر منها أنها عاشت دائمًا وأبدًا فى صمت وهدوء، وتساعد فى بيت ابنها جوان المنحوس وزوجته فاوستينا، وتعتنى بحفيدتيها جراثيندا وإميليا، كما تربى الدجاج، وترفأ الثياب وتعيد رفئه من جديد، وتصنع رُقع لمؤخرات السراويل، وهو علم اكتسبته من سنوات زواجها، ولديها، فضلاً عن ذلك، عادة لا يفهمها أحد، التنزه خارج البيت، وسط الظلام الدامس، عندما يغوص ذويها فى سبات عميق. الحق أنها لا تبعد كثيرًا عن

البيت. ولا الخوف قد يسمح لها بذلك، لذا تكتفى بالسفر حتى ناصية الشارع. يعتقد الجيران أن السيدة العجوز شبه مجنونة، وربما تكون كذلك، لأنه لو قامت كل الأمهات المسنات بالتنزه ليلا بالشارع ليتمتع ابنها وزوجته أو بنتها وزوجها بالملاطفات الهادئة، لكان ذلك أمرًا جديرًا بالذكر فى التاريخ الفقير للحركات البشرية الصغيرة، ولشاهدنا المسنات فى ذهابهن وإيابهن فى الظلال أو تحت ضوء القمر، أو جالسات فى الأرض، بجانب الجدران البيضاء، أو فى درجات سلم الفناء، صامتات، منتظرات،ماذا سيقولن؟ لا شىء سوى ذكريات يسكنها متعة الماضى، كيف كان، كيف لم يكن، والوقت الذى كانت تستمر فيه تلك المتعة، حتى تقول سيدة منهن، نستطيع أن نعود يومًا آخر، فتنهضن جميعًا ويقولن، إلى اللقاء غدًا، ويصلن لبيوتهن، يرفعن عصا إغلاق الباب بحذر، والزوجان نائمان وبريئان من ممارسة الحب، فذلك لا يكون كل ليلة، يا أمى. لكن سارة كانت تفضل الحيطة الزائدة، ولا يمنعها عن الخروج سوى سوء الطقس، وحينها كانت تدخل تحت سقيفة فى حوش البيت، فتشفق عليها فاوستينا، التى تفهمها جيدًا، وتلك أمور نسائية، فتناديها من باب غرفتها، وتلك إمارة على أنها ليلة بيضاء نقية مثل تلك النجوم الباردة ، هذا إن كان حقًا فى النجوم لا يبحث جوان المنحوس عن زوجته الشرعية تحت الملاءات .

ربما يكون كثرة خروج ودخول سارة مرده إلى هروبها من الأحلام التى تنتظرها، لكن من الحق

والمعروف أنها ذهبت عند الفجر لأرض الزيتون، وفى اليوم التالى لوفاة زوجها، اهتدوا لجسده، عرفت ذلك عن طريق الحلم؛ وبزجاجة خمر وخرقة تكرر الحركة، تدعك، تعيد الدعك، والرأس يتأرجح، وعندما تأتى ناحيتنا، تظل عينا زوجها الباردتان تبحلقان فيها، وعندما تذهب هناك، تبقى الجثة بلا وجه، وهذا اسوأ. تستيقظ سارة غارقة فى عرقها البارد ، تسمع شخير ابنها ، تسمع قلق حفيدها فى منامه، لكنها لا تسمع صوتًا لحفيدتيها ولا لزوجة ابنها، إنهن نساء، من أجل هذا صامتات، وتدنو من الطفلتين النائمتين، يعلم الله المصير الذى ينتظرهما، بمشيئة الله ستكونان أكثر حظًا منى .

ظلت القصة تتقدم، وذات ليلة خرجت سارة ولم تعد. عثروا عليها فى صباح صاف، خارج القرية، بلا عقل، تتحدث مع زوجها كما لو كان حياً. إنها مصيبة. أنقذت الموقف الابنة التى كانت تعمل خادمة فى لشبونة، ماريا، حيث توسلت بالدموع لأصحاب العمل أن يعيدوها، فأعادوها، ومازال هناك من يتحدث بسوء عن الأثرياء. جاءت سارة بنت جبل لافرى لتسافر، لأول مرة، فى تاكسى يحملها من تيريرو دو باكو، الواقعة فى الجنوب و الجنوب الشرقى، إلى مستشفى مجانين ريلهافولس، حيث استقرت هناك حتى جاءت ساعتها مثل فتيلة ينتهى منها زيتها. أحيانًا، لكنها أحيانًا قليلة، حيث لكل منا مشاغله، كانت تذهب ماريا لزيارة أمها، فتظل كل واحدة منهما

تحدق فى الأخرى، ماذا بوسعهما أن يفعلا أكثر من ذلك. وبعد ذلك بسنوات، عندما يسوقون جوان المنحوس إلى لشبونة لأسباب سنعرفها سريعًا، تكون سارة قد ودّعت الحياة، محاطة بضحكات الممرضات، اللاتى كانت تطلب منهن، بتوسل، زجاجة خمر، تخيلوا، لتتم عملا يجب أن تتمه قبل فوات الأوان. آه من وجع القلب، أيها السادة و السيدات..

من غنائم الحروب كان للوسية نصيبها، وإن كان نصيبًا متواضعًا. أما النصيب الأكبر فكان يذهب لأوروبا تلك التى اشتعلت فيها نيران الحرب منذ قليل، وحسبما وصل لمعرفتنا، وهو ليس بالكثير، حيث كنا غارقين فى محيط الجهل و العزلة عن العالم، كانت إسبانيا قد وصلها الدمار لدرجة تبكى من أجلها النفس. كل حرب تتجاوز حدودها المعقولة، قد يفكر هكذا كل من مات فيها، لأنه لم يرغب ذلك .

عندما تملّك لامبيرتو هوركيس أراضى قطاع جبل لافرى بحدوده، كانت دماء الإسبان على أرضهم مازالت طازجة، تلك الدماء التى نزفها محبو سفك الدماء، وهى طازجة مقارنة بالدماء التى سفكها الرومان و البرتغاليون القدامى، طازجة مقارنة بضجيج وجلبة الجرمانيين الهمجيين، الذين غزوا إسبانيا فى القرن الخامس الميلادى، إن كانوا قد وصلوا إلى هنا، فالقوطيون قد وصلوا بالطبع، وبعد ذلك جاء العرب، تلك القبيلة الشيطانية التى تتمتع

بالبشرة السمراء، الحمد لله أن جاء البورجونيون الفرنسيون وقضوا على جيشهم وجيش الآخرين؛ وحروب صليبية، ومسلمون من جديد، يا إلهى، كم قتيل شاهدته تلك الأرض، وإن لم نتكلم بعد عن الدماء البرتغالية المسفوكة، فذلك لأنها كلها دماء واحدة أو صارت كذلك فيما بعد فى زمن التطبيع المناسب، ولم نتحدث عن الإنجليز والفرنسيين؛ لأنهم حقًا أجانب .

لم تتغير الأمور بعد لامبيرتو هوركيس. ظلت الحدود بابًا مفتوحًا، وبقفزة واحدة يمكن عبور الكايا، ويبدو أن ملائكة الحرب قد سووا السهل عمدًا وبنفس راضية حتى تكون المواجهة بين الجنود سهلة ومريحة فلا يجدوا أية موانع أمام سهامهم المنطلقة، ولا أمام رصاصاتهم فى زمن آخر. جميلة تلك الكلمات الخاصة بالسلاح، من الخوذة إلى الدرع، من القوس إلى البندقية، من المدفع القديم إلى المدفع الأحدث، ولو عرف رجل مسيحى أنهم ساروا من هنا، ووطأوا تلك الأرض واستهلكوا خزائن ذخيرة لارتجف، وسيرتجف مرة أخرى أمام جدارة هذه الاختراعات. فى نهاية الأمر، سالت دماء كثيرة، سواء من جراح الرقبة أو من البطن المفتوحة أمام الشمس، دماء من كثرتها قد تستخدم كحبر لكتابة الألغاز شديدة السرية مثل هل عرف من مات من هؤلاء البشر سبب موته وهل قَبلَ الموت. تنهض الأجساد من مكانها أو تُدفن

ربما فى المكان الذى سقطت فيه، وتُكنس الوسية لتبقى الأرض ناعمة من أجل معركة جديدة . لهذا كان يجب أن يتعلموا ويمارسوا حرفتهم بإتقان، بغض النظر عن النفقات، مثلما حدث عندما كتب بمهارة كونت فيميوسو إلى جلالته" سيدى، يجب أن تزود سرية الفروسية ببندقية قصيرة وطبنجتين لكل جندى، وأن تزود تلك البندقيات بطلقات بندقية الموسكيت أو أصغر قليلا، على ألا يصل طول ماسورتها لثلاثة أرباع متر، فهذا يكفى، حتى تحتوى الماسورة هذا النوع من الطلقات، وإلا لن تعمل البندقية عملها الضرورى، ولن تقبض على خزنة الرصاص، كما يجب أن تكون ؛ أما الطبنجات فيجب أن تزود بنوع جيد من الرصاص وأن يصل طول ماسورتها لنصف متر تقريبًا، على أن تأتى بجرابها ليعلق فى الحزام، وفى السروج يجب عمل حزامين ليشبكا الجندى، ومن الخير أن ترسلوا لى بالإضافة للبنادق و الطبنجات كميات أخرى لأصنع منها سلاحًا آخر وكميات من الحديد إلى ڤيلا فيزوسا، لتقسيمها بين الضباط المتخصصين فى صناعة البنادق، وقد يبقى جزء من هذا الحديد فى مونتيمور وإيفورا، وهذا ما أراه نافعًا لسرية الفروسية، لكن ما تأمر به جلالتك سيكون أكثر نفعًا» .

لكن، بسبب بعض التعثرات فى بيت المال، كان يحدث أن يتأخر جلالته فى دفع الرواتب التى كانت ضئيلة أيضًا، " لقد عمل الناس فى مونتيمور حتى

الآن فى تشييد الحصون مقابل ألفى مسكوكة تكرمت جلالتك بمنحها بالإضافة لألفين آخرين دفعهما الشعب، وبما أن الاتفاق كان أن تدفع جلالتك ستة آلاف والشعب كذلك، فقد كتبت لى البلدية أنه من الضرورى أن تدفع جلالتك ألفين حتى يدفع الشعب مثلك، فكان ردى أن يحاولوا هم دفع الألفين، وأن أخبر جلالتك لترسل لهم الألفين حتى يساهم الشعب بما يجب عليه". تلك رسائل بيروقراطية، عديمة الثقة، تشبه لعبة المقايضة، لكن فيها لا يتم الفصال فى الدماء، فلا يمكن أن يقال" أعطنى جلالتك لترا من دمك، سواء كان دمًا أزرق أم أحمر، فبعد أن يسيل على الأرض لمدة نصف ساعة، سيختفى لونه". لا تتجرأ الشعوب أبدًا فى طلب المزيد، حيث قد لا يكفى دم كل البيت الملكى، حتى لو وضعنا فى نفس المكيال دماء الأطفال ولادًا وبنات، بما فيهم أبناء الملك والملكة غير الشرعيين، الذين جاءوا لضرورات الحرب. فليدفع الشعب الدم والمال، فجلالة الملك سيمنح المسكوكات المعدودة بعد أن يدفعها الشعب أولا فى شكل ضرائب.

أبدًا لا تختفى البلايا من القائمة. فحكايات فرقة الفروسية والمسكوكات والحصون، فضلاً عن الدم الذى يستبيحه الجميع، تنسب للقرن السابع عشر، فهى شديدة القدم، مليئة بالرعب، لكن الأمور لم تتحسن، فحدث بعد ذلك أن فقدنا أوليفينزا فى

حرب البرتقال(*) ولم نستردها مرة أخرى وهكذا، بدون إطلاق رصاصة واحدة، ياللعار، يدخل مانويل جودوى من هنا، بلا مقاومة، ولسخريتنا وكرمه يرسل غصن برتقال إلى عشيقته الملكة ماريا لويسا، ولم يكن ينقصنا سوى إرسال مرتبة لكليهما. إنها بلية غير متناهية، حسرة لا سلوى لها، أن يجرى حتى أول أمس ما كان يجرى فى القرن السابع عشر، لابد أن البرتقال فأل سيئ يؤثر على مصائر الأشخاص والجماعات، ولو لم يكن الأمر كذلك ما أمر ألبيرتو رئيس العمال بدفن أغصان البرتقال المتساقطة فى وقت البرد وما قال له " ادفنوا البرتقال". ولو ضُبط أحد يأكله يطردونه يوم السبت، وهكذا تم طرد العديد لأنهم أكلوا خفية الفاكهة المحرمة التى كانت لذيذة فى تلك الأونة، بدلا من أن يتركوها تتلف وتتعفن تحت الأرض، مدفونة بالحياة، يالها من مسكينة، وأى ذنب ارتكبت هى أو ارتكبنا نحن. لكن لكل شىء سببًا، فلنتأمل الأمور، فلكى تنتهى تلك الحرب البادئة الآن فى أوروبا، أرسل شخص يدعى

(*) حرب البرتقال: هى الحرب العسكرية التى نشبت بين فرنسا وإسبانيا ضد البرتغال لأنها لم تغلق موانيها أمام الإنجليز، سنة ١٨٠١، واستطاعت إسبانيا تحت قيادة جودوى الاستيلاء على العديد من المدن البرتغالية التى تم إعادتها بمعاهدة باداخوث، باستثناء مدينة أوليفينزا الحدودية التى بقت للأبد إسبانية. ويرجع تسمية الحرب بالبرتقال لغصن البرتقال الذى أرسله جودوى لماريا لويسا، ملكة إسبانيا، عندما كان يحاصر مدينة الفاس. (المترجم).

هتلر هوركيس الألمانى فى جمع غلمان تتراوح أعمارهم من الثانية عشرة إلى الثالثة عشرة ليشكل منهم معارك الهزيمة الأخيرة، بالزى الرسمى المعلق على سواعدهم والملفوفة به سيقانهم كما الرهبان، ويحملون سلاح التقهقر، فوق كتف لا يحتمل السلاح بعد، وهذا هو بالضبط ما يشكوه أصحاب الوسايا، حيث لا يجدون غلمانًا فى السادسة و السابعة ليرعوا الخنازير والديوك الرومية، ماذا سنفعل إن لم يكسب الفتيان رزقهم، كان يردد ذلك الآباء الخشنون الذين دفعوا الدم والمال ومازالوا إلى الآن لم يفهموا الحقيقة، أو بدءوا فى الشك، كما ارتابوا فى قرن آخر فى أعذار جلالته .

ومـاذا لـو صارت حياتهم حروبًا فى حروب. الإنسان يتكيف مع جميع الظروف، فبين حرب وأخرى ينجب أطفالا ويسلمهم للوسية، بعيدًا عن الرماية والبندقية التى تقطع الآمال، فقد يضحك الحظ للولد ويصير رئيس عمال، أو إداريًا، أو خادمًا حافظًا للسر، أو ربما يفضل الذهاب ليعيش فى المدينة، تلك الحياة الشبيهة بالموت النظيف. ليس هناك أشر من الأوبئة و الجوع، عام يصيب وعام قد لا يصيب، فيأتى ليقضى على الشعب، فتصير الحقول خالية من الناس، والقرى مغلقة، وعلى مدى البصر لا ترى نفسًا واحدة، ومن آن لآخر تطل أقوام رثة الثياب وبائسة، تسير بطرق لا يرتادها سوى الشيطان رغمًا عن الرجال . يضلون طريقهم، فتفترش الأرض الجثث،

وعندما ينتهى الوباء ويرتاح الجوع، يعدون الأحياء لآخر رقم يعلمونه فى العد، فلا يجدون إلا قليلا .

كل هذه الأمور مصائب، ومصائب كبرى. ولو استخدمنا لغة الأب أجاميديس نستطيع أن نقول إنها مصائب سفر الرؤيا الثلاث، التى كانت اربعًا، ولنبدأ بالعد على الأصابع، لمن لا يعرف طريقة أخرى للعد، أولها الحرب، ثانيها الطاعون، ثالثها الجوع، والآن يأتى رابعها وهى حيوانات الأرض المفترسة، ذات الحضور الكبير، والتى تتمتع بثلاثة وجوه، أولها وجه صاحب الوسية، ثانيها وجه الحارس الذى يدافع عن الوسية وعن صاحبها، ثم يأتى الوجه الثالث، حيّة ذات ثلاثة رءوس ومقصد حقيقى واحد. ليس أكثر من يأمر هو أكثر من يقدر، ولا أكثر من يقدر هو أكثر من يظهر . لكن من الأفضل أن نتحدث بوضوح أكثر. فى كل المدن، فى كل القرى والضواحى والأماكن، يسير هذا الفرس ويتنزه بعينين غاية فى الحيطة وبأرجل تشبه يدى الإنسان وقدميه، لكنها ليست أيدى ولا أقدام إنسان. ليس إنسانًا هذا الذى سيقول لمانويل السيف، بعد ذلك بسنوات، عندما يذهب لأداء الخدمة العسكرية فى جزر أزورس، وأتمنى ألا يختل نسق القصة بتقديم هذا الحدث، عندما أترك هذا أدخل فى مباحث التجسس وأمن الدولة ، ويسأله مانويل، ما معنى هذا ؟ فيجيبه الآخر، إنه البوليس السياسى، لا تتخيل كيف حال الواحد هناك، إن وجدت فردًا لا تستخف ظله، تحبسه، تسوقه للسلطة

المدنية، ولو راق لك، اضربه بالنار طلقة واحدة فقط فى رأسه بعدها تقول إنه قاومك، وانتهى الأمر.

إنه فرس يقوّض أبواب البيوت بتروٍ، يأكل على مائدة الوسية مع الأب أجاميديس ويلعب الكوتشينة مع الحارس الجمهورى بينما المهر مسعود يضرب برجليه رأس السجين . فى كل المدن، فى كل القرى والضواحى وجميع الأماكن الأخرى، نجد الجياد، تصهل، تفرك بوزها فى نفسها، تتبادل الأسرار والوشايا، تخترع عنف المعتقد و المعتقد العنيف، ولهذا نفسه رأينا جميعًا أنهم لا ينتسبون إلى سلالة الجياد، كم هو أحمق هذا الأب أجاميديس الذى لكونه قرأ فقط فى التوراة أعتقد أنها حقيقةً جياد، وهو خطأ أساسى وقع فيه مانويل السيف فى أزورس، أوقعه فيه زميله البشير . إن جذور شجرة المعرفة لا تختار أرضها ولا ترتاب فى المسافات البعيدة .

لكن الأب أجاميديس أيضًا يصيح ، رجال ما يسيرون من هنا خفية ويرجفون عقولكم، ونعمة الرب ربكم ومريم العذراء أرادت أن ينسحقوا فى إسبانيا، إنهم كما الشيطان أعوذ بالرب منه، واجبى أن أقول إن عليكم أن تفروا منهم كما تفروا من الطاعون والحرب والجوع، فهم أشد مصيبة ممكن أن تقع على أرضنا المقدسة، فهم كآفة الجراد التى حدثت فى مصر، لهذا لن أكلِ من أن أقول لكم انتبهوا وأطيعوا أولى الأمر الذين يعرفون أكثر منكم فى الحياة الدنيا، وانظروا لحارس الوسية كما تنظرون للملاك الحارس، فلا

تحملوا له كرهًا، فالاب نفسه يضطر أحيانًا لضرب ابنه الذى هو فلذة كبده، ونعرف جميعًا أن الابن يقول عندما يدرك، كان ذلك من أجل مصلحتى، ويختفى الضرب من جسده، هكذا، أبنائى، يكون الحارس، ولن اتحدث عن السلطات المدنية والعسكرية، ولا عن السيد رئيس المجلس المحلى، والسيد الناظر، والسيد قائد الفرق العسكرية، والسيد المحافظ، والسيد قائد الفيلق، والسادة الآخرين المكلفين بإصدار الأوامر، بدءًا ممن يهبكم العمل، نعم، فلتتخيلوا أحوالكم بدون ان يهبكم أحد عملا، كيف كنتم ستطعمون عائلتكم، قولوا لى، أجيبونى، فمن أجل ذلك أسألكم، أعلم جيدًا أنه فى القداس لا يصح الحوار، لكن عليكم أن تجيبوا أنفسكم بينكم و بين ضمائركم، ومن أجل هذا أوصيكم، أناشدكم وأواعدكم، كيلا تعطوا آذانكم لهؤلاء الشياطين الحمر الذين يتجولون هنا لجلب المصائب لنا، آمنوا أن الرب لم يخلق هذه الأرض من أجل ذلك، وإنما خلقها لتكون محفوظة بين حِجر مريم العذراء، إن آمنتم أن هناك من يريد أن يضللكم بكلماته الرقيقة، فتوجهوا لموضع الحراسة وبلغوا عنه وسيكون ذلك عملا لوجه الرب، لكن إن خالفتكم شجاعتكم، خشية أن ينتقموا منكم، فسأسمع إليكم فى الاعتراف وسأرعاكم كما يملى على ضميرى وروحى، والآن فلنصلِ جميعًا صلاة ربانية لإنقاذ وطننا، صلاة ربانية لإنقاذ روسيا، صلاة ربانية بنية حكامنا، هؤلاء الذين يضحون كثيرًا من أجلنا ويحبوننا، آبانا الذى فى السماء، فليقدس اسمك.

الأب أجاميديس معه حق فى كل ما يقول. فهناك أناس يتجولون فى الوسية، يجتمعون فى مجموعات من ثلاثة أو أربعة فى أماكن خفية عن العين، خالية من السكان، وأحيانًا فى بيوت مهجورة، يراقبون، وأحيانًا يلتقون تحت ستر واد، اثنان من هنا، اثنان من هناك، ويتحاورون. عادة ما يتكلمون واحدًا واحدًا والآخرون يستمعون، من يراهم من بعيد قد يقول، إنهم متشردون، غجر، حواريون، وعندما ينتهون يتفرقون فى الوادى، كل فى طريق مختلف، يحملون أوراقًا وقرارات. هذا هو ما يسمى مُنظَمة، والأب أجاميديس يشتاط غضبًا، إنه الغضب المقدس، عليهم اللعنة، فلتتهاوى أرواحهم فى الدرك الأسفل من النار، فهم وباء ضار لا يرغبون سوى تعكير حياتكم، حتى أننى بالأمس تحدثت مع السيد رئيس البلدية، وقال لى يا سيدى القس أجاميديس، انظر، لقد لوث الداء اللعين قريتنا، وعلينا أن نفعل شيئًا ضد العقائد الخبيثة التى يروج لها أعداء عقيدتنا وحضارتنا بين العائلات. لا تكونوا ناكرين للجميل، أقول لكم الآن، إنكم تجهلون أن بلدنا هذا محط حسد الأمم الأخرى، لأننا نتمتع بالسلام، بالنظام، والآن اقتربوا هنا وقولوا لى إن أردتم أن تفقدوا كل هذا، أتشتكون من عيب، هذا هو ما يحدث .

لم يكن جوان المنحوس أبدًا رجل قداسات، لكن لأنه الآن يعيش فى جبل لافرى يرتاد الكنيسة من آن لآخر، لينال رضا زوجته وللحاجة أيضًا. يسمع هذه الكلمات الثائرة من الأب أجاميديس، يقارنها داخل رأسه بالكلمات الأخرى التى قرأها فى الأوراق التى

أعطوها له فى الخفاء ومازال يتذكرها، ويصدر حكمه كرجل بسيط، وإن كان يصدق فى شىء ما تقوله الأوراق، فهو لا يصدق شيئًا إطلاقًا مما يقوله القس. يبدو أن الأب أجاميديس نفسه يواجه صعوبة ليصدق نفسه، فيلجأ للصياح والصراخ بأعلى صوته، فيهرب الزبد من فمه، فيصير منظره غير لائق بوزير الرب. عندما ينتهى القداس، يخرج جوان المنحوس من الفناء مع بقية الحاضرين، يلتقى بفاوستينا، التى كانت بين النساء، يهبط معها حتى منتصف الشارع بعدها ينضم لأصدقائه ليتجرع كأساً، فقط كأساً واحدة فيسخرون منه، منحوس، إنك تشرب كما الاطفال، فيبتسم هو، ابتسامة تقول كل شىء، لدرجة أنها تُلزم الآخرين الصمت، كما لو كان من إحدى كمرات الحانة سقط جسد رجل مشنوق. ويقول له أحدهم، لقد تحدث القس جيدًا، أليس كذلك ؟ سؤال لا جواب له لآن، فهذا أحد اثنين أو ثلاثة من جبل لافرى لا يذهبون أبدًا للقداس، فيسأل فقط ليزعجهم . يبتسم المنحوس من جديد، العظة دائمًا لا تتغير، ولا تزيد، لأنها تسير فى طريق الأربعين، لا تشرب كثيرًا فالشرب الكثير لا يصون اللسان. لكن من يد هذا الذى تحدث فى الحال جاءته الأوراق، حينئذ تبادلا النظر، وبإحدى عينيه غمز له سيجيسموندو، هذا اسمه، ورفع الكأس، فى صحتك .

فى الأيام التى فيها كان أنطونيو المنحوس يرعى الخنازير، ظهر له هناك مانويل السيف، خاضعاً لعمل لا خبرة له فيه نظراً لأنه لم يجد عملاً آخر بعد أن ذاع صيته، لمسافة فرسخين حوله، أنه محرض على الإضراب، هو و زملاؤه. ومثل بقية سكان جبل لافرى، اطلع أنطونيو المنحوس على الخبر، وفى طفولته التى خرج من طورها قريباً، كان يجد تشابهاً مع مانويل فى تمرده الخيالى ضد رئيس الرعاة، شاوى الصنوبر الضارب بالعصا، لكنه لم يتجرأ أبدًا على التعبير عن هذا التمرد، كما فعل مانويل الذى يكبره بست سنوات، وهو عدد كاف من السنين ليفصل بين الطفل والفتى وبين الفتى والشاب . لم يكن رئيس الرعاة هنا يتحرك أكثر من الآخر، لكنه كان معذوراً، فهو رجل مسن، وكان الغلمان يتحملون جيدًا أوامر العمل، فلابد من أحد يأمر، هو يأمرنا و نحن نأمر القطيع. أيام الرعى طويلة، حتى فى الشتاء، وساعات اليوم تمر ببطء، بلا تعجل، فكل حين ينتقل الظل من هنا لهناك، وتكون الساعات أكثر بطئًا عندما يكون القطيع خنازير،

فالخنازير لا تتمتع بالخيال، ودومًا تلصق بوزها بالأرض، ونادرًا ما تبعده عنها قليلا، ولا يستقيم حالها سوى بضربة بحجر أو بهراوة على ظهرها فتنضم الخنازير الشاردة إلى القطيع من جديد وتنفض آذانها، كما لو لم يحدث شىء، بارك الله فيها، فهى لا تحمل كراهية لأحد لأنها تتمتع بذاكرة فقيرة .

هكذا كان يفيض وقتًا للثرثرة، عندما يرقد رئيس الرعاة تحت شجرة سنديان، أو عندما يشرد بالقطيع بعيداً عن هذا الجانب. تحدث مانويل السيف عن مغامرته كمتمرد، بلا مبالغات تعارض مع شخصيته، وألمح بوصف نظرى لما يمكن أن يحدث فى الأحواض الليلية لنساء الحراسة، خاصة لو كن من الشمال وجئن بلا رجل . لقد صارا صديقين، وأصبح أنطونيو المنحوس شديد الإعجاب بصفاء صديقه الأكبر منه، فلم يكن له من قبل أصدقاء، فبمجرد أن يضع قدميه فى مكان، يرفعهما، كما سنرى بعد ذلك . لقد ورث حب التجوال عن جده، دومينجو المنحوس، وإن اختلف عنه فى روحه المرحة، لكن ليس على الطريقة المعتادة، وجه مسرور وضحكات منطلقة. ما يعشقه وما يكرهه يتفق مع سنه، ويحمل على عاتقه القضية العتيقة التى لم تحل أبدًا والتى تفرق الغلمان عن العصافير، وله قول مستقل خاص به وبعض الأفعال المتجاسرة التى سيعلنها يوماً فتعبر عن التمرد و ضيق الصدر. سيعشق الرقص كما عشقه أبوه فى صباه، لكنه لن يهوى الفتيات بشغف. سيكون راوى قصص عظيمًا،

تلك القصص التى عاشها و التى تخيلها، وسيمسك بزمام الفن الرفيع ليمحى الفواصل بين هذه وتلك. لكنه سيكون دائمًا، بطبيعته الشخصية، عاملاً كبيراً فى كل أنواع الفنون الريفية. ما نفعله الآن ليس قراءة للكف، وإنما هى ببساطة معلومات أساسية لحياة ظهرت منها أشياء وأشياء أخرى لم تبدُ مرتبطة بجيله.

لم يستمر طويلاً أنطونيو المنحوس فى رعى الخنازير. ترك مانويل السيف فى المهنة وذهب ليتعلم أعمالاً كان الآخر يعرفها، لأنه أكبر منه سناً. فى الثالثة عشرة كان يسير برفقة رجالٰ ناضجين فى الأرض الزراعية، يحفر السواقى، وهو عمل يتطلب قوة ساعدين ومجهوداً كبيراً. وبمجرد أن بلغ الخامسة عشرة تعلم نزع الفلين، وهى حرفة جديرة بالذكر وصل فيها لدرجة معلم، مثل كل الحرف الأخرى التى دخل فيها، بلا تكبر. شاباً صغيراً، هاجر حضن أمه وأبيه وتجول فى الأماكن التى ترك فيها جده أثراً وذكريات مريرة. لكنه كان مختلفًا تماماً عن جده لدرجة أن أحدًا لم يربط بين اللقبين ليعتقد أن بينهما صلة قرابة. كان يميل كثيرًا للبحر، وهناك اكتشف ضفاف سادو وغامر، فلم تكن رحلة صغيرة، قام بها سيراً على قدميه، ليريح فقط عدة سنتات أكثر كان يساوم عليها فى جبل لافرى. وذات يوم، بعد ذلك بكثير، فلكل وقت آذانه، سيذهب لفرنسا ليدفع سنوات من عمره مقابل حفنة عملات أكثر .

تأتى فترات ركود أيضًا فى الوسية، والأيام فيها تسير بلا مبالاة أو هكذا تبدو لهم، فى أى يوم نكون؟ الحقيقة أن الناس يموتون ويولدون فى فترات معروفة، والجوع لا يعرف سوى صوت المعدة، والعمل الثقيل لا يخف أبداً. لا تحدث تغيرات فى القرية، التغيرات دائمًا تأتى من الخارج، طرقات تكتظ بسيارات، راديوهات ووقت فراغ يسمعونها فيه، بدون إدراك لما يسمعونه وتلك خاصية أخرى، كما يعد تغيراً أيضًا بظهور زجاجات البيرة والمياه الغازية، أما رقود الرجل ليلاً، سواء فى سرير بيته أو فوق تبن الحقل، ومعاودة نفس ألم الجسد، فهو أمر ثابت، و محظوظاً من ليس عاطلاً. أما عن النساء فلا يستحق الأمر الحديث عنهن، فمازلنّ صامدات فى عملهن كوالدات وحيوانات للشيل .

وبرغم كل شىء، عند النظر لهذه الصحراء التى تبدو ميتة، نستطيع رؤية ارتجاف الماء القادم من العمق فجأة ليسبح على السطح، وهو عمل ناتج عن الضغط المتراكم فى الوحل، بين التكوين و التفكيك وإعادة التكوين الكيميائى، حتى ينفجر الغاز المتحرر، يعجز الأعمى بالميلاد والمتعامى بإرادته عن رؤية ذلك. ولاكتشافه يجب أن تكون منتبهاً، لا أن تقول و أنت عابر الأمر لا يستحق الوقوف، فلنواصل سيرنا. لو ابتعدنا فترة ما، وشردنا مع المناظر الطبيعية المختلفة والصور الفاتنة، سنرى عند عودتنا كيف يتغير كل شىء حتى ولو لم يبدُ ذلك. هذا هو ما يحدث عندما

سنترك أنطونيو المنحوس يصنع حياته و نعود لخيط القصة التى بدأناها، رغم أنها قصص تُسمع، حتى قصة جوزيه القط، المعروف بشره هو وأصحابه، هذا الشر الذى كان أنطونيو المنحوس شاهداً عليه ويرويه:

هنا لم تقع حوادث لامبياس البغيضة، قاطع الطرق البرازيلى، الذى سمعتهم يحكون عنه، ولا حوادث آخرين يقطنون هنا أو بالقرب من هنا، كما كان حال جوان براندو أو جوزيه دو تيليادو، وهم أناس أشرار بطبعهم أو يرتكبون الشر خطأً، من يدرى! لا أقصد بذلك أن الوسية كانت خالية من المغتصبين، قطاع الطرق الذين كانوا لأتفه سبب يقتلون المسافر ويسرقونه، لكننى لم أعرف سوى جوزيه القط محترفاً لهذه المهنة، هو ورفاقه، والأفضل أن نسميهم عصابته، والتى كانت تتكوّن، إن كنت أتذكر جيداً، من باريّاس وفينتا راتشادا ولودجيرو وكوستيلو، ومن آخرين لا أتذكر أسماءهم، فالإنسان لا يستطيع أن يتذكر كل شىء. وأنا لا أعتقد أنهم كانوا لصوصاً. نعم كانوا متشردين، هذه هى الكلمة المناسبة. فعند وجود عمل، كانوا يعملون مثل الآخرين، بل وأكثر منهم، فلم يكونوا صعاليك، لكن كان يأتى يوم فيه ينفجرون، فيتركون الفأس أو المعول، ويذهبون لرئيس العمال أو المسئول ويطالبونه بأجر الأيام التى عملوها، ولم يكن هناك من يتجرأ على رفض طلبهم، فيختفون بعد ذلك. فى البداية كان كل واحد منهم يفعل ذلك منفرداً، حتى جاء اليوم الذى اتحدوا فيه وكونوا عصابة. عندما

تعرّفت عليهم كان جوزيه القط هو رئيسهم، ولا أعتقد أن أحداً كان يتناقش فى قيادته . أكثر ما كانوا يسرقون كانت الخنازير، حيث كانت تلك الأرض غنية بها . كانوا يسرقون ليأكلوا، وأيضًا ليبيعوا، بالطبع، فالرجل لا يقود حياته بما يأكله فقط. كانوا يمتلكون مركباً راسياً بنهر السادو، وكان هناك مخبأهم. كانوا يقتلون الحيوانات ويحفظونها فى الماء المالح لفترات القحط . وبمناسبة الماء المالح، لدىّ حكاية سأرويها، فذات مرة لم يجدوا ملحاً، وكانوا فى أشد الحاجة إليه، وبدءوا يسألون أنفسهم ماذا نفعل، ماذا لا نفعل، فقام جوزيه القط، وكان رجلا متحدثاً إن استدعى الأمر، وقال لبارّياس أن يذهب ليبحث عن الملح فى الضفاف. فى أعم الأحوال، كان يكفى أن يقول لهم جوزيه القط كن فيكون، فقد كانت كلمته مقدسة ككلام الرب، لكن فى هذه المرة لا أعرف أى شيطان وسوس لبارّياس ليقول، لن أذهب. فندم بعد ذلك ندمًا شديدًا. سحب جوزيه القط قبعته، ورماها فى الهواء وبينما كانت تطير القبعة أمسك ببندقيته وصوب عليها طلقتين فتمزقت، بعدها قال لبارياس، بصوت غاية فى الهدوء، ستذهب لإحضار الملح، فألقى بارياس البردعة على ظهر الحمار وذهب لإحضار الملح. هكذا كان جوزيه القط .

كان جوزيه القط هو متعهد توريد لحم الخنازير لمن يعمل بالقرب منه ولديه من الشجاعة ما يجعله لا يهابه. ذات مرة ظهر فينتا راتشادا فى المكان الذى

كنت أحصد فيه، ظهر مقنعاً، ليسأل إن كان أحد يريد لحماً. أردت أنا واثنان من زملائى، واتفقنا أن نتقابل فى مكان، يسمى كرسى الصنوبر . إلى هناك ذهبنا، كل منا يحمل كيسه، وقليلاً من النقود على سبيل الاحتياط، فبعض الذى كنا قد ادخرناه خبأناه فى الوسية، فربما نرجع بخُفىّ حُنَين . كان معى خمسون ألف ريس، أما زملائى فنفس المبلغ تقريبًا. نشر الليل جناحيه، وكان شكل المكان قبيحاً، وفى انتظارنا كان فينتا راتشادا، بعيداً، حتى أنه داعبنا باختبائه، فعبرناه دون أن ننتبه، فخرج لملاقاتنا. الآن لو أردتُ ، وصوّب ناحيتنا بندقيته، فضحكنا جميعًا، متغلبين على خوفنا، فقلت حينها، لن تربح الكثير، فانفجر فينتا راتشادا فى الضحك، وقال: لا تخافوا، هيا بنا".

عندما حدثت هذه الواقعة، كانت جزارة جوزيه القط فى سلسلة جبال لوريرو، فى أراضى بالما، أنتم بالطبع تعرفونها. كان يوجد هناك شجرات القطب الأعلى من بيت، ولم يكن أحد يغامر بتسلقها. وداخل هنجر لفلاحين من أزمنة ماضية، مهجور، كانت توجد الجزارة. كانوا جميعًا يعيشون فى الهنجر، لكن عندما كانوا يشعرون بأية حركة، جيران، أخبار عن الحرس، كانوا ينتقلون إلى وكر آخر. مازلنا نسير على أقدامنا، ونسير، وعندما نصل لرؤية الهنجر سنقابل فنانَين، يحمل كل منهما بندقيته، من أجل الحراسة. عرفا باريّاس، ودخلنا، حيث كان يوجد جوزيه القط وصحبته يعزفون الأوكورديون ويرقصون الفاندانجو،

أنا لا أفهم كثيراً فى الرقص، لكننى أظن أنهم كانوا يرقصون بمهارة، فمن حق الجميع أن يلهو. كان يوجد أيضًا بعض الأسلاك المتصلة بكمرة الهنجر، بغلاية معلقة، ومصطلى، وكانوا يطبخون لحم خنزير. يقول جوزيه القط، إذاً هؤلاء هم المشترون. فيرد فينتا راتشادا إنهم هم، لم يأت أحد غيرهم، فيقول القط اهدأوا، أيها الغلمان، فقبل أن نبدأ البيع، سنأكل معًا ما فى هذه الغلاية، كلام جميل، نعم سيدى، فنحن قد جرى ريقنا فقط على الرائحة. كان لديهم خمر وكل شىء. ولنصالح جوعنا أخذنا قطعة صغيرة من لحم فخذ الخنزير وكوب خمر. كان جوزيه القط يعزف على الأوكورديون ويلتفت للغلاية، كان يرتدى بنطلونًا من جلد الخروف له أزرار كبيرة، كما كانت العادة، كما يرتدى أيضًا صديرى، كان يبدو فلاحاً، صعلوكاً . فى أحد أركان الهنجر لاحظنا بنادق، كأنه مخزن أسلحة، إحداها وصل لخمس طلقات، أما ما يتعلق بمارثيلينو، فسأحكيه الآن. كنا على هذه الحالة عندما سمعنا صوت صفارة . يجب أن أعترف أننى ارتعدت فرائصى، وسنرى إن كانت النهاية طيبة أم لا. قال جوزيه القط، الذى شعر بخوفى، اهدأوا، إنهم معارفنا، جاءوا من السوق . كان مانويل دا ريفولتا، وأكتسب هذا الاسم بسبب محل كان يديره فى جبل ريفولتا، وتدور حوله القصص التى سأرويها فيما بعد عندما يأتى وقتها . وصل حينئذ الصديق مانويل دا ريفولتا، وضع ستة خنازير فوق العربة وقادها، وفى

اليوم التالى، كما هو معروف، يدور فى البلدة ليبيع اللحم، كان يقول إنها خنازيره، ذبحها هو، ويمر من الحرس، نعم سيدى، ويبيعها أيضًا لهم، وإلى الآن لا آدرى هل كان الحرس يشتبهون فيه أم أن الصفقة كانت رابحة بالنسبة لهم ! جاء بعد ذلك بائع السردين الذى نعرفه جميعاً، فهو من كان يمدنا بالسمك والتبغ وآشياء أخرى كان يحددها جوزيه القط . حمل بائع السردين خنزيراً فوق دراجته، تاركًا فقط رأس الخنزير، فلم يكن يهمه فى شىء . بعدها جاء آخر، بدون صفارة، لكنه أعطى الإمارة بصفّارة من فمه، ورد عليه من كانوا يقومون بالمراقبة، هذا ما كان يحدث، كانوا يعملون فى أمان . أخذ معه خنزيرين، حملهما فوق بغلة، لم يكن أيضًا فى حاجة للرأس، رأس الخنزير بالطبع لا رأس البغلة، فالبغلة فى حاجة لرأسها لترى أين تضع أرجلها. مضت الخنازير تختفى، وفى النهاية لم يتبق سوى خنزيرين، قبعا فوق جوالين قديمين . ما أن انتهوا من صلق الطعام، قلوا عدة قطع من لحم الخنزير، ووضعوا كل التوابل، البصل والأشياء الأخرى، والتهمنا كل هذه النعمة لتستريح فى بطوننا، كان أكلاً شهياً، أما الخمر فكان أكثر من دورق . حينئذ قال جوزيه القط ، هيا، أرنى ما أحضرت، يا منحوس. أحضرت خمسين أسكودو، وهذا كل ما أملك. فيقول جوزيه القط، مبلغ ليس بكثير، لكن لا تشغل بالك فلن تخرج بدون الزاد، فقطع خنزيراً نصفين، قد يزن الخنزير خمسة

وأربعين أو خمسة وخمسين كجم. افتح الجوال، لكن قبلها قد أخذ النقود و أدخلها فى جيبه. فعل نفس الشىء مع زميلَى، وحذرنا جميعاً، والآن أغلقوا أفواهكم إن كنتم لا تريدون الندم، وحملنا اللحم، وخيراً فعل عندما حذرنا، علمنا ذلك بعدها، حيث إن الخنازير كانت مسروقة من الوسية التى كنا نعمل بها، ورئيس العمال ظل يلاحقنا بأسئلته. لكننا تصرّفنا بشكل رجولىّ، نحن الثلاثة. أما أنا، فقمت بعمل حفرة فى الأرض بالفلين، ووضعت لحمى فى صفيحة وغطيتها بخرقة، وملّحتها كلها، بعد أن قطّعتها لأجزاء، ولم تفسد، وكما ترون، لدىّ طعام يكفينى فترة طويلة .

كانت هذه إحدى الحكايات. وربما لو كان جوان برانداو هناك لاختلف الأمر، أو ربما لم يختلف، فالأمر أننى تعاملت مع جوزيه القط، أما الآخر فلست على يقين. بعد ذلك انتقلت العصابة إلى منطقة فالى دى ريس، وهى منطقة لا يمكن أن يتخيلها أبناء المدينة، فهى صحارى قاحلة، مجموعة مغارات، عدة كهوف مهلكة بين أشجار العوسج ، لا يتجرأ أحد على الاقتراب من تلك المجاهل، ولا الحرس، يتجرأ على الاقتراب . كانوا هناك مختبئين، وفى جبل ريفولتا كان يوجد دائمًا خفير، عندما يظهر الحرس كانت أم مانويل ريفولتا تضع هراوة بخرقة مربوطة فى رأسها داخل المدخنة، عندما تحركها، كانوا يفهمون الإشارة. أحد أفراد العصابة كان مكلفًا دومًا بوضع عينيه فى

المدخنة، وعندما تظهر الخرقة فى رأس الهراوة، ينبه الآخرين و حينها يختبئون جميعًا، يختفون، ولا يتركون لهم أثرًا. لم يأت الحرس أبدًا ليقبض على أحد. حتى نحن، الذين نعرف الخديعة، عندما كنا نمضى فى عملنا ونرى الإمارة كنا نقول، الأعداء فى الضفة .

رائع، حينئذ حدثت قصة مارثيلينو، التى سأسردها الآن. كان مارثيلينو رئيس العمال فى فالى دى ريس، وكان لديه بندقية شهيرة اشتراها له صاحب الوسية ليطلق النار على أتباع جوزيه القط، إن رآهم فى طريقه. لكن قبل أن أحكى هذه الحكاية، أود أن أحكى حكاية أخرى، أيضًا عن البنادق. كان مارثيلينو يمتطى فرسًا عندما قطع عليه الطريق جوزيه القط مصوبًا ناحيته البندقية ويقول له بسخرية، وهى غالبا طريقته فى الكلام، ليس أمامك سوى أن ترفع ذراعيك، وأن تسلّمنى الفرس، فلم يجد مارثيلينو أمامه حلا آخر، مع أن ذلك كان أمراً عسيراً. كان القط ضئيل الجسد، لكنه ميت القلب. بعد ذلك حدثت واقعة البندقية ذات الخمس طلقات. الواحد منا يبدأ فى سرد حكاية، فتنهال عليه مئات الحكايات الأخرى المرتبطة بها. كان مارثيلينو فى طريق الهبوط من الجبل، بين العشب، هذا الذى لا يعتنى به أحد، فقط يقطعون قشرته، ويقسمونها إلى أجزاء صغيرة، فى النهاية كانت أرض شجيرات كثيرة جديرة بالاحترام. جاء مارثيلينو متعجرفاً ببندقيته ذات الخمس طلقات وبها خمسة خراطيش بداخلها،

ويفكر، فليظهر أمامى الآن من يريد، وبالفعل، مسنودًا على شجرة سنديان نحيفة، كان جوزيه القط ينظر له من عين التصويب، ارم بندقيتك، فأنا فى حاجة إليها، وأخذها. كان يقال بعد ذلك أن صاحب الوسية قال لمارثيلينو: سأشترى لك بندقية صغيرة، فلن أتركك مسخرة أمام الناس، فرد عليه مارثيلينو، غاضبًا، سيدى، لا أريد، لا أريد أية بندقية صغيرة، سأراقب العمل من فوق فرسى، وبنبوتى، وهذه هى أفضل مراقبة.

كان مارثيلينو رجلاً قليل الحظ فى مسألة البنادق، هذا أمر جلىّ . حتى بندقيته الخاصة، التى لم يشترها له صاحب الوسية، والتى كان يحتفظ بها فى بيته، فقدها. ذات مرة نبحت كلاب مُرَبى الخنازير، فتوقعوا حدوث أمر خارج عن المألوف، رائحة أمر غريب، فذهب مربى الخنازير وقال لمارثيلينو، الكلاب تنبح، لابد أن هناك من يرغب سرقة خنزير. فيقبض مارثيلينو على بندقيته وخزنة الرصاص بمجرد سماع ذلك، ويبدأ فى الحراسة. ومن حين لآخر يطلق رصاصة، ففهم رفاق جوزيه القط من مخبأهم أنهم المقصودون فيردون عليه، لكن بدون استهلاك ذخيرة بسفه. وحيث كان جوزيه القط، فوق السطح، فقد صعد بدون أن يشاهده أحد، بقى طوال الليل ملتصقًا بالقراميد كما السحلية حتى لا يكتشف أحد وجوده، لقد كان رجلاً جريئاً. ويأتى الصباح، وبعد شقشقة الفجر، أو ربما بعدها بقليل، عند

اتضاح النهار، ويقول مارثيلينو: لقد سكت الرصاص من هذا الجزء، فلابد أنهم رحلوا، سأستريح قليلاً وأتناول قهوتى، وسريعًا سأعود . أما مربى الخنازير، الذى لابد أن الفكرة راقت له وفتحت شهيته، يفكر، وأنا أيضًا سأذهب لتناول شىء، فأنا لست أقل من الآخرين . وعندما تخلو المنطقة من الأعداء، يقفز جوزيه القط من فوق السطح، لقد نسيت أن أقول إن مارثيلينو قد ترك بندقيته فى الكوخ، يقفز من فوق السطح، يأخذ البندقية ومعها حذاء مربى الخنازير الجديد ذا الرقبة، وبطانية، فربما كان لديهم بطاطين قليلة، وبينما كان يفعل ذلك، كان رفاقه الخمسة، كان عددهم خمسة فى ذلك الوقت، يمسكون بخمسة خنازير وينقلونها من هناك حتى مكان العوسج. الخنازير مثل الرجال، لو أطعمت بطونهم ، آمنت مكرهم، وهذا هو ما حدث بالقرب من الحظيرة، على بعد مائة أو مائة وخمسين مترًا، لا أكثر. دائمًا ما حدث هذا مع أحد الحراس. وينتبه الآخرون لغياب الخنازير، يذهبون بحثاً عنها بعيداً، فى الطريق، بدون أن يخطر على بال أحد هذا المكان . وعندما يقبل الليل، يسير جوزيه القط بحثاً عنها. وهكذا فَقَدَ مارثيلينو بندقية أخرى.

حكاية أخرى، أهم من سابقتها . كان مارثيلينو نوبتجياً بلا بندقية، فقد اختفت جميعها، وفكّر جوزيه القط أن يدخله فى حوض الفول، كان الفول محصوداً ومجموعًا فى حوض. كان مسرح الحكاية قريباً من

وكر العصابة، لكن لم يكن أحد يشتبه فيه، واكتشف العمال الأمر عندما تحتم عليهم نظافة ما بين الأشجار فى هذا المكان، وبعد أن اختفوا هم من هذه الأماكن . لقد عثرنا على مخبأهم، داخل مغارات مصنوعة بمهارة، وشديدة العمق . كانت روابٍ عالية، فوقها صفصاف أبيض كثير، فتحوا فيها سبيلاً، كما يفعل النمس، فصنعوا فتحات جانبية، ووضعوا فيها أسرّتهم المصنوعة من الأسَل والغصون، إنها معجزة، المهم، ذهب جوزيه القط لحوض الفول، ولاحظ مارثيلينو حركة هناك، حيث يوجد فول مهروس وقش. قال مارثيلينو: يا أبناء الغانيات، أتسيرون لى فى الفول، ماذا حدث فى عقولكم؟ سأختبئ هناك، يدخل القط فرسه فى المغارة، يسحب جوالا، ففى الصيف لا يستخدمون بطاطين، كما يأخذ هراوة. فى ساعات الليل المتأخرة، يسمع مارثيلينو ضجيجاً، كان جوزيه القط يعبئ جوالا بكفيه، يسحقه بقدميه، وكان هذا جافًا من شدة الحرارة، ويذروه ثم يأتى أحد رفاقه ليساعده فى نقل الشحنة، وفى الساعة المحددة كانا يحملان بينهما مائة طن من الفول. ربما كانوا يقايضون مع مانويل ريفولتا الفول بالخبز أو أى شىء ضرورى آخر، من أين أعرف أنا! كان جوزيه القط شاردًا يطأ هذا، فمضى مارثيلينو يقترب منه، ويقترب، حافى القدمين، وعندما يحكى مارثيلينو تنفجر فى الضحك، يقول: ذهبت حافى القدمين، خطوة خطوة، واقتربت من الهدف بستة أو سبعة

أمـتـار، ولـو اقـتـربت مـنه ثلاثـة أو أربـعـة أمـتـارأخـرى لأوسعته ضربًا بالعصا، لكنه أيضًا شعر بوجودى، كان شفافا، ستعتقد أننى سأضربه، لا، فلم أقبض عليه، فهذا لم يكن قطاً، بل كان أرنباً، نعم كان أرنباً، فبينما أنـا أفـكـر إنه قـد وقـع فى يـدى لا لم يـقـع بـعـد، قـفـز قفزتين، وأنا لم أكن ساكناً، لكنه قفز قفزتين وأصبح أمامى ببندقيته فى وجهى. يمشى جوزيه القط ويقول لمارثيلينو، هـذا ما يرويه مارثيلينو، من حسن حظك أنك تـعـامـلت بـالحـسـنـى مع صـديق لـى . فـذات مـرة عندما تخطى الحراس حدودهم فى الانضباط، قبض مارثيلينو فى بيته على أحد أفراد العصابة ، وأكرمه وأعطاه طعاماً. هـذا من حسن حظك، فلو لم تفعل ذلك، لكسرت ظهرك هنا، هيا، ارحل. لكن مارثيلينو كان أيضا شجاعاً، فكان بوسعه أن يطلق صفارة، لكنه أخرج علبة الدخان، لف سيجارة، وضعها فى فمه، أشعلها، الآن أرحل.

بعد ذلك قبضوا على العصابة. الحكاية بدأت فى لا بيزارّاس، بين مونيولا و لانديرا، فى مكان شديد الخفاء. كانت هناك مواجهة مع الحرس، إطلاق نار، كما لو كانت حرباً. قبضوا عليهم، بعدها استغلوهم فى العمل. فينتا راتشادا آل مصيره لحراسة مزرعة العنب بزامبوجال، وآخرون مثله. لو كان هناك شىء يروق لى سماعه، سيكون الحوار بين الحراس و الإقطاعيين، لدينا هنا سجين سيبقى معى، فأنا لا أعرف أيهم أكثر وقاحة من الآخر. أسروا

جوزيه القط بعد ذلك، فى فينداس نوفاس. كان يعاشر بائعة خضار، ويسير دائمًا متخفيًا، لهذا لم يعثروا عليه أبدًا، وهناك من يقول إنها هى من أوشت به، من أين أعرف أنا ! قبضوا عليه فى بيت هذه المرأة، فى غرفة المهملات، غارقاً فى نومه، وقال: لو لم تقبضوا علىّ نائمًا فتيقنوا أنكم ما كنتم لتقبضوا علىّ أبداً. يُحكى أنهم ساقوه بعد ذلك إلى لشبونة، وبنفس الطريقة كما استغلوا الآخرين فى العمل لحساب أصحاب الوسايا، يُقال إن جوزيه القط أرسلوه للمستعمرات للعمل فى المخابرات والدفاع عن الدولة . لا أعرف هل أصدق ذلك أم لا، فمن الصعب تصديقه، أم أنهم قتلوه وأشاعوا هذه الشائعة، فقد حدث ذلك فى أحوال أخرى، لا أعرف .

كان لجوزيه القط حسناته، يجب أن نعترف بذلك. فلم يسرق أبداً فقيراً، فقط كان يسرق الأثرياء، كما كان يفعل جوزيه دو تيليادو، كما يقولون. وذات مرة قابل باريّاس سيدة كانت فى طريقها لشراء أشياء لأسرتها، فسرق ما معها، كان من شياطين الإنس. لكن من سوء حظه أن قابلت السيدة جوزيه القط وهى تبكى، المسكينة. فسألها لمَ تبكى؟ وفهم من إيماءاتها أن باريّاس من قام بهذه الفعلة المخزية. فأعطى السيدة ما يكفيها لشراء حاجاتها لثلاثة أيام وأعطى لباريّاس أشد علقة شاهدها فى حياته . وفعل خيراً.

كان جوزيه القط رجلاً يغرك منظره، فهو قصير القامة، لكنه شجاع القلب. وهذا الأمر قد حدث فى

جبل دا ريفولتا، الذى كان مكاناً عالمياً، يمر به الناس من كل حدب وصوب، يكفى أن نقول إن رجلاً من الجرافى، كان يعمل فى قلع الأعشاب، صنع هناك كوخاً من الطين بسقف من القصب وعاش هناك، مثل الكثيرين، وكانوا لا يمتلكون حتى بيتاً . وهناك أراد رجل أن يحدث وقيعة بين جوزيه القط و مانويل دا ريفولتا، حيث قال لمانويل إن القط قال له إنه ذهب ليضاجع زوجته. لكن مانويل ريفولتا كان شديد الثقة فى جوزيه القط، فقال للقط: انظر، إن العاهر قال لى كذا وكذا . فقال القط: إنه ابن غانية، هيا إلى بيته لنرى إن كان يستطيع أن يواجهنى بهذا الكلام، وذهبا حينها، ووصلا إلى هناك. أيها العاهر، لقد قلت لمانويل كذا وكذا، هيا كرّر ما قلته له الآن، فأنا أود سماعه، فرد الآخر، يا رجل، لقد كنت ثملاً أكثر من اللازم، لكن الحقيقة أنك لم تقل لى شيئاً من هذا. فأجابه القط بكل هدوء، هيا امش مائة خطوة، هكذا تراءى له أنه لا يستطيع قتله، إلى الخلف، إلى الخلف، وأطلق عليه طلقتى رش فى عموده الفقرى، فقط ليترك له ذكرى فى جلده، وبقية الطلقات لم تصبه، فهو لم يرغب قتله، وأعطاه كذلك ضربتين بسوط فسقط على الأرض. هذا لتتعلم الرجولة، فنحن هنا لا نريد ألعاباً صبيانية. لقد رأيت جوزيه القط دائمًا كرجل دخل هذه الحياة المتشردة فقط لأنه لم يجد لقمة العيش .

لقد مر من هنا فى فترة ما، عندما كنت صبياً. كان زعيماً فى هذه الأرض المستوية، من جبل لافرى

حتى كوروتشى. صنع الطريق كثيرون من المتجولين، حينها كان أناس كثيرون هكذا، يعملون ثلاثة أو أربعة أسابيع وعندما يمتلكون شيئاً من المال، يرحلون، ويأتى غيرهم. هنا ظهر جوزيه القط، ولاحظوا أنه رجل ذو خبرة، وبالتالى عينوه زعيماً، لكنه لم يتجول أبدًا بالمناطق الفقيرة. فى هذه الفترة كنت أرعى الخنازير، كان ذلك قبل أن أتعرّف على مانويل السيف، ورأيت كل شىء. يقول الناس إنه حدثت بينه و بين الحرس مشاكل، وحينها كشفه الحرس، أو أحد أوشى أنه فى هذه المنطقة يختبئ، فجاءوا بحثاً عنه و اصطادوه. لكنهم كانوا يعرفون جيداً من هو جوزيه القط. جاء أمام دورية الشرطة، غاية فى الهدوء، بينما الحرس يطير فرحاً بالصيد الذى حصلوا عليه، وفجأة قفز منهم، سدد لكمة لعين أحدهم، قفز هنا، قفز هناك، وهرب منهم. لم يعثروا عليه أبداً قبل أن يقبضوا عليه نائماً بشكل نهائى . كان القط رجلاً شارداً، صارماً وجادًا. كنت أشعر دائمًا أنه وحيد. هذا ما أقوله، من يعرف الحقيقة!

إن هـذا الـعـالم، عـلـى ضـخـامـتـه، يـشـبـه الـكـرة لا بـدايـة لـهـا ولا نـهـايـة، كـرة مـغـطـاة بـالـبـحـار والـيـابـسـة، يـشـقـهـا الأنـهـار والـجـداول والـوديـان الـتـى تـجـرى فـيـهـا الـمـيـاه ذهـابـاً وإيـابـاً بـدون أن تـتـغـيـر، هـذه الـمـيـاه تـشـكّل الـسـحـاب أو تـخـتـبـئ فـى أمـاكـن الـيـنـابـيـع تـحـت ألـواح حـجـريـة واقـعـة تـحـت الأرض، إن هـذا الـعـالـم الـذى يـبـدو ككتلة هـائـلـة تـسـبـح فـى الـسـمـاوات، أو تـدور فـى صـمـت كـمـا سـيـراهـا عـلـمـاء الـفـضـاء ذات يـوم ونـسـتـطـيـع أن نـتـوقـع ذلـك، هـذا الـعـالـم، عـنـدمـا نـشـاهـده مـن جـبـل لافـرى، نـجـده شـيـئـاً هـزيـلاً، كـمـا الـسـاعـة الـتـى تـحـتـمـل عـدداً مـحـدداً مـن الـلـفـات، ولا تـحـتـمـل لـفـة واحـدة زائـدة، وتـرتـجـف، وتـهـتـز، إن اقـتـرب إصـبـع غـلـيـظ مـن رأس عـقـربـهـا، إن لـمـس، ولـو بـرقـة، زنـبـركـهـا الـرقـيـق، الـمـتـلـهـف كـمـا الـقـلـب. الـسـاعـة شـىء مـتـين داخـل صـنـدوق جـمـيـل، لا يـصـدأ، صـامـد لـلـصـدمـات بـقـدر قـوة احـتـمـالـه، صـامـد لـلـمـاء لـمـن تـسـول لـه نـفـسـه أن يـسـتـحـم بـهـا، مـعـهـا ضـمـان لـعـدة سـنـوات، مـن الـمـمـكـن أن تـكـون سـنـوات طـوال إن لـم تـأت الـمـوضـة لـتـسـخـر مـمـا اشـتـريـنـاه بـالأمـس، إنـهـا طـريـقـة

للحفاظ على المصنع فى غزوه للسوق والتهامه للأرباح. لكن، لو خلعوا غطاءها، لو بدأت الريح والشمس والرطوبة فى الدوران وضربها من الداخل، بين ياقوتها و تروسها، سيستطيع أى أحد أن يراهن، بيقين من الفوز، إن الأيام السعيدة تنتهى. عند مشاهدة العالم من جبل لافرى، ستجده كساعة مفتوحة، أمعاؤها للشمس، فى انتظار أن تأتى ساعتها.

لأنّ القمح قد زُرِع فى موعده، فقد كبُر و نما والآن أصبح ناضجاً. قبل الحصاد نقطف عيدان القمح، نفركه بين كفينا، إنها طريقة قديمة. يتساقط القش اليابس والساخن، ونجمع فى كف اليد الثمانية عشر أو العشرين سنبلة من هذا النبات، ونقول: إنه وقت الحصاد . هذه هى العبارة السحرية التى تُحرك الرجال والماكينات، هذه هى اللحظة التى فيها يفقد ثعبان الأرض جلده ويبقى بلا دفاع، نقصد بذلك الساعة بالطبع. يجب أن نمسك بهذا الثعبان قبل أن يختبئ إن أردنا تغيير شىء. ومن جبل لافرى، هذا المكان المرتفع، ينظر أصحاب الوسايا للأمواج الصفراء الهائلة التى تتمايل تحت يد الريح الناعمة، ويقولون للمشرفين: إنه وقت الحصاد، وبقولهم هذا، أو باطلاعهم على الأمر وهم فى بيوتهم بلشبونة، يؤكّدون ذلك باسترخاء، إن لم يقتصروا على قول حقًا، على ثقة بأن العالم قد أخذ دورته وعاد لنفس المكان، وأن الوسايا تكرر انتظام الأمور و الفصول، كما أنهم

يستريحون بشكل ما عندما تضع الأرض مولودها. لقد انتهت الحرب وستبدأ مرحلة أخوة العالم. ويقال إنهم سريعًا سيسحبون بطاقات المواد الغذائية، هذه الأوراق الحمراء التى تعطى حق الأكل، وسيوجدون ما يُدفَع به وسيوجدون ما يقايض به المال. وحقيقة الأمر أن هؤلاء الناس قليلا ما يندهشون. فعلى طول حياتهم أكلوا دوماً القليل والردىء من الطعام، وعانوا من الجوع المتتابع، حتى الإضرابات عن الأكل التى جرت هنا جاءتهم من الخارج مثل التقاليد وحكايات أمراض العين . ومع كل، يوفى الزمن دومًا بوعده. نستطيع جميعًا أن نرى أن القمح قد نضج، وكذلك الرجال .

هناك شعاران: عدم قبول يومية بخمسة وعشرين إسكودو، وعدم العمل بأقل من ثلاثة وثلاثين إسكودو فى اليوم، من شروق الشمس لمغربها، لأن العمل مازال يجب أن يكون كذلك، فالثمار لا تنضج كلها فى الوقت نفسه. قد يقول المحصول، لو نطق، بكل ذهول، ماذا حدث كيلا يأتوا ليحصدونى، أهناك منهم من قصّر فى واجبه؟ إنها خيالات. المحصول قد نضج وفى انتظار الحصاد، الذى يفوت أوانه. إما أن يشرع الرجال فى الحصاد، وإما ستفوت عليهم الفرصة، فالجذع بدأ ينحنى، والعود بدأ يذبل، والحبوب كلها ستتساقط وستأكلها العصافير وبعض الحشرات، وفى النهاية، حتى لا يضيع كل شىء، ستدخل المواشى الأرض المزروعة كما لو كنا نعيش فى أرض الرخاء.

كل هـذا أيـضًـا خـيـالات . فـإمـا أن يـتـنـازل هـؤلاء أو أولئك، فـالـذكرى تقول، كـمـا تـدرك، إن الحصـاد دائمًا يتـحـقق، وعـدم تحـقـيـقه يـسـاوى رابع المـسـتـحـيلات. الإقطاعيون يأمرون رؤساء العمل و المديرين أن يثبتوا، وهـو تـعـبـيـر يـسـتـخـدم فـى الحـرب. لا تـتـراجـعـوا، فـحـرس الإمبراطور يموت ولا يـتـنـازل، مـا يـنـقـص هـو أن يموت هـؤلاء، لـكـن الـسـمـع يـرهـف لـصـدى أبـواق، إن لم يـكـن حـنـيـنًـا لمـعـارك اخـتـفـت الآن. يـبـدءون فـى فـتـح أبـواب ثـكـنـات الحـرس، يـطـل الأونـبـاشـيـة و الـشـاويـشـيـة من نـافـذة النـقـطـة ليتشمموا مـا يـحـدث، وفـى مكـان مـا يـبـدأ تنظيف البنادق ويُعطى للخيول ضعف الجراية بعد أن تـضـاعـفـت المـيـزانـيـة. يـجـتـمـع الـرجـال فـى الـقـرى، رجـلاً فـى كـتـف رجـل، يـتـهـامـسـون. يـعـود رؤسـاء الـعـمـل من جـديـد لـيـتـفـاوضـوا. رائع، إنـكـم قـررتم، فـيـردون عـلـيـهـم لقد قُضى الأمر، لن نعمل بأقل مما قلنا" . ومن بعيد، فـى هـذا الـنـهـار الـقـائـظ، يـنـطـلـق بخـار حـارق يـصـعـد من الأرض، مـازالـت الـتـلال بـجـذورهـا تـسـنـد الجـذوع الـصـلـبـة. مـخـتـبـئـاً فـى وسـط المحـصـول، يـصـل صـوت الحِجال للسمع الرقيق. لا تُسمع خطوة رجل ولا رجفة مـوتـور، ولا تـهـتـز أعـواد الـقـمـح، مـرتـعـشـة، أمـام اقـتـراب المنجل أو طاحونة الحصّادة . ياله من عالم غريب !

وعلى هـذا الحـال يأتى يوم السبت. اجتمع رؤساء الـعـمـال وقـالـوا: لـن يـتـنـازلـوا، إنـهـم عُـنّـد، فـأجـابـوهـم أصـحـاب الـوسـيـة الـثـلاثـة، نوربيرتو، ألبيرتو، داجوبيرتو، بصوت واحد، كل منهم فى مكانه من المنظر الطبيعى،

دعوهم، وسيتعلمون. فى البيوت، انتهى الرجال من تناول عشائهم، هذا القليل الذى تبقى من الأيام الماضية، والنسوة ينظرن لهم صامتات، ومنهن من تسأل، وأخرتها؟ من الرجال من يكمش كتفيه قانطاً، ومنهم من يقول: من المؤكد أنهم غدًا سيوافقوننا على رأينا" . وسنجد منهم من يحل المعضلة بقبول ما يمنحونه له، نفس أجرة العام الفائت . الحقيقة أن هناك أخباراً تأتى من كل جانب مفادها أن الرجال، أغلبهم، يرفضون العمل مقابل أجرة بائسة، لكن ماذا بوسعه أن يفعل هذا الرجل الذى يعول زوجة وأولاداً، وبعض صغارهم يشبون على أطراف أصابعهم، يسندون ذقنهم على الترابيزة القديمة، وبأصابعهم المبللة بريقهم يصطادون فتات الخبز كما لو أنهم يصطادون النمل. منهم من كان محظوظاً، برغم أن ذلك لا يتضح لمن يعرف قليلاً فى تلك الأمور، حيث استطاع أن يرتب أحواله مع صغار الملاك، وهم مزارعون يمتلكون أراضى قليلة وليس بوسعهم أن يجازفوا بفقد المحصول، وبالتالى تحتم عليهم دفع الثلاثة و ثلاثين إسكودو. سيكون الليل طويلاً، كما لو كنا فى الشتاء. فوق أسطح البيوت تمكث، كما هو معتاد، قمامة يمكن أن تؤكل، نجوم بعيدة، صفاء سماء أخاذ يستغله الأب أجاميديس ليعيد و يزيد فى نفس الخطبة، هذا الرجل لا يعرف خطبة أخرى، هناك فى السماء، حقاً، ستنتهى كل صراعات الدموع بهذا الوادى، وسنكون جميعًا سواسية أمام الرب. الأمعاء

الخاوية تعترض، تعمل بلا جدوى، تعكس عدم المساواة. المرأة بجانب الرجل يجافيها النوم، ولا حتى تواتيها الرغبة فى النوم فوقه. ربما السادة غداً يتوصلون لاتفاق، ربما يعثرنّ على حَلّة مليئة بالذهب، ربما تضع الدجاجة بيضاً من ذهب، حتى ولو كان من فضة فسينفع أيضاً، آه لو كان من الممكن أن يستيقظ الفقراء فيجدون أنفسهم أغنياء و الأغنياء فقراء! لكن ولا حتى فى الأحلام تحدث تلك الأمانى .

أبنائى الأحباء، يقول الأب أجاميديس فى القداس، حيث اليوم يوم الأحد، أبنائى الأحباء، ويتصنع أنه لم ينتبه لقلة وسن المستمعين، نساء عجائز وخدام القداس، أبنائى الأحباء، وربما تفكر العجائز أنهن لسن أبناءً، بل بنات، لكن ماذا سنفعل إن كان العالم عالماً للرجال، أبنائى الأحباء، انتبهوا، لقد نفخت ريح الثورة فى هذه الأرض السعيدة، وأقول لكم مجدداً ألا تعيروها انتباهًا، الأمر لا يستحق أن أكتب بقية الخطبة، فكلنا نعرف ما يقوله الأب أجاميديس. تنتهى الخطبة، يخلع أجاميديس ثوبه الرسمى، فاليومَ يوم الأحد، وهو يوم مقدس على وجه الخصوص، والغداء، بارك الله فيه، سيُقدم فى مطعم كلاريبيرتو، الذى يتميز ببرودة الجو المنعش، أما كلاريبيرتو فيذهب للقداس فقط عندما فعلاً يروق له، ونادراً ما يحدث ذلك، والسيدات مثله، فهن الآن أصبحن كسولات، لكن الأب أجاميديس يتفهم الأمر بمرونة، ولو حكم الورع واشتد الخوف من الآخرة، فهنا تقبع

قاعة منزل الأشراف، حيث يوجد قديسون جدداً ومُلمعين، والشهيد سان سيبستيان مثقوبًا بسهام بشكل منتظم، الله يغفر لى إن لم يبدُ أن القديس يستمتع بهذا أكثر مما تسمح به النزاهة ، ومن الباب الذى يدخل منه الأب أجاميديس يخرج منه الإدارى بومبيو حاملاً فى أذنيه رسالة تبعث على السلوى ولا سنت زيادة، فليس للرجل أفضل من امتلاك سلطة، سواء فى الأرض أو فى السماء

يسير من هنا عدة رجال، عددهم قليل، ورغم أن الساحة مفتوحة لوقت متأخر، منهم من يقترب ويسأل الإدارى، ماذا قرر صاحب الوسية ؟ ، فيرد عليه ولا سنت زيادة، فالقواعد العادلة والملائمة لا يمكن أن تضيع ولا تتغير، فيقول الرجال: لكن هناك من يدفع ثلاثة وثلاثين ، فيقول بومبيو: إنهم هناك، وإن أرادوا أن يخربوا بيوتهم، فبالهناء و الشفاء. حينئذ يفتح جوان المنحوس فمه لتخرج كلماته طبيعية كما لو كانت ماءً يجرى من ينبوع متدفق إذاً سيبقى المحصول بلا حصاد، فنحن لن نعمل بأقل مما نطالب. لا يرد الإدارى، فالغداء أيضًا فى انتظاره وليس لديه وقت يضيعه فى مهاترات غير مجدية. الشمس تغرب فى تؤدة وتبرق كسيف الحرس .

من استطاع أن يأكل أكل، ومن لم يستطع تآكل. والآن، نعم، حانت ساعة الميدان، اجتمع فلاحو جبل لافرى المطالبون بالثلاثة وثلاثين إسكودو، بمن فيهم من لديه يومية، أما الآخرون، الذين رضوا باليومية

القديمة، فيأكلهم الخزى فى بيوتهم، ويشعرون بالخيبة أمام أبنائهم الذين لا يعرفون الجلوس ساكنين، فيصفعونهم على وجوههم، لا أحد يعرف لماذا، والسيدة، التى دائمًا يد العدالة فى العقاب، نحن من ولدنهم، تعترض، لا تضرب بريئًا هكذا ، أبرياء أيضًا هؤلاء الرجال المجتمعون فى الميدان، لا يطلبون المستحيل، فقط ثلاثة و ثلاثين إسكودو فى اليوم، من شروق الشمس لغروبها، ليس فى ذلك أى استغلال، يقصدون أن صاحب الوسية لن يخرج خاسراً . هذا ليس جواب الإدارى، بومبيو و الآخرين، لكن ربما يصيح بومبيو أكثر بسبب اسمه الرومانى، ما تطلبونه يعد استغلالا، فأنتم تريدون خراب الزراعة . تقول أصوات، هناك من يدفع مثل ما نطلب"، فيرد الإداريون فى صوت واحد، أما نحن فلا ويظلون على حالهم هذا، كمن يفاصلون فى الأسواق، مرة و مرة أخرى، وسنرى من سيتعب أولاً، فهذا حوار لا يستحق أن نسجله، لكن ليس لدينا حوار آخر، تلك هى القضية .

تقتحم الأمواج الشاطئ، إنها عبارة تقال ولن يستطيع الجميع فهمها، لأن فى هذه الأرض هناك من لم يتغرّب بعيدًا وهم كُثّر . تقتحم الأمواج الشاطئ، ولو أصابت حصناً من الرمال أو حاجزاً هشاً، ستقضى عليه فى دفعتها الأولى أو الثانية، والحاجز هو فقط سياج تتحكم فيه الموجة ذهاباً وإياباً، هذا على أقل تقدير. ربما من الأفضل أن أقول إن كثيراً

من الرجال قد قبلوا الخمسة و عشرين إسكودو، وأن القليل منهم ظل ثابتاً يقاوم. والآن نراهم أمام الموجة العالية يتساءلون إن كان الأمر يستحق، ويقول سيجيسموندو كاناساترو، الذى رافقهم فى هذه الاتفاقيات علينا ألا نفقد حماسنا، فما يحدث هنا لا يحدث فقط فى جبل لافرى، سنفوز فى معركتنا، وسيعُم الخير على الجميع . ما الأسباب التى لديه ليكون على كل هذه الثقة بينما لم يتبق من الرجال سوى دستتين لا يحتاج إليهم المُلاّك ؟ آه لو كنا كثرة ، يردد جوان المنحوس قنوطاً. يبدو أن الدستتين على وشك الانقسام، بدون أن يكون أمامهم سوى الرجوع للبيت، وهو مكان ملعون اليوم. يقول سيجيسموندو كاناسترو مسترسلاً فى فكرته غداً نذهب جميعاً متحدين إلى الأراضى، سنقول لزملائنا ألا يعملوا، ففى كل الأماكن يحاربون من أجل ثلاثة وثلاثين إسكودو، ولا يمكن أن نظل فى جبل لافرى نعانى شظف العيش، فلا يمكن أن نقبض أقل من الآخرين، ولو حدث هذا فى كل ناحية، سننتصر على الإقطاعيين. هناك فى المجموعة من يسأل: ماذا يحدث فى النواحى الأخرى ؟ وهناك منهم من يجيب، قد يكون سيجيسموندو أو مانويل السيف أو أى أحد، ففيما يهم اسمه، ما يحدث هنا يحدث فى كل مكان، يحدث فى بيجا، فى سانتاريم، فى بورتاليجرى، فى سيتوبال، إنها ليست فكرة ناتجة عن رأس واحد، فإما أن نثور جميعاً وإما أن نضيع. ينظر جوان المنحوس

لبعيد كما لو كان ينظر لذاته، يقيّم نفسه، إنه أكبرهم سناً ويفرض عليه ذلك التزامات مضاعفة، يقول" لابد أن نفعل ما يقترحه سيجيسوندو، هذا ما يجب أن نفعله. من مكانهم يمكن رؤية موضع الحرس. ظهر الأونباشى تباكو عند الباب، يتناول مرطب الظهيرة، وبمحض صدفة مؤكدة، قاطعًا الهواء بعذوبة، خرج الخفاش الأول للغسق. إنه حيوان نادر، شبه أعمى، يشبه الفأر بجناحين، يطير مثل البرق ولا يصطدم أبداً بشىء . ولا بأحد .

صباح حار من أيام يونيه. خرج اثنان وعشرون رجلاً من جبل لافرى، غير مجتمعين، حتى لا يلفتوا انتباه الحرس، لكنهم اتفقوا على التلاقى عند ضفاف النهر، بالقرب من جسر كافا، بجانب أشجار الأسل. فكروا ملياً أيرحلون من هناك فى شكل مجموعة أم متفرقين، وبعد أن وزنوا الأمر، قرروا أنهم، بما أنهم قلة، فمن الأفضل ألا ينقسموا. سيتحتم عليهم السير أكثر، وبسرعة أكبر، لكن، لو سار كل شىء على ما يرام، سينضم إليهم زملاء آخرون. حددوا برنامج سيرهم، أولا منطقة بيدرا جراندى، بعدها راية النساء، ثم كاساليـنيو، و كاريزا، وجبل فوجيرا، وتل الخرق . أما المناطق المتبقية فستأتى بعد ذلك، عندما يتاح وقت أكبر وأناس أكثر يقومون بتلك المهمة. خرجوا من هناك عابرين النهر بمعدية، كانت المياه قليلة فى هذا المكان، كما لو أنه معبر طبيعى، وكان عيداً لأطفال يضحكون بوجوه حزينة، أو يلعبون لعبة

العسكر، لكن بأسلحة قليلة، يخلعون نعالهم ويلبسونها، وعندما يقول أحدهم واحد، بدعابة ظاهرة، يقفز أحدهم فى الماء، ولا يخرجه أحد. أمامهم ثلاثة فراسخ للوصول لمنطقة بيدرا جراندى، طريق واعر، ثم أربعة فراسخ أخرى لبلوغ منطقة راية النساء، وثلاثة أخرى للوصول لكاسالينيو، ومن هناك للنهاية من الأفضل ألا أحكى، حتى لا تتخلى الناس عن هدفها . هناك يذهب الحواريون، وقد لا يضايقنا الآن أن تحدث معجزة السمك، المشوى على النار، والمتبل بالزيت وحبات الملح، تحت هذه السنديانة، وإن لم يحدث ذلك فالأمر يرجع للواجب الذى ينادينا بصوت رقيق لا نعرف أيأتى من خارجنا أم من داخلنا، أيدفعنا من خلفنا أم هو أمامنا يفتح لنا ذراعيه، مثل المسيح، شىء غريب، إنه أول رفيق يهجر الأرض بمحض إرادته الحرة وحيداً، بدون أن ينتظر أن يشرحوا له الأسباب، الآن هم ثلاثة وعشرون، هم حشد . على مرأى النظر تظهر بيدرا جراندى، وأمامنا الحقول، لقد أهلكوهم، يعملون بغضب، من الذى يتحدث معهم، يتحدث سيجيسموندو، فهو يعرف أكثر. أيها الزملاء، لا تتركوهم يخدعونكم، يتحتم أن نصنع اتحادًا بين الأجراء، لا نريد أن يستغلونا، فما نطالب به ليس إلا فتاتًا بالنسبة للمالك. ويتقدم مانويل السيف، لا يمكن أن نكون أقل من زملائنا الذين يعملون فى أراض أخرى ويطالبون الآن بتحسين أجورهم. هناك أيضًا كارلوس، مانويل، الفونسو،

داميان، كوستوديو، ودييجو، وأيضا فليبى، وكلهم يقولون نفس الشىء، يكررون الكلمات التى سمعناها فى التو، فقط يكررونها؛ لأنه لم يتح لهم الوقت ليبتكروا كلماتهم الخاصة، والآن يتقدم جوان المنحوس، الحسرة تملؤنى لأن إبنى أنطونيو ليس بيننا هنا، لكن عندى أملاً أنه سيقول ما يقوله أبوه، أيًا كانت أراضيه الآن، فلنتحد جميعًا لنطالب بأجرتنا، فقد آن الأوان لتخرج أصواتنا لتتحدث عن قيمة عملنا، فلا يمكن أن يظل السادة دائمًا يقررون وحدهم ما يدفعونه لنا. عندما نأكل، تفتح شهيتنا للطعام، وعندما نتحدث نتعلم الكلام. يقترب رؤساء العمل، يحركون أذرعتهم، يبدون كما الأشباح التى تطرد الفلاحين، ابتعدوا عن هنا الآن، اتركوا من يريد أن يعمل لعمله، فما أنتم سوى مجموعة تنابل، ولا تحتاجون سوى زيادة الحمل فوق ظهوركم. لكن الناس توقفت، والزمرة جلست على الأرض، والرجال والنساء اقتربوا، يكسوهم الغبار، تحرقهم الشمس، بدون حتى أن يتفصد عرقهم. أنهوا عملهم، واجتمعت المجموعتان، قُل للمالك إن أرادنا، سنكون هنا من الغد، وحسابنا أمر يسير، ثلاثة وثلاثون إسكودو فى اليوم . يقول أحد العلماء الظرفاء المتخصصين فى أمور الدين إنه فى زمن المسيح لم يكن هناك تكاثر أسماك، لكن كان هناك تكاثر بشر . هنا شكلوا مجموعتين، واقتسموا طريق سيرهم، نصفهم لمنطقة راية النساء، والنصف الآخر لمنطقة كاسالينيو، وفى

هذا الجبل سيجتمعون من جديد ليتوزعوا مرة أخرى .

فى السماوات العُلى، تطل الملائكة من الشرفات أو من فتحات الدرابزين الفضية، التى تحيط بالأفق كاملاً، ويمكن رؤيته فى أيام الصفاء، يشيرون بأصابعهم، وينطقون بأسماء البعض و البعض الآخر، بكل شقاوة، وتتسرب السنون، وأحدهم، أعلاهم درجة، يركض لينادى على اثنين أو ثلاثة من القديسين القدماء المرتبطة حياتهم بأمور الزراعة والمواشى، ليروا بأعينهم ما يحدث فى الوسايا، حالة من القلق، من الاضطراب، أفواجاً من الناس فى النواصى والطرقات، فى كل مكان، حتى داخل السبل الجبلية المختبئة، يسيرون فى طرق مختصرة أو فى خطوط مستقيمة، على حواف حقول القمح، مثل صفوف من النمل الأسود. منذ زمن طويل تسرب الملل فى نفس الملائكة، فالقديسون يقدمون شرحاً سطحياً حول النباتات والحيوانات، وتنقصهم المعلومات بسبب ضعف ذاكرتهم، لكنهم مازالوا يشرحون كيف ينمو القمح وكيف يستوى الخبز، وكيف أن الخنزير يؤكل بأكمله، وإذا أردت أن تعرف جسدك فافتح جسد خنزيرك، فكلاهما سواء. تأتى تلك المعلومة فى شكل تأكيد ملىء بالهرطقة والجسارة، وتخلق الوساوس حول الخالق الذى، لكونه لم يعرف أن يبدع أكثر من ذلك، تحتم عليه أن يعيد خلق الإنسان عند خلق الخنزير، لكن ذلك قد يكون حقيقة، بما أن كثيرين يقولونه .

فى علوهم و بُعدهم، وقد نسيتهم الدنيا التى عاشوا فيها، لا يعرف القديسون أن يشرحوا أسباب تجمهر الناس التى تسير من كاسالينيو إلى كارّيزا، من جبل فوجيرا إلى تل الخرق، والآن بينما يسير البعض فى جانب، يتقدم البعض الآخر نحو مكان بعيد، صوب منطقة مزرعة البطاطين، صوب جبل الرمال، يخوضون فى أرض لم يسر فيها الرب من قبل أبدًا، حتى لو كان قد سار فيها فأية فائدة ستعود عليه، وعلينا. إنهم هراطقة، هكذا سيصيح الأب أجاميديس كل يوم، يصيح من نافذة بيته، حيث بدأ الحجاج فى زيارة جبل لافرى، التى ستصير القدس الجديدة، إنها مثل معرض الخميس ببلدة إسبيجا، والآن يعبر الشارع ركضاً الأمباشى الحرس، من يدرى أين يذهب ؟ أيكون أحد قد استدعاه، المالك يأمر أن أذهب لرؤيته، يرتدى القبعة، يخرج شادًا حزامه على وسطه، تلك أوامر الانضباط العسكرى، الحرس أصبح على وشك أن يكون قوات عسكرية وهو ما يجعلهم يشعرون بعظم المصيبة، يدخل قبو الخمر المعطر حيث يقبع هومبيرتو، حسنًا، أنت تعرف، الأمباشى تباكو يعرف كل شىء، بل ومضطر أن يعرف كل شىء، فمن أجل هذا يتقاضى راتبه. نعم سيدى، سار المضربون عن العمل مجموعة مجموعة، وكلهم هناك الآن، وماذا سنفعل ؟ لقد طلبت أوامر من مونتيمور، وسنرى من هم الزعماء لا تشغل بالك، فمعى قائمة بأسمائهم، عددهم اثنان وعشرون، لقد رأوهم يتآمرون علينا فى

جسر كافا قبل أن تتحرك المجموعات، بينما يدور هذا الحوار، يتناول الأمباشى تباكو كوب ماء، ونوربيرتو يتجول من جانب لآخر، ضاربًا بكعب حذائه بصلابة البلاط الصغير. إنهم أوباش، تنابلة، ليسوا إلا ذلك، لا يريدون العمل، لو انتصر فى هذه الحرب من أعرفه، لما كان بوسعهم أن يحركوا إصبعًا واحدًا، ولظلوا هناك صامتين مثل الفئران، يعملون مقابل ما نريد أن ندفعه نحن لهم، هذا ما يقوله ألبيرتو، ويرتبك الأمباشى فلا يعرف بماذا يجيب، فهو لا يحب الألمان، وبنفس القدر يكره الروس، ونقطة ضعفه الإنجليز، وعندما يفكر فى هؤلاء وأولئك تزداد حيرته فلا يعرف جيدًا من انتصر فى الحرب، يتلقى القائمة، إنها معلومات قيمة يستطيع تدوينها فى صفحة الخدمات، اثنان وعشرون مضربًا خبيرًا ليسوا مجرد عرف ديك رومى يمكن الإمساك به، برغم أن كل ذلك يبدو مسليًا للملائكة، الذين مازالوا صغاراً، لا يجب أن نأخذ ذلك مأخذ السوء، فيوم ما سيتعلمون حقائق الحياة القاسية، عندما ينجبون أبناءً فيما بينهم، هذا إن افترضنا وجود ملائكة إناث، كما يقول العدل والأخلاق، حينئذ سيتحتم عليهم تغذيتهم، ولو كانت السماء وسية سيرون الخير .

ومع ذلك، انتصر النمل. عند انكسار الشمس تجمع الرجال فى الميدان وجاء الإداريون، بوجوه عابسة وكلمات قليلة، لكنها تحمل معنى الهزيمة، بداية من الغد يمكنكم الذهاب للعمل مقابل ثلاثة

وثلاثين إسكودو، وينسحبون مكسورين، تراودهم أفكار انتقامية . فى تلك الليلة عمّ السرور الحانات، لدرجة أن جوان المنحوس قرر تجرع كأسه الثانية، ياله من تجديد عظيم، بدأ أصحاب الدكاكين فى التفكير فى استرداد الديون وحساب فائدة ارتفاع الأسعار، أما الأطفال الصغار الذين سمعوا قبل ذلك عن النقود فلم يعرفوا ماذا سيشترونه، وبما أن الجسد حساسًا لأفراح الروح، اقترب الرجال من النساء والنساء من الرجال، بسعادة جمة، وهمسوا بأن لو تفهم السماء شيئًا من حياة البشر، لترددت فى ملكوتها أناشيد التسابيح وصيحات الأبواق، يالها من ليلة قمرية بديعة، تشبه ليالى يونيه .

والآن يطل صباح جديد. صار كل يوم عمل يساوى ثمانية إسكودو أكثر من ذى قبل، وهو ما يعادل أقل بكثير من عشرة سنتات فى الساعة، ولا شىء فى الدقيقة، فليست هناك عملة تمثلها، وفى كل مرة يدخل فيها المنجل القمح، كل مرة تمسك اليد اليسرى الجذوع و بقوة تضرب اليمنى بمنجل يقطع القمح من جذوره، يستطيع فقط علماء الحساب أن يقولوا لنا كم يساوى هذا العمل، كم صفر يجب أن يُكتب على يمين الفصلة، أى ملاليم تقيس العرق، ضغط الرسغ، عضلة الذراع، إنهاك الكلية، نظرة التعب المكسورة، الشمس التى تسقط بتؤدة. كثير القفز قليل الصيد. لكن الغناء لم يغب عن مجموعات العمل، ولو أنه كان أقل القليل، حيث سريعاً ما يأتى خبر يروى أن الحرس بالأمس

ملأوا ميدان مونتيمور بالأجراء، وحشدوهم كالقطيع، وسجنوهم. أصحاب الذاكرة القوية يتذكرون ما حدث فى باداخوث، تلك المذبحة التى وقعت أحداثها فى ساحة ثيران، تبدو هاجسًا، قتلوهم جميعًا بطلقات الرشاشات، لكن لن يحدث هذا فى أرضنا، فلسنا بهذا القدر من الهمجية . تنتشر توقعات السوء السوداء فى الحقول، يتقدم خط الحصّادين حائراً، بلا إيقاع، بينما يصرخ رؤساء العمل ومعهم كل الحق، يصرخون بأعلى صوتهم، كما لو كان المال مالهم. أرونى كيف تعملون الآن وقد زادت أجرتكم، لقد صارت الأرض مليئة بالتنابلة. والخط، الملىء بالنشاط، لا يريد أن يقع فى دين مع المالك، لذا يتحركون بسرعة، لكن سريعًا ما تعاودهم الخيالات، ميدان مونتيمور مكتظ بذوينا، مكتظ بكل أماكن هذه الوسايا، وهناك من يجف ريقه من الخوف فيطلب أبريق الماء من الساقى. من يدرى بما سيحدث لنا. يدرى هؤلاء الحرس القادمون من هناك، يدوسون الأرض، يشكلون صفوفًا قصيرة، يحملون البنادق فى وضع الاستعداد ويضعون سبابتهم على الزناد. إن حاول أحد الهرب، ستكون الطلقة الأولى فى الهواء، أما الثانية ففى الساق، أما لو تحتم إطلاق الثالثة فسيسود التفكير فى الذخيرة، فهؤلاء الناس لا يساوون ثمن طلقة . ينتبه الحصادون ويبدءون فى سماع أسمائهم : كوستوديو كالزون، سيجيسموندو كاناسترو، مانويل السيف، داميان كانيلاس، جوان

المنحوس. فى مجموعتنا، هؤلاء هم المحرضون على الثورة، أما الآخرون فهم محجوزون حتى هذه الساعة، تم حجزهم أو سيتم، ولو ظنوا أنهم لن يدفعوا ثمن تبعيتهم، فهم مخطئون، ولا يعلمون فى أية وسية يعيشون. أحنى الذين تبقوا من المجموعة رءوسهم، أذرعتهم، الجذع كاملاً بالقلب والرئتين، ضغطوا على الكليتين ليتحكموا فى الجسد، وعاد المنجل للدخول فى القمح، ليقطع ماذا ؟ الجذوع الجافة ؟ نعم بالطبع، فلم يتبق سواها. رئيس العمل يدمدم كما الذئب فى صف المأمورين، لقد كان من حظكم أن لم يسوقوكم كلكم، فقد كنتم تستحقون السجن، لو كان الأمر بيدى لأنزلت بكم تنكيلا لن تنسوه ما حييتم .

يسير المتآمرون الخمسة وسط الحراس الذين يستفزونهم أكنتم تظنون أنكم ستسيرون آمنين وأنتم تشدون فتيل الفتنة، ويل لكم مما ينتظركم . لا أحد من الخمسة يجيبهم، يسيرون برأس مرفوع، رغم تقلصات المعدة غير الناتجة عن الجوع، والأقدام المتعثرة أكثر من العادة، فالأعصاب هكذا، تسيطر علينا، ويتساوى الحديث الكثير مع الصمت، لكنها مجرد أعراض مصيرها الزوال، فالرجل رجل، حتى لو لم نعرف عن يقين إن كان القط حيواناً . يريد جوان المنحوس أن يقول شيئاً لسيجيسموندو، لكنه لا يستطيع، فالحرس يد واحدة، إرادة واحدة، قلب واحد، "احذروا من فتح أفواهكم، وإلا سنضرب أعناقكم ضرباً يغرز أسنانكم فى الأرض، فلا يتجرأ أحد على

فتح فمه، وهكذا يصلون لجبل لافرى، يصعدون التل حتى النقطة التى يوجد بها الباقون، عددهم اثنان وعشرون، لابد أن بيننا يهوذا قد وشى بنا. وضعوهم فى عنبر بالفناء الخلفى، كلهم فوق بعض، دون أن يجدوا شيئًا يجلسون عليه، سوى الأرض، ماذا يهم، هم معتادون على ذلك، ضربوا الأعور على عينه! فجلد هؤلاء الناس أقرب لجلد الحمار منه لجلد الإنسان، والحمد لله، فهكذا تتضاءل العدوى، فلو حدث لنا، نحن أبناء المدينة، ما يحدث لهم، ما كنا احتملناه. الباب مفتوح، لكن أمامه يجلس ثلاثة حراس تحت سقيفة من الصفيح، يضعون بنادقهم فى وضع الاستعداد. أحد الثلاثة يبدو غير راضٍ عن نوبتجيته، تنحرف نظرته وتميل ماسورة بندقيته صوب الأرض، يلاحظ أيضًا أنه لا يضع سبابته فوق الزناد، يبدو حزيناً، من يستطيع أن يقول ذلك ! لا يقولون شيئاً، فقط يفكرون، فالأوامر رسمية، لكن سيجيسموندو يهمهم الشجاعة يا رفاق، ومانويل السيف يرد، لو استجوبونا، فلتكن إجابتنا هى نفس الإجابة: لا نريد سوى أن نكسب ما نراه عدلاً، وجوان المنحوس يقول: لا تخافوا، فلسنا فى حالة حرب و لن يسوقونا لإفريقيا .

يأتى من الشارع شىء يشبه هزيز الريح يضرب بأجنحته فى الشاطئ المهجور . إنهم الأقارب والجيران يطلبون معرفة الأخبار، يرجون الحرية المستحيلة، ويُسمَع صوت الأمباشى تباكو، صارخا،

ابتعدوا جميعًا وإلا سنهاجمكم، إنها مبالغة فى المناورة التكتيكية، فكيف يهاجمونهم وهم بلا جياد، ولا يمكن أن يتخيل أحد أن أحداً من الحرس سيغرز حربة بندقيته فى بطن الغلمان والنساء، بعضهم يستحق ذلك، سيدى النقيب، أو فى بطن الأجداد الذين يحتملون بالكاد الوقوف على أرجلهم، وخير مكان لهم هو القبر. لكن الجموع تستند على الجوانب وفى العمق، ويصل لأسماعنا نهنهة بكاء رقيق تذرفها النسوة اللاتى لا يردن البكاء بصوت عالٍ مخافة أن يعانى الأزواج و الأبناء و الإخوة و الآباء، لكنهن فى داخلهن يتألمن كثيرًا، ماذا سيكون مصيرنا لو سجنوه.

عند انكسار الشمس تصل عربة من مونتيمور لجبل لافرى تحمل حامية مهيبة من الحرس، هؤلاء غرباء عن أهل هذه الأرض الذين نعتادهم، لكن ما الحل؟ القضية ليست أن نغفر لهم، ومن أين لنا بذلك، وإنما فى أن هؤلاء الحرس قد أنجبتهم بطن من الشعب تجوع و تتألم و الآن هم يحاربون الشعب الذى لم يرد لهم شراً. تسير العربة متسلقة التل، حتى مفرق الطريق، حيث يفتح لها طريق فرعى يؤدى لمونتينيو، هناك عاش جوان المنحوس، كذلك أمه المرحومة سارة، وأخواته، بعض هنا و بعض هناك، ولم يبق أحد فى جبل لافرى، والقصة قصة من بقى هنا وليس من رحل، وقبل أن أنسى، الطريق الفرعى للشارع هو الطريق الذى يمر منه كثيراً الإقطاعيون المحليون أصحاب الوسايا، الآن لفّت الحافلة و تهبط

متعثرة، تدخّن و تثير غبار الطريق الصاعد الجاف، والنسوة و الغلمان، وكذلك العجائز، نراهم تدفعهم هذه الحافلة المتأرجحة، وعندما تتوقف، ملتصقة بالجدار الذى يحتمل الانحدار المشيدة فيه النقطة، تمسك النسوة اليائسات بدرابزين الحافلة، لكن هذه المرة تضرب الدورية التى تمضى للداخل بمؤخرة البندقية على الأصابع الغامقة والمتسخة، هؤلاء الناس لا يستحمون، يا أب أجاميديس، حقاً، يا سيدة رحمة، ماذا سنفعل، إنهم أقذر من الحيوانات، ويصرخ شاويش مونتيمور، و يدعى أرمامينتو، قائلاً: إن اقترب أحد، سأطلق عليه النار، وسريعاً ما يظهر هنا من يمسك زمام السلطة . تلتزم الجموع الصمت، تتقهقر لمنتصف الشارع، بين النقطة و المدرسة. يا أهل المدرسة ازرعوا، تقال تلك الجملة بينما يبدءون فى استدعاء المساجين من الدورية المشكّلة فى صفين من الباب حتى الحافلة والتى تشبه حظيرة من الخوابير وغصون الشجر، أو تشبه نوعًا من الصهاريج التى تربى فيها الأسماك، أو الرجال، الذين فى وقت شبكهم لا يختلفون كثيرًا . خرجوا جميعًا، الاثنان وعشرون، وكلما ظهر أحد عند عتبة النقطة، انطلقت من بين الحشود نهنهة بكاء وصريخ لا يمكن كبحها، أو صرخات، لأنه بداية من الثانى والثالث صارت الصرخة صرخات. آه يا زوجى ، آه يا أبتى ، بينما تصوب البنادق الخفيفة نحو الثوريين، والحامية المحلية تغرز عيونها فى الحشود، تحسباً لأية

انتفاضة. الحق أن هناك مئات من الأشخاص وكلهم يشعرون باليأس، لكن هناك أيضاً بنادق تقول مواسيرها، اقتربوا، اقتربوا إن أردتم، وسترون ما سيحدث لكم. يبدأ المساجين فى الخروج من نقطة الحراسة، يتجول بعضهم بعينيه، لكن ليس هناك وقت، يتقدمون، وعند وصولهم لسلم السور، عليهم أن يقفزوا داخل الحافلة، حركات بهلوانية، يبدو أنهم يتعمدون بث الرعب فى نفس الشعب الطيب، وأثناء ذلك تغرب الشمس، وتختفى الظلال ولا يمكن التعرف على وجه أحد، خرج الأول واستعد الجميع وانطلقت الحافلة، قامت بمناورة وحشية كما لو كانت ستحصد أرواح الجموع، هناك من يسقط، والحمد لله لم يصبه مكروه سوى بعض الخدشات. الهبوط من التل أسهل، الرجال يجلسون داخل صندوق الحافلة وملقين مثل الأجولة، بينما يمسك الحرس بدرابزين الحافلة، بدون العناية بالتصويب، باستثناء الشاويش أرمامينتو، الذى يعطى ظهره لكابينة السائق، ويقف فوق قدمين راسختين، فى مواجهة الحشود التى تركض خلف الحافلة، سيظل المساكين فى الخلف، يكسبون أرضًا فى الخلفية، عندما يتحتم القيام بمناورة ناحية اليسار، لكن هناك لا يستطيعون عمل شىء آخر، حيث إن الحافلة تنطلق سريعة صوب مونتيمور، الناس المسكينة تلهث ويسيطر عليها التعب ولا يبقى سوى إشارات وصيحات تنطفئ مع البعد، ما عادت تسمع، بعضهم يتمتع بقوة فى ساقيه يحاول

مواصلة الركض، من أجل ماذا ؟، فى المنحنى الأول تختفى الحافلة، مازلنا نراها قليلا وهى تبعد عابرة الجسر، والآن، الآن، أين العدالة و أين الأرض؟ لماذا كان نصيبنا نصيب الأسد فى الألم و المعاناة، كان من الأفضل أن يقتلونا كلنا مرة واحدة لينتهى بذلك مصيرنا المؤلم .

يدور فى رأس كل منهم أفكاره. ومن خلال الكلام الذى سمعوه بينما كانوا ينتظرون الخروج من النقطة، عرف كل من سيجيسموندو كاناسترو وجوان المنحوس و مانويل السيف أنهم يعتبرونهم زعماء الإضراب. من بين الثلاثة يعد سيجيسموندو أكثرهم هدوءًا . جالساً على الأرض، مثل الآخرين، بدأ يسند رأسه بين ذراعيه المتشابكتين، المسنودتين على ركبتيه. يريد أن يفكر بشكل أفضل، وفجأة خطر بباله أن زملاءه ربما يعتقدون، بسبب وضعه المستسلم، أنه فقد حماسه، وكان هذا ما ينقص، سوّى الجذع، هأنذا. يتذكر مانويل السيف و يقارن . يتذكر أنه منذ ثمانى سنوات سار فى نفس هذا الطريق بعربة و برفقة زملائه، غلمان مثله، هنا فقط يمضى أوجوستو باتراكاو، بالمينيا أراح رأسه، فلديه مشاريع أخرى، أما فليسبيرتو لامباس فقد رحل من هنا، مهاجراً، ولا أحد يعرف عنه شيئاً. يقول مانويل السيف لنفسه إن الأمر الآن صار جادًا، فما يحدث اليوم لا يقارن بما حدث قبل ذلك، فالواقعة الأولى كانت لعبة صبيانية، أما الآن فجميعهم رجال، ومسئولياتهم مختلفة، وهو

أمر لا ينكره أحد. هؤلاء الثلاثة، فعن الجميع لا يمكن السرد، تدور فى رءوسهم أفكار شتى لا نهاية لها، شىء من الهمة، شىء من التراخى، شىء من الشجاعة، شىء من الرعشة فى اليد و السيقان، وهو ما لا يمكن لأحد أن يهرب منه. يغيب جوان المنحوس فى نوع من الحلم، لقد هبط الليل، وإن هربت من عينيه دمعتان، فصبراً، فالرجل كائن من لحم و دم لا من حجر، لكن من الضرورى ألا ينتبه أحد لهاتين الدمعتين، حتى لا تهبط عزيمتهم . تحيط الصحراء بجانبى الطريق، أرض فضاء متسعة بعبور منطقة فوروس، وعلى مسافة صغيرة من هنا يسطع القمر، نحن فى شهر يونيه ويسطع سريعاً، وأمامنا نجد أحجاراً كبيرة، هائلة الحجم لحد الدوار، إنه مكان رائع لعمل كمين، تخيل أن هناك يختبئ جوزيه القط، وبصحبته عصابته، فينتا راتشادا، الباريّاس، لودجيرو، كاستيلو، ويقفزون جميعاً على قارعة الطريق فى حركة فجائية، وهم متمرسون فى هذا، بعد أن يقطعوا الطريق بوضع جذع شجرة فى منتصفه، ألزموا مكانكم، تفرمل الحافلة بكل قوتها، ماسحةً الأرض، ونرى آثار أطرها، وبعدها، سأطلق النار على من يتحرك، فكلهم يحملون البنادق، ولا يعرفون الهزل، تعكس ذلك وجوههم، هاهى بندقية جوزيه القط ذات الخمس طلقات، التى سرقها قبل ذلك من مارثيلينو. يقوم الشاويش أرمامينتو بإيماءة، هذا ما ينتظره منه رؤساؤه، لكنه يسقط من مكانه العالى بطلقة فى قلبه،

ويشد جوزيه القط الأجزاء للطلقة الثانية ويقول: فليخرج المساجين. يرفع الحرس جميعهم اذرعتهم، كما يحدث فى أفلام الغرب، و يبدأ فينتا راتشادا وكاستيلو فى سحب خزائن الطلقات منهم، هنا خلف الأحجار تقبع بغلتان اعتادتا على حمل الخنازير، تستطيعان أيضاً حمل هذه القاذورات. ترنح جوان المنحوس وفكر إن كان يناسبه العودة إلى جبل لافرى أم البقاء مختبئاً خلال هذه العاصفة، لكن عليه حينئذ أن يرسل خطابًا لأهله، ليطمأنهم فيه أن كل شىء انتهى على ما يرام لحسن الحظ .

اقفزوا جميعًا، سريعاً، سريعاً، يأمر الشاويش أرمامينتو، العائد للحياة بلا ثقب فى قلبه. هم الآن أمام باب نقطة الحرس بمونتيمور، ولا أخبار لديهم عن جوزيه القط، ولا عن ظله . الحرس يشكلون صفوفاً، لا يشعرون بنفس الاضطراب السابق؛ لأنهم الآن فى بيتهم، فلا خطر من تمرد ولا اعتداء بيد مسلحة . أما مغامرة جوزيه القط، التى توقعها الجميع وليس من الصعب تحقيقها، فلم تكن سوى خيالات مرت بذهن المنحوس. بقت الأحجار فى مكانها، على حافة الطريق، والله وحده يعلم منذ متى وهى هناك، لكن لم يقطع أحد الطريق، ومرت الحافلة بهدوئها الميكانيكى، تركتهم هناك وذهبت بعد أن أدت مهمتها . يدفعون الاثنين وعشرين رجلاً فى طرقة، ويجتازون جميعًا دهليزاً، يوجد حارسان على باب، يفتحه أحدهما ليجدوا بالداخل حشداً من

الناس، بعضهم يقف على قدميه و البعض الآخر يفترش الأرض، فوق حقائب مقطوعة من الخيش، فرشوها ليناموا عليها كأنها سرائرهم. الأرض أسمنتية، الزنزانة يشتد فيها البرد، أمر غريب لا يلائم قيظ هذا الفصل من السنة ولا هذا التجمع من الناس فى مكان مغلق . ربما الأمر كذلك لأن الحائط الخلفى منحوت فى تل الحصن. يصل عدد المساجين داخل الزنزانة لسبعين رجلاً تقريباً، وهو عدد هائل من الحصّادين. يُغلق الباب بضجيج مفزع ، يبدو عمداً، وصرير الباب يكشط الأعصاب كواحدة من تلك القطع الزجاجية التى يضعها المُلاّك فوق أسوار وسيتهم لتكشط الأيدى . عندما تشرق الشمس بطريقة ما، تُسرّ العين، كل شىء لامع، وفى الجانب الآخر يوجد برتقال، فاكهة جميلة فوق غصنها، ومن يقول برتقال يقول كمثرى، فهى أيضًا فاكهة رقيقة، كما توجد شجيرات ورد مُعدّة فى عقود فى طرق حديقة الفواكه. يمر رجل من هنا مشغول بعمله فتملأ أنفه رائحة العطر، أنا لا أدرى إن كانت لهم روح لتقدر هذا الجمال أيها القس أجاميديس! سقف الزنزانة منخفض، له لمبة ملتصقة به، لمبة وحيدة، خمسة وعشرون واط فقط، فمازلنا نحيا بعادة التوفير، بعد ذلك يطل القيظ الذى لا يمكن احتماله، من قال عكس ذلك ؟ يعرف الرجال بعضهم بعضاً، ويتعارفون، هناك رجال من إسكورال، وآخرون من برج جادانيا، يقولون إن أهل كابريلا كانوا سيتوقفون فى فينداس نوفاس،

لكن ذلك غير مؤكد، والآن، ماذا سيفعلون معنا؟ فليفعلوا ما يفعلون، هذا ما قاله أحد رجال إسكورال، فلن نتقاضى أقل من ثلاثة وثلاثين إسكودو، ما يجب أن نفعله الآن هو أن نحتمل.

يحتملون. تمر الساعات. من آن لآخر يُفتح الباب، تدخل مجموعات جديدة، تضيق بهم الزنزانة. أغلبهم لم يأكل شيئاً منذ الصباح، وليست هناك بارقة أمل فى أن الحرس ينوون إطعام مساجينهم . هناك منهم من يرقد فوق الخيش، وأكثرهم طمأنينة أو أصحاب الأعصاب الحديدية يخوضون فى نوم عميق. يدق جرس منتصف الليل فى ساعة المجلس المحلى، لن يجرى اليوم شىء آخر، ففى تلك الساعات لا يحدث شىء، وأفضل شىء يفعلونه هو أن يناموا، الأمعاء تعترض، لكنها لا تصرخ، وعندما يضيق المساجين ذرعاً ويأرقون فى منامهم، وتصعقهم الرائحة الكريهة وعرق الأجساد المتكدسة، يُفتح الباب بهمجية ويظهر الأونباشى تباكو بصحبة ستة من الحرس، ممسكاً بورقة فى يده، ويتحرك الحرس حوله بالبنادق كما لو كانوا حديثى الخروج من بطون أمهاتهم، يصيح الأونباشى جوان المنحوس، من جبل لافرى، أجوستينيو ديريتو، من سافيرا، كارولينو دياس، من برج جادانيا، جوان كاتارينو، من سانتياجو دو إسكورال. ينهض الأربعة رجال، إنهم أربعة ظلال، ويخرجون . زملاؤهم يشعرون بقلوبهم تقفز تريد أن تهرب من حناجرهم، كيف سيكون حال هؤلاء

المساكين !. حينئذ ينطلق صوت أحد لا يستطيع أن يكتم السر أكثر من ذلك يبدو أنهم بالأمس قتلوا هنا رجلاً .

لا يجتازون الدهليز هذه المرة. يسيرون بمحاذاة الحائط، بين الحرس الذين يدفعونهم نحو الباب. ضوء اللمبة هنا أشد بكثير من هناك، ترمش عيون السجناء لتدفع عن نفسها قوة الضوء المفاجئ والأول. خرج الحرس، لم يبق سوى الأونباشى، الذى وضع الورقة فوق منضدة يجلس عليها رجلان، أحدهما يرتدى الزى الميرى، وهو النقيب مسرور، والآخر بملابس مدنية . تلقى الأربعة أمراً بالوقوف صفاً واحداً بجانب بعض : جوان المنحوس، اجوستينيو ديريتو، كارولينو دياس وجوان كاتارينو. ارفعوا بوزكم، لنرى إن كنتم تشبهون العاهرات اللاتى أنجبنكن أم لا، قال الرجل المدنى. لم يستطع جوان المنحوس أن يمسك أعصابه" أمى ماتت منذ سنوات طويلة، فرد عليه الآخر، أتريد أن أهشم وجهك ! هنا لا أحد يتكلم إلا بأمرى، وعندما يجب أن يتكلم، وسترى كيف ستفقد فوراً رغبتك فى الكلام .

بدأ النقيب مسرور فى إصدار أوامره قفوا انتباه، يا غوغاء، فأنتم هنا لستم فى حانة، المعاملة هنا ميرى، انتبهوا لما يقوله السيد المأمور. نهض الرجل المدنى، دار حول مجموعة الأجراء، مثبتاً فيهم النظر، واحداً تلو الآخر، عليكم اللعنة لقد حرقتم دمى، وليألف وجوههم، ظل مثبتاً فيهم النظر وقتاً طويلاً،

واحداً واحداً، ما اسمك ؟ ، أجابه المستجوَب جوان كاتارينو، وأنت ؟ ، دياس كارولينو، وأنت ؟، أجوستينيو ديريتو، وأنت يامن ماتت أمك، أيها المسكين، ما إسمك؟ ، جوان المنحوس . ابتسم المأمور بمرح اسم جميل، حتى تبقى الأمور واضحة، ويناسب أيضاً الموقف الذى نحن فيه . خطى فجأة ثلاث خطوات صوب المنضدة، أخرج طبنجته من الجراب، وضعها برفق فوقها، وعاد نحو المنكوبين، اعلموا أن أحداً منكم لن يخرج من هنا حياً قبل أن يتقيأ ما يعرفه حول هذا الإضراب، من نظّمَهُ، من أطلق الأوامر به، من صنع دعايته، هذا ما أريد معرفته، وبسرعة، وويل لكم لو أطلتم". أخذ النقيب مسرور أربع كراسات مدرسية كانت فوق المنضدة مهملة سأحجز كل واحد منكم داخل غرفة مكتب بصحبة هذه الكراسة، وبالداخل يوجد قلم رصاص، وعليكم أن تكتبوا ما تعرفونه، بالأسماء والتواريخ، والأماكن والبيوت التى كنتم تلتقون فيها، وتسليم المنشورات، ولا تخرجوا من الداخل قبل أن تنتهوا من شرح كل شىء بوضوح . عاد المأمور للمنضدة، وضع الطبنجة فى الجراب، لقد انتهى من عرض قوته، تجعلوننى أفقد رشدى، هنا يمكث رجل معاقب، بدون أن تعرف عيناه النوم، بسبب هذا الإضراب الملعون، من الأفضل لكم أن تستعيدوا رشدكم و تكتبوا كل ما تعرفونه بدون مداراة شىء، فأنا سأطلع على كل شىء بعد ذلك بطريقتى، وسيكون عقابكم أشد. يقول جوان كاتارينو انا ضعيف

فى الكتابة، ويقول أجوستينيو ديريتو لا أعرف سوى كتابة اسمى، ويقول جوان المنحوس أنا أعرف الكتابة قليلاً ، ويقول كارولينو دياس: وأنا نفس الشىء. أنتم تعرفون بما فيه الكفاية ما يهمنا . يقول المأمور . ولقد اخترناكم أنتم خصوصاً لأنكم تجيدون القراءة والكتابة، وإن لم يرُق لكم ذلك، فهو أسوأ لكم، فهذا معناه أنكم لم تتعلموا بعد، والآن أؤكد لكم أنكم ستندمون على أنكم لم تستمروا حيوانات . ضحك المأمور من خفة ظل ذاته، ضحك الأمباشى وأيضًا العسكرى، كما ضحك النقيب مسرورًا جدًا. أعطى النقيب أمراً للأومباشى، والأونباشى للعسكرى، ففتح الأخير الباب، وخرج الفاسقون الأربعة ، وبالخارج ينتظرهم عساكر آخرون، وكمن يدخل قطيع الخنازير فى زريبته، يسوقونهم فى الدهليز ويفتحون لهم الأبواب ويدفعونهم للداخل، كل فى مكتب، كل بصحبة كراسته، دياس، ديريتو، كاتارينو، المنحوس، إنهم حثالة، يقول الأب أجاميديس فليغفر لى الرب.

يسود صمت سرمدى، يقطعه صوت خفيف مثل صوتهم جميعاً، فى نقطة الحرس. السجناء فى الزنزانة يرتجفون ويتنهدون قبل أن يناموا، وبعد نومهم، لكن هذه عادة الأجساد المنهكة، إنها وخزة واتته منذ كان يعمل فى الفحم وأراد رفع جذع شجرة ثقيل مثل الكارثة، والآن تواتيه من جديد، كان يعاملنا باحتقار. ماذا يفعلون الآن فى رفاقى ؟ ، لا يُسمع لهم صوت، لا يتطرق للآذان سوى خطوات النوبتجية

بالخارج، ودقات ساعة المبنى، ياليتها تصمت للأبد تلك الدقات التى تشبه أم قويق الملعونة، حتى ولو حدث ما هو أسوأ. فى حبسهم، قام الأربعة بنفس الفعل، نظروا حولهم، وجدوا المنضدة و القلم الرصاص، كانت تبدو لعبة، كما لو أنهم فى المدرسة من جديد فى حصة الإملاء، لا ينقص سوى المدرس الذى يملى عليهم، المدرس هنا هو ضميرهم نفسه، هذا الضمير الذى سيقرر ما يكتبونه بحروف معوجة وواشية، لكنهم جميعاً، عاجلاً أم آجلاً، سيكتبون فى الورقة الأولى فى السطر الأول، فى أعلاها، كما لو أنهم يدخرون بقية الورقة للكثير الذى سيخطونه، أقول سيكتبون فقط أسماءهم. اسمى أجوستينيو ديريتو، اسمى جوان المنحوس، اسمى جوان كاتارينو، اسمى كارولينو دياس، بعدها يواصلون النظر فى الصفحة، فى الأسطر الكثيرة حتى نهايتها، وفى بقية الورق حتى نهايته، تبدو أرضًا خصبة، لكن هذا المنجل الذى هو القلم لا يتحرك للأمام، يأبى أن يتحرك من مكانه، لقد ارتشق فى حجر، أيها السادة، ماذا سأكتب، أينتظرون أن أقول ما أعرفه، فى هذه الأسطر المعوجة، أم أقول الحلم الذى يراودنى. أول من يترك الكراسة جانبًا هو جوان كاتارينو، يكتب اسمه و يكتفى بذلك، يبقى الاسم حتى يعلموا أن صاحب هذا الاسم لم يكتب سوى اسمه، بدون كلمة أخرى زائدة، وبعدها، فى ساعات مختلفة، كل رجل من الباقين، بنفس إيماءة اليد الخشنة و الغامقة،

يتركون الكراسات، بعضهم يغلقها، والبعض الآخر لا، تركوها مفتوحة حتى يكون الاسم أول ما يُرى عندما يأتون بحثا عنهم، لا شىء آخر.

بصيص ضوء يدخل من السقف، إنها عبارة ريفية وتصويرية، ولدتْ مع صنع السقف بالقرميد، بالعروق، هذا السقف الذى بسبب عدم تمكن الصانع من مهنته، وبسبب مرور الزمن، فَتَحَ فمه ناحية الخارج، أو بمعنى أدق فَتَحَ ثقوباً، منها يدخل النور عندما يطلع النهار، رغم أن الضوء البسيط يستطيع المرور أيضاً قبل طلوع النهار عندما تنهك نجمة فى رحلتها الليلية فتبقى هناك فتلتقطها عين من يخاصمه النوم. قد تكون قصة الكراسات هذه حيلة لجأ إليها المأمور والنقيب حتى يستطيعا النوم براحة بال بينما يعترف المثيرون للفتنة، أو طريقة ذكية لتوفير أجرة كاتب بأن يكتب المضربون مجانًا. قد لا نعرف الحقيقة كاملة حتى ينقضى الأمر فى قصة السجن هذه والاستجواب. بصيص ضوء يدخل من السقف، يجب أن نعود لهذه النقطة؛ لأن الدورة لم تكن قد اكتملت وكذلك الإحساس بالهجران عندما فُتحت الأبواب و ظهر المأمور فى كامل أناقته وبهائه كمن نام حقاً بالخارج وفوق سرير مريح، وبانتقاله من مكتب لمكتب كان غضبه يزداد اشتياطاً لأنه كان يجد فى كل كراسة ما يعرفه سلفاً، إن هذا الشخص يسمى جوان كاتارينو، وإن هذا التيس يدعى أجوستينيو ديريتو، وأن ابن السفاح هذا يطلق عليه كارولينو دياس، وإن ابن

العاهرة، نعم ابن عاهرة، ينادونه جوان المنحوس. يبدو أن هؤلاء الأوغاد قد اتفقوا على هذا. تعالوا هنا جميعا، لقد انتهى وقت التروى، الآن أريد أن أعرف من نظّم الإضراب، ومن هم المتحالفون معهم، وإلا سأحوّلكم على الآخر. لا يعرفون من هو هذا الآخر، ولا يعلمون شيئًا، يحركون رءوسهم، برسوخ وإجهاد من عدم النوم، بشجاعة وجوع يأكل بطونهم، لدرجة أن سحابة تغطى أبصارهم. يقول النقيب مسرور الذى جاء أيضا إن كنتم لا تريدون الذهاب جميعا إلى لشبونة، فالأفضل لكم أن تعترفوا هنا، فى أرضكم، أمام من تعرفونهم . هدأ المأمور قليلاً، لا نعرف لماذا، أرسلهم معًا إلى الآخرين، وسننظر بعد ذلك ما سنفعله معهم . ساقوهم جراً بالممر، حتى الطرقة، شاهدوا السماء أمامهم، يا صديق، يرون كل شىء واضح رغم أن الشمس لم تطلع بعد، ودخلوا بعد ذلك، متعثرين فى الأجساد المفروشة على الأرض، وسط ظلمة السجن حيث يرقد زملاؤهم. من نام تحتم عليه الاستيقاظ، أو الهمهمة نحو الجانب الآخر، سادت الطمأنينة بين الجميع لأن الأربعة قبل أن يرقدوا و يخوضوا فى النوم، وهو حق مشروع، استطاعوا أن يخبروهم بأياديهم فوق قلوبهم أن السلطة لم تستطع أن تسحب منهم ولا كلمة واحدة. لم يتمتعوا بنوم طويل، فهؤلاء الناس تعودوا على النوم القليل، فبمجرد أن تشق الشمس طريقها فى جبال إسبانيا، يكورون بطاطينهم، فضلاً عن أن الأرق الصديق يشق طريقه

فى أزقة اللاوعى، فيرجفها ويمددها، إنها وحشية، وهكذا يُرهق البدن، مضيفاً كنهاية هذه الدائرة المؤلمة فى المعدة، التى يعلم الله منذ متى لم تعرف طعم الزاد. إنها معاملة لا تصلح حتى للحيوانات .

كانوا فى منتصف الصباح عندما فُتح الباب من جديد ونادى الأونباشى تباكو جوان المنحوس، زيارة . أما جوان المنحوس، الذى كان يثرثر مع مانويل السيف وسيجيسموندو كاناسترو حول المصير المحتوم الذى ينتظرهم، فنهض مذهولاً بين دهشة الآخرين، والأمر لا يستحق أقل من ذلك، حيث إنهم يعرفون أنه فى مواقف مثل هذه لا توجد زيارات، فالسلطة لا تعرف الطيبة، هناك منهم من ينظر بريبة، تراوده الوساوس إن كان رفيقهم حقًا لم يوش بالجميع ، لهذا يخرج جوان المنحوس بين صفين صامتين ومقطبين ويجر قدميه كما لو يحمل فوق ظهره خطايا الدنيا. تبدو دوامة، الآن يروح، الآن يأتى، وكانت الشمس تملأ السماء، من يا ترى جاء لزيارتى، لابد أنها فاوستينا وابنتاى، لا، هذا غير معقول، فلن يسمح بذلك النقيب، أما المأمور المرتدى زياً مدنياً، هذا الكلب ذو اللسان القذر، فلن يفكر فى ذلك إطلاقاً .

خُيّل إليه أن الطرقة صارت أقصر بكثير عن ذى قبل، مر أمام الباب الذى خلفه قضى الليلة السابقة متأملا الكراسة المدرسية، كم يكلف هذا التعليم، اسمى جوان المنحوس، والآن، بينما يطرق الحارس الباب وينتظر الأمر بالدخول، يفكر المنحوس، أهى

فاوستينا، أم يقولون لى ذلك ليخدعونى و يعاودوا نفس أسئلتهم، ربما يضربوننى، ماذا كان يقصد المأمور عندما هددنا إن لم نتكلم سيرحلنا إلى الآخر؟ أى آخر؟ الأفكار تأتى سريعة، لهذا يستطيع جوان المنحوس أن يفكر بينما ينتظر، لكن عندما فُتح الباب بقى ذهنه خالياً، إلا من حُلكة الليل داخل رأسه، وبعدها شعر براحة كبيرة، حيث رأى بين النقيب والمأمور القس أجاميديس، لابد أنهم لن يضربونى أمام القس، لكن ما الذى أتى به إلى هنا ؟

هكذا سنكون فى السماء، أنا فى الوسط كما يتطلب العمل الروحى الذى أمارسه منذ عرفت نفسى وعرفتمونى، وحضرتك، أيها النقيب، على يمينى، لتقوم بعملك كحامٍ للقوانين ومن يضعها، وحضرتك، أيها المأمور، على يسارى، لتقوم بباقى العمل الذى لا أريد معرفته حتى ولو أجبرونى . يفتح باب بيت الانضباط هذا، ماذا أرى؟ عيون حزينة من أجل هذا خُلقتُ، ياليتكم كنتم عمياناً، صححوا لى إن كنت مخطئاً، أهذا هو جوان المنحوس ابن جبل لافرى، المكان الذى تقطنه رعيتى، المحبة للعمل مثله، أجننت يارجل، إن السيد النقيب و السيد المأمور أو السيد المأمور و السيد النقيب أخبرانى أنك لم ترغب أن تقول ما تعرفه، إن من الخير لك أن تعترف، لتسترح انت وأسرتك، يالها من أسرة مسكينة، ليس لها من ذنب فيما جناه الأب واقترفه من أخطاء و مهاترات، أب لا يعرف الحياء، جوان المنحوس، هذا الرجل

الملتحى و الوقور، كيف ورطت نفسك فى هذه الأفعال الصبيانية، أين رأيت فى حياتك فتنة كهذه، كم مرة قلتُ لكم جميعًا فى الكنيسة : إخوانى الأعزاء، اتقوا شر هذا الطريق، فآخرته الهلاك المبين، حيث الدموع لا تنفع ولا الجز على الأسنان؛ قلت لكم ذلك مئات المرات، قلت لكم حتى أنهكنى القول، لكننى كنت أحرث فى بحر، يا جوان يا منحوس، الأمر ليس أنى لا أهتم بالآخرين، لكن السيد المأمور و السيد النقيب أخبرانى أنه من بين كل رجال جبل لافرى طلبوا منك وحدك أن تكتب فى هذه الكراسة، أنا لا أعرف الآخرين، وأخبرانى أنك لم تكتب، لم تساعدهم، يبدو أنك تسخر منهم، وهم من يتمتعون بصبر جم، يقضون الليل بلا نوم، كم هم مساكين، هم أيضًا لهم عائلاتهم، ماذا تظن؟ أن ينتظروهم بسهاد، و من أجل عنادك يتحتم عليهم أن يقولوا لهم: سآتى اليوم متأخرًا، أو يقولوا : لدى عمل، لابد أن أنهيه، تناولوا أنتم عشاءكم بدونى وناموا لأننى لن أصل البيت قبل الصباح، لكن حتى هذا لا يتحقق، فقد حانت ساعة الغداء ومازال السيد المأمور والسيد النقيب هنا، يبدو مستحيلاً، ياجوان يا منحوس، ليس لديك أى مبرر لتتعامل بهذه الطريقة مع السلطة، ماذا يكلفك إن اعترفت على من نظم الإضراب، ومن المسئول عن المنشورات، من تلقاها ومن وزعها، ومن أين جاءوا وكم عددهم، نعم، ماذا يكلفك، يا عبد الرب، لقد كنت على وشك أن أطلق سبة، قل ما أسماؤهم، و سيهتم السيد المأمور والسيد النقيب بالآخرين، أما أنت فتعود لبيتك، لذويك، ليس

هناك أجمل من أن تعود لأهلك، من أن تكون بينهم، هيا، قل لى، فأنا لا أعرف، فوضعى لا يسمح لى أن أفشى أسرار الاعتراف، لكن ألم يكونا فلانو أو مينجانو، ألم يكونا هما، أجب، قل نعم بإيماءة من رأسك إن لم ترد الجواب بصوت مرتفع، السر سيبقى بيننا نحن الأربعة، أكانا فلانو ومينجانو، نعم، قل، فهذا ما أريده، لكننى لست على يقين ولا أقول إنهما هما، أنا فقط أسأل، يالموقفك هذا من كارثة، يا جوان يا منحوس، قل لى إنك تائب، إنك تعذب بذلك أسرتك، أجب يا رجل .

أجب يا رجل، هاهو أمامك القس أجاميديس، والنقيب و المأمور، وأنت، وليس بينكم شهود، من مصلحتك أن تقول ما تعرفه، ولو قليل، فمن يعطى ما لديه من قليل ليس مضطراً لأن يعطى أكثر. سيدى القس أجاميديس، أنا لا أعرف شيئًا، ولا يمكن أن أتوب على ذنب لم أقترفه، وأنا على استعداد أن أعطى كل ما أملك من أجل أن أكون الآن مع زوجتى وبنتىّ، لكن ما تطلبونه منى لا أملكه، لا يمكن أن أبوح بشىء لأننى ببساطة لا أعرف شيئًا، وحتى لو كنت أعرف، فأنا لا أعرف إن كنت سأبوح أم لا. يرد المأمور آه منك أيها التيس، الآن تثبت أنك متورط فى العملية . فيقول القس أجاميديس بصوت خفيض دعه وشأنه، إنهم جُهّال مساكين، هذا ما كللت من قوله، وبالأمس كررته فى بيت السيدة رحمة، أغلب الظن أنه لايعرف شيئًا، فما هو إلا إمّعة، لكنه هنا يعد زعيم

الإضراب يقول النقيب مسرور. فيرد المأمور اتفقنا، سُقه للحجز مجددًا"

يخرج جوان المنحوس وبينما يمر بالطرقة للمرة المائة، يظهران على الباب، بين حرس مسلحين، فلانو ومينجانو، يعرفهما و يعرفانه ويتبادلان النظر، يسيران بكدمات، مساكين، وجوان المنحوس، عند عبور الممر، يشعر أن الدموع تهرب من عينيه، ليس من الشمس، فالشمس معتاد عليها، وإنما من الفرحة العبثية، لأن فى النهاية تم القبض على فلانو مينجانو ولم يكن هو من أوشى بهما، ولم أكن أنا من أوشيت بهما، ما أروع أن يسجنوهما، يا للشر، لا أعرف ما أقول، وبكى مرتين، مرة من الفرحة ومرة من الحزن، لأنه رآهما هناك، بعد أن ضربوهما. أنا على يقين من ذلك كما على يقين أن اسمى جوان المنحوس،كان المأمور محقًا عندما قال إن اسمى يناسب الأيام التى نعيشها .

دخل الزنزانة وروى ما جرى. شاهدوا الدموع تهرب من عينيه فسألوه إن كانوا قد ضربوه، فأجاب بالنفى، وواصل بكاءه، بنفس حزينة، غاب عنها الفرح ولم يبق سوى الأسى، أسى وقتى. يحاوطه أهل جبل لافرى، يقترب منه من هم فى مثل عمره، بينما ينأى قليلا ويتحفظ الأصغر منه، فمن غير اللائق أن يقتربوا من رجل اشتعل رأسه شيباً وهو يبكى مثل طفل صغير، ما المصير الذى سنلقاه. إنها هواجس سنصنع معروفًا لو قبلناها بلا تحليل ولا مناقشة .

مر نصف يوم على انتهاء الأمر على ما يرام. ساقوهم إلى الطرقة حيث اجتمعت هناك العائلات التى جاءت من بعيد، جاء منهم من استطاع، والآن فقط سمحوا لهم برؤيتهم فى بعض غرف الانتظار الخاصة بالسلطة، وهى الغرف التى كانوا قد انتظروا فيها أمام النقطة، تحت رقابة فصيلة من الجيش، وهناك ضاعفوا من تهديداتهم وشكاويهم، لكن عندما جاء الأونباشى تباكو ليسمح لهم بالدخول اشتعلت الآمال كلها، هناك كانت فاوستينا وبنتاها جراثيندا وأميليا، جئن سيراً على الأقدام من جبل لافرى، على بعد أربعة فراسخ، لقد خُلق الإنسان فى كبد، وأغلب النساء الأخريات جئن، هاهن قد وصلن"، وحينئذ أوقف الحراس جهاز الأمن، يالها من قبلات جائعة فوق خدود جافة، لا جافة و لا يحزنون، تعانق المنكوبون فيما بينهم، وهربت الدموع من مآقيهم، كان يبدو يوم بعث الأرواح، لكن قبلاتهم خلت من أى فن، وبقى مانويل السيف هناك، وحيدًا، فلا زوجة له ولا ولد، مطلقاً نظراته صوب جراثيندا، التى كانت تعانق أباها الذى تفوقه طولاً، ومن فوق كتفه تتبادل النظر مع مانويل، الذى تعرفه ويعرفها، فلم يكن حبًا من النظرة الأولى، بعدها تقول له كيف حالك يا مانويل؟ فيجيبها: كيف حالك أنت يا جراثيندا؟ ومن يظن فى شىء آخر فقد أخطأ .

وبينما كان الأقرباء فى حفلة الأحضان هذه، هلّ النقيب مسرور والمأمور على باب الطرقة، وفى نفس

واحد خرج من فم الاثنين نفس الخطاب، ومضيعة للوقت محاولة معرفة من يقلد الآخر، فربما كانت هناك تقنية ما، موصلة بأحبال كهربية بلشبونة، جعلتهما يتحدثان بهذه الطريقة مثل جهازى مسجل، انتبهوا أيها الأولاد، وخذوا حذركم بعد ذلك، سنطلق سراحكم هذه المرة، لكننا نحذركم، لو عدتم لارتكاب هذا الإرهاب مرة أخرى، ستدفعون الثمن مضاعفاً، لا تسلموا عقولكم للآخرين ليخدعوكم تحت مسمى عقائد زائفة، لا تكونوا حميراً، لا تقبلوا أفكار أعداء الوطن، وإن عثرتم على منشورات فى شوارع القرية، أو فى الطرق، لا تقرءوها، وإن قرأتموها، فأحرقوها فى الحال، فلا تعطوها لأحد ولا ترددوا ما قد قرأتموه، لأن هذه جريمة، تدفعون أنتم وعائلاتكم البريئة بعد ذلك ثمنها، وإن صادفتكم مشكلة تريدون حلها، فلا تورطوا أنفسكم فى الإضراب، وتوجهوا إلى السلطات واعرضوها عليها، فمهمة السلطات الوقوف علمًا على كل شىء و مساعدتكم، وهكذا ستنالون حقوقكم طبقًا للقانون، بلا شغب ولا ضجة، ومن أجل هذا نحن هنا، والآن إلى العمل فى سلام، وليعنكم الله، لكن قبل أن تذهبوا، عليكم أن تدفعوا أجرة الحافلة التى جاءت بكم من جبل لافرى لمونتيمور، فأنتم من أسأتم التصرف وعليكم دفع الثمن، فالدولة لا يمكن أن تتحمل مصروفات أخطائكم .

جمعوا فى الحال النقود المطلوبة، نفضوا شنطهم وجيوبهم، حلّوا مناديلهم، هاهى النقود سيدى النقيب

مسرور، وبهذا نكون غير مدينين للدولة، التى من المؤكد أنها ينقصها الكثير، وما نأسف له هو معرفتنا أن الطريق من جبل لافرى لمونتيمور ليس بهذه المسافة الطويلة، فكلنا نعرفه. لم ينبسوا بهذه الكلمات، إنها من عند الراوى، لكن الكلمات التالية نعم قالها المأمور، بصوت فردى الآن قد صفيتم حسابكم، عودوا لبيوتكم فى رعاية الله، وأشكروا هنا السيد القس التى أظهر مودته للجميع. يرفع القس أجاميديس ساعديه كما لو كان فى المذبح، بينما لا تعرف الناس ماذا تفعل، بعضهم يقترب منه ليشكره، وبعضهم يتصنع أنه لم يسمع وينظر لأعلى أو يحاور زوجته وأولاده، أما مانويل السيف، الذى يعلم الله وحده ما سبب التصاقه بجراثيندا المنحوس فيقول من تحت ضرسه، كما لو كانت الكلمات تلدغ قلبه الواحد منا يشعر بالخجل، فلقد اعتقدنا أننا سنبقى هنا للأبد لكن الأب أجاميديس يرد عليه بوجه بشوش، إنه خبر سار، فلتأتوا جميعًا معى، فهناك عربات فى الشارع تنقلنا مجاناً، وضعها السادة تحت أمرنا، تستطيعون جميعكم ركوب عربات وسيارات المُلاّك، حتى ولو كان منكم من يكرههم. يتقدمهم القس أجاميديس بزيه الدينى المفتوح، معطياً انطباعًا بالسواد واللزوجة، جاراً فى رائحته المباركة قطيع الفقراء المذهولين الآكلين من الشنط الخيش، التى جاءتهم من بيوتهم، طعاماً مقتراً، لكن مانويل السيف، الذى يعلم الله لأى سبب كان ملتصقاً بجراثيندا المنحوس، يقول، وبعد

ذلك يريدون أن نشكرهم، أى احتقار هذا، لقد مات من اختشى. لم ترد جراثيندا وعاد مانويل إلى وده، أنا لا أحد يجرنى خلفه، سأعود مشياً على قدمىّ. حقًا، وتحركت الفتاة متلهفة وقالت بخجل و جسارة لكن المسافة بعيدة، وسريعًا ما صححتْ، دون أن تعرف جيدًا أتثنى أم تتكتم، فلا تعرف أتسير مع المطيعين أم مع هذا الثورجى أنت أدرى. فأجابها مانويل بالإيجاب، فهو أدرى، وابتعد ثلاث خطوات، لكن بعدها رجع ليقول، أتمنى أن تكونى خطيبتى، فأجابته بنظرة، كانت كافية، وعندما دار مانويل السيف فى أول ناصية، قالت جراثيندا موافقة فى قلبها .

وفى الأيام التالية عَمَرَ بيت القس أجاميديس بخيرات جاءته من رعيته، معذرة لو كان قليلاً، لكننا نهبه لك بنفس راضية مقابل ما فعلته من أجلنا، قدر من الفاصوليا، جوال ذرة، دجاجة سمينة، زجاجة زيت، وثلاث نقاط من الدم .

تحمسوا! هبط المحضر إلى الميدان بأمر من الرئاسة، فتّش على مغالق الزرائب، عدّ الأرسان واعتبرها كافية، تنزه فى الميدان ليستمتع بجمال المنظر الكلى، منظر المدرجات المكشوفة، الحواجز، مكان الفرقة الموسيقية، الظل والشمس، تخترق أنفه رائحة روث طازج، يقول الآن يمكن الدخول. تُفتح الأبواب حينئذ ويدخل القطيع الذى سيصارع اليوم طبقًا لأعراف الفن، بأردية حمراء، بحراب قصيرة، تلاحقهم ضربات عُصى وفى النهاية تتوج رقابهم بمقبض سيف، نفذت ضرباته قلبى وتركت فيه علامات(*).

تحمسوا! جاء القطيع يسوقه الحرس الجمهورى، من قريب ومن بعيد يأتى، من أماكن سبق أن ذكرناها مصادفة فى موضع آخر من هذه القصة، لكنها ليست جبل لافرى، ورويداً رويداً يمتلئ الميدان، لا المدرجات،

(*) يشبّه المؤلف هنا الحرس الجمهورى بالثيران التى تكره اللون الأحمر، المتمثل فى الشيوعيين المتمردين، الذين تم حشدهم فى ساحة مصارعة ثيران وأساءوا معاملتهم وتم القبض على أحدهم "جيرمانو فيديجال" من قبل المحضر (المترجم).

يا لها من فكرة! الجمهور هنا مختلف، فهو الحرس الذى يحيط بالميدان، بحثاً عن ظل لو كان ذلك ممكناً، لكنهم يحيطون بكل شىء، واضعين البنادق فى وضع التصويب، فبدون البندقية لا يشعرون برجولتهم. يمتلئ الميدان بقطيع غامق، يأكل فى فراسخ وفراسخ من معارك الحرس البطولية، إلى الهجوم، إلى الاقتحام، هاهم يتحركون، يهاجمون حيوانات الإضراب، يهاجمون أسود المناجل ورجال المعاناة هؤلاء هم أسرى المعركة الضارية، وتحت قدمى سيادتكم نحط الأعلام و البنادق التى سلبناها من العدو، انظر سيادتكم كم هى حمراء، لكنها أقل احمرارا من بداية المعركة، ذلك لأننا أثناء المعركة كنا نغمسها فى التراب، ونبصق فوقها، يمكن لسيادتكم أن تعلقوها فى المتحف أو عند مدخل المجلس المحلى، هناك حيث سيذهب المجندون ليطلبوا راكعين أن نعرض لهم غبطتنا الصوفية لكوننا حراسًا، أو ربما كان من الأفضل، سيادتكم، أن نحرقها، لأن رؤيتها يجرح المشاعر التى علمتمونا أن نحسها، ونحن لا نريد أن نتغير". أمر المحضر، لكونه يرأس عملاً فاضلاً، أن يغطوا الرمل ببعض أجولة الخيش من أجل الرجال الأشداء، لأنهم رجال، هذا أمر لا ريب فيه، لكنهم ليسوا أسوداً ولا أحضروا معهم المناجل، هاهم يجلسون أو يرقدون، مجتمعين تقريبًا فى مكانهم الأصلى، فلا يمكن تفادى تتبع الجماعة، ينقصهم مع ذلك بعض الرجال، قلة منهم، يتنقلون من جماعة لجماعة، يربتون على أكتافهم و ينبسون بكلمة تسليهم، أو يلقون نظرة مع

إيماءة لها مغذى، حتى يصير كل شىء آمناً وجلياً، بقدر المستطاع، والآن عليهم الانتظار.

ينظر الحراس من شرفتهم، فيقول أحدهم للآخر بضحكة عسكرية صرف يبدو أننا فى قرية القرود، لو كان معنا الآن فول سودانى، لألقيناه لهم، وستموت من الضحك عند رؤيتهم يتصارعون عليه. يقصد هذا أن يقول إن الحرس يسافرون، يعرفون حديقة الحيوانات، يمارسون عادة التأمل الكلى والتصنيف السريع، وإن وصفوا بالقرود رجال المعاناة المكدسين فى ميدان مصارعة الثيران بمونتيمور، فمن نكون نحن لنبطل قولهم، خاصة عندما يصوبون بنادقهم ناحيتنا. ربما كان من الأفضل أن يسموا الحراس حرادق على وزن" بنادق"، فلقد شكلت البنادق جزءًا منهم. الواحد منا يتحدث ليقضى وقته، أو لكيلا يتركه يُسرَق، إنها إحدى طرق وضع اليد على الصدر والقول له أو رجاءه لا تمش، لا تتحرك، فلو خطوت خطوة، ستطؤنى، كم أوقعت بك الضرر! . إنها أيضًا تشبه سجودى ووضع يدى على الأرض والقول له توقف، لا تلف، فمازلت أود رؤية الشمس. هنا تكمن القضية، فى هذا اللعب بالكلمات راصين بعضها بجانب بعض، لنرى أيختلف معناها، وهكذا لم ينتبه أحد أن المحضر هبط للميدان ويبحث عن رجل، رجل واحد فى هذه اللحظة، رجل ليس أسد المنجل ولا جاء من بعيد، وهذا الرجل، إن أعطوه كراسة ليكتب ما يعرفه، كما سيفعل فى اليوم التالى رجال جبل لافرى

وإسكورال وسافيرا وبرج جادينيا، سيكتب فى السطر الأول، وفى كل السطور حتى لا يراودنا الشك فى رجل ذى أفكار، ومن أول لآخر صفحة، اسمه فقط، وسيكتب: جيرمانو سانتوس فيديجال .

أمسكوا به. يجره الآن حارسان، يسحبانه من الميدان، وحينما نعود لن نجده، وعند الخروج من باب القطاع رقم ستة يضمون إليه اثنين آخرين، الآن يبدو كل شىء مرتبًا، مثل التدرج من درج لآخر، كما لو كنا نشاهد فيلماً عن حياة المسيح، هذا هو طريق الآلام، هؤلاء هم القادة الرومان بهيئة المحارب الشقى قوى البنيان، يحمل رمحه معشقاً فى قوسه، الطقس قائظ بشكل خانق، شديد القيظ! يسير فى الشارع عدة رجال منفردين ولهذا يقول الأونباشى تباكو، وقد شعر بالخوف من أن يكونوا جوزيه القط وعصابته، امشوا بسرعة، هذا رجل مقبوض عليه. يسرع الرجال الفرادى الخطى بقدر استطاعتهم، يصطدمون بحائط، لا خطر من هؤلاء، بل يبدو أنه قد راق لهم الأمر و النبأ، مازال أمام القافلة مائة متر سيراً حتى يصلوا لأعلى نقطة. نراها أعلى من السور، إنها امرأة تنشر ملاءة على الحبل، من المثير للضحك أن يكون اسم هذه المرأة بيرونيكا(*)، لكن لا، فاسمها ثيسالتينا، وليست سيدة كنيسة. ترى رجلاً يعبر برفقة الحرس، تتابعه بعينيها، لا تعرفه، لكنها تشعر بشىء،

(*) بيرونيكا: اسم امرأة، لكنها أيضًا كلمة يشار بها إلى انتظار المصارع لهجوم الثور ناشرًا القماش الأحمر بيديه أمامه. (المترجم).

تضم وجهها للملاءة كما لو كانت كفناً، وتقول لابنها المشغول باللعب فى الشمس هيا ندخل يا بنى.

يعبر الحرس الطريق الصاعد صوب الحصن وهناك يتسع الطريق من الجزء السفلى ولهذا يبدو كميدان صغير، مازالت أمامهم خطوات كثيرة ليخطوها بينما المكاسب قليلة، إن اعتقدوا أن هذا هو ما يفكر فيه المسجون فقد أخطأوا، فلا نعرف ما هى أفكارهم الآن ولا بعد ذلك، لذا فمن الضرورى أن نشرع نحن فى التفكير . لو بقينا فى هذا الجانب، خلف هذه المرأة التى تسمى ثيسالتينا، وبدأنا، مثلا، اللعب مع هذا الغلام الذى لا يحب الأطفال، ستكون النتيجة أننا سنبقى بدون معرفة ما سيحدث، وهذا بالتحديد ما سنتجنب فعله. على الباب يقف خفيران، والحرس بأكمله فى وضع الاستعداد للحرب، ارفعوا من جديد مجد البرتغال، الحق أنه من هنا نرى جزءًا من منظر طبيعى، "سيدة الزيارات، مجيدة حيثما كانت"، لكننا لا نريد هنا أناشيد وطنية، كما نرى أيضًا بعض البساتين القليلة، ففى هذا المكان الضيق لا يمكن إيجاد بساتين كثيرة. هيا ندخل يا بنى، قالتها ثيسالتينا لابنها. نحن أيضا سندخل، من هنا، من بين الخفيرين، ولن يلمحانا، وهذا هو امتيازنا، نجتاز الطرقة، من هنا لا، فهذه زنزانة، نوع من العنابر المخصصة لمرتكبى الجرائم الكبرى، غداً سيحتجزون هنا رجال جبل لافرى وآخرين من أماكن مختلفة، أمر لا أهمية له، هذا هو الباب، لكن ذلك ليس الممر،

فلنلف من هذا المنعطف، عشر خطوات أخرى، انتبه حتى لا تصطدم بالمنضدة، إنه هنا، لسنا فى حاجة للتقدم أكثر من ذلك، لقد وصلنا، يكفى فتح الباب.

لم نصل فى الوقت المناسب لنحضر المقدمات. لقد تلكأنا فى مشاهدة المنظر الطبيعى و اللعب مع الغلام الذى يعشق اللعب فى الشمس مهما حذراه أبواه، أيضاً وجهنا أسئلة لثيسالتينا، التى لم يشترك زوجها فى هذه المتاعب مصادفة، إنه موظف بالمجلس المحلى ويدعى أوريكى. كل ما نرويه هذا ليس إلا حججاً، مماطلات، طريقة لغض البصر، لكن حان وقت الإبصار، بين أربعة حوائط مدهونة بالجير، فوق بلاطات هذه الأرضية، علينا أن نتفادى الغناء الممزق، كم خطوة عبرت من هنا، وتركت آثارها المستديرة، ولعل أشد ما يجذب الانتباه صف النمل هذا الذى يسير على الأرض فوق حافة فتحات عريضة تشبه الوديان، تعلوه السماء البيضاء وهى السقف، و فى مواجهته الشمس التى هى اللمبة المضاءة، ويتحرك أمامه أبراج شاهقة وهم الرجال، النمل يعرفهم جيداً، فجيلاً وراء جيل شعروا بثقل أقدامهم تهرسهم، كما شعروا بسخونة غيطهم المطرود بنوع من الأمعاء خارج الجسد، وهكذا راح النمل ضحية الاختناق أو الهرس فى كل بقاع الأرض، لكن فى الحالة التى نشاهدها الآن يفترض أنهم فى منأى عن كل ذلك، فالرجال هنا لديهم مشاغل أخرى . يتمتع النمل بجهاز سمعى وتربية موسيقية لا يسمحان له بفهم ما يقوله البشر

ولا ما ينشدونه، لهذا ليس من اليسير عليهم إدراك الاستجواب كاملاً، لكن الاختلافات ليست كثيرة، غداً، داخل نقطة الحراسة، لكن فى مكان آخر أقل انعزالا، سيتم استجواب رجال جبل لافرى وبرج جادانيا وسافيرا و إسكورال، وحينها سنعرف كل شىء، بما فى ذلك الشتائم، يا ابن العاهرة، يا تيس، يا ابن العاهرة، يا خروف، يا ابن العاهرة، يا خول، تلك شتائم تافهة، فالناس لا يشعرون بالإهانة أمام تلك الشتائم، إنها حكاوى مضحكة مثل حكاوى الدادة، سيدة فلانة، سيدة علانة، إنه سب بسيط، وفى ثلاثة أيام يتم الصلح بينهم، لكن فى هذه الحالة لا يحدث ذلك .

فلنمسك بهذه النملة، لا، الأفضل ألا نمسك بها، فربما نقتلها، فلنكتف بالنظر إليها فهى واحدة من كبار النمل كما أنها ترفع رأسها مثل الكلاب، الآن تسير ملتصقة بالحائط مع قافلة من أخواتها، سيكون لديها وقت لتقوم بهذه الرحلة الطويلة ثلاث مرات بين مسكنها ونحن لا نعرف مدى الإثارة و الفضول الذى يغمرها، أم أنها ببساطة رحلة غذائية داخل هذه الغرفة المنعزلة، قبل أن يكتمل حدث الإبادة. الآن وقع فى التو أحد الرجال، بقى فى مستوى النمل، لا ندرى أيراه أم لا، لكن النمل يراه، سيسقط الرجل مرات كثيرة حتى يحفظ النمل ملامح وجهه، لون شعره وعينيه، رسمة أذنيه، خطى حاجبيه السوداوين، رسمة شفتيه بظلهما المتراخى، وعن كل هذا ستدور لاحقًا

محادثاتهم فى مسكنهم ليبصّروا الأجيال القادمة، فمن المفيد للشباب أن يطلعوا على ما يحدث فى العالم . سقط الرجل، بعدها أنهضاه رجلان بشلوتين، يصرخان فيه كل من جانبه، بسؤالين مختلفين، كيف يكون من الممكن الرد عليهما حتى لو أراد؟ وهذه ليست الحالة، لأن الرجل الذى سقط وأنهضوه لن ينطق بكلمة و لو قتلوه. بعض الهمهمات تخرج من فمه، وفى أعماق روحه تكمن الآهات، حتى عندما تتكسر أسنانه ويحتاج لبصق أجزائها، يعود الرجلان لضربه ولديهما الذرائع القوية، فالبصق يلوث ممتلكات الدولة، بالإضافة للضوضاء التى يسببها، فقط البصق يسبب ضوضاء! هذه الحركة الميكانيكية غير الواعية للشفاه! وبعد ذلك يتناثر اللعاب على الأرض، يغلفه الدم، فيفتح شهية النمل الذى يتناقل الخبر من و احدة لواحدة، دعوة مفتوحة على أمطار المَنّى الجديدة، أحمر فريد يتساقط من سماء بيضاء .

سقط الرجل من جديد. إنه نفس الرجل، قالت نملة، نفس رسمة الأذن، و خط الحاجب، وظل الفم، إنه هو بلا أدنى شك، لكن لماذا دائمًا هو الذى يختارونه؟، ربما لأنه لا يعرف الدفاع عن نفسه، لا يعرف الصراع. إنها آراء نملة و تتحدث من منطلق ثقافتها، فهى لا تعرف أن حرب جيرمانو سانتوس فيديجال ليست ضد المعتدين عليه، جارجاجو وجارجاجيو، وإنما ضد جسده الخاص، الآن يموت ألماً مما بين فخذيه، من خصيتيه كما تقول كتب

الفسيولوجيا، من بيضتيه كما تقول اللغة الدارجة التى نتعلمها سريعًا، من هاتين الكرتين الهشتين المليئتين بأثير لا يمكن تقديره والذى من خلاله ننهض فى وقتنا الحرج، أنا أتحدث عن الرجال، فهاتان الكرتان تجعلاننا ننهض فى رحلة بين السماء والأرض، لكن هذه الرحلة لا تجرى الآن، فالخصيتان تعانيان من نكبة وتحاول اليدان سدى حمايتهما، وما تلبث اليدان أن تتخلى عن حمايتهما عندما تأتى ركلة قدم بكعب الحذاء، ركلة وحشية لها دوى، لتهوى فوق الكلية. يصاب النمل بصاعقة عند رؤية ذلك، وسريعًا ما تعبر. النمل لا يستطيع أن يتوقف، فلديه التزامات، مواعيد يجب أن ينفذها، فهو يبذل كثيرًا من الجهد عندما يرفع رأسه كما الكلاب ويبحلق ببصره الضعيف ليتأكد أن الرجل الذى سقط هذه المرة هو نفسه من سقط المرة الفائتة، أم أنهم أدخلوا بعض التعديل على المشهد. النملة الكبيرة تجولت فى المنطقة التى كانت تنقصها على الحائط، مرت من تحت عقب الباب، سيمضى بعض الوقت حتى تعود، وعند عودتها ستجد المشهد قد تغير كلية، إنها مجرد عبارة، نعم هم ثلاثة رجال كما كانوا، لكن الرجلين اللذين لا يسقطان أبدًا يتسليان الآن، لابد أنها لعبة، لا يتراءى لها تفسير آخر، كم هو غريب ألا يلعب هكذا ابن ثيسالتينا، يتسليان بدفع ثالثهما صوب الحائط، يمسكانه من كتفيه ويضربانه فجأة وحينئذ يحدث أمر من اثنين إما السقوط على ظهره وارتطام

رأسه بالأرض وإما السقوط على وجهه بمواجهة الحائط، فيطبع الوجه المهشم على الدهان الجيرى ويترك عليه بعض الدم، هذا الدم الهارب من الفم و الحاجب الأيمن. ولو تركاه هكذا، سينزلق بلا مقاومة، لا أتحدث عن الدم، بل عن الرجل، سينزلق حتى أسفل الجدار، حتى يبقى مكوماً فوق الأرض، بجانب صف النمل، الذى سريعًا ما يغزوه شعور بالرعب عند سقوط هذه الكتلة الضخمة من أعلى، رغم أنها فى النهاية لا تلمسها. وخلال الوقت الذى تركاه فيه، تسلقت نملة فوق ملابسه، أرادت أن تشاهده عن قرب، إنها أكثر النمل حماقة، فهى أول من تلقى حتفها، فالمكان الذى تستريح فيه الآن هو المكان الذى سيتلقى الضربة الأولى، هى لن تشعر بالضربة الثانية، سيشعر بها الرجل، الذى ستقفز معدته من مكانها من شدة الألم، ومن جديد يسقط، تصرخ معدته من عنف الرفسة أو الركلة، ومرة أخرى يوجهان الضرب لأجزائه، إنها كلمة مشهورة لا تأذى الأذن .

خرج أحد الرجلين، ذهب ليستريح بعد جهده المبذول . إنه جارجاجيو، رجل مولود من أم و أب، متزوج و لديه أولاد، تلك معلومات لا طائل منها، لأن الآخر أيضاً، ويسمى جارجاجو، هذا الذى بقى مع السجين، ولد أيضاً من أم وأب، ومتزوج و لديه أولاد، إذاً كيف نميز بينهما إن لم نذكر ملامح كل منهما ؟ يمكن ذلك بالاسم، فأحدهما جارجاجو و الآخر جارجاجيو، و ليست بينهما قرابة وطيدة إلا أنهما

ينتميان لنفس العائلة . يتمشى بالطرقة، يسير غاية فى التعب لدرجة أنه يسدد ضربة للمنضدة و يقول، هذا العمل سيقضى علىّ ، يأتون برجال لا يتكلمون، لكن لا، سأقطعهم إرباً و إلا لن أكون أنا جارجاجيو. يتجرع دورق ماء لا يترك فيه قطرة، إنها حمى متقدة، وحينئذ تقتحمه نوبة عصبية فيدخل للزنزانة من جديد، بعد أن استراح و استرد عافيته، إنه إعصار استوائى، يقفز كما الكلب على جيرمانو سانتوس فيديجال، إنه كلب حراسة ويسمى جارجاجيو، وعندما أشار له جارجاجو ليتوقف، لم يكن ينقص سوى أن يعضه، ربما يعض أيضًا، فبعد ذلك سنرى أنه يستعرض أسنانه، أسنان رجل، أو أسنان كلب، لسنا على يقين، ففى بعض الأحيان يطلع لبعض الرجال أسنان كلاب، كل الناس تعرف ذلك . كم هى مسكينة تلك الكلاب التى يعلمونها أن تعض من يجب عليها احترامه وفى أماكن لا يصح فيها العض، هنا، فى هذا المكان الذى يحقق ذكورتى، أكثر من ذراعى و لحيتى، أو فى مكان آخر هو قلبى، محل بصيرتى، أو فى عقلى، الذى هو عيناى الحقيقيتان . كانوا يقولون لى فى صغرى إن هذه الآلة المضطربة هى محل رجولتى، ورغم أنى لا أؤمن كثيرًا بهذا، إلا أننى أقدرها، وليس عدلا أن تعضها الكلاب .

تسير النملة الكبرى فى رحلتها الخامسة ومازالت اللعبة مستمرة. هذه المرة خرج جارجاجو ليستريح، سار حتى الممر ليمسح تعبه بتدخين

سيجارة، مر بمكتب النقيب مسرور ليخبره كيف تسير العمليات الميدانية، المناورات الكبرى، وقال له النقيب إنهم يجرون مسابقة عامة للمضربين فى المجلس المحلى ، وكل القوات فى وضع الاستعداد، سيصير كل شىء على ما يرام لو أرسلوا لنا بقوات أكثر، رغم أننا نعتمد على قوات أخرى كثيرة موجودة فى ميدان مصارعة الثيران. هل تكلم جيرمانو سانتوس فيديجال؟ سأل النقيب مسرور بتحفظ، لأن هذا السؤال ليس من تخصصه، ومن حق جارجاجو ألا يجيبه إن أراد، لكنه أجابه، إلى الآن لم يتكلم، إنه رجل عنيد، فرَد النقيب حريصًا وودودًا يتحتم علينا استخدام الوسائل الأكثر وحشية. إن مونتيمور لخير مساعد لأنها سقف و حماية، بعد أن أسدى النصيحة و أشعل سيجارة، جاءته إجابة جارجاجو بضيق صدر نعرف جيدًا ما نفعل وخرج وأغلق الباب بصخب، يا له من لجوج، وربما من أجل هذا، وبسبب هذه المضايقة، دخل الزنزانة التى يسير فيها النمل وأخرج من الدرج سوطاً مسنوناً بالفولاذ، وهو سلاح قاتل، وارتدى السير على رسغه زيادة فى الأمان، وعندما حاول هذا الرجل المعذب ، المصعوق، تفادى ضربات جارجاجيو، وقع سوط جارجاجو المدوى فوق كتفيه، وانتقل، سنتيمترا سنتيمترا، أسفل ظهره، كما لو كان يهرس شيلماً أخضر، حتى وصل لكليتيه، وطال هنا الضرب، مثل أعمى بعينين مفتوحتين، وليس هناك أعمى أسوأ من أعمى يرى، وكان يعزف الضرب بإيقاع

فوق الرجل الساقط الآن على الأرض، يعزفه بنظام، حتى لا يضجر نفسه بشكل زائد، فكل شىء يُدفع إلا الضجر، لكن رويدًا رويدًا يفقد السيطرة على نفسه ويتحول كلية إلى آلة مجنونة لضرب فريسة، لإنسان آلى مخمور، أراد جارجاجيو أن يمنعه ماسكًا إياه من ذراعه انتظر، يا رجل، لا تبالغ، بهذا ستسحقه. النمل يعرف عن خبرة معنى هذه الكلمة، فقد اعتاد على رؤية موتاه وعمل التشخيص من النظرة الأولى، فأحياناً يسيرون فى صف ساحبين طرف سنبلة فيصطدمون بشىء صلب، محدّب، لا يمكن فك شفرته، فلا يرتجفون، يحركون قرون الاستشعار يمنة و يسرة، ويقولون، مع أنهم يحملون ثقلا إلا أنهم يتكلمون بوضوح، هنا توجد نملة ميتة، وبعدها ينظرون فى اتجاه آخر وعندما يعود أحد لذلك المكان يجدون الجثة قد اختفت، هكذا النمل، لا يتركون موتاهم تحت رؤية أحد كتنفيذ لواجب، بقى أن نقول إن النملة الكبرى، فى رحلتها السابعة، تعبر الآن، ترفع رأسها وترى ضباباً كثيفاً أمام عينيها، لكنها تبذل أقصى ما فى وسعها، تدقق النظر و تفكر يا له من رجل شاحب، لا يبدو أنه هو، فقد صار وجهه منتفخاً، شفتاه ممزقتين، أما عيناه، آه على عينيه، لا يمكن رؤيتهما من بين القرح، صارت مختلفتين عن العينين اللتين جاءتا سليمتين، لكننى أعرف هذا الرجل من رائحته، فحاسة الشم عند النمل تعد أفضل حواسه. كانت النملة مستغرقة فى هذا التفكير عندما فجأة هرب

الوجه من أمامها فالرجلان الآخران سحبا الرجل المرمى ووضعاه على ظهره، سكبا الماء على وجهه، كان دورقاً مليئاً لحسن الحظ بالماء البارد، المستخرج بالطلمبة من أعماق بئر سوداء، لم يعرف هذا الماء من أجل من كان محفوظاً، كامنا فى أحشاء الأرض، مسافرًا فى رحلة تحت الأرض خلال زمن طويل، بعد أن عرف أماكن كثيرة، درجات البئر الحجرية، خشونة الرملة المضيئة، ليونة الطمى الفاترة، هدوء المستنقع العفن، ونار الشمس التى بتؤدة محته من وجه الأرض، فذهب حيث لم يره أحد، وأخيراً تحول لهذا السحاب الذى يعبر فوقنا، كم وقت استغرق؟ وفجأة يتساقط على رءوسنا، مطرودا من علاه، فتصير الأرض التى تتلقاه جميلة، ولو يستطيع الماء اختيار المكان الذى يتساقط فيه، ما وجدنا جفافًا فى مكان وفيضاناً فى مكان آخر، فجأة سقط على الأرض، مضى مسافراً، يصفق، ماء نقى، شديد النقاء، حتى وجد عِرقاً يسير فيه، تدفقاً سرياً، مجرى مثقوباً بمضخة ماصّة، بئراً صافية و غامقة، وفجأة عثر على دورق، والآن ينسكب بقطراته اللامعة، ما مصيره؟ أيروى عطشاً أم لا؟ يسكبانه من أعلى فوق وجه، سقوط خشن لكنه يلطف سريعًا بسيولته البطيئة شفتى هذا الوجه، عينيه، أنفه و ذقنه، خديه الممصوصين، ويعبر أيضًا فوق جبهته المبلولة بماء آخر هو العرق، وبهذا يتم التعرف على الملامح الحية لهذا الرجل . يسقط الماء على الأرض، يطرطش على المنطقة المحيطة، تبقى البلاطات

حمراء، لا داعى لأن أروى أن النمل مات مخنوقًا، لم تنج سوى النملة الكبرى التى مضت فى رحلتها الثامنة بلا كلل .

جارجاجو وجارجاجيو يرفعان جيرمانو فيديجال من إبطيه، ينهض بسهولة، لم يرد أن يضايقهما، يجلسانه على كرسى، مازال جارجاجو يمسك السوط بيده، والسير برسغه، لقد راق له أن يضربه بهذا الشكل، لكنه الآن يصيح أيها التيس ويبصق فى وجه الرجل المهدود فوق الكرسى والذى يشبه جاكتة مخلوعة لا يرتديها أحد. يفتح جيرمانو عينيه، وبرغم أن ذلك لا يُصدق، إلا أنه يرى صف النمل، ربما لكثافته فى المكان رأته العين بمجرد فتحها، بالصدفة، لا غرابة فى ذلك، فالدم البشرى غذاء للنمل، والنمل بعد أن فكّر جيداً عرف أنه لا يعيش على شىء آخر، هنا سقطت ثلاث قطرات دم، أيها الأب أجاميديس، وثلاث قطرات دم تشكل بركة، بحيرة، محيط. فتح عينيه، إن اعتبرنا هذا فتحاً، شقاً ضيقاً منه يعبر الضوء بالكاد، لكن الضوء الداخل زائد عن اللازم، وألم الجفون حى يشعر به فقط لأنه ألم جديد، نصل سكين يُغرَز فى مكان غُرِز فيه من قبل مئات الطعنات وفى اللحم يتقلب، وعندما يتحرك يهمهم بكلمات يميل أمامها جارجاجو وجارجاجيو بجزع، يشعران بالندم على ما أفرطا فيه من تعذيبه، ليس بوسع المسكين تحريك لسانه وفتح شفتيه، لكن جيرمانو سانتوس فيديجال، هذا الرجل المسكين الخاضع للآن

لاحتياجاته الجسدية، يريد أن يمضى للداخل ليفرغ مثانته التى يعلم الله لماذا أعطت الآن إشارة الطوارئ، أم أنه سيتناثر هناك . لايريد جارجاجو ولا جارجاجيو توسيخ الأرض أكثر مما يُرى، وأيضاً على أمل أن تكون قد تحطمت مقاومة العنيد أخيراً وعلى اعتبار أن هذا الطلب أول إيماءة منه، يذهب أحدهما للباب ليرى إن كانت الطِرقة خالية، يقوم بإشارة و يعود للداخل، يحيطان بجيرمانو سانتوس فيديجال فى مسافة الخمسة أمتار التى تفصل الزنزانة عن المرحاض، يضعانه على المبولة، وعلى المسكين أن يفك أزراره بأصابعه المتثاقلة، وأن يبحث ويُخرِج من لباسه العضو المعذّب، وألا يتجرأ على لمس خصيتيه الوارمتين، و الصفن الممزق، بعد ذلك عليه أن يركّز، أن يستدعى كل عضلاته لمساعدته، أن يطلب منها أن تتقلص أولاً ثم تسترخى مرة واحدة حتى ترتخى العضلات العاصرة، وليهدأ الضغط الفظيع، يحاول مرة، اثنتين، ثلاثة، وفجأة يخرج الدم مندفعاً، وربما البول أيضاً، مَنْ يستطيع أن يميز البول بين هذه الدَفعة الدموية؟ طلقة الدم توحى كما لو أن كل عروق الجسد تقطعت ووجدت أمامها مخرجاً فى هذا الجانب. يحتبس، لكن الدفعة لا تتوقف. إنها الحياة وتهرب منه فى هذا المكان. لاتزال تخرج عندما فى النهاية يحبسها، ويستطيع احتواءها، ويبقى بلا قوة ليزرر بنطاله. يسحبه جارجاجو وجارجاجيو، وهو يجر رجليه، صوب غرفة النمل، ويجلسانه فوق الكرسى من

جديد، ويسأله جارجاجيو، بصوت ملىء بالأمل، أتريد أن تتكلم الآن؟ إنها فكرة راودته، فشىء مقابل شىء، لقد تركاه يذهب للمرحاض وبالتالى عليه أن يتكلم، إلا أن ذراعى جيرمانو سانتوس فيديجال تسقطان، ورأسه يقع على صدره، وينطفئ الضوء داخل عقله . بينما النملة الكبرى تختفى تحت الباب بعد أن قامت برحلتها العاشرة .

عندما ستعود النملة من مسكنها، سترى الزنزانة مكتظة بالرجال. ستجد جارجاجو وجارجاجيو والنقيب مسرور والشاويش أرمامينتو والأونباشى تباكو وعسكريين مجهولين وثلاثة مساجين تم اختيارهم بالمقاس ليكونوا شهوداً . عندما أعطى رجال الشرطة ظهرهم له لمدة دقيقة واحدة، فقط دقيقة واحدة لإنهاء أمر طارئ، عادوا ليروا السجين مشنوقاً بسلك، كما هو الحال الآن، طرف السلك ملفوف فى هذا المسمار، والطرف الآخر ملفوف لفتين حول رقبة جيرمانو سانتوس فيديجال، نعم، فاسمه جيرمانو سانتوس فيديجال، فللاسم أهمية قصوى لاستخراج شهادة الوفاة، حيث يجب استدعاء مندوب الصحة، والمتوفى يجلس راكعاً، كما ترون، نعم، راكعاً، لا غرابة فى ذلك، فعندما يريد أحد شنق نفسه، يفعل ذلك حتى فى عارضة سريره، فالقضية تكمن فى الرغبة، ألدى أحد أى شك ؟ أنا لا شك لدىّ . يقول النقيب، كذلك الشاويش و الأونباشى و العسكريان، كذلك الثلاثة مساجين، الذين تبسم لهم الحظ وربما

يُطلق سراحهم اليوم. يشعر النمل بحنق عظيم، لقد كانوا شهودًا على كل شىء، بعضهم حضر بعض المشاهد والبعض الآخر حضر مشاهد أخرى، لكن أثناء ذلك كانوا يجتمعون ويجمعون ما يرونه، لذا فلديهم الحقيقة كاملة، بما فيهم النملة الكبيرة، التى كانت آخر من رأت وجهه، عن قرب شديد، بشكل هائل، يشبه منظراً طبيعياً ضخماً، ومن المعروف جيداً أن المناظر الطبيعية تموت لأنهم يقتلونها، لا لأنها تنتحر .

لقد ذهبا بالجثة بالفعل. والآن يدارى كل من جارجاجو وجارجاجيو عدة الشغل، السوط، المقرعة، ويفركان العُقد، ويفحصان مقدمة الحذاء وكعبه، فربما علق به خيط من ملابسه أو بقعة دم توشى، أمام عينى المخبر شارلوك هولمز الحادثين، ضعف قولهما بعدم وجودهما أثناء الجريمة أو عدم التوافق الزمنى، لكن لا خطر، فهولمز قد مات ودُفن، وشبع موتاً مثل جيرمانو سانتوس فيد يجال، وشبع دفناً مثلما سيشبع هذا بدون تأخير، وفوق هذه الأحداث ستمر السنون وسيعبر الصمت حتى يأتى الوقت الذى فيه يتكلم النمل ويقول الحقيقة، كل الحقيقة، ولا شىء سوى الحقيقة . أثناء ذلك، إن أسرعنا، سنرى الآن الدكتور رومانو، ها هو يتقدم، مطرقاً، بحقيبته السوداء فى يده اليسرى، لهذا يمكننا أن نطلب منه أن يرفع يمناه، ـ أقسم أن تقول الحقيقة، كل الحقيقة ولا شىء سوى الحقيقة ـ، مع الدكاترة يجب أن نكون

هكذا، فهم معتادون على فعل الأشياء بكل رفعة. - قُل لى يا دكتور رومانو، أيها الطبيب المبعوث من قبل الصحة، أقسم بذكرى هيبوقراط ومجهوداته فى الشكل و المضمون، قل لى، يا دكتور رومانو، بحق هذه الشمس التى نقف تحتها وتضىء لنا، هل مات حقًا هذا الرجل مشنوقاً؟ يرفع يده اليمنى الدكتور مبعوث الصحة، يحيطنا بنظرة من عينيه الناصعتين، إنه رجل تحترمه المدينة بأسرها، يرتاد الكنيسة و يدقق فى معاملاته الاجتماعية، وليظهر لنا روحه النقية يقول. إن عثرنا على سلك ملفوف لفتين حول رقبة رجل، والطرف الآخر معلق بمسمار فوق رأسه، وكان السلك مشدودًا نظرا لثقل الجسد أو جزء منه، فهذه بلا أدنى شك، وبشكل تلقائى، حالة شنق، وبعد أن قال هذا، أنزل يده ومضى لأشغاله. لكن، انتظر، يا دكتور رومانو يا مبعوث الصحة، لا تذهب بهذه السرعة فلم تحن ساعة العشاء بعد، إن كانت لديك شهية بعد ما رأيت، فأنا أحسدك على معدتك، كيف تقول بشنقه ولم تر جسده، لم تر قرحه، آثار ضربه، جروحه، كدماته السوداء، عضوه الذكرى المتورم، دمه ؟ لم أر كل ذلك، أخبرونى أن السجين مات مشنوقاً، إذاً فقد مات مشنوقاً، ليس علىّ أن أرى شيئاً. أنت تكذب، يا دكتور رومانو يا مبعوث الصحة، متى وكيف و لماذا اعتدت على عادة الكذب القبيحة. أنا لست كاذباً، لكننى لا أستطيع أن أبوح بالحقيقة. لماذا ؟ لأننى أخاف. إذاً فلتمض فى سلام، أيها الدكتور الجبان، نم فى سكينة وانكح ضميرك، انكحه جيداً، فهو

يستحق أن تنكحه جيداً، كما تستحق أنت أن تنكح نفسك. سلام، سيدى المؤلف .. سلام سيدى الدكتور، واقبل النصيحة التى سأسديها لك، تجنب النمل، خاصة النمل الذى يرفع رأسه مثل الكلاب، فهذه الحشرات قوية الملاحظة، لدرجة لا يمكنك أن تتخيلها، أيها الدكتور الجبان، واعلم أنك تحت نظر كل النمل فى كل مساكنه، لا تخف فهم لن يؤذوك، هم موجودون فقط ليعرّفوك أن ضميرك يخونك، ويمدوا لك طوق النجاة.

هذا الشارع الذى نحن فيه يسمى شارع العريش، لا أحد يعرف سبب الاسم، ربما فى أزمنة ماضية كانت تظللـه عُرُش عنب معروفة، وربما لعدم وجود اسم قديس أو سياسى أو فاعل خير أو شهيد ليضعوه على الناصية، بقى اسم العريش إلى أجل غير معلوم. ماذا سنفعل الآن إن كان رجال جبل لافرى وإسكوريال وسافيرا وبرج جادانيا لن يصلوا حتى الغد، وإن كان ميدان الثيران مغلقًا ولا أحد يدخل، ماذا سنفعل، فلنذهب إذاً إلى المقابر، من يدرى فربما وصل جيرمانو سانتوس فيديجال، فالأموات، عندما يرحلون، يسيرون بسرعة، والمسافة ليست ببعيدة، نسير فى هذا الشارع على طول، فالطقس يتحسن، بعدها نكسر على اليمين، كما لو كنا فى الطريق لايفورا، طريق سهل، بعدها نكسر على اليسار، لا أحد يتوه، ها نحن نرى الأسوار البيضاء والسرْو، كما فى كل المناطق . هنا معرض الجثث، لكنه مغلق، إنهم

يغلقون كل شىء، ويأخذون معهم المفتاح، لا نستطيع الدخول. نهارك سعيد يا سيد أوريكى، أمازلت تعمل؟ نعم، ماذا سنفعل، فالناس لا تموت كل يوم لكن كل يوم علينا أن نعتنى بالأسرّة، نكنس الشوارع، نهايته. لقد شاهدت فى الشرفة زوجتك ثيسالتينا، وابنك الحقيقة أنه ولد جميل. حقاً كم هى رائعة هذه الكلمة يا سيد أوريكى. إنها حقيقة قل لى إذاً الحقيقة، هل الجسد الموضوع فى معرض الجثث مات من سوء المعاملة أم أن سيدك القديم قرر أن يشنقه. إنها حقيقة أن ابنى ولد جميل جداً، مع أنه يعشق اللعب فى الشمس دوماً، وإنها حقيقة أن الجسد الموجود بالداخل تم شنقه، وإنها حقيقة أيضاً أن الحالة التى وجد عليها بالقوة التى يفتقدها لا تسمح له أن يشنق نفسه، كما أنها حقيقة أن أعضاء جسده كانت ممزقة، حقيقة أخرى أنه عبارة عن كتلة من الدم، وحقيقة ثالثة أنه بعد موته لم تختف جراحه ولا كدماته و لا ورم خصيتيه، والحقيقة الأخيرة أننى لو تلقيت نصف ما تلقاه من العذاب لكنت فى تعداد الأموات، مع أننى معتاد على الموت، شكراً يا سيد أوريكى، لقد حان وقت إغلاق الباب، بلّغ سلامى لثيسالتينا ووصل قبلتى للابن الذى يعشق اللعب فى الشمس .

هذه الكلمات تُقال على سبيل الوداع، ومن هذا المكان لأسفل يُرى الحصن، مَنْ يمكنه حصر قصصه! تلك القصص الماضية والآتية، سيكون خطأ كبيرًا أن نحكم ماذا تفعل الحروب اليوم فى الجانب الآخر

خارج الحصون، لقد انتهت العمليات التى اشتركوا فيها، حتى الصغيرة، حتى الأقل مجداً، كما كان يقول ماركيز ماريالفا لقد لفتُ نظر سعادتكم إلى أن مانويل رويز أديبى، حاكم مونتيمور، ليس مؤهلاً لحكم هذا الميدان، لأنه، فضلا عن قصوره فى كل شىء، يعفى الأجراء من المجىء للعمل فى الحصن بسبب القليل الذى يدفعونه لهم، ولهذا تأخر العمل كما يمكن أن نرى، وبالتالى أرجو سعادتكم أن تسمحوا لى بتقديم تقرير بأسماء الأشخاص الصالحين لهذا المنصب، وأرى أن جنرال المدفعية، مانويل دا راتشا بيريرا، تجتمع فيه كل الشروط الكافية، من نشاط وحمية، واستعداد تام لشغل هذا المنصب، فلتقوموا سعادتكم بالإرسال له لمزاولة مهام منصبه، بصفته رئيساً للميدان العام، أما مانويل رويز أديبى فيمكنه أن يتمتع بمرتبه بلا عمل كما يتمتع به رواد الفروسية الآخرون الذين قمتم سعادتكم بإصلاحهم، فلا ينقصهم المزايا ولا يحملون على عاتقهم التزامات ثقيلة تعوقهم عن الراحة، حتى و لو نقصت رواتبهم. إن هذا الشيطان المدعو أديبى، الذى لم يكن يعتنى بخدمة سعادته ويعتنى بكل اهتمام بخدمته هو الشخصية، ذهب مع الأزمنة الغابرة، والآن نجد موظفين غيورين يقتلان داخل نقطة الحرس فى مونتيمور ويخرجان بعدها ليدخنا سيجارة، ويحييا بالإشارة، إلى اللقاء غداً، هذا الحارس الذى يراقب بجسارة الحد الأفقى كيلا يطل الإسبان من هناك، وبعد ذلك يهبطان للشارع بنفس

مطمئنة و يتحدثان، بخطى ثابتة، و يتذكران عمل يومهما، كم لكمة سددا، كم ركلة، كم ضربة سوط، فيشعران بالرضا عما فعلا، هذان لا يسمى أحدهما أديبى، وإنما يسمى جارجاجو وجارجاجيو، يبدوان توءماً، ويتوقفان بعدها أمام دار سينما تعلن عن فيلم الأحد، غداً، بدء الموسم الصيفى مع الكوميديا المثيرة الكسلان الساحر، إنها فكرة رائعة أن نصطحب زوجتينا، فهما يعشقان السينما، مسكينتان، فالفيلم بالتأكيد يستحق المشاهدة، لكن الفيلم الأروع فيلم الخميس، بطولة استيريبيتا كاسترو، معجزة الغناء والرقص، وأنطونيو فيكو، وريكاردو ميرينو ورفائيلا ساتوريس، إنه فيلم "زلزال غندور"، فيلم جميل، هيا.

هرب هؤلاء بين صرعى وجرحى. لن نحصيهم بأسمائهم ، يكفى أن نعرف أن بعضاً منهم ذهب ليعيش فى لشبونة، فى سجون وزنزانات، وأغلبهم عادوا لنهر التاجو، والآن يتقاضون أجرتهم الجديدة بينما يستمر الحصاد. الأب أجاميديس يوبخ المضلين بشكل أبوى، يذكرهم بطريقة غير مباشرة، فهو لا يعرف المباشرة، كم يدينون له والآن هم مضطرون أكثر من أى وقت مضى للوفاء بواجباتهم المسيحية، حيث إن مريم القديسة قادرة على إظهار قوتها وسلطتها بكل جلاء، التى كانت تكمن فى لمس حلقات السلسلة وإذابتها، وفتح الحواجز الحديدية، زغرودة!. يعلن هذه المعجزات داخل كنيسة غير مأهولة، لا تزورها سوى السيدات العجائز، فالآخرون يسيرون يفكرون كم كلفهم العرفان بالجميل ولا يخرجون بنتيجة لحساباتهم . فى جبل لافرى قليلا ما يعرفون عن الاعتقالات، فكل شىء مبهم، حتى يعترض سيجيسموندو كاناسترو معلنًا أنها كثيرة، أما عن الموت الذى وقع فسيبدءون فى معرفته فقط غداً، من

حديث المجموعات مع جار فى الجيش، لكن ضجر الأحياء يبدو أكثر ثقلاً من الاحتضار العضال. أبى فى حالة سيئة، لا أعرف ماذا نفعل له. هذه اهتمامات خاصة، مرتبطة ببيت كل واحد، حتى لا يتحدثوا عن الحصاد الذى أوشك على نهايته وبعد ذلك ماذا نفعل. ربما نفعل ما فعلناه فى الأعوام السابقة، لكن نوربيرتو والبيرتو وداجوبيرتو يعلنون الآن ويردد لعناتهم رؤساء العمل ويقسمون إن مجموعة التابلة هذه ستندم أشد الندم على إضرابها وستدفع ثمنه غالياً. من لشبونة كتب ادالبيرتو يقول إنه بعد انتهاء الحصاد و الدرس، يبقى فقط رعاة الخنازير والغنم، والحرس، فهو لا يريد أن يرى أراضيه يدوسها المضربون و المتطفلون، بعد ذلك سيقول ما تبقى ويتحتم فعله، سيتوقف ذلك على الزيتون. سيجيبه رئيس العمل، لكن هذه مراسلات مستمرة لا تخفى على أحد، يستلم الخطاب، يفعل ما يُقال فيه أو يرد على أسئلته، وأين يضع الخطابات بعد ذلك ؟ من الطريف أن يرتبها ويُحكى من خلالها القصة، فهى طريقة أخرى للسرد، إن أسوأ ما فى الحياة أننا نعتقد أن القضايا الكبيرة هى وحدها القضايا المهمة، فنبدأ فى الحديث عنها وعندما نريد معرفة من الأبطال، من شاهد حدوثها، ماذا قالوا عنها، تعترض طريقنا الصعوبات .

تسمى جراثيندا المنحوس وعمرها سبعة عشر عاماً. ستتزوج مانويل السيف، سيحدث ذلك متأخراً. البنت مازالت صغيرة، لا يمكن أن تتزوج هكذا بهذه

السرعة، وبدون أن أقسم على شىء، فلتتمتعا بالصبر. إنها عراقيل جلية، فضلا عن عدم وجود بيت للزوجية. كما ترى، علينا أن نرحل للعمل فى أراض أخرى . لا تفعلى مثل أخيك، دومًا فى الغربة، أعلم أن وضعك مختلف لأنك فتاة، لكن يكفينى غياب ابن واحد بعيدًا عن عينى، آه يا إلهى من هذا الابن. هذا ما تقوله فاوستينا، أما جوان المنحوس فيوافقها بهزة رأس، فكلما ذكرت سيرة الابن شعر بألم فى قلبه، يا له من ولد شيطان، فى الغربة وهو ابن الثامنة عشرة وبهذه الغريزة الجوالة، مثل جده يرحمه الله. ستروى جراثيندا المنحوس مضمون هذه المحادثات لمانويل السيف، وسيرد هو عليها لا يهمنى أن أنتظر، فأنا أريد أن أتزوجك. يقول ذلك بكل وقار، وتلك عادته فى كل الظروف، وهو أسلوب يجعله يبدو أكبر من سنه. والفرق بينكما ليس صغيرًا، قالت فاوستينا لابنتها عندما جاءت هذه لها وحكت لها أن مانويل السيف طلب يدها، هو إذاً أكبر منك بكثيرا نعم، لكن لا يهم "، هذا ما ردت به جراثيندا، غاضبة ومحقة، لأن هذه لم تكن القضية، إنما القضية أنها معجبة بمانويل منذ هذا اليوم من شهر يونيه الذى التقت به فى مونتيمور، كان يتبقى فقط أن يفكر كل منهما حتماً فى مسألة فرق السن هذه، مع أن مانويل السيف، عندما حدّثها، لم ينس هذا اللطف من جانبها، أنا أكبر منك بسبعة أعوام، فردت عليه، بنصف ابتسامة، لكنها مرتبكة فى تفكيرها، وما

أهمية ذلك، يجب أن يكون الزوج أكبر من زوجته، وما أن انتهت من قولها حتى ضرب وجهها للحمرة؛ لأنها وافقت بدون أن تقول إنها وافقت، وهو الشىء الذى فهمه مانويل السيف بشكل جيد، فجاء سؤاله الثانى أتوافقين إذاً ؟ فأجابته، نعم، وصارا خطيبين من تلك اللحظة وطبّقا أعراف التودد من عتبتها، فقد كان مبكراً وقتها تخطى العتبة، لكن ما لم يطبقا فيه الأعراف هو أمر مفاتحة مانويل أبويها فورًا فى أمر الخطبة، بدلاً من أن ينتظر فترة حتى يتأكد من مشاعره، فلم يحفظ سره. حينئذ قدّم جوان المنحوس وفاوستينا أسباب رفضهما، بلا أى جديد، فليست هناك نقود من أجل الزواج و بالتالى عليهما الانتظار. سأنتظر طيلة الفترة الضرورية، قال مانويل السيف، وخرج من هناك على استعداد للعمل والادخار، رغم أنه يجب أن يساعد فى بيت أبويه، حيث يعيش معهما. إنها تفاصيل صغيرة فى الحياة الصغيرة، تفاصيل لا تتغير، أو تتغير قليلاً فى جيلين ولا تلاحظ الاختلافات، وجراثيندا المنحوس تعرف أيضًا أنها ابتداء من هذه اللحظة عليها أن تجادل و تساوم مع أمها لتأخذ جزءًا من أجرة أبيها لتدخر لجهازها، كما يقول العُرف.

لقد تحدثنا كثيرًا عن الرجال، وعن النساء قليلا، وبما أن الأمر كذلك، ولأنهن ظهرنّ كغمام عابر وأحيانًا كمحاورات ضروريات، مُشكّلات جوقة نسائية، إما معتادات على الصمت لثقل الهموم التى يحملنها

فوق ظهورهن أو داخل أرحامهن، و إما أمهات معذبات لأسباب عديدة، ابن ميت، و آخر جوال، أو بنت جلبت العار، وكلها أمور موجودة، سنتحدث عنهن أكثر، كما سنواصل أيضًا الحديث عن الرجال. لكن حديثنا عن النساء ليس له علاقة بهذه الخطبة والزواج القادم، فكم من خطبة عقدت، خطبة سارة جدة جراثيندا المتوفاة، وخطبة فاوستينا أمها التى تعيش سعيدة، ولقد تحدثنا قليلا فى هذه الأمور، على أن خطبة جراثيندا مختلفة المنطق، وربما لها منطق غير مضبوط، فلقد تغير الزمن . فالغريب فى الأمر يكمن فى أن السيف أعلن مشاعره على باب السجن، أو النقطة ومكان الموت، فكل سيان، وهو أمر يتعارض مع الأعراف واختيار الوقت الملائم للبوح، فهى ساعة حزن، وإن كان يهبها سرور الحرية الخائفة قول الولد للبنت أتمنى أن تكونى خطيبتى، إن هذا الجيل لا يشبه جيلى فى شىء .

جراثيندا أكبر بعامين من أختها إيميليا، إلا أن فوران جسد الأخت الصغيرة قبل أوانه أزال الفارق السنى بينهما أمام عينى من لا يعرف الحقيقة مسبقًا. لا تشبه إحداهما الأخرى، ربما لمجيئهما من دماء مختلطة واستعداد كل منهما للظهور مختلفة. يخطر ببالنا هذا الجد الذى جاء من الشمال البارد واغتصب فتاة عند الينبوع، بدون أن يلقى عقاباً من سيده لامبيرتو هوركيس المنهمك فى غاراته وأسلاف آخرين. لكن، و حتى يرسخ داخل نفوسنا تواضع

الدنيا وصغرها، هاهو أمامنا مانويل السيف يطلب يد جراثيندا المنحوس على حافة نفس هذا الينبوع، وبجانب تُبَن السرخس التى لم تُحرَق ولم تسقط هذه المرة كما حدث فى ذلك الحين عندما استسلم جسد الصبية المغتصبة، ووقع مهزومًا. لو استطعنا أن نربط الخيوط المفكوكة، ستكون الدنيا أكثر الأشياء المبررة والقوية. لو استطاع الينبوع أن يتحدث! إنها مجرد هلاوس، مع أن حديثه واجب ومنصف، ففى أعماق مياه هذا الينبوع الشادى، المحفور منذ خمسمائة عام، أو أكثر بكثير لو كان من أعمال المسلمين، لو استطاع أن يتكلم سيقول بالتأكيد، هذه الصبية كانت هنا "، ملتبسًا عليه الأمر لكنه معذور، فمع مرور الوقت تضطرب ذاكرة الينابيع، هذا بدون أن نتحدث عن الاختلاف الكبير بين السيد الأول و مانويل السيف، الذى يلمس بالكاد يد جراثيندا المنحوس أتقبلين؟ ويعاودان الصعود تاركين السرخس لمناسبة أخرى .

هؤلاء الصبية يعرفون الكثير و تتنوع معارفهم. بين أنطونيو المنحوس، الابن الأكبر، وأميليا المنحوس، البنت الصغرى، أربع سنوات فقط . لقد مر عليهم زمن كانوا فيه مجرد ثلاث قطع لحم حمراء تعانى من سوء التغذية والبرد، ومازالوا يعانون من الأمرين لليوم، فى مراهقتهم، رغم أن العبارة السابقة عبارة رقيقة لا تتناسب مع هذه المناظر الطبيعية وتلك الوسايا. حملهم أبوهم و أمهم على كاهلهما، وضعاهم فى

سلال فوق رأسيهما عندما كانوا فى المهد صغارًا، فلا تحملهم سيقانهم أو تكل سريعًا من المشى، حملهم أبوهم فوق كتفه، وأمهم حملتهم بين ذراعيها أو فى حجرها، وواصلوا أسفارهم التى، مقارنة بأعمارهم، فاقت أسفار اليهودى المذنب الذى شُتِت فى الأرض. دخلوا فى حروب عظيمة ضد الناموس فى أراضى الأرز، بينما كان المساكين الأبرياء لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، فلا مهارة لديهم لهش الكتائب التى تغزو وجوههم وتزن حولها برغبة فى مص دمائهم والاستمتاع بها . إلا أن أصحاب المقاومة الباسلة خرجوا دوماً منتصرين فى كل حروبهم، ذلك لأن حياة الناموس قصيرة وعُمر الأطفال أطول، هؤلاء الأطفال الذين نتحدث عنهم، لا عن الآخرين الذين أهلكتهم حمى الثلث . على أن انتصارهم لم يلازمهم دائمًا، لكنه حدث أحيانًا .

شاهدوا الآن هؤلاء الصغار، ركزوا فى هذه الصغيرة، أو فى أى منهم، سواء الولد الأكبر، أو البنت الوسطى ، أو البنت الصغرى، إنها تفرد بدنها فى صندوق تحت ظل شجرة سنديان بينما تعمل أمها بالقرب من هنا، لكنها ليست قريبة بحيث تراها بكل وضوح، ولأننا نعرف أنها صغيرة، حتى أنها لا تعرف الكلام، نعلم أن هناك مغصاً فى البطن يواتيها، أو ربما يكون انقباض البطن للتبرز، الحمد لله إنها ليست دوسنتاريا هذه المرة، وعندما تذهب فاوستينا لتبحث عنها تكون ساعة الطعام قد حانت وتكون

جراثيندا قد تبرزت على نفسها، ويغطيها الذباب مثل مزبلة، معذرة، هى حقًا مزبلة . وبينما تغسل و تتوقف عن الغسل، ليس فقط الجسد الوسخ حتى الظهر، وإنما أيضًا الثياب الذى ترتديه، وتنتظر حتى يجف بعد أن نشرته فوق قطع الحطب، يمر الوقت ويأخذ معه الشهية للطعام . وفى هذه اللحظة لا نعرف من علينا أن نراقبه، جراثيندا التى صارت نظيفة ومنتعشة، لكنها وحيدة المسكينة، أم فاوستينا التى تعود لعملها وهى تقضم كسرة خبز ناشف. فلنبق هنا، تحت السنديانة، لنهوّى بغصن على وجه الصغيرة التى تريد النعاس، فالذباب عاد من جديد، كما أن بوجودنا نجنب أبويها الهم، أليس من الممكن أن يعبر من هنا موكب الملوك و الفرسان، و تشاهد مربية الملكة العقيم هذا الملاك النائم فتحمله إلى القصر، ما أقبح ألا تعرف حينئذ الطفلة اللقيطة أبويها الحقيقيين، فقط لأنها ترتدى ثيابًا من سندس و إستبرق و تعزف على العود فى غرفتها العالية المطلة على الوسية. الحواديت الشبيهة بهذه الحدوتة سترويها سارة بعد ذلك إلى أحفادها، وقد لا تصدق جراثيندا إن قلنا لها عن الخطر الذى كان سيقع لو لم نكن موجودين وجالسين فوق هذا الحجر نهوى لها بهذا الغصن .

لو كان بيد الأطفال لكبروا. وحتى يصلوا لسن العمل يبقون فى رعاية الأجداد، أو مع الأمهات إن لم يعملن، أو مع الأمهات والآباء إن لم يكن الآباء يعملون، وإن وجدنا عائلة يعمل بعضها ولا يعمل البعض الآخر،

سواء كانوا آباء، أمهات، أبناء أو أجدادًا، هنا، سيداتى وسادتى، يظهر معدن الأسرة البرتغالية كما يروق لكم أن تتخيلوها، مجتمعة فى نفس الجوع، وحينئذ يتوقف كل شىء على الموسم. فلو كان موسم سقوط البلوط، ذهب الأب ليقطف البلوط، قبل أن يأمر نوربيرتو وادالبيرتو أو سيجيسبيرتو الحراس بالتجول ليلا، فالتجول ليلا من خصائص الجمهورية التى فرضتها فورًا عقب ميلادها من أجل حماية الوسايا من الجائعين . تلك حواديت طويلة ومتشعبة. لكن الطبيعة كريمة، لها ثدى غزير يصب فى كل حاجز، هيا بنا إلى الصبار السكرى، إلى كشك الألماس، إلى نبات الأرض، وقولوا لنا بعد ذلك إن كانت توجد حياة منظمة أكثر من هذه . ومن يقول كشك الألماس يقول سبانخ، فكلها واحد فى هذه الحالة، وإن اختلف المذاق فى الفم، فعند طبخه ونضجه و أكله ببصلة خضراء، يسيل لعابى . هاهو الصبار السكرى. نظف لى هذه الصبّارة، ألقى عليها عشر حبات أرز، إنها وليمة، بالهناء والشفاء، يا سيدى القس أجاميديس، فمن يأكل اللحم يستطيع أن يقضم العظم. كلنا مسيحيون، حتى غير المسيحيين يستحقون الأكل ثلاث مرات يوميًا، فطور، غداء، عشاء، حتى ولو أطلقوا عليها أسماء أخرى، فأهم شىء ألا يُترك الطبق فارغاً، أو الطاسة، فما دام هناك خبز و طبخ فالأكل يقدم فى الطاسة أكثر لأنها تعطى رائحة فواحة. إنها قاعدة من ذهب مثل غيرها من القواعد ذات النبل الخاص، حق

بشرى، يتساوى فيه الآباء والأبناء، وذلك حتى لا آكل أنا مرة واحدة وهم يأكلون ثلاث، مع أن الحقيقة تقول إن اختراع ثلاث وجبات كان يقصد خداع الجوع أكثر منه ملء البطن . الناس تتكلم وتتكلم، لكنهم لا يعرفون ما معنى الحرمان، فلينظروا فى المشنّة ليعرفوا أن آخر قضمة خبز أكلناها بالأمس، حتى لو رفعوا الغطاء مرة أخرى، ماذا سيحدث، أتقع معجزة مثل معجزة الورد، حتى حدوث هذه المعجزة درب من المستحيل، فلا أنا و لا أنت نتذكر أننا وضعنا وروداً فى المشنّة لنحصدها، لا تصدقوا أن الورود تزدهر فى أشجار البلوط، لو حدث ذلك سيكون رائعا، لكن هذا هذيان ناتج عن الجوع، اليوم يوم الأربعاء، هيا يا جراثيندا، اذهبى إلى بيت الأشراف، اذهبى مع أختك إميليا، اصطحبيها من يدها، فلن يذهب أنطونيو هذه المرة .إنه تحريض على التسول، هذه هى التربية التى يربيها الآباء لأبنائهم، يجب أن أعقدوا لسانى قبل أن أتفوه بهذا الكلام، يجب أن أسقط على الأرض وأتقلب مثل ذيل السحلية، هكذا ربما أتعلم الحديث بلباقة وألا أتحدث عن البطن الممتلئة، فهذا حديث قليل الأدب.

الأربعاء والسبت، هما اليومان اللذان ينزل فيهما الرب لهذه الأرض ويتجلى فى لحم الخنزير والفاصوليا. لو كان القس أجاميديس هنا، لصرخ بهرطقتنا، وللجأ لمحكمة التفتيش المقدسة ضدنا لأننا نقول إن الرب يتجلى فى الفاصوليا ولحم الخنزير،

فشر القس أجاميديس يكمن فى ضيق خياله، لقد تعود أن يرى الرب فى هالة مثل الدقيق الأبيض الناصع و لم يستطع أبدًا أن يتخيله بطريقة أخرى، يتخيل الإله الأب بلحية كثة وعين سوداء، ويتخيل الإله الابن بلحية صغيرة و عين عسلية، وبهذا الاختلاف فى الألوان وصم التاريخ المقدس صورة الإله. تعرف السيدة رحمة كثيراً عن هذه التجليات الإلهية، فهى زوجة وصندوق فضائل منذ لامبيرتو حتى آخر بيرتو، ففى يومى الأربعاء والسبت تقود طقس الصدقة، ترشد و تراقب سُمك شريحة الخنزير، التى يتم اختيارها بين ألياف اللحم، وآه لو كانت دهناً نقياً، فهو يغذى أكثر، ويتحقق العدل الصافى مع المسطرة التى يسوى بها سطح الكيل المستخدم لوزن الفاصوليا، كل ذلك عمل طيب يبغى تفادى حروب الحسد الطفولى، أنت أخذت أكثر منى، وأنا أخذت أقل منك. إنه طقس جميل، تخضع فيه القلوب أمام الشفقة المقدسة، فلا تبقى عين ضامرة، ولا أنف، خاصة فى الخارج، فنحن الآن فى الشتاء، و أطفال جبل لافرى الذين جاءوا طلباً للصدقة يستندون الآن على حوائط التراب المدكوك، انظروا كيف يعانون؟ كيف يسيرون حفاة الأقدام؟ كيف يقتحمهم الألم؟ انظروا كيف ترفع الصبايا قدمًا وراء قدم بالتبادل من شدة برودة الأرض المثلجة، لو كان لهن أجنحة لرفعن أرجلهن فى الهواء، تلك الأجنحة التى يقولون إنهن يمتلكنها عند مماتهن لو مُتنّ صغيرات، وانظروا كيف ينزلن ثوبهن

لأسفل، لا لأن أحداً قد خدش حياءهن، فالغلمان لم يصلوا بعد لسن البلوغ، وإنما يحاولن تدفئة أقدامهن. يقف صف فى الانتظار، كل واحد بعلبته فى يده، رافعاً وجهه لأعلى، يصفّر، حتى تُفتح أخيرًا نافذة الطابق العلوى و ينزل سَبَت من السماء مربوطاً بحبل رقيق، ينزل بكل بطء، فكرم الأخلاق لا يعرف الاستعجال أبداً، هذا هو ما ينقص، فالعجلة أمر سوقى وجشع، أما الغلمان فلا يلتهمون الفاصوليا، فقط لأنها مازالت نيئة. يضع أول صبى فى الصف علبته فى السَبَت، يأتى الآن الصعود الكبير، هيا ولا تتأخر، فالبرد يمر بطول حائط التراب كما يمر موسى الحلاقة على البشرة، سنرى من يستطيع أن يتحمل ذلك، سيحتمله الجميع بغية ما ينتظرونه، وتظهر الآن رأس الخادمة، وينزل السَبَت الآن بالعلبة ممتلئة أو لنصفها، حتى يعلّموا المحنكين والمستجدين أن حجم العلبة لا يؤثر على العطية التى تهبها محسنة هذا الدار الخيرى . قد يُعتقد أن من شاهد هذا شاهد كل شىء، هذا ليس صحيحاً، فلا أحد يبتعد عن هنا حتى يتلقى آخر واحد مكياله و يحتجب السَبَت حتى يوم السَبْت القادم. يجب أن ينتظروا حتى تطل السيدة رحمة من النافذة، شبه مختبئة وراء عطاياها، فتلقى عليهم تحية الوداع والبركة، بينما الكورال الطفولى المنتعش والحبّوب يشكرها بلهجات مختلفة، باستثناء المنافقين، الذين يكتفون بتحريك شفاههم فقط، آه يا سيدى القس اجاميديس، ياللسعادة التى تشعر بها روحى،

وإذا أقسم أحد إن ما تقوله السيدة رحمة نفاقاً، **فهو** مخطئ، فهى حقاً تشعر أن روحها تختلف فى يومى الأربعاء والسبت عن بقية أيام الأسبوع . وعلينا الآن أن نعترف و نثنى على التعذيب المسيحى الذى لاقته السيدة رحمة، التى كان فى متناول يدها، بالوقت والثروة، أن تنال الراحة المستمرة والآمنة لروحها الخالدة لو أنها وهبت الفاصوليا واللحم للفقراء طوال أيام الأسبوع، لكنها رفضت، وهذا هو خطؤها. فضلاً عن ذلك، يا سيدة رحمة، هؤلاء الصبية لا يحتملون قسوة الحياة، فكيف سيكبرون ويعملون فى وسيتك إن لم ينالوا متطلبات حياتهم .

عندما كبرت، لم تلتحق جراثيندا المنحوس بالمدرسة. ولا أميليا. ولا أنطونيو. فى أزمنة قديمة جداً، عندما كان أبو الثلاثة طفلاً، فى زمن الملكية، كان دعاة الجمهورية يجوبون الضواحى و يصرخون، أرسلوا أبناءكم للمدرسة، كان هؤلاء الدعاة مثل الحواريين بلحية صغيرة وشارب وقبعة رقيقة يعلنون الخير الجديد، نور التعليم، يدعون لحمل الصليب، لكن حمل الصليب هنا مختلف تمامًا عن حمله قبل ذلك لطرد العرب من القدس ومن قبر الرب، لم تكن دعواهم الجديدة عن عظام غائبة، بل عن حياة حاضرة، هذه الحياة التى فيما بعد قد تسير مع جوال الكتب فى حزام على الكتف، معلق بدوبارة، و داخل الجوال نجد كتاب المبتدئين الذى تقدمه الجمهورية نفسها التى تأمر حراسها بحبس آبائهم عندما طالب

الآباء براتب أكبر . لهذا تعلم جوان المنحوس القراءة والكتابة التى تكفيه ليكتب فى كراسة مونتيمور اسمه خطأ: جوام الممحوص، برغم أنه كان يكتبه أحيانًا، على غير يقين، جوان المنحوس، بشكل صحيح. لقد تطور العالم بقدر المستطاع . لكن فى جبل لافرى لم يتطور بشكل كاف حتى يلتحق الأخوة الثلاثة بالمدرسة، والآن، كيف ستراسل جراثيندا المنحوس خطيبها عندما يرحل بعيدًا، هذا سؤال وجيه، و كيف سيخبر أنطونيو المنحوس أهله بأخبار حياته، فالمسكين لم يتعلم ويسير بشكل مؤقت من جماعة لأخرى. يريد الله ألا يصيبه مكروه، ولن يصيبه، فترد فاوستينا على زوجها، لقد رأيت خير مثال فيك .

يوافقها جوان المنحوس بإيماءة من رأسه، لكنه، داخل قلبه، يرتاب. يؤلمه ألا يكون ابنه بجانبه، أن يلتفت حوله فلا يجد غير النسوة . فاوستينا، التى اختلفت الآن عن سنوات شبابها، سنوات لم تكن حينها جميلة، والبنتان، اللتان مازالت نضارتهما تقاوم العمل فى نزع العشب، الشىء المؤسف أن أسنان أميليا معوجة. جوان المنحوس لا يعرف اليقين فى الأمثلة الحلوة. فخلال حياته الطويلة لم يفعل سوى كسب الخبز، ولم يتحقق هذا الكسب كل يوم، وهو ما ترك فى حلقه غصة، أن يأتى الرجل إلى الدنيا بدون أن يطلب ذلك، فيعانى البرد والجوع فى طفولته بدون حساب، إن وجد حساب من أصله، وعندما يكبر يتضاعف جوعه كعقاب على أن جسده احتمل كل هذا

العذاب، وبعد ذلك يلاقى سوء المعاملة من سادته ورؤسائه، من الحراس والخفراء، ويصل إلى الأربعين، فيقول ما يعتقده، فيسوقونه إلى السجن كما يسوقون القطيع إلى السوق أو المذبح، وفى السجن لا يجد الواحد سوى الذل، حتى الحرية ليست إلا لكمة، فتفوتة خبز مرمية على الأرض، هيا أتأخذها؟ هذا ما نفعله للخبز عندما يقع، نضعه فى اليد، ننفخ فيه برقة كما لو أننا نعيد الروح إليه، بعد ذلك نقبله، لكننى لم آكله بعد، أقسمه إلى أربعة أجزاء، جزءان أكبر من جزءين، خذى يا أميليا، خذى يا جراثيندا، وهذا لك، وهذا لى، ولو سأل أحد لمن النصيب الأكبر، فهو أقل من حيوان، لأن حتى الحيوان سيعرف ذلك .

لا يستطيع الآباء أن يفعلوا كل شىء. الآباء يأتون بالأبناء فى هذه الدنيا، يفعلون من أجلهم القليل الذى يعرفونه، و يبقون فى انتظار أن تسير الأمور على أحسن ما يكون، ويبدو لهم أنهم يقدمون أقصى رعايتهم، أو حتى شىء منها، فالأب عادة يخدع نفسه بأى شىء، على أى حال، من المستحيل أن يكون ابنى رحالاً، وبنتى مهتوكة، ودمى مسموماً . عندما يعبر أنطونيو المنحوس فى فترات على جبل لافرى، ينسى جوان المنحوس أنه أب شاب رأسه فيظل يدور حول ابنه، كما لو كان يريد أن يشبع منه ليعوض غيابه فى أماكن بعيدة مثل كوروتشى، سادو، سامورا، كوريا، انفانتادو أو حتى الضفة الأخرى من التاجو، وتأتى

حكاوى الابن الحقيقية لتؤكد أو تذبذب أسطورة جوزيه القط، نقول أسطورة، رغم أننا يجب أن نضع كل شىء فى مكانه المناسب، جوزيه القط رجل بائس بلا مجد، ترك رجال جبل لافرى لمصيرهم فى السجن، هذه الحكاوى لها قيمة أكبر لأن أنطونيو المنحوس يظهر فيها، إما لأنه شارك فيها أو سمع هناك عنها، وهى معلومات مثيرة للصورة الذهنية لقصة الإجرام الصغيرة و الريفية . ولجوان المنحوس أحيانًا رأى لا يستطيع التعبير عنه فى كلمات بإسهاب، لكن، بشكل موارب، يبدو أنه يتحدث عن الأمثلة الحلوة التى يتناقشون حولها، ربما لم يكن رجال جوزيه القط بكل هذا الشر كما يقولون، مع أنهم يسرقون و يظهرون فى ساعات غير ملائمة. فى يوم ما سيقول أنطونيو المنحوس" لم يكن لى فى حياتى سوى مدرس واحد وشارح واحد، والآن، فى سنى هذه، أعود للبداية لأتعلم كل شىء من جديد. إذا كان من الضرورى البدء فى إيضاح بعض الأشياء، سنقول إن المدرس هو أبوه، و الشارح هو جوزيه القط، وما يتعلمه أنطونيو المنحوس لا يتعلمه وحده .

تتذكر عائلة المنحوس هذه الدروس جيدًا. وعندما تتزوج جراثيندا المنحوس، ستكون قد عرفت القراءة . كان هذا جزءًا من هدية الخطوبة، كتاب ألف باء للمدرس جواو دى ديوس، بخطوط سوداء ومسطرة ولون رمادى، لتمييز المقاطع، لكن ليس من الطبيعى أن تتعلم بسهولة وبدقة، يكفى التلجلج عند القراءة

والوقوف بين الكلمات فى انتظار أن يضاء فى العقل نور الفهم، إنها ليست سجرة يا جراثيندا، إنها شجرة، هيا تعرفى على الفرق فى النطق . يدخل مانويل السيف البيت، لو لم يكن بسبب كتاب القراءة لظل على العتبة وقتًا أطول، فى النهاية، يبدو مخالفًا للعرف أن يبدأ الدرس بينما يمر الناس عليهما، بالإضافة إلى أن الخطوبة بينهما راسخة. مانويل السيف فتى طيب، تقول فاوستينا، أما جوان المنحوس فكان ينظر لمستقبل صهره و كان يراه سائراً من مونتيمور لجبل لافرى، على قدميه، مزدرياً العربات الكارّو والكاريتات، فقط لأنه متمسك برأيه، وحتى لا يشعر بعينه مكسورة أمام فضل أحد رفض من قبل أن يعطيه لقمة خبز . كان ذلك درساً، أخذه كما هو، برغم أن سيجيسموندو كاناسترو قال: لقد تصرف مانويل السيف بشكل جيد، لكننا لم نتصرف بشكل سيئ، فهو لم يربح شيئًا عندما جاء مترجلا، ونحن لم ننزل لباسنا عندما جئنا راكبين، القضية تكمن فى تفكير كل شخص منا. سيجيسموندو كاناسترو، صاحب الضحكة الماكرة، ذات الأسنان القليلة، قال بعدها علينا أن نضع فى الاعتبار أنه مازال شاباً بينما نحن قد وهن العظم منا. حقًا، لكن لو كان هناك ثلاثة و ثلاثون سببًا للترحيب بخطبة مانويل السيف من جانب أبوى جراثيندا، سيكون السبب الأول، لو اعترف جوان المنحوس لنفسه به، سير هذا الصبى عشرين كيلومتراً على قدميه، رد فعل هذا الغلام الغاضب،

هذا التأكيد على أنه رجل مشى أربع ساعات تحت الشمس بلا توقف، ضارباً الأرض والتراب بحذائه كما لو كان يحمل علَماً لا يمكن أن تحمله عربات الوسية. هكذا، وكما حدث فى الدنيا منذ أن خُلقت، تعلم الشيخ الكبير من الغلام.

مايو هو شهر الزهور. يسير الشاعر بحثاً عن المارجريت الذى سمعهم يتحدثون عنها، و إن لم يلهمه المنظر بقصيدة أو سونيتا سيلهمه على الأقل بمقطوعة شعرية، تلك معرفة واضحة. حرارة الشمس لم تصل بعد لجنونها كما فى يوليو آو أغسطس، بل آن النسيم العليل يلامس الخدود، وحيث تستريح العين، ناظرة من هذا المكان ومن هذا العلو الذى كان فى أزمنة أخرى مرصداً، ترى كل الحقول خضراء، فلا يوجد منظر مثل هذا له نفس قدرته على بث الغبطة فى الأرواح، ليس إلا جمود القلب هو ما يجعل الواحد منا لا يشعر بلمسة السعادة . عند النظر صوب هذا الجانب، نرى الأرض كثيرة الشجيرات حديقةً بلا رى و لا جناينى، كلها نباتات تحتم عليها أن تتعلم بنفسها طرقاً للمصالحة مع الطبيعة، بهذا الحجر الثقيل الذى يقاوم تغلغل الجذور، وربما لهذا، ولهذه الطاقة المتأصلة فى أماكن يبتعد عنها الرجال، هنا حيث تجرى الحروب بين ما هو نباتى وما هو معدنى، توجد الخلاصة العطرية النفاذة، وعندما

تحرق الشمس التل، تتفتح كل العطور وقد ننام هنا للأبد، وربما نموت بوجوه ملتصقة بالأرض، بينما النمل، الذى يرفع رأسه مثل الكلاب، يتقدم و يحميه أقنعة الغاز، فهذه أيضًا مساكنها .

إنها أشعار سهلة . الغريب ألا نرى رجالاً . تنمو الغلال، شديدة الخضرة، أما المراعى فتعيش بين السكون و العبير، وعندما نعاود النظر، نجد القمح قد فقد نضارته الرقيقة، مجرد قطرة ذهبية صغيرة تُرى بالكاد داخل مساحة شاسعة، والرجال، أين الرجال ولمَ لا نراهم داخل هذا المنظر السعيد ؟ أتمنى ألا يكونوا قد صاروا فلاحين مستعبدين، مربوطين كما الماعز فى وتد ليأكلوا فقط مما هو موجود. وقت الفراغ متسع حتى ينمو القمح، يلقى الرجل البذرة فى الأرض، ولو كان العام حسناً، هيا لننام، فسيستدعوننا عندما تأتى ساعة الحصاد. لا يُلاحظ إذاً أن مايو شهر الزهور هذا شهر متجهم الوجه، ولا نتحدث عن الطقس، فهو طقس رائع وواعد، وإنما نتحدث عن الوجوه و العيون، عن الفم و تعويجه، لا يوجد عمل، يقولون، ولو شَدَت الطبيعة، خير ما فعلت، فلسنا نحن أهل شدو .

فلنأخذ جولة فى الحقل، ولنصعد فوق الجبل، فى طريقنا سطعت الشمس فوق هذا الحجر، فلَمَعَ، ونحن من نعتقد بالسعادة نقول، هذا ذهب، كما لو كان كل ما يلمع ذهباً. لا نرى الرجال يعملون فنقول فى الحال" يا لهذه الراحة التى يعيشونها فيها، القمح ينمو

بمفرده بينما الناس يستريحون بلا هم. لكن من المناسب أن نتفاهم فيما بيننا. يمر الشتاء، كما قد قلنا، وأعددنا الولائم الكبيرة والفاخرة من الصبار السكرى والسبانخ وكشك الألماس، و لفتح الشهية أضفنا البصل الأخضر، وبعض حبات الأرز وكسرات الخبز، وأخرجنا الطعام من أفواهنا لنضعه فى أفواه أبنائنا، ليس علينا أن نكرر ذلك، لأنهم سيفكرون أننا نزكى أنفسنا بالتضحيات التى نقوم بها، يا لها من فكرة! لقد فعل آباؤنا ما نفعله نحن الآن، وكذلك فعل آباؤهم من أجلهم، وآباء آبائهم كذلك حتى زمن السيد لامبيرتو، وما قبل السيد لامبيرتو، وما قبله حتى لا تتذكر الذاكرة متى بدأ، فالشتاء دوما هكذا، ولو مات أحد من الجوع فأسباب الموت كثيرة، وهى أسباب أقل إهانة للحياء والأدب . منتصف يناير، هناك من يأمر بتقليم الأشجار، سواء كان نوربيرتو أو داجوبيرتو، هناك من يسترزق من هذا العمل، لكن ليس جميعهم، اختر لى أناسًا طيبين، يعملون فى صمت بلا مشاكل. بعدها، وقد شذبت الأشجار، يبقى الحطب على الأرض فيأتى الفحّامون، يشترون من هنا وهناك، حينئذ يعمل بعض آخر فى الألعاب النارية، و الكلمات المستخدمة لجمع الحطب هى: حشا وأدخل فى الفرن، حرق وهبّ، و بينما نتذوق نحن هنا هذه الأفعال، يقومون هم بتطبيقها بالفعل، من نحن، لسنا سوى أشخاص نعرف الكلمات، بل أننا لم نكن نعرفها قبل ذلك، و تعلّمناها سريعًا لحاجتنا إليها. لو كان كل

شىء جاهزاً، هيا نجففه و نشحنه. إلى اللقاء فى العام القادم، اسمى بيرس، عندى فى لشبونة خمسة وعشرون مصنع فحم، كما أملك مصانع أخرى فى ضواحيها، قل للسيدة إن هذا من أجود أنواع الكربون، فهو من شجر السنديان، يحرق ببطء، لهذا فهو غالى الثمن، يجب أن يكون غاليًا". فلنحترق، يا صديقى، فى هذا الجفاف، فى هذا الغبار، فى هذا الدخان، سأذهب لأرى ما يمكن أن اشربه هناك، أضع الدورق على فمى، أرمى رأسى للخلف، أقرقر، تثلج صدرى ببرودتها، تهرب من جانبى فمى، تخط أنهاراً فوق الجلد المختبئ تحت طبقة الكربون. لابد أننا جميعًا مررنا بهذه الأشياء وأشياء أخرى، بكل التجارب، فالحياة رغم قصرها، تجعلنا نرى العذاب ألوانًا، بعضنا عاش قليلاً وقضى حياته كلها فى هذا العمل.

ذهب الفحامون، والآن، نحن فى مايو الزهور، من يعرف تنظيم الشعر فليحاول أن يأكل منه. هناك بعض النعاج لرعيها. من يعرف هذه الحرفة ؟ أنا أعرف، أنا أعرف"، القليل يعرف، والآخرون يسيرون مرتاحين، يعانون شظف العيش عدة أسابيع، يخرجون من البيت، يدخلون البيت، حتى تصبح الغلال على وشك الحصاد، فيأتون هنا قبلها بقليل، ويروحون هناك بعدها بقليل. تعالوا أنتم، الباقون ينتظرون، تظل المعزة مربوطة فى الوتد وليس أمامها ما تأكله. منذ فترة لا أكل أمامها. حينئذ يسأل الأجراء فى الميدان كم تدفعون لنا فى اليوم ؟ ويترجل رؤساء العمل على طول

الكتائب منزوعة السلاح، فالمنجل فى البيت والمطرقة ليست حرفتنا، و أثناء ترجلهم يقولون، أو يتوقفون عن حركة أصابعهم فى جيب الصدارى، يوميتكم مثل الباقين، كما يدفع الآخرون، ندفع نحن. تلك محادثة قديمة جداً، كانت تجرى أيام السادة الملوك، ولم تغير الجمهورية شيئًا، فالأمور لا تتغير لمجرد نزع ملك ووضع رئيسًا مكانه، فالشر يكمن فى ملوك آخرين، من لامبيرتو جاء داجوبيرتو، ومن داجوبيرتو جاء ألبيرتو، ومن ألبيرتو جاء فلوربيرتو، وبعد ذلك جاء نوربيرتو و بيرتو وسيجيسبيرتو وأدالبيرتو وأنجيلبيرتو وجيلبيرتو وأنسبيرتو وكونترابيرتو، الشىء الغريب أن أسماءهم تتشابه، حتى صارت أسماؤهم مرادفًا لكلمة إقطاعى، فأسماء الملاك الآخرين قليلة جدًا، لهذا لا ينطق رؤساء العمل أسماء، ويقولون الآخرون، ولا أحد يسأل من هم الآخرون، ربما يرتكب هذه السذاجة أبناء المدينة .

مازالوا فى سؤالهم، كم يوميتنا؟، ومازال رئيس العمل ثابتاً على رأيه، ما يدفعه الآخرون ، ولنخرج من هذه الدائرة المغلقة، بلا تبصر، سألت أنا ولم تجب أنت، هيا إلى العمل و سنرى فيما بعد. بنفس هذه الكلمات، أو باختلاف طفيف، يكرر الرجل نفس الشىء لزوجته، سأعمل وسنرى فيما بعد، فتفكر، أو تقول بصوت عالٍ، وربما لا يصح أن تقول ذلك؛ لأنها امور تجرح، على الأقل لديك عمل، ويوم الإثنين يذهب الأجراء للحقل، وفاءً بالتزامهم، ويقول بعضهم لبعض،

كم سيدفعون، كم سيمتنعون عن دفعه، لا أحد يعرف شيئاً. والأجراء فى الوسايا الأخرى، الذين يعملون فى الجانب الآخر، لقد سألتهم ولا يعرفون شيئًا أيضًا، وهكذا يأتى يوم السبت، وحينئذ يأتى الصراف ليقول لهم، اليومية كذا، يعملون طيلة أسبوع ولا يعرفون مقابل عملهم والمرأة تسأل رجلها ليلا، أعرفت كم يوميتك؟ ويجيبها الرجل بعصبية وبلا رغبة من أين أعرف أنا، دعينى فى حالى، فترد عليه، لا أسأل من أجلى، وإنما لأن الخبّاز سألنى، فله دين علينا، إنها حوارات بائسة. ويواصلون، أيعطونك القليل ؟، لا أعرف، لا أعرف، يقولون إن دفع الآخرون أكثر ندفع نحن مثلهم . أكاذيب، كلنا نعرف أنها أكاذيب، لكن هذه الأكاذيب تم ترتيبها بين أنسبيرتو وأنجيلبيرتو، بين فلوريبيرتو ونوربيرتو، بين بيرتو والإقطاعى، فـ" الإقطاعى" أصبح مرادفاً لأسمائهم .

في كل عام في تواريخ محددة ينادي الوطن أبناءه . إنها مقولة مبالغ فيها، صورة طبق الأصل من بعض الشعارات المستخدمة في لحظات أزمات الأمة، أو من يتحدث باسمها، عندما يريدون، لأهداف معروفة أو مجهولة، أن نظهر كعائلة واحدة مكونة من أخوة، بدون أي تمييز بين قابيل وهابيل. الوطن ينادي أبناءه، ويُسمع صوت الوطن وهو يناديهم، و يناديهم، وأنت، يا من حتى اليوم لم تستحق شيئًا، ولا الخبز الذي يسد جوعك، ولا الدواء الذي يشفي مرضك، ولا المعرفة التي تمحي جهلك، أنت، يا ابن هذه الأم التي ظلت تنتظرك منذ ولدت، أنت ترى اسمك في ورقة على باب المجلس المحلي، لا تعرف القراءة، لكن شخصاً متعلماً يشير لك إلى خط حيث تلتف و تنبسط دودة سوداء، إنه أنت، وتعرف أن هذه الدودة هي اسمك، كتبه كاتب مصلحة التجنيد، وضابط لا يعرفك يريد فقط أن يتعرف عليك، يضع اسمه تحتك، إنها دودة أكثر تشابكاً واضطراباً، حتى أنك لن تعرف حتى اسم الضابط، و بداية من الآن لا تستطيع الهرب، فالوطن

ينظر إليك و يبحلق فيك، وينومك مغناطيسيًا، لا ينقص سوى أن تهين ذكرى أجدادنا و اكتشافاتهم، اسمك أنطونيو المنحوس، ومنذ جئت لهذه الدنيا وأنا أنتظرك يا بنى، حتى تعرف أننى أم شديدة الحنو، وإن لم أعطك طوال كل هذه السنوات رعاية كافية، فيجب أن تعذرنى فأنتم كثيرون وليس فى وسعى أن أنظر لكم جميعًا، لقد سرت أعد الضباط الذين سيتحكمون فيك، فلا يمكن أن نعيش بلا ضباط، فكيف ستتعلم إذاً المشية العسكرية، واحد اثنين شمال يمين، للخلف در، أعلى أعلى، أو كيف ستتعلم استخدام السلاح، انتبه لمؤخرة البندقية عندما تطلق الرصاص، لا تترك أصبعك يتزحلق للخلف عند الضغط على الزناد، ويقولون لى إنك لا تعرف القراءة فأصابنى الذهول، ألا توجد مدارس ابتدائية فى الأماكن الاستراتيجية،ألا توجد معاهد، أم إنك لا تحتاج إليها، أم إن حياتك مختلفة، و تأتى لتقول لى إنك لا تعرف القراءة، ولا الكتابة، ولا السرد، إذاً فأى عمل ستقدمه لى يا أنطونيو يا منحوس، سيتحتم عليك أن تتعلم فى الكتيبة، فأنا لا أريد أبناءً أميين تحت عَلَمى، ولو نسيت بعد ذلك ما علموه لك، فأصبر، فالذنب ليس ذنبى، الحمار هو أنت، أنت القروى والفلاح، حقًا ما أقوله لك، فجيشى ملىء بالفلاحين، والحمد لله أنهم يبقون فترة و يمشون، وبعد أداء الخدمة العسكرية ستعود إلى عملك، لكن لو أردت عملاً أثقل مثل الجيش، يمكن تنظيم ذلك .

لو تقول الأوطان الحقيقة، كنا سنسمع هذه الخطبة، بإضافات زائدة أو كلمات ناقصة، لكن حينئذ سيتحتم علينا أن نعانى ألم التخلى عن الإيمان بقصص الأطفال المبهرة، قصص الأمس واليوم، التى احيانًا تكون درعاً بقفازه، وأحيانًا أخرى تكون رباط سيف ودرع ساق، مثل قصة الجندى الذى كان يقطن خندقاً و يقتله الحنين لأمه التى ولدته، وماتت واستقرت روحها فى السماء، فكان يجلس يتأمل صورة من وهبته الحياة، وذات يوم جاءت رصاصة طائشة، أو ربما على العكس كانت رصاصة مقصودة خرجت من طبنجة رامٍ ماهر من رماة العدو، فهشمت الصورة إلى شظايا، وأرسلت صنم العجوز العذب والأم السيدة إلى خامس جهنم، حينئذ وثب الجندى من المتراس وقد أصابه الجنون من شدة الألم وركض مصوّباً سلاحه ضد خنادق العدو، لكن، قبل أن يركض كثيرًا، سقطت فوق رأسه سلسلة طلقات نارية أهلكته، هذا ما تقوله قصص الحرب، وقد صوب سلسلة الطلقات هذه جندى ألمانى كان يحتفظ فى جيبه أيضًا بصورة أمه العجوز الرقيقة، وبهذه الإضافة تكتمل قصص الأمهات والأوطان وقصص من يموت أو يقتل بناء على هذه الحواديت.

ترك أنطونيو المنحوس عمله حيث كان، هبط لجبل لافرى، خرج من القطار فى فينداس نوفاس، نظر من الخارج للثكنة التى سيتحتم عليه أن يكون بداخلها فى غضون ثلاثة أيام، وسار فى طريقه،

أمامه ثلاثة فراسخ، ولأن الطقس كان رائعًا يمشى بخطوة راسخة لكن بلا تسرع، تاركًا على يده اليسرى ميدان الرماية، هناك أراض ولدت موصومة بسوء الطالع، يتم عقابها بتفجيرات عقيمة، تلك الأراضى مثل بعض الرجال، وفى نهاية المطاف تختفى عن الأنظار، أو بمعنى أدق، تُهمل حتى لا يُدرى أهى موجودة أم لا، وينتفض بمجرد التفكير فى أنه سيقضى عاما ونصفًا مسلوب الحرية . يتذكر جوزيه القط، يسأل نفسه إن كان قد أدى الخدمة العسكرية، ويشعر براحة جمة تتسع فى صدره، كما لو كان القدر يفتح أمامه بابا فى طريق ويقول له، دعك من كل هذا، لماذا تحبس نفسك داخل كتيبة، بين أربعة جدران، وتعود بعد ذلك لتنزع الفلين وتحرث وتحصد، أأنت أحمق، هيا ابحث عن جوزيه القط، هذه هى العيشة، من يتجرأ أن يضع يده فوق كتف القط، فمن ورائه عصابته، وهو الزعيم، ما يأمر به ينفذ، ولماذا لا ينتهى بك المآل زعيمًا مثله، عليك أن تتعلم، فأنت مازلت شاباً، لن تكون بداية سيئة. إنها وساوس، لدى كل منا وساوسه التى يطيقها ويتعلمها. قد تبدو وساوس غير مناسبة لغلام تربى فى بيت شريف، بيت سمعته بيضاء لا يلطخها سوى حياة وموت جده دومينجو المنحوس، لكن لا يمكن أن يظل الواحد منا يقلّب طوال حياته فى هذا الأمر، فليلق الحجر الأول من لم يفكر فى أفعال كهذه أو أسوأ منها، لاسيما عندما يكون أنطونيو المنحوس غير مطلع على قصة

جوزيه القط بأكملها، فمازال ينقصها ما هو على وشك الحدوث، ولا يجد سوى الطعم اللذيذ للحم الخنزير الذى اشتراه سرًا بماله الذى كسبه بالحلال.

عندما يكون أمامه خمسة عشر كيلو مترًا، يكون لدى الواحد منا وقت كاف ليفكر، ليعيد حسابات حياته، بالأمس كان طفلاً و بعد قليل سيصير مجندًا، لكن من يسير فى طريقه الآن، بقدم ثابتة، هو أفضل منتزع لسنديان الفلين من بين الصبية التسعة الذين تعلم معهم، وربما يجد أحداً منهم فى المعسكر. اشتد الحر، ومع أن المخلة ليست ثقيلة، إلا أنها تتأرجح وتتزحلق من كتفه، سأجلس هنا لأستريح، بعيدًا عن الطريق بعدة أمتار، تحت ظل، أفرش البطانية فرشة مزدوجة لأتجنب سخونة الأرض، أريح رأسى على المخلة وأغوص فى سبات عميق، فمازال أمامى وقت للوصول لجبل لافرى. جلست بجانبى الآن سيدة عجوز غاية فى العجز، حظى قليل وحظها كثير، حظى قليل، أفكر، فأى قوة تملك، قد تكون ساحرة، تمسك بيدى، تفتح أصابعى المغلقة، وتقول: أرى فى يدك، يا انطونيو المنحوس، أنك لن تتزوج أبدًا ولن تنجب اولاداً، إنك ستقوم بخمس سفريات طويلة لأراض بعيدة و ستدمر صحتك، ولن تملك أرضاً سوى قبرك، ولست استثناء عن الآخرين، و هذه الأرض ستكون ملكاً لك عندما تكون تراباً فقط، بعدها سيتوقف عظامك المتبقى، مثل عظام الآخرين، فى مكان ما، حيث لا تصل نبوءاتى، لكن بينما أنت على قيد الحياة

تُرزَق لن تلحق الضرر بأحد، حتى لو أخبروك بعكس ذلك، و الآن انهض، لقد آن الأوان. لكن أنطونيو المنحوس، الذى كان يعلم أنه يحلم، تصنع أنه لم يسمع الأمر وواصل فى نومه، وكان حماقة منه لأنه بذلك لم يعرف أن الجالسة بجانبه كانت أميرة تبكى فأمسكت بيده الخشنة و المتصلبة برغم أنه مازال شابًا، بل فى عز شبابه، وبعدها، لما طال انتظارها، رحلت الأميرة تجر حرير فستانها فوق الجوالق وجدامات القمح، لذا عندما استيقظ أنطونيو المنحوس كان الحقل مغطى بالزهور البيضاء التى لم يرها من قبل .

فى حياة الوسية تحدث أمور كثيرة تبدو من المستحيلات مع أنها حقيقة الحقائق. من هنا حتى جبل لافرى سار أنطونيو المنحوس متأملا حيث وجد فى كف يده نقطتى ماء ولم يخمّن ليعرف مصدرهما، فضلاً عن أن إحداهما لم تختلط بالأخرى، وكانتا مستديرتين مثل اللؤلؤ، إنها معجزات تحدث عادة فى الوسية، فقط يشك فيها مدعو العلم زوراً. اتفقنا على أن يد أنطونيو المنحوس مازال بها اليوم نقطتا ماء، وإذا حدث أنه عند وصوله للبيت، بعناقه لأمه، لم تهربا من يده و لم تطر عدة أجنحة بيضاء ناحية الباب الموارب، ستسأله أمه، ما هذه العصافير ؟ لا أدرى يا أمى.

هناك من نومه ثقيل، ومن نومه خفيف، من عند نومه يهاجر الدنيا، ومن لا يمكنه أن ينفصل عن هذا العالم ولهذا تراوده الأحلام . فلنقل إن جوانا كاناسترو من هؤلاء. اتركوها تنام فى سلام، هذا ما يحدث عندما يصيبها المرض، إذا لم تشتد عليها الالام، وبذلك تنام فى الوضع الذى تعلمته فى المهد، قد يقول ذلك من يعرفها منذ ذلك الحين، بوجهها فوق يدها المفتوحة، خمرية اللون مجهدة البدن، تغوص فى أعماق سبات طويل . لكن لو انتبهتْ قليلاً، وانتباهها يأتى فى ساعة محددة، ربع ساعة قبل وقت رحلتها بغتة، كما لو أنها تطيع ميكانيكية ساعة داخلية، تقول: سيجيسموندو، انهض. لو حكى هذه القصة من عايشوها فى الحال، سنرى كيف ستختلف رواياتهم، بعض الروايات اختلقت بلا قصد، وبعضها الآخر عمداً، كما جرت العادة، لأن ما قالته جوانا كاناسترو حقيقة كان، سيسمونجو، انهض، وهكذا واحد من صغر هامش الخطأ عندما نعرف الفرق بينهما، والدليل على ذلك أن سيجيسموندو كاناسترو،

الذى نكتب اسمه بلا أى شك فى خطأ إملائى، يلبى النداء، يرفع البطانية عنه، يقفز من سريره باللباس ويعبر عرض البيت ليفتح النافذة و ينظر للخارج، مازال الليل طابقًا، ينظر بعين حادة، عين وحيدة مفتوحة، أو يعرف ذلك بخبرة السنين، وهى بحر ممتد، تسمح له بتمييز التقلب الذى لا يمكن تقديره والذى يوجد فى الجانب الشرقى، ربما يفهم ذلك من يدرك ألغاز الطبيعة، ولمعان النجوم الباهر، عندما يكون العكس تمامًا ما يحتمل أن يبدو صائبًا. ليلة باردة، ولا غرابة فى ذلك، فنحن فى نوفمبر، شهر البرد، لكن السماء تبدو صافية وستظل هكذا، كما هى العادة أيضاً فى نوفمبر . تنهض جوانا كاناسترو، تشعل النار، تضع فوقه الكنكا المسودة بالهباب لتسخن القهوة، وهو الاسم الذى مازالت تسمى به هذا الخليط من الشعير، أو السريس، أو الترمس المحروق والمطحون، إنهم حتى يشربوا ما لا يعلمون، وستبحث فى النملية عن نصف رغيف و ثلاث سردينات مقليات، بعدها لا يتبقى الكثير وإن تبقى شىء، تضع ما أخذته فوق المنضدة وتقول: القهوة ساخنة، هيا لتفطر. تبدو هذه كلمات تافهة، فهؤلاء الناس ذوو اللكنة الفقيرة لا يتمتعون بخيال رحب حيث لم يتعلموا أبدًا تزويق أحداث الحياة الصغيرة بكلمات راقية، فلا توجد مقارنة ممكنة بين وداع روميو و جوليت فى شرفة الطابق الرابع عندما فقدت الفتاة عذريتها وبين الكلمات التى تفوه بها الألمانى ذو العينين الزرقاوين

للفتاة التى لا تقل عنها عذرية، لكنها سوقية، تلك التى اغتصبها فى أرض السرخس. ولا مقارنة أيضًا بين ما قالته جوليت وما قالته الصبية المغتصبة . لو احتفظوا بهذه الحوارات فى أعماق بئر، كنا سنعرف، حتى ولو لم نكن الأوائل، أن خروج سيجيسموندو كاناسترو هذا سيتوافر له من يحكى عنه، و لهذا سوف نحكى . أكل سيجيسموندو كاناسترو نصف سردينة وقطعة خبز، بلا طبق ولا شوكة، فقط كان يستخدم طرف سكينه الدقيق ليقطعهما، وهكذا استقرت فى معدته راحة ناتجة عن سخونة القهوة المزيفة، لذا فهناك من يقسم بأغلظ الأيمان إن البرهان على وجود الرب يكمن فى وجود وتوافق القهوة مع السردين المقلى، لكن تلك قضايا خاصة باللاهوت، ولا علاقة لها بالسفر الصباحى، لبس سيجيسموندو قبعته، انتعل حذاءه ذا الرقبة ورص معاطف الفرو القديمة وقال: أرى وجهك بخير يا زوجتى، ولو سألوك عنى فقولى إنك لا تعرفين إلى أين رحلت. لم يكن الأمر يستحق هذه التوصية، فدومًا يكررها، بالإضافة إلى أن جوانا كاناسترو لا تعرف الكثير لتقوله، ولوعرفت ما قالت ولو ذبحوها، حتى القليل الذى تعرفه لن تقوله ولو قتلوها. سيقضى سيجيسموندو يومه بالخارج، سيعود عندما يفرد الليل جناحيه، لأسباب متعلقة بالطريق والمسافة أكثر منها بسبب الوقت الحقيقى الذى قضاه فى عمله، مع أننا لا نعرف الحقيقة أبداً، تقول له زوجته أراك بخير يا سيسموندو، وتصرعلى أن تطلق

عليه هذا الاسم، فلا نضحك، ولا حتى نبتسم، فما ذلك إلا اسم، وبعد أن خرج من باب الحاجز، جلستْ هى بقرب النار وظلت هكذا حتى طلوع النهار، بيدين مضمومتين، لكنها لم تكن تؤدى طقس الصلاة .

أما فاوستينا المنحوس، فى الطرف الآخر من جبل لافرى، فليست معتادة على ذلك، فهذه مرَّتها الأولى . لهذا، مع أنها تعلم أن زوجها سيخرج من البيت عند مطلع الشمس، إلا أنها لم يغمض لها جفن طوال الليل، بل ومذهولة من أن جوان المنحوس الذى يلازمه الأرق كظله، ينام الآن فى غاية السكينة، كمن لا يخاف شيئًا رغم مسئولياته. إنها تعويضات يقوم بها الجسد لترتاح الروح المنهكة. عندما يصحو جوان المنحوس، ويكون اليوم صافياً رغم عدم سطوع الشمس بعد، تقتحمه فجأة فكرة ما سيحدث أمام عينيه، لدرجة أنه يغمضهما سريعاً، ليس خشية ألم المعدة الذى سيشعر به، وإنما كنوع من احترام الكنيسة، أو احترام المقابر أو مولد الطفل . يقبع وحده فى الغرفة، يرهف السمع لضجيج البيت والشارع، لشدو عصفور منسى يعانى البرد، لأصوات بناته وطقطقة الحطب المضطرم. ينهض. سبق أن قلنا إنه رجل نحيف ضئيل البدن، له عينان زرقاوان لامعتان وباليتان، وفى سنه هذه، اثنان وأربعون عاماً، غزا الصلع رأسه وما تبقى من شعره اشتعل شيباً، لكن قبل أن يقف على قدميه، ثبت فى مكانه،أراح جسده من الألم الناتج عن النوم والذى يأتيه كلما نهض من

رقدته، مع أن هذا الألم غير منطقى، بل يجب أن يحدث العكس لو استراح جسده . ارتدى ثوبه و دخل المطبخ، يقترب من النار كما لو يريد أن يستعيد دفء السرير، لا يبدو أنه معتاد على البرد القارص، يقول: صباح الخير، تقترب منه بنتاه لتقبلا يده، قمة السعادة أن نرى لم شمل العائلة، الآن كلهم بلا عمل، وعليهن أن يسلين أنفسهن بعمل شىء طوال النهار، مثل ترقيع الثياب، جراثيندا تعمل فى جهازها، تسير بتؤدة، صبورة قدر استطاعتها، لن يتم عرسها قبل العام القادم، وعند الظهيرة ستذهب مع أختها لتغسلا فى النهر كومة من الملابس أخذته كل منهما من بيت الصدقة، دائمًا مقابل عشرين إسكودو . ما قاله الزوج لا تسمعه فاوستينا التى خُتم على سمعها، لكنها شعرت بوجوده، ربما بسبب هزة أرضية من أثر وطئة قدميه أو ربما حركة الهواء التى لا يستطيع جسده سوى إحداثها، لكل منا خصائص جسدية، إنها حقيقة، لكنهما يعيشان معًا منذ عشرين عاماً، وأعمى من ينكر هذا الأمر، وهى ليست عمياء وليس من حقها أن تشتكى فى شىء، أما سمعها فهو ما يزول عنها، وإن لم تصدق ذلك، وعذرها فى كل يوم أن الناس تتحدث بطريقة مشوشة، كما لو كانوا يتعمدون ألا تسمع . تبدو أشياء خاصة بالعجائز لكنها أمور فقط خاصة بأناس عجزوا قبل الأوان . يأكل جوان المنحوس استعداداً ليومه، يتناول قهوته، التى تشبه قهوة سيجيسموندو، يمضغ خبزاً مخلوطاً من مواد

مختلفة، فأى قمح سيصنعون منه الخبز! يلتهم بيضة نيئة،، يثقبها من جانب و الجانب الآخر، تلك إحدى ملذات الحياة، يا ليتها تدوم للأبد. ها قد لبى نداء المعدة والآن يشعر بالعجلة عندما أطلت الشمس، يقول: أراكن على خير، لو سأل أحد عنى، فأنتن لا تعرفن أين ذهبت، هذه العبارة ليست كلمة سر متفقاً عليها، وإنما هى أمر طبيعى فى هؤلاء الذين يقولون بألسنتهم ما فى قلوبهم وليس علينا أن نبحث عن أسباب أخرى . لا جراثيندا تعرف أين يذهب أبوها ولا أميليا كذلك، يسألانه بعد أن يكون قد خرج، لكن الأم صماء، كما نعلم، وتتظاهر بأنها لم تسمع . علينا ألا نفهم ذلك بسوء نية، فالصبيتان شابتان و ثرثارتان، فقط لصغر سنهما، لا لقلة وعيهما، وتلك صفات قد تجرح جراثيندا على الأقل، فهى على دراية بمغامرات مانويل السيف، أول مُضرب معروف فى جبل لافرى، وأذيع صيتاً من زملائه، عندما كان غلاماً صغيراً .

سيكون اللقاء فى منطقة الأرض الباردة. إنها أسماء أطلقت على أماكن لسبب ما بلا شك قد نفهمه، لكن علينا أن نعود إلى أصول الوسية لنفهم كيف تسمى منطقة بالأرض الباردة مع أنها قائظة فى الصيف شديدة البرودة شتاءً، وقد ضاعت هذه الأصول، كما اعتاد أن يقول الكسالى، فى لحظة مظلمة من الزمن. قبل الوصول لقبلتهما، سيتلاقى سيجيسموندو كاناسترو وجوان المنحوس فى تل أتالايا، لكن ليس فى أعلى نقطة بالطبع، حتى لا يكونا

تحت نظر أحد من المارة، رغم أن هذه الأرض، وفى هذا المكان على وجه الخصوص، لا تطأها الأرجل، فهى ليست مثل ميدان جيرالدو، إن فهمتم ما نقصده. سيتقابلان بالقرب من التل، حيث يكثر الشجر الكثيف، وهو مكان يعرفه جيداً سيجيسموندو كاناسترو، ولا يعرفه بنفس الدقة جوان المنحوس، على أى حال جميع الطرق تؤدى إلى روما. ومن هناك حتى الأرض الباردة يسيران معًا، فى سبل لم يسر فيها الرب أبدا، و سار فيها الشيطان مضطراً .

لا يوجد أحد فى شرفة السماء المستديرة، الشرفة القابعة فوق الأفق، هذه المقصورة المعتادة للملائكة عندما تحدث حركة هائلة فى رمال الوسية. هذه هى الخطيئة الكبرى والمشئومة لأجناد السماء، أنهم لا يلعبون سوى بقذائف حربية. بينما يستخفون بالزمرة الصغيرة، بفصائل الجيش، بالمغامرين، بالمتطوعين فى هذه المهمة، بهاتين النقطتين الضئيلتين وهما هذان الرجلان، المتقدم أحدهما هنا، والمتأخر ثانيهما هناك، حتى عندما يبدو أنهما ضلا طريقهما صوب مكان لا اسم له فى السماء، لكنه هنا فى الأرض يسمى الأرض الباردة، يتقاربان. ربما يفكرون من ملكوت السماء منقطع السيل أن هذين الرجلين يتوجهان بتفاهة إلى عملهما، رغم عدم وجود عمل، كما لو أنهم حتى فى السماء عليهم أن يعرفوا بإنذارات الأب أجاميديس السببية، والحق أن الأمر أيضا ينطوى على عمل . إنه سبب مختلف، مسئولية

كبيرة لدرجة أن جوان المنحوس سيسأل سيجيسموندو كاناسترو عندما يلتقيه، وبعد أن يخطوا خطواتهما الأولى، لكن بلا تسرع حتى ينتصر على خجله، أتعتقد أنهم سيقبلوننى ؟ ، وسيرد عليه سيجيسموندو بثقة من هو أقدم منه فى هذا الشأن و أكبر منه سناً، لقد تم قبولك، لا تخف، لو كان لدى أى شك ما أتيت بك اليوم معى.

بالإضافة إليهما، هناك من يأتى بدراجة، يتركها مختبئة فى جانب ملىء بالأشجار، يسهُل بطريقة أو بأخرى التعرف عليه، فاتجاه الشمال الأصلى لا يضيع. هذه المرة لن يرتعش خوفاً بسبب لوحة رقم الدراجة، فكل شىء يمر بهدوء داخل المجلس المحلى، إلا إذا كان الحارس سيئ النية أو هاجمه ريب مفاجئ، حينها قد يأمره أن يتوقف، أين تذهب ؟ ولماذا ؟ ومن أين تأتى ؟ أرنى رخصتك، هذه إذاً عقبة، هذا الرجل يسمى بالمناسبة سيلفا، لكنه يسمى أيضًا مانويل دياس دا كوستا، وظننا أن سيلفا هو اسمه بين من يتحدث معهم فى الأرض الباردة، أما بين الحرس فيسمى مانويل دياس دا كوستا، وله اسم مختلف بالنسبة للسجل المدنى، وكذلك بالنسبة للقس أجاميديس الذى عمّده بعيداً جداً عن هذه الأماكن. هناك من يقول إننا بدون أسمائنا التى نُعرف بها لن نعرف هويتنا، إنها مقولة فطينة وفلسفية، لكن سيلفا هذا أو مانويل دياس دا كوستا الذى يبدل الآن بدراجته فى طريق ممهد وملطخ بالوحل قد ترك بكل سعادة الطريق

الذى يعبر منه الحرس على حين غفلة أو يظل أياماً كاملة مختبئاً، أبداً لا نعرف حقيقة أمره، و إن كان الأمر لا ينطوى على ألغاز، فسائق الدراجة هذا يسير فى سلام مع نفسه التى لا تؤثر فيها هذه القضايا الرقيقة المتعلقة بالهوية، سواء كانت كينونته أو أوراقه. لكن، لو دققنا النظر، لا نرى الأمر كذلك، فالثقة يجب أن تكون فى هويته كإنسان موجود أكثر من الأوراق التى تهبه اسماً. ولأنه إنسان ويفكر، يفكر أنه من الغريب أن يصدق الحرس فى الورقة المكتوبة والمختومة أكثر من تصديقهم بما تراه أعينهم، رجلا يمتطى دراجة، ولأنه متعب من فتحهم ورقه وغلقهم إياه، " يمكنك أن تسير"، فكر وهو يضع قدميه على البدال وينطلق، إنه من الأفضل ألا يعود للعبور من هذا الطريق إلا بعد فترة، لهذا جاء لأول مرة صوب هذا المكان وكان محظوظًا، حيث لم يوقفه أحد .

هناك أيضاً من يأتى فى قطار، وينزل فى ساو توركاتو، فى خط سيتيل، أو فى فينداس نوفاس، أو حتى فى مونتيمور، بعيداً، إن كان اللقاء فى أرض البرج، ومن هذه المحطات يمكن الوصول للأرض الباردة. هذه الحالة فى مصلحة من يأتى من ساو جيرالدو، وهو طريق الكلاب، لكن لو خرج أحد اليوم من ساو جيرالدو، ليقوم بمهام مشابهة، سيسير مسافة أبعد، وربما لا تكون مصادفة، فتلك قاعدة لها أساس. فى هذه الساعة، من منتصف الصباح، لا نرى الدراجة، و القطارات تسير بعيداً جداً، لكن تأتينا

صفاراتها، وفوق الأرض الباردة تمر حدأة صيّادة، ما أجمل أن تراها! لكن الأجمل من ذلك أن تشاهدها وتسمع فجأة صياحها، زقزقتها الطويلة التى لا يستطيع أحد أن يعبر عنها بالكلمات، لكن عندما نسمعها نريد أن نقلدها، ولا نخرج من هذه الحالة، حيوانات ذوات زقزقة وشدو هذا ما كان ينقص، يربط العصافير من كل نوع زقزقة مشتركة، لكن هذه الصيحة مختلفة، لها رنين يخرج من قلب الطبيعة الفاضلة، تسبب رعشة فى الجسد، لا أندهش إن طلعتْ لى أجنحة من كثرة الإنصات لها، ففى الدنيا رأينا أشياء أغرب من ذلك . جانحة فى علاها، تركت الحدأة رأسها تتدلى، إنها إيماءة فقط، فربما بصرها لا يحدد من هذا القرب الشديد، فنحن من نعانى من أمراض قصر البصر، والاستيجماتيزم، وهى كلمات، للتوضيح فقط، يجب أن نتجنب استخدامها فى هذه الأراضى، حتى لا تخلط الملائكة بينها و بين كلمة مشابهة تعنى إصابة مثل جروح المسيح، فيطلون من الشرفة بحثًا عن سان فرانسيسكو دى أسيس ويعثرون على حدأة مسكينة تطلق صيحاتها وخمسة رجال يقتربون، بعضهم قريب والبعض الآخر مازال بعيداً عن الأرض الباردة . لا أحد سوى الحدأة تراهم جميعاً من علاها، لكن الحدأة ليست طائراً واشياً .

أول من وصلا كانا سيجيسموندو كاناسترو وجوان المنحوس، وبذلا جهداً ليصلا قبل موعدهما لأن أحدهما كان مستجداً. وبينما كانا ينتظران،

جالسين فى الشمس حتى لا ينفضهم البرد القارص سريعاً، قال سيجيسموندو كاناسترو، لو قلعت القبعة ضعها برأسه. لماذا؟ ، سأل جوان المنحوس وأجابه سيجيسموندو كاناسترو، من أجل الاسم، فلا يجب أن نعرف أسماء بعضنا البعض، لكننى أعرف اسمك. تعرفه نعم، لكنك لن تقوله، والرفاق سيفعلون نفس الشىء، فالجهل بأسمائنا يبقينا جميعًا فى أمان لو اعتقلونا. و رغم أنهما تحدثا فى أمور أخرى، كثيرة وطويلة، إلا أن جوان المنحوس ظل سارحاً فى حكاية الاسم هذه، بانشغال كبير، وعندما وصل صاحب الدراجة عرف أنه لن يعرف أبدًا الاسم الحقيقى لهذا الرجل، ربما بسبب الاحترام الذى يظهره له سيجيسموندو كاناسترو، مع أنه يعامله بصيغة أنت، إلا إذا كانت هذه الصيغة تحتوى على احترام أكبر. هذا هو الرفيق الجديد، قال سيجيسموندو، فمد صاحب الدراجة يده، التى لم تكن يد أجير خشنة، لكنها قوية، وصلبة فى ضغطها. رفيق، كلمة ليست جديدة، فزملاء العمل يستخدمونها، لكنها هنا تكتسب احترامًا أكثر، تنثنى ركبتى المنحوس وتحتقن حنجرته، وهو أمر غريب ليحدث لرجل تخطى الأربعين و شاهد الكثير من الدنيا و الناس. يجلس ثلاثتهم يضيعون وقتهم بينما لم يصل الآخرون. ننتظر نصف ساعة، إن لم يأتوا سنبدأ نحن. حينئذ قلع جوان المنحوس قبعته و قبل أن يتركها على الأرض برأسها لأعلى كما أوصاه سيجيسموندو كاناسترو، نظر داخلها، فى الخفاء،

ورأى مكتوبًا فوق شريطها " جوان المنحوس" ، بخط بائع القبعة، وهذه كانت عادة ريفية فى تلك الأزمنة التى فيها كانت المدينة تدرب نفسها على إخفاء الهوية. صاحب الدراجة، هذا ما نعرفه نحن، حيث إن جوان المنحوس يظنه جاء سيراً على قدميه، كنا نقول إن صاحب الدراجة يرتدى طاقية، و لسنا على يقين أن اسمه مكتوب بداخلها، ولو كان مكتوباً، ماذا سيكون الاسم ؟ هذه أشياء تباع عادة فى الأسواق الموسمية، فى المحلات الصغيرة التى لا يمكن وصفها بمعرفة الكتابة ولا أدوات النقش ولا الزخرفة، و الأمر سيان بالنسبة للبائع أن تضيع الطاقية من الزبون أم لا تضيع .

بعد مدة قليلة، يصل الاثنان الناقصان كل من جانب. بعضهم يعرف البعض الآخر فقد شاهدوا بعضاً من قبل و التقوا عدة مرات، باستثناء جوان المنحوس الذى كان، معذرة، مثل خيال المآتة، والجميع ينظر إليه مبحلقاً ليحفظوا ملامح وجهه فى ذاكرتهم، وهو أمر يسير، فبعينيه هاتين لا يمكن أن يخطأوا وجهه. طلب صاحب الدراجة بصوت أجهش وبسيط أن يكونوا أكثر دقة فى مواعيدهم بعد ذلك، مع أنه اعترف أنه من الصعب حساب الوقت فى المسافات الطويلة، أنا نفسى جئت بعد هذين الرفيقين، وكان يجب أن أصل أولكم . بعد ذلك رأيناهم يدفعون لصاحب الدراجة أموالا طفيفة بشكل عام، كانت فقط عملات فضية، وفى المقابل يتلقى كل منهم منشورات

معدودة وملفوفة، ولو كان هناك مسموح ذكر الأسماء، أو لو سمعتها الحدأة و كررتها، أو لو نظر بعضهم فى قبعات البعض الآخر الموضوعة برأسها لأعلى، لكُنّا سمعنا هذا لك يا سيجيسموندو كاناسترو، وهذا لك يا فرانثيسكو بيتينجا، وهذا لك يا جواو دوس سانتوس، أما أنت يا جوان يا منحوس فلن تأخذ هذه المرة، والآن اروا لى كيف تسير الأمور، ابدأ أنت. الدور على فرانسيسكو بيتينجا الذى يقول: لقد اكتشف أصحاب العمل موضة جديدة، طريقة لادخار يوم عندما يتحتم عليهم استقبالنا فى البلدية، عندما يأتى يوم السبت يطردوننا، لا يبقى أحد، وحينها يقولون - تذهبون يوم الإثنين لبيت القرية، وتقولون إننى أقول إننى أريد نفس العمال .. هذا ما يقوله صاحب العمل، لا أعرف إن كنت تفهمنى أم لا، والنتيجة أننا يضيع علينا يوم الإثنين فى الذهاب للبلدية، ويبدأ السيد يدفع لنا يوم الثلاثاء، ماذا علينا أن نفعل؟ بعدها يقول جواو دوس سانتوس، فى أرضى، تتفق البلدية مع السادة، وإلا فلن تقوم بما تقوم به، توزعنا ونحن نخرج من هناك إلى الحقول وأصحاب العمل لا يقبلوننا، ونعود حينئذ للبلدية نقول إنهم لا يقبلوننا، فتأمرنا أن نذهب من جديد، وبهذه الطريقة لا يريد أصحاب العمل أن يقبلونا ولا فى صلاحيات البلدية أن تجبرهم أو يلعبوا بالعمال، ماذا علينا أن نفعل؟ يقول سيجيسموندو كاناسترو: والعمال الموزعون يتقاضون ستة عشر إسكودو من مطلع الشمس لغروبها، لكن

هناك كثيرين لا يجدون عملا، والجوع يأكل بطون الجميع سواءً بسواء، فالستة عشر إسكودو لا تفعل شيئًا، إن أصحاب العمل يسخرون منا، لديهم عمل لنقوم به ويتركوا الأرض بلا ضربة فأس، لا يفعلون شيئًا، وما يتحتم علينا أن نفعله إن نحتل هذه الأراضى، و لو وجب علينا الموت، فلنمت مرة واحدة، أنا أعرف ما أقول، وأعرف ما قاله رفيقنا سلفاً عن إن موتنا هذا يعد انتحاراً، لكنه انتحار أيضًا ما يحدث لنا، وأراهن إن أمكن لأحدكم أن يتفاخر بأنه تعشى ما يراه، وهذا لا يعنى تكسير مجاديفكم، فماذا سنفعل؟. وافقه الجميع، و شعروا بزقزقة عصافير بطونهم، لقد كان وقت الظهيرة وظنوا أن بإمكانهم أن يأكلوا هناك ما أحضروه من بيوتهم من خبز وملح، لكنهم فى الوقت نفسه كانوا يخجلون من قلته، رغم أنهم جميعًا يعرفون ما هو البؤس . صاحب الدراجة، قليل الرداء، الذى لا نرى جيوبه منتفخة بشىء قد يكون غداءه، وأيضًا، نعتقد نحن، أن الآخرين فى هذا الظرف لا يعرفون ذلك، كما أن رحلات النمل فوق دراجته بحثًا عما يؤكل تبوء بالفشل، فلن تجد حتى الفتات، صاحب الدراجة هذا يتوجه بسؤال غير متوقع لجوان المنحوس وأنت، ألا تريد أن تقول شيئاً؟ . فاجأ السؤال الرجل المستجد، لا أعرف، ليس لدىّ شىء لأقوله، والتزم الصمت، كما التزمه الآخرون، وتبادلوا النظرات، ولما كان من العبث أن يجلس خمسة رجال تحت شجرة سنديان يتفلسفون وليس لديهم ما يقولونه، قال:

نستريح ليلا و نهارًا مع وجود عمل، ولا تعرف حياتنا الجائعة سوى عقاب لا يستكن، أحفر قطعة فى الأرض عندما يتركونها لى لأزرعها، ولساعات طوال، والآن نحن جميعًا فى بطالة، ما أحتار فى معرفته حقًا هو لماذا الأمور تسير بهذا الشكل و هل سيظل الحال على ما هو عليه حتى يأخذنا الموت جميعًا؟ فلا عدل فى أن يمتلك البعض كل شئ والبعض الآخر لا شئ، ما أريد أن أقوله فقط إن الرفاق يمكنهم أن يحكوا معى، فقط هذا ولا شئ آخر.

قال كل منهم أسبابه، إنهم تماثيل من بُعد، نراهم فى غاية الهدوء، والآن ينتظرون ما يقوله صاحب الدراجة، ماذا سيقول، ماذا يمضى قائلاً. بنفس الترتيب تسير الجلسة، يتحدث أولا للجميع، ثم لفرانسيسكو بيتينجا، بعدها لجواو دوس سانتوس، وبكلمات قليلة لسيجيسموندو كاناسترو، لكن مع جوان المنحوس يطيل حديثه، إنه أمر يشبه جمع أحجار قارعة أو جسر، الأفضل أن نقول جسراً، ففوق الجسر ستعبر السنون والخطوات والأحمال، وتحته توجد هاوية. من هذه المسافة نرى المشهد أبكم، لا نرى سوى الإيماءات، وهى قليلة، فكل شئ يتوقف على الكلمة و التشديد عليها، كما يتوقف على النظرة، لكن من هنا لا يمكننا حتى أن نميز نظرة جوان المنحوس الزرقاء. لا نتمتع بعينى حدأة، هذا الطائر الذى يجوب الفضاء وينحدر من علاه فوق منبت السنديان، بشكل دائرى، هابطاً أحياناً لضعف الهواء الذى يدعمه و بعدها، بضربات بطيئة ومرنة من

جناحيه، يصعد من جديد ليبلغ ما هو قريب و ما هو نائى، هذا و ذاك، الوسية المفرطة الحجم و الصبر بمعدله المنصف .

انتهى اللقاء. أول من يبتعد صاحب الدراجة، وبعده، فى نفس الحركة التوسعية، كشمس انفجرت وتناثرت شظاياها، يتفرق الأربعة رجال كل إلى قبلته، مازال يقع فى نطاق نظر البعض البعض الآخر، ولو نظروا خلفهم، ولن يفعلوا ذلك، فهو مبدأ متفق عليه، فسيجدون أنفسهم يختبئون، لا يختبئون بل يداريهم انحدار أعمق مكان فى الوادى، أو يسدل الظل جناحه عليهم فى البعد وراء حافة تل، أو ببساطة يسترهم المكان النائى وقسوة البرد، الذى يشعرون به أخيراً، والذى يجبرهم على غلق نصف أعينهم، فلابد أن ينظر كل منهم أين تطأ قدماه، فلا يمكن السير بعينين مغمضتين تماماً. حينئذ تطلق الحدأة صيحة ترن فى كل القبة السماوية، و تبتعد صوب الشمال، بينما تركض الملائكة فى رعب نحو الشرفة مهرولين فى جريهم، وقتها لا يرون أحداً .

يكبر الرجال وتكبر النساء، ويكبر فيهم كل شيء، البدن، حجم الاحتياج، المعدة لتكون بحجم الجوع، العضو الجنسي ليوفى بالرغبة، ونهدا جراثيندا المنحوس صارا كما موجتى بحر توقف سيله، لكن ليس هذا سوى أغنية معتادة، نشيد الحب والصداقة، فرغبتها فى عناقه ورغبته فى عناقها، نتحدث عن مانويل السيف، لم يعرفا تقلب المشاعر، بل عرفا الرسوخ، ومرت ثلاث سنوات، ومازالت تلك الرغبة مرفوضة أو غير مطلوبة فى الوسية، لكنها تموج داخل المرأة كما الرجل، فلا فرق بينهما، سوى فى اليومية. أمى، أريد أن أتزوج، قالت جراثيندا المنحوس، فها هو جهازى، نعم جهاز فقير، لكنه يكفى لأنام أنا ومانويل السيف فى سريره وسريرى، وفوق هذا السرير نعيش كزوج وزوجة، يدخل فى وأدخل فيه، ونظل هكذا كما كنا منذ الأبد، أنا لا أعرف كثيرًا عما حدث قبل مولدى، لكن كل دمى يتذكر صبية كانت عند نبع أميرو فجاءها رجل بعينين زرقاوين كعينى أبى، وأعرف أن من بطنى هذه سيأتى ولد أو بنت سيكون له نفس العينين، لماذا، لا أعرف .

هذا ما كان ينقص، أن تقول جراثيندا المنحوس هذه الكلمات، فلو قالتها لأحدثت ثورة فى الوسية، لكن واجبنا أن نفهم حقيقة الكلمات التى قيلت، أو تقال الآن أو ستقال فيما بعد، واجبنا أن نعرف جيداً صعوبة هذا الحديث الذى يعد قليلاً مقارنة بتفكير كل يوم، فنحن لا نعرف أحيانًا الكلمة المناسبة للتعبير عن هذا الشعور، أو لا نعرف الاختيار بدقة بين كلمتين، وأحيانا كثيرة لا نجد الكلمة التى تؤدى بالغرض، ونتمنى حينئذ أن تكفى الإيماءة، أن تؤدى النظرة دورها، أو تعترف النبرة بمكنونها. أمى، لا ينقصنى سوى القليل لأكمل بيتى، قالت جرثيندا: أمى، مانويل السيف يقول لقد حان وقت زواجنا، أو ربما لا تقول شيئًا من هذا بل تصرخ صرخة حدأة عزباء، أمى، لو لم أتزوج اليوم سأرحل من البيت وسأنام فوق السرخس الموجود فى ينبوع أليسو أو فى وسط حقل القمح وسأنتظر هناك مانويل السيف ليأتى و يفض بكارتى، و بعدها أرتدى جلبابى و أغتسل فى جدول الماء، ولا أدرى أين سيصل دم بكارتى المهرول، لكننى أعرف على الأقل من أنا. وربما لا يكون الحديث كذلك، ربما فى ليلة ما قالت فاوستينا لجوان المنحوس، مقاطعة ربما تفكيره فى وضع المنشورات غدًا فى فتحة بشجرة متفقًا عليها، من الأفضل أن نزوج البنت، فقد أعدت جهازها، وقد يجيبها جوان المنحوس قائلا: يجب أن يكون زفافاً متواضعاً، نعم أتمنى أن يكون زفافها أحسن زفاف فى الدنيا، لكن

ذلك مستحيل، كما أن أنطونيو لن يساعدنا فى شىء لوجوده فى الجيش، قولى لجراثيندا أن تعد نفسها وسنفعل ما بوسعنا. مازال الآباء هم أصحاب الكلمة الأخيرة .

أصبح عنده بيت، دفع كل ما كان فى جيبه، فى جيبه الصغير، ليأخذ هذا البيت الذى استأجره، حتى لا نظن أن جراثيندا المنحوس ومانويل السيف سيقولان هذا البيت بيتنا، بل أن لديهم نية لإخفاء أمره، أعيش هنا، فى جانب ما، كما لديهم النية للعب لعبة اللاعب المحروق والأربع نواصى(*)، فهذه ليست لعبات المدرسة والمدينة فقط، كل ذلك من أجل ألا يعرف أحد أين يعيشان، فى هذا البيت المكون من باب وحائط فقط، وأرض وسقف، وسلم صغير يرتجف عندما تضع قدمك عليه، و نيران منطفئة عندما نغيب عنه. سنعيش فى هذا المنحدر من جبل لافرى، داخل هذا الجدار، المفتقر لمساحة حتى لرفع الفأس إن أردنا أن نزرع كرنباً، حقا أن الشمس تدخله طوال اليوم، لا أعرف إن كان يستحق السكنى، حمداً لله أننا

(*) الأربع نواصى لعبة تشبه الاستغماية، أما لعبة اللاعب المحروق فأصلها شيلى، وتلعب بعدد كبير من اللاعبين من عشرة إلى ثلاثين، داخل ملعب مستطيل مقسم لقسمين، قسم لكل فريق، يفصل بينهما خط، ويختار كل فريق لاعب يقف عند خط الفريق الآخر ويسمى" السفير"، يقوم أحد اللاعبين بإطلاق الكرة، لو لمست لاعبًا من الفريق المنافس ووقعت على الأرض، يكون هذا اللاعب" محروقاً ".أما لو لمست الأرض قبل أن تلمسه فلا يكون محروقًا. وكل لاعب محروق يقف بجانب سفير فريقه.(المترجم).

لسنا بدناء. سننام فى المطبخ، الذى سيكون غرفة نومنا عندما تأتى ساعته، وعندما نستيقظ، ماذا سنسميه؟ سيكون مطبخًا عندما نطبخ، ومشغلاً عندما ترتق جراثيندا ثوبنا بينما أطل أنا على التلال المواجهة لنا بيدى فوق ركبتى، جالسًا فى صالة الانتظار، بعد ذلك سنعرف انتظار ماذا، يبدو ذلك لعبة كلمات وإن لم تفهموا فلأن ذلك يعد نوعًا من الحنين الذى يغزونا، كل منا يود أن يتكلم أولا .

لو سبقنا الأحداث وروينا بهذه الطريقة، لن نتأخر فى الحديث عن الأولاد ورعايتهم. اليوم يوم عيد، ستتزوج جراثيندا المنحوس من مانويل السيف، منذ سنوات طوال لم يشهد جبل لافرى زفافاً هكذا، فالفارق السنى بينهما كبير، هو فى السابعة والعشرين وهى فى العشرين، لكنهما زواج ناجح، هو أطول منها كما ينبغى، لكنها ليست قصيرة، حيث لم تطلع لأبيها. ها هما أمام عينىّ، ترتدى هى فستانها الوردى الذى يصل لركبتيها، برقبته المقفولة، وله كم طويل مزرر حتى طرفه، لو كان الطقس حاراً ما شعرت به، أو شعرت به بطريقة ما يتساوى فيها الصيف مع الشتاء، أما هو فيرتدى سترة طويلة غامقة، أقرب إلى الجاكت منها إلى البالطو، وبنطالا ضيقًا وحذاء لم يجد من يلمعه، وقميصًا أبيض وكرافتة مشجرة لا يمكن فك رموزها مثل رءوس الأشجار التى لم يشذبها أحد، من العدل أن نقول إنه لا يوجد نشاز، وتشبيه الأشجار ما هو إلا تشبيه، فالكرافتة جديدة وربما لن تستعمل بعد

ذلك أبدًا، أو ستستعمل فى زواج آخر قد نُدعى إليه. موكب العرس ليس كبيراً، لكن حضره الأصدقاء والمعارف، وأطفال بالمرصاد للحلويات، وعجائز واقفات على الباب يقولن ما لا يعلمه إلا الله، فلا ندرى أبدًا ما تقوله العجائز، ألعنات أم بركات، يالهن من مسكينات، فبما تفيدهن الحياة .

تم الزفاف بعد القداس، كما جرت العادة. والحمد لله أننا فى فترة عمل، فبالعمل يستطيع السرور دوماً أن يرتسم على الوجوه. ولأن الطقس اليوم معتدل، يالها من عروسة جميلة، والصبية لا يتجرءون على قول مُزاحات الزفاف المعتادة، لأن مانويل السيف، أولا وآخيرًا، رجل كبير، اقترب من الثلاثين ، وهى مبالغة كما نرى، لكنها ليست من اختراعنا، إنه موقف مثير حقاً، فحتى الرجال المتزوجون ينصرفون عن الدعابة، العريس، قطعيًا، ليس صبياً، وله شخصية صارمة، كان كذلك منذ صغره، ولا أحد يعرف أبدًا فيما يفكر، طلع لأمه التى ماتت العام الماضى . أخطأ من تحدث هكذا. حقًا يسير مانويل السيف بوجه صارم، هذه هى طلعته، كما كان يقال قديمًا، لكن من داخله، هو نفسه لن يستطيع شرحه لو أراد، فهو يشبه خرير المياه بين الأحجار فى جسر كافا، هذا المكان القاسى الذى يثير قليلاً من الخوف ليلا، لكن عند شقشقة الفجر نراه ناصعًا فيمحى أى سبب للخوف، وتشدو المياه بين أحجاره .

كثيرة هى المظالم التى تقع بسبب الحكم بالمظاهر، وواحدة من هذه المظالم كانت حال أم مانويل السيف، التى كانت تبدو امرآة من الجرانيت، وعندما يحل الليل تصب عذوبة فى سريرها، وربما لهذا يبكى أبو مانويل السيف فى صمت، هناك من يقول: إنها دموع الفرح، ولا أحد سواه يعرف أنها دموع الحزن . كم شخص هنا؟ عشرون؟ كل منهم له قصته، ولا أحد يستطيع أن يتخيل تفاصيلها، سنوات وراء سنوات يعيشونها، فترات طويلة وأحوال كثيرة، لو كتب كل منهم حياته، سنمتلك مكتبة هائلة الحجم، وسيتحتم علينا أن نحمل الكتب للقمر، وعندما نريد معرفة مَنْ أو ماذا كان فلاناً، نسافر فى الفضاء لنكتشف ذلك العالم، ليس عالم القمر، وإنما عالم الحياة. تواتينا رغبة فى العودة للوراء لنسرد بالتفصيل حياة وقصة عشق توماس السيف وفلور مارتينيا، إلا أننا فى حاجة لسرد ما نراه الآن من هذه الأحداث والحياة الجديدة وغرام ابنه وجراثيندا المنحوس، اللذين دخلا الكنيسة بالفعل، كما دلف الغلمان المضطربون، بشكل طائش، وهذا لا يصح، إنها أفعال صبيانية، كذلك دلف العجائز، أصحاب الخبرة والعارفون بالطقوس والعظات، دلفوا بكل هدوء، يتزينون بثياب قديمة من أزمنة أناقتهم. إن مجرد دخولهم الكنيسة والبقاء فيها، بهذه الوجوه، وهذه الملامح، وهذه التجعيدات، وتأملها بتأن، جدير أن يكون فصولا ضخمة فى كتب، فى ضخامة الوسية التى تحيط بجبل لافرى و تبدو كبحر .

يقبع الأب أجاميديس فى المذبح، لا أدرى ماذا حدث له اليوم، لابد أن ريحاً طيباً هب فى وجهه عند صحوه، ربما كانت نفحة من الروح القدس، لكن الأمر ليس كذلك فالأب أجاميديس لايستطيع أن يزهو بعلاقاته الخاصة بالشخص الثالث فى الثالوث المقدس، فهو نفسه متذبذب أمام بساطة الأفكار اللاهوتية، لكن أيًا كان السبب، فشيطان القس فى كامل أبهته، نعم، وفى كامل وقاره، لكن عينيه تلمعان، والسبب ليس شراهته الشبعى، لأن الأكل لن يكون بالغزارة المدهشة. نعتقد أن السبب يكمن فى حب المباركة، فالأب أجاميديس فى النهاية قسيس بشرى، كما رأينا فى كل زمان ومكان من هذه القصة، وسيفكر، حتى بدون أن يخطر فى باله الاحتياج لأياد عاملة فى الوسية، الدائمة التغير، كنا نقول إنه سيفكر أن هذا الرجل سيتزوج هذه الفتاة و سينجبان أولاداً وسيربيانهم بعد ذلك، وستعود الفائدة على الكنيسة فى مولدهم وزواجهم وموتهم، تلك الفائدة التى أحضرها ومازال يحضرها زوار الكنيسة. هذا هو القطيع، والأفضل أن يكون بصوف قليل من أن يكون بلا صوف، فمن الفتافيت تصنع التورطة. كُل قطعة أخرى يا أب أجاميديس، وتجرع هذه الكأس من نبيذ أوبورتو، وبعدها تناول قطعة أخرى. أنا لا آكل إلا قدر طاقتى، ياسيدة رحمة، فأكلتى قليلة. لكن قم بتضحية سيدى القس. هذا ما يفعله لكن بتأن، تضحية القداس المقدس. والآن اقتربا، سأعقد قرانكما.

يسود بعض الارتباك بين الأبين، فلا أحد يتذكر أبدا فى أى جانب يجب أن يكون، يتفوه الأب أجاميديس بكلمات قصيرة، يثنى بطرشيله ويفرده، يلقى نظرة لائمة على السادن الذى تأخر، ياله من خاطر! ليس هذا جوان المنحوس، كم سنة يمارس هذا العمل، ولا القس هو القس، فالناس ليسوا خالدين. لم ينتبه أحد لنور لم يتغير، وكنيسة لم تمتلئ بالعروش والملائكة، وحمامة كانت تهدل فى الحديقة، ومازالت تهدل، مشغولة ربما بعرسان آخرين، وجراثيندا المنحوس تبحلق فى مانويل السيف وتستطيع أن تقول: هذا زوجى، ومانويل السيف يستطيع أن ينظر لجراثيندا المنحوس ويقول" هذه زوجتى، وبداية من الآن فقط تعد هذه حقيقة، حيث إن سرخس الينبوع لم يصل ليستقبلهما، رغم أن هذا على ما يبدو ما كان يجب أن يحدث .

يجتاز العروسان صحن الكنيسة الصغير، وعندما يصلان لبابها يظهرأنطونيو المنحوس فى زيه العسكرى، فلم يصل فى موعده لزفاف أخته، وهو أمر متعلق بتأخير القطارات وغياب خطوط السكك الحديدية، مما اضطره أن يهبط ويصب اللعنات القادرة على تذويب دوارة الريح بالبرج و الطرق الوعرة التى يتخطاها بخطوات واسعة على حافة الطريق، بعدها سار غاضبًا يعد الكيلومترات المتبقية، ولحسن حظه لا يقف الشيطان دائمًا خلف الباب، حيث توقفت حافلة توزيع أسماك، كانت تمر هناك،

وأمام هيبة الزى العسكرى، أين تذهب ؟ إلى جبل لافرى، حيث زفاف أختى، فزلل أمامه العقبات مبارك للعروسين"، وتسلق الحافلة مثل قرد، وعبر بدون أن ينظر لبيت الصدقات وأمام نقطة الحراسة قال لنفسه" لعنة الله عليكم، وفجأة تذكر أنهم ربما قد أنهوا الاحتفال، لكن لا، مازال هناك أناس فى الساحة، وآخرون فى طريق آخر، وثب وثبتين ليصعد درجات سلم الدهليز، هذه هى أختى، وهذا زوجها، حمدًا لله على وصولك يا أخى. كنت سآتى حتى لو تحتم على أن أشعل النار فى الكتيبة . خلال دقيقة، الآن فى الشارع، نركز عيوننا، لا على الزوجين، بل على أنطونيو المنحوس الذى جاء بتصريح لزفاف أخته، وكما يفرض الواجب، يعانق كل الناس، بين أمه وأبيه، أقاربه و أصدقاءه، بينما يتناثر الموكب قليلا، يجب أن نكون حلماء، فجراثيندا لا تشعر بغيرة، فبجانبها مانويل السيف، رجل عظيم، يأخذها من ذراعها كما يحدث فى حفلات الزفاف الرقيقة، فيضرب وجهها للحمرة. إله السماء، كيف تستطيع أن تتجاهل هذه الأمور وهؤلاء الرجال وأولئك النسوة الذين لو كانوا قد دعوا إلهاً لنسوا أن يهبوه عينين، أو لفعلوا ذلك بمحض إرادتهم، لأنه لا يوجد إله جدير بأن يكون مبدعها وبالتالى لا يتحتم عليه رؤيتها.

يعود مانويل السيف وجراثيندا المنحوس ليكونا ملكى الحفلة، دامت الفوضى قليلاً، واستقر أنطونيو المنحوس بالخلف مع أصدقاء من سنه، فمن حين

لآخر يجب أن يعيد أوصال الصداقات المتناثرة، فقد طال غيابه فى سلفاتيراس، فى سادو و ليزيراس، ناحية الشمال، ثم فى منطقة ليريا، والآن فى الخدمة العسكرية . تُقام الحفلة فى بيت مؤجر. يوجد نبيذ، طشت به خروف، حلويات العرس، زجاجتا عرق، وأيضًا لحم خنزير، حفلة لا علاقة لها بالأبهة، فهذه حفلة الفقراء، فقراء لدرجة أننا قد نرى جوان المنحوس مكروبًا بيديه فوق رأسه لو أردنا أن نتذكره، لكن تلك فعلة وحشية، هذه النفقات والديون المضاعفة أربع مرات عند الدكان وبائع الخردوات، وهم الكلاب المعروفة التى ستعوى بعد ذلك خلف كعبى المديون، لكن الآن يصمت الخونة، ألا تريد حقًا شيئا آخر، فكّر جيدًا فابنتك لا تتزوج كل يوم.

لا أحد يبدأ فى الأكل حتى يأتى القس أجاميديس، لعنة الله عليه، لو يشعر بالجوع الذى أشعر، ويرى معدتى التى تغلى أمام رائحة هذا القدر الشهية، لا أدرى كيف استطعت أن أصل لهنا، فلم أتناول عشائى ليلة أمس لتكون شهيتى اليوم فى كامل نهمها. لا أحد يعترف بهذه الأمور، مع أنها موجودة وتفيض، فالشح، مثل عدم العشاء لتستطيع الغداء بأكبر كمية على حساب الآخرين، إحدى نقاط الضعف البشرى التى نعرفها جيدًا، كما نعرف منطقياً نقاط ضعفنا، وهو ما يجعلنا نغفر ضعف الآخرين. لا سيما عندما يصل القس أجاميديس، يقول كلمتين لتوماس السيف وجوان المنحوس وزوجته، لا تسمع فاوستينا

جيدًا ما يقوله، لكنها توافق بهزة رأس متماسكة، ويظهرعلى وجهها تعبير يختلط فيه الاحترام البنوى مع مسحة غاية فى الصفاء، لكنها ليست منافقة، يالها من امرأة مسكينة، إنما رنين صوت الأب أجاميديس يسبب لها أزيزًا غريبًا فى سمعها، ولولا هذا الأزيز، لسمعت تماماً. يتعامل القس أجاميديس بأبوية مع العروسين، يباركهما يمنة ويسرة بيده اليمنى، وهكذا شرد الجوع للحظة، لكنه الآن يضغط من جديد، أخيراً سيبدءون. جاءت الأطباق الغويطة والصوانى، كلها مستعارة، إنها مبالغة، فهناك طبقان لم يستعيروهما، أما بالنسبة للصينى القليل الخاص بالعروسة فقد كانت فاوستينا حازمة، لا يمكن استعماله، سأرتب أنا أمرنا، فهذا ما ينقص، أن تبدئى حياتك الزوجية بأطباق مكسورة، حتى يحضر لك الفأل السيئ. أخيراً أكلوا، فى البداية بكل نهم، ثم بعد ذلك بتأن، فكلهم كانوا يعرفون أنه لا يوجد أكل كثير، فلا الخروف ولا لحم الخنزير يكفى، أما النبيذ فكان غزيراً، حمداً لله .

بعد فترة نهض الأب أجاميديس، قام بإيماءة طالباً الصمت، إيماءة واحدة، ولا حتى طلب الصمت، فمجرد نهوضه كان يفرضه، كان طويل القامة فى غاية النحافة، وهو الأمر الذى أثار بلبلة فى الأبرشية حيث كانوا يتناقشون حول أين يذهب ما يأكله الأب أجاميديس، فلم يكن يأكل قليلا، وتم البرهنة على ذلك فى حفلات الزفاف و التعميد، نهض، نظر

للحشد المحيط بالمائدة، طوى أنفه الحساس أمام إهمال الأطباق و أدوات المائدة، إنهم أناس لم يعرفوا التربية، يا سيدة رحمة، لكنه بعد ذلك شعر بالشفقة تملؤه، ربما الشفقة المسيحية، وقال بعض الكلمات: أبنائى الأعزاء، أتوجه إليكم جميعا وخاصة العروسين، فى هذا اليوم السعيد الذى فيه سرنى عقد القران المقدس بين جراثيندا المنحوس ومانويل السيف، هى ابنة جوان المنحوس وفاوستينا جونكالفيس، وهو ابن توماس السيف و فلور مارتينيا، رحمَها الله. ولقد نذر كل منهما الوفاء للآخر والتعاون المتبادل بينهما، وهو نذر تطالب به الكنيسة الأم المقدسة كل من يأتيها طالباً تقديس القران بين رجل وامرأة حتى الموت الذى يفرقهما. أخطأ الأب أجاميديس عندما أتى هنا بسيرة الموت، حيث أغمض توماس السيف عينيه حتى لا تهرب الدموع منهما، لكن لا سبيل له لكبحها، فالدموع مثل المياه التى ترشح من فتحات جدار مشروخ، يتظاهر الجميع بعدم الانتباه له، وهذا أفضل ما يفعلون، ومازال الأب أجاميديس يثرثر ويثرثر، ويعلم الله أين ينتهى، هذه الأرض التى نسكنها صغيرة، لكن لحسن حظنا نجد فيما بيننا صداقة عميقة، خالية من نزاعات وأباطيل رأيتها فى أماكن أخرى قد مررت بها، وإن كان حقيقة أنكم لا تقتربون كثيرًا للكنيسة، الأم المحبة التى تنتظر فى كل ساعة أولادها، فحقيقة أيضًا أن لا أحداً منكم تقريباً يتخلف عن تقديم القرابين، ومن يتخلف فهم نعاج ضالة منذ

زمن بعيد، وليس عندى أمل فى إنقاذهم لسوء الحظ، فليغفر الرب لى، فلا يصح أن يفقد خليفة الرب الأمل أبداً فى قيادة قطيعه حتى حجره تعالى . كان حاضرًا أحد المهرطقين، بجانب زوجته التى لا تحط من قدر زوجها، إنه سيجيسموندو كاناسترو وجوانا كاناسترو، المبتسمان كما لو كانت كلمات الأب أجاميديس سلال ورد. بلا غرور، أعتقد أننى أقمت الأدلة على اهتمامى المستمر بكم كراع طيب، عندما جرت الإضرابات منذ ثلاث سنوات، و أتمنى أن تكونوا جميعًا متذكرين، وهنا لدينا بعض من الذين أطلقت سراحهم من السجن، ولن يتركونى أكذب، وكان من الممكن، لولا سمعة جبل لافرى الطيبة، أن يُدخلوا الاثنى وعشرين رجلاً فى ميدان الثيران، كما حدث لرجال آخرين من أراض أقل تقديراً من قبل ربنا والعذراء، رغم أننى أعرف أن هذه السمعة غير ناجمة عن كفاءاتى، فأنا مذنب، لكننى تائب .

عند هذه النقطة ضرب وجه جوان المنحوس للحمرة بشدة، وتحتم عليه النظرلأحد، فنظر لسيجيسموندو كاناسترو الذى بدوره كان يحدق نظره فى القس بعينين جادتين وقد كف عن الابتسام، حينئذ سُمع صوت أنطونيو المنحوس يقول" نحن فى حفل زفاف أختى يا سيدى القس، وليس الوقت مناسبًا للحديث عن الإضرابات ولا عن الكفاءات. كان الصوت صافيًا خاليًا من أى غضب، مع أنه كان غاضباً، فالتزم الجميع الصمت فى انتظار ما

سيحدث، وقال القس إنه سيتجرع نخب العروسين وجلس بعدها. " لم تكن فكرة صائبة، سيدى القس أجاميديس، أن تتذكر هناك هذه الأمور، فما فعلته يشبه ذكر الحبل فى بيت المحكوم عليه بالإعدام، هكذا قال نوربيرتو فيما بعد، "معك حق، لا أعرف كيف وأتانى هذا الوسواس، ربما أردت أن أظهر لهم أنه بدوننا، نحن الثالوث المقدس، الكنيسة والوسية والدولة، رمز السلام أينما وجدنا، أنه بدوننا كيف سيحافظون على أرواحهم و أجسادهم ؟ ولمن سيدلون ومن سيُدلى له بأصواتهم فى الانتخابات القادمة؟ لكننى أعترف أننى أخطأت، ارتكبت ذنبًا، ذنبًا كبيرًا، لهذا رحلت من هناك فى الحال بحجة واجباتى كراع، والحق أننى كنت شبه دائخ، رغم أننى حقيقة لم أتجرع سوى القليل من الثمالة تلك، خشية أن تسبب لى حموضة فى المعدة، فليس هناك أجمل من نبيذ قبوك، سيدى لامبيرتو .

حينئذ قال أنطونيو المنحوس" لقد رحل الأب أجاميديس، نحن الآن بين ناسنا، فليقل كل منكم ما يرغب بكل حرية وليفصح عن مكنون قلبه، فليتكلم مانويل السيف مع جراثيندا زوجته وأختى، وأختى الأخرى أميليا ألديها من تنظر إليه، حتى ولو لم تحادثه، وإن لم يكن موجودًا فلتفكر فيه، و سنفهم جميعًا، أحيانًا لا نستطيع أن نقوم بشىء آخر، وتذكرا يا أبوىّ حياتكما وحياتنا، ما فعلتماه فى شبابكما، وبهذه الطريقة ستغفرا لنا أخطاءنا، وليفكر الآخرون

فى أنفسهم وذويهم، أعلم أن من ذويكم من مات، لكن لو دعوتموهم لبعثوا، فالموتى لا يريدون إلا ذلك، و هنا أشعر أنا بوجود فلورمارتينيا، أحدكم قد استدعاها، لكن بما أننى أنا من أتكلم، سأستمر فى الكلام، ولا تندهشوا من بطولات الشفافية تلك، ففى الجيش لا نتعلم القتال فقط، فمن يرغب سيتعلم القراءة والكتابة، و الحكى، وبهذا يمكننا أن نبدأ فى فهم العالم و شىء من الحياة، فالحياة ليست فقط الميلاد والعمل والموت، أحيانًا يتحتم علينا التمرد أيضا، وهذا بالتحديد ما سأحدثكم عنه.

هنا انتهت المحادثات التى مضت على وتيرة معتدلة، وانحلت الأعين لكن يد جراثيندا المنحوس بيد مانويل السيف لم تنحل، ورحلت فلور مارتينيا، إلى اللقاء يا توماس، وحول المائدة تهيأت الأكواع، هؤلاء الناس لا يجيدون الإتيكيت، ولو أدخل أحدهم إصبعه فى فمه ليخرج ليف لحم خروف ممضوغ من بين تسوس ضرسه وأكله، فلا نسىء فهم ذلك، فنحن نعيش فى أرض لا يمكن أن تبدد الطعام، لا سيما عندما يتكلم أنطونيو المنحوس، بزيه القطنى، عن هذا نفسه، عن الطعام. حقًا أن الجوع يملأ جنبات هذه الأرض، فنجد أنفسنا مضطرين لأكل العشب ونسير ببطن مشدودة مثل جلد طبلة، وربما لهذا يفكر العقيد أن الحمار الجائع يأكل الشوك، ولأننا حمير، فى الكتيبة لا نسمع كلمة أخرى، الحقيقة أننا نسمع كلامًا آخر، لكنه أسوأ، لأننا حميرعلينا أن نأكل

الشوك، إذاً أقول لكم إن أكل الشوك أفضل من أكل طعام الكتيبة، الذى لا يمكن أن يقبله سوى الخنازير، وبلا شهية .

توقف أنطونيو المنحوس لحظة عن الكلام، شرب جرعة نبيذ ليتحدث بشكل أفضل، ومسح فمه بظهر يده، أفضل فوطة طبيعية، وواصل حديثه، يعتقدون أننا لو عانينا الجوع فى أرضنا فعلينا أن نحتمله جميعاً، لكن هناك يلتبس عليهم الأمر، لأن جوعنا جوع نظيف، والشوك الذى علينا نزعه تنزعه أيادينا، التى لو كانت قذرة فهى نظيفة، فلا توجد أياد أنظف من أيادينا، هذا هو أول ما نتعلمه عندما ندخل الكتيبة، ولا يعد ذلك جزءًا من تعليمات السلاح، لكن يمكن استنباطه، ويستطيع الرجل منا أن يختار بين الجوع الكامل أو الخجل من أكل ما يقدمونه لنا، حقا هم جاءوا أيضا ليبحثوا عنى فى جبل لافرى لأخدم الوطن، كما يقولون، لكننى لا أدرى ما معنى خدمة الوطن، هل الوطن أمى و أبى، كما يقولون أيضًا، أنا أعرف أن أمى و أبى الحقيقيين، كما يعرفهما كل منكم، يخرجان الخبز من فمهما ليعطياه لنا، لو كان الوطن أما و أبا فعليه أن يخرج الخبز من فمه ليضعه فى فمى، ولو تحتم على أن آكل شوكًا، فعلى الوطن أيضًا أن يأكله، إلا إذا اعتبر الوطن أن هناك من هم أبناء الوطن ومن هم أبناء الغانية .

استاءت بعض النساء، وقطب بعض الرجال حاجبيهم، لكن أنطونيو المنحوس، المتمرد بعض الشىء،

رغم زيه الرسمى، يغفرون له كل شىء منذ عرف أن يشغل مكان الأب أجاميديس، ومازال يقول عبارات تشبه خمر قبو السيد لامبيرتو، إنها مجرد صورة خيالية، لأننا لم نتذوق أبدًا هذا الخمر، حينئذ قررنا أن نعترض فى الكتيبة على طعام الجنود، فلا نأكل ما يقدمونه لنا، كما لو كنا خنازير ترفض الحوض الذى يلقون به قاذورات أكثر مما يحتملها الخنزير، لا يهمنا أن نأكل فتات الأرض فى العام، فالأرض نظيفة مثلنا، لكن ما يقدمونه لنا، لا، وأنا، أنطونيو المنحوس الذى أحدثكم، من كنت صاحب الفكرة وهذا يشرفنى، فالواحد منا يعرف الفرق بعد تحقيق مبتغاه، تحدثت مع زملائى وكلنا كنا متفقين فى أن معاملتهم لنا تشبه البصق فى وجوهنا، وحينئذ جاء اليوم الموعود، قدموا لنا الطعام ونحن جلسنا كما لو كنا سنأكله، لكن الأكل عاد كما جاء، وبرغم صرخات الشاويشيّة لم يلمس أحدنا الملعقة، وكانت هذه ثورة الخنازير، وجاء بعدها ضابط نوبتجية النهار وألقى فينا خطبة مثل خطب القس أجاميديس، لكننا كنا كما لو لم نفهم لا القداس ولا اللاتينية، فى البداية حاول إقناعنا بالحسنى، بكلمات عذبة، لكن سريعًا ما فقد وداعته وبدأ فى الصياح، أمرنا جميعًا بالخروج، وفهمنا هذا الأمر لأننا كنا نريد الخروج من المطعم، وعند خروجنا كنا نقول بعضنا لبعض بفم معوج صلابة، شجاعة، فهنا لا أحد يتراجع، وحينئذ خرجنا، وتركونا بالخارج نصف ساعة، وعندما ظننا أن هذا كان عقابنا شاهدنا

رشاشات موجهة صوبنا، كل شىء موافق للنظام، رماة وخدم، وتوابيت ذات شرائط، وحينئذ اقترب الضابط وقال إما أن نذهب لنأكل وإما يصدرأمراً بإطلاق النار علينا، هذا هو صوت الوطن، كما لو كان صوت أمى عندما تقول إما أن تأكل و إما أقطع رقبتك، لم يصدق منا أحد، لكن ما حدث أنهم شدوا الأجزاء وبداية من هنا كنا لا ندرى ما يمكن أن يحدث، أتحدث عن نفسى فأقول إننى شعرت بعمودى الفقرى يرتعش، أيكون حقيقة، أيطلقون النار علينا، أتكون مذبحة سببها طبق شوربة، أيستحق الأمر، ليست مسألة تراجع حماستنا، لكن فى مثل هذه المواقف لا يمكن السيطرة على التفكير، وخلال وقفتنا هذه سُمع فى الكتيبة صوت لا أعرف مصدره، ولا زملائى الأقرب منى كذلك، كان صوتا هادئًا جدًا، كما لو كان يسألنا عن صحتنا، زملائى، هنا لا أحد يتحرك، و صوت آخر من الجانب المضاد " يمكنكم إطلاق النار، وحينها لم أعرف ماذا حدث، وإلى الآن أود أن أبكى، صرخ جنود الكتيبة بأكملهم، كما لو أنهم فى مبارزة، يمكنكم إطلاق النار، أنا مقتنع أنهم ما كانوا ليطلقوا النار صوبنا، لكن لو فعلوها، أعرف أننا ما تحركنا من هناك، وكان هذا هو انتصارنا، ليس تغيير الطعام، فأحيانًا نبدأ الصراع من أجل شىء فنفوز بشىء آخر، وهذا أفضل ما فى الأمرين. توقف أنطونيو المنحوس لحظة بعدها أضاف، بحكمة تفوق سنه، لكن لنفوز بالثانية علينا أن نبدأ فى الصراع من أجل الأولى .

هنا سنرى كيف تبكى النساء وتهرب الدموع من أعين الرجال، إنه أجمل حفل زفاف يمكن أن تتخيله، لم يشهده قط جبل لافرى، وحينئذ ينهض مانويل السيف، ويعانق أنطونيو المنحوس مفكرًا كيف صار الجيش مختلفًا الآن، فهو قد أدى الخدمة العسكرية فى أزورس وسمع أحد زملائه يقول، مهددًا لا يعرف مَنْ، عندما أحصل على الليسانس، سأدخل فى المخابرات والدفاع عن الدولة، وإن قابلت من لا أستخف ظله، أعتقله، و إن واتتنى الرغبة فى قتله، أطلق عليه رصاصة و أقول بعدها إنه حاول الهرب، فليس هناك أسهل من ذلك.

نهض الآن سيجيسموندو كاناسترو، بطوله الفارع وجسده النحيل الذى يشبه هراوة جافة، شرب نخب العروسين، وعندما انتهى الجميع من تذوق هذا النبيذ الحلو بلذة، قال إنه سيحكى حكاية مختلفة عن قصة أنطونيو المنحوس، وإن كانت تشبهها قليلاً، ففى مسائل الحكايات والأحوال دومًا ما نجد تشابهًا لو أمعنا النظر، مع أن ذلك يبدو مستحيلا. منذ سنوات طوال ، توقف عن الحديث ليتأكد أن الجميع منتبهون، وقد كانوا، وبنظرات شاخصة، بعضهم خاملاً لكنهم يقاومون، وحينها تمكن أن يواصل، منذ سنوات طوال، خرجت لأصطاد الطيور ووقعت حادثة، ياله من رجل، سيروى لنا حواديت حلوة أو ملتوتة، ثم يقول خلصت الحدوتة، لكن سيجيسموندو كاناسترو لا يمزح، ولا يرد على من يقاطعه، فقط ينظر حوله معزيًا نفسه

من عدم وعيهم، وسواء بسبب هذه النظرة أو بسبب الفضول لمعرفة نهاية الحدوتة، حل الصمت، وجوان المنحوس، الذى يعرف جيدًا سيجيسموندو كاناسترو، يعرف عن يقين أن هذا الرجل له أسراره، القضية تكمن فقط فى أن نفهمه. فى ذلك الحين لم يكن عندى بندقية رش، فكنت أستعيرها، من فلان مرة ومن علان مرة أخرى، حسب ظروفهم، وكنت أتمتع بمهارة فى الصيد، وليقل ذلك أبناء جيلى، وكان هناك فى ذلك الحين كلب كنت أسير معه أعلمه الطريق لفترة، وكان كلبًا بارعًا، بأنف رقيقة، حتى ذهبت ذات يوم مع زملاء لى، كل منهم معه كلبه، وكنا مجموعة ظريفة، و عدنا جميعًا غانمين، معنا ما يكفينا و يفيض، حدث ذلك فى ضواحى جواريتا دى جوديال، نهض فجأة حجل(*) برى، وسار كشعاع، أوجه البندقية صوب وجهه، فيشرع فى الطيران مفزوعًا فى اللحظة التى أكون فيها على وشك الضغط على الزناد، والحق أن الطلقة لم تصبه، والحمد لله لخلو المكان من صاحب، فبذلك حُفظ ماء وجهى، لكن ثابت، وهذا اسم كلبى، هرول ناحية الحجل، فكر ربما أنه مجروح وأنه يسير بين الجولق، الذى كان يشكل هناك أرض شعراء مغلقة لم أرها سوى مرات قليلة، وكانت توجد عدة أحجار كبيرة تغطى الرؤية، وما حدث هو أن الكلب تاه منى، ورغم كثرة ندائى عليه، ثابت، يا ثابت، وتصفيرى له، لم يظهر، وكان عارًا فى ذلك الوقت أن

(*) طائر الحجل : طائر في حجم الحمام أحمر المنقار والرجلين طيب اللحم .(المترجم).

أعود للبيت بدون الكلب، هذا بدون الكلام عن الحنق، فهذا الكلب لم يكن ينقصه سوى الكلام. كان المستمعون فى غاية الانتباه، يستمعون ويتأثرون، لكنها لم تكن حادثة تبعث السعادة فى نفس الرجال أو تسر النساء، وحتى لو كانت اكذوبة مثل حجر الرحى، إلا أنها حدوتة حلوة، محكية بشكل جيد، ومن جديد سيواصل سيجيسموندو، بعد عامين تحتم على أن أسير من جديد بهذه الأرض ورأيت فضاء كبيراً من أرض الشجيرات نظيفاً، فقد مروا من هنا وسووا الأرض، لكن بعد ذلك، لا أدرى لماذا، كفوا عن ذلك، وحينها تذكرت ما حدث، فدخلت بين الأحجار، ولا أعرف ماهى تلك الفكرة التى قادتنى، كان يبدو أن أحداً يقول لى: أكمل، أكمل، لا تتراجع يا سيجيسموندو كاناسترو، وماذا أرى، هيكل الكلب هناك واقفًا على أرجله ينظر لهيكل الحجل، سنتان وهما على هذه الحالة، يحتمل كلاهما بأرجل راسخة، يبدو أننى أراه، أرى كلبى المخلص ثابت، ببوزه متشامخًا، واقفًا على أرجله، لم تهب ريح لتدفنه ولا مطر ليكسر عظامه .

جلس سيجيسموندو كاناسترو ولم يقل شيئًا آخر . وكذلك بلع الحاضرون لسانهم، لم يضحك أحد، ولا حتى أصغرهم سناً، هؤلاء الأكثر ريبة، وحينئذ قال أنطونيو المنحوس، حقيقة ما روى عن هذين الاثنين، الكلب والحجل، فقد حلمت يومًا بهما، وليس هناك برهان أكبر من ذلك، وبمجرد أن قال ذلك صاح

المستمعون فى صوت واحد، أما زالا هناك، أما زالا هناك، حقا ما زالا هناك "، وأطلقوا قهقهة مدوية. وبمجرد أن بدءوا فى الضحك استمروا فى ثرثرتهم وهكذا قضوا وقت الظهيرة كاملا، سأحكى أنا حكاية، الآن احك أنت، يشرب كلانا، فى هذه الساعة تكون أرض الطابور بالكتيبة خالية بينما هيكل جسد الكلب ثابت ينظر لهيكل جسد الحجل، كلاهما فى رسوخه ثابت. وعندما هبط الليل، تبادلوا كلمات الوداع، بعضهم رافق جراثيندا المنحوس ومانويل السيف حتى باب البيت، غدا يوم عمل، الحظ هو أن تجد عملا . لا تتأخرى يا جراثيندا ، فى التو يا مانويل . وفى فناء البيت المجاور، استغرب كلب الجيرة الجديدة، فعوى .

يعتبر جوزيه كالميدو حارساً كما الحراس الآخرين. عندما يكون فى الوحدة لا أحد ينتبه له، فهو ليس أكثر من النكرة فى مكان معروف، وعندما يكون خارجها، فى مهمة دورية أو مهمة أخرى، يكون رجلاً حصيفاً، صبوراً على الفواجع، وكما لو كان كل ذلك يجعله شارداً، فيشرد بذهنه. ذات يوم، لا يتوقعه أحد، ولا حتى هو نفسه، سيسلم لقائد ثكنة جبل لافرى، ليواصل الإجراءات المتبعة، طلباً بالاستقالة من الوحدة العسكرية، وسيرحل بعيداً عن هنا بصحبة زوجته وابنيه، وسيتعلم أن يضع قدميه على الأرض كأى مواطن وسيقضى بقية حياته ناسياً أنه كان حارساً. إنه رجل له قصة، لكن للأسف لا يمكن سردها هنا، باستثناء ما يتعلق بلقبه، لأنها قصة قصيرة و مضحكة، وتوضح جمال الأسماء وانفراد ميلاده، فليس هناك أسوأ من ضعف الذاكرة أو قلة الفضول التى تجعلنا لا نعرف أو ننسى أن اللقب " سوسا"(*) يعنى حمامة مطوقة، لاحظوا الجمال،

(*) سوسا: هو لقب المؤلف حيث يسمي: جوزيه دي سوسا ساراماجو. (المترجم)

وليس هذه البذاءة الموضوعة فى شهادة الميلاد، التى سريعًا ما قصوا جناحيها، إنه من الخطر الكتابة عن ذلك أو الحديث عنه . لكن أجمل شىء عندما يكون جمال الأسماء قادماً بشكل إجبارى من الأسلاف أو من كلمات تقال بدون نية أن تكون أسماءً، مثل تحويل اسم بانطاليون إلى اسبانطاليون(*)، عائلة سعيدة تلك التى تحمل هذا الاسم وتسير فى الدنيا بهذه المهمة الجديدة تطارد الأسود فى الغابة والمدينة. لكننا نتحدث الآن عن الحارس جوزيه كاليدو وعن قصة اسمه القصيرة والطريفة عند مولده، وهذه هى القصة، التى جاءت من تبجح غير مقصود لأحد أجداده، الذى كان بلا أدنى شك سيموت من الخوف، لكنه لم ينتبه للخطر الذى أحاط به، و بعد ذلك أجاب من سأله عن أسباب عدم خوفه قائلا: أى خوف؟ فكان جوابه صريحاً وتلقائياً فأذهل الحضور جميعهم، وبذلك صار كاليدو الشجاع بلا قصد و التصق الاسم بنسله، حتى هذا الحارس، وأولاده أيضًا، بالرغم من أنه بعد ذلك جاءت رواية أخرى تقول إن كاليدو مشتق من قمة الهدوء، أو شدة الحر، مثل هذا الحر الموجود الآن عندما يخرج من نقطته فى مهمة، حاملاً معه أوامر سرية.

عليه أن يسير ثلاثة كيلومترات ذهاباً وأخرى إياباً، مهمة راجل، فهذه هى حياة الحارس، ديك آخر

(*) اسبانطاليون: اسم يعني قاهر الأسود. وكاليدو يعني الشجاع أو الهادئ . (المترجم).

يؤذّن لحراس الفروسية، وهنا يسير جوزيه كالميدو، يهبط من جبل لافرى إلى الوادى، ينحرف صوب الغرب وبعدها يميل ناحية الشمال، مستغلا الطريق الممهد، تصير حقول الأرز على يساره، إنه صباح جميل من أيام يوليو، حار كما قلنا، أو كالميدو، كما تقول إحدى الروايات، لكن وقت الظهيرة يصير قيظًا لا يطاق. يوجد خيط من سائل متقطر لأسفل، عطش جم، ماء قليل، يطأ برسوخ وبحذائه ذى الرقبة حافة الطريق، ويشعر برجولته وهو يطؤها، بينما تشرد رأسه فى عنان السماء، وهى عبارة كان لها معنى وفقدته، كنا نسير على الأسفلت، نهبط من المنحدر ناحية اليمين، نعثر على ظِل رطب تحت القنطرة، والآن نختبئ فى ظل أغصان لسان العصفور الوارفة، هذا المنظر يشبه الصحراء، من رآك ومن يراك! البركة الجافة، أطلال طاحونة الماء فوق الفرن بقراميد ممزقة، يبدو أن صاحب الوسية يدمر كل ما يواجهه، يريح جوزيه كالميدو بندقيته، يخلع قبعته ويجفف بمنديل جبهته حيث يُظهر الجلد الغامق والفاتح أثر الشمس وغيابها، حتى أنه يبدو أن الجزء العلوى من رأسه لا ينتسب له، بل ينتسب للقبعة، هذه افتراضات من يبحث عن الحقيقة .

لقد اقترب من قبلته، تل الخرق، ونظرياً سيصل عند ساعة الغداء. سيحضر معه جوان المنحوس فى العودة، بأى عذر سيصطاده، وهى حالة لا معنى لها ولا علاقة لها به، القصة تحتاج ألا تكون معقدة،

فكلما كانت بسيطة كانت أفضل، كانت قابلة للتصديق. بين الأشجار يرى المعسكر، الرجال يقفون على أقدامهم أمام النار، يسحبون القدر قبل أن يغلى أو يتشقق، سيكون سريعًا، وبمجرد أن يصل سيقول، تعال معى للنقطة"، لكن جوزيه كالميدو لن يخطو خطوتين حتى تبحلق فيه عيون كل الحاضرين، لو نظروا. يتقهقر خلف بعض الكثبان الرملية شديدة الارتفاع ويبقى هناك، حاسبًا الوقت الذى سيستغرقه جوان المنحوس فى تناول غدائه القليل، بينما مازالت السحب تعبر السماء، سحب قليلة لدرجة أنها لا تخلق ظلة. يدخن جوزيه كالميدو سيجارة وهو جالس فى الأرض، ساندا بندقيته على جذع شجرة، نازعًا سلاحه بنفسه. حياة الحراس حياة مرفهة، خالية إلا من العمل القليل، يجلس الحارس يشاهد مرور الأيام، وفقط من حين لآخر تطرأ أحداث جادة، رغم أن هناك من يتوقعها، وبعيدًا عن هذا، تدخل شهور وتخرج شهور، تسود الطمأنينة والسكينة فى الوسية، والسكينة و الطمأنينة فى الكتيبة والمنطقة، بين التقارير وعسس الليل، بين السيارات وشكاوى الجيران الأشرار الدائمة . الواحد منهم يعيش بهذا الشكل، وبدون أن يشعر يجد نفسه فى سن المعاش، إنها أفكار رجل مسالم، حتى يخيل لنا أنه لا يحمل بندقية وخزينة رصاص، ولم يمش سبعة فراسخ، فوق رأس كالميدو يغرد عصفور ما، لا يضع اسمه فى عقد بصدره، يتقافز من غصن لغصن، يراه من مكانه، يشبه

المروحة بذيله وجناحيه. لو نظرنا فى الأرض، سنرى قبيلة الحشرات الحقيرة، النملة التى ترفع رأسها كما الكلاب، والأخرى التى دومًا تحملها صريعة، والعنكبوت الصغير، أين سيزج ما يأكله، لكن بدون شرود، علينا أن نذهب لنقبض على رجل، نحن فقط ننتظر أن ينتهى من طعامه، أنا حارس نعم لكن عندى قلب، ماذا تظنون بى .

لا توجد مآدب فاخرة فى الوسية . ينظر جوزيه كاليدو من بين الشجيرات، لقد انتهوا جميعهم. ينهض حينئذ، يتنهد ربما من المجهود الذى يبذله أو سيبذله، يعلق بندقيته على كتفه، يصدر إيماءات موزونة، لا أهمية لهذه الإيماءات، بل هى فقط نقاط للعون، طرق ليتماسك أمام نفسه، وألا ينهزم أمام عدم منطقية أفعاله، ويبدأ فى الهبوط صوب أعمق مكان فى الوادى حيث يقبع الرجال. يرونه من بعيد، ويعلم الله كيف حال القلوب النابضة بسرعة والمرتجفة، فقوانين الوسية صارمة، سواء التى تنظم ملكة البلوط أو جمع الحطب، هذا بدون الحديث عن الاعتداءات. فى النهاية يقترب جوزيه كاليدو، وعلى بعد خطوات ينادى لرئيس العمل، فهو لا يرغب أن يقترب حيث يجتمع الأجراء يثرثرون، فالرجل ليس صبياً لكنه يعرف الحياء، قل لجوان المنحوس إننى أريده فى كلمتين .

يرتجف قلب جوان المنحوس ويقفز من مكانه كقلب عصفور صغير . ليس لأنه يعترف أنه متهم

بذنوب غريبة، ذنوب من تلك التى اعتادوا ألا تغفر بالعقاب والركلات، وإنما لأنه يشعر أنه هو المطلوب، وأنه، بداية من اللحظة التى يقول فيها رئيس العمل، ياجوان يا منحوس، اذهب لتتحدث مع الحارس، سيصير كل شىء مثل نزع قشرة من شجرة بلوط، وسماعها تصر صريرًا، ومعرفة أن الجهد سيصل لنهايته، جهدى وجهد الشجرة، لا ينقص سوى صيغة النداء، ياااااااا، وضجيج القشرة عند انتزاعها، كرررر، أمرك يا سيد كالميدو، ماذا تريد منى، هكذا يسأل جوان المنحوس محاولاً أن يبدو هادئاً، كما لو أنه يهنئ الحارس على أناقته، من حسن حظنا أن قلوبنا مخفية، وإلا لكنا جميعاً مدانين من قبل أو من بعد بسبب براءتنا، عندما لا ندان بسبب جرائمنا، فالقلب طائش عاجز عن الرصانة ولا يعرف الصبر، وذلك لأن صانع القلوب لم يكن حاذقًا فى مهنته، لكن المكر نتعلمه، الحمد لله، وإلا كيف كان سيقول جوزيه كالميدو، بدون أن يبلغه أحد برسالة، الأمر غير مهم، هو فقط عبارة عن استيضاح أمر فردين سرقا بعض الغُبُط، والمالك يقول إنهما من سرقا، وهما ينكران ويقولان إن جوان المنحوس شاهد على أنهما لم يسرقا، وكما ترى، تلك قضية عسيرة لا أفهمها أنا نفسى. الحياة دومًا هكذا، مهما كانت النيات حسنة، يستحوذ التشويش على ذهن الرجل عندما يجب ألا يستحوذ عليه وما يقوله يتحول لرداء الشيطان، وهو الرداء الذى يغطى ويكشف فى آن واحد، فهو رداء

قصير، حتى عندما يقول جوان المنحوس بكل براءة الدنيا أنا لا علاقة لى بهذه القضية، فلماذا تحشروننى فيها، فترد عليه السلطة بحجة دامغة وثقة مطلقة، لا تخف، ستذهب، قل شهادتك وارحل فى الحال .

وهكذا يكون . يستعد جوان المنحوس لجمع عدته وبقايا طعامه فى حقيبته الخيش، لكن جوزيه كالميدو يواصل حديثه سابحاً فى موجة من اختراعه ويقول: الأمر لا يستحق، ستعود فى التو، فالقضية لا تستغرق وقتاً طويلا. وبعد أن تحقق أكذوبته مبتغاها، يبتعد وبصحبته جوان المنحوس المسكين، العائش فى حالة من السكينة، سائرًا بقبقاب يخشخش ينتعله فى عمله. من هناك لجبل لافرى يسير كالميدو معقد الحاجبين، كما يناسب حارس قبض على سجين ويرافقه، لكن هذا ليس هو السبب وإنما السبب الحقيقى هو حزنه لتحقيق هذا النصر الضئيل، من أجل هذا ولد رجلان : سجين و سجان. وجوان المنحوس، الغارق فى تفكيره، وفى همه غير القليل، كان يحاول أن يقنع نفسه أنه فعلا هناك سرقة للغبط وهناك بريئان يمكن بشهادته أن ينقذهما .

يدخل جوان المنحوس من جديد فى نقطة الحرس التى حجز فيها عدة ساعات منذ أربع سنوات ماضية. كل شىء على ما كان، كأن الزمن لم يمر. يتوجه جوزيه كالميدو إلى الأونباشى ليبلغه أن المقبوض عليه قد حضر، بلا جديد، وأن المهمة قد تمت، لكن

من فضلكم . يسخر كالميدو داخل نفسه . أجلوا الميداليات لمناسبة أخرى !! دعونى هنا مع حياتى، مع سحب أفكارى هذه، فى يوم ما ستنشروا أمامى ورقة مختومة، ويقبع أمامى السيد الكوماندا العام للحرس القومى الجمهورى، بسعادته. الأونباشى تباكو يأمر بالدخول ويقول: اجلس يا سيد منحوس، ولا غرابة فى هذه المعاملة المحترمة، فهم ليسوا دومًا جلادين. أتعرف لماذا استدعيناك لنقطة الحرس . كان المنحوس على وشك أن يقول نعم فالأمر يتعلق بسرقة الغبط، لكنه لا يستطيع، ويعجز حتى عن فتح فمه، والحمد لله، فلو فعل لبقى جوزيه كالميدو موصوماً بالكذب، ولحسن الحظ أضاف الأونباشى تباكو على الفور، لأنه كلما أسرع كان أفضل إذاً أنت لا تعرف ما كنت تفعله فى فينداس نوفاس، لابد أن هناك خطأ ما، فأنا لم أفعل شيئًا. أنظر، لدى هنا أمر من نقطة فينداس نوفاس بالقبض عليك بتهمة الشيوعية "

لدينا هنا نموذج لحوار بسيط ومباشر، خال من أى ترتيب أو تعاقب سريع للنغمات فى الأحبال الصوتية، خال أيضًا من معية أو تطعيم الأفكار أو الذكاء، فلا يبدو أنها أمور جادة، كما لو قالوا ماذا، كيف ذلك. حسنًا، شكرًا وحضرتك أحدهم يرسل لك التحيات من فينداس نوفاس، يا صديقه. بلغه سلامى إن رأيته. داخل رأس جوان المنحوس دق فجأة لسان جرس، صوت هائل كما لو كانت أبواب حصن تغلق بصخب، هنا لا أحد يدخل. لكن صاحب الحصن

يـرتجف، تـهـتـز يـداه وصـوتـه، دافـعـى عن نـفـسـك، يـاروحى، ومـا كـان ذلك إلا لحـظـة، هـى الـفـتـرة الـتى تظـاهـر فيـهـا بـالـدهـشـة، بـالمفـاجـأة، بـالـبـراءة المهـانـة والمحـتـقـرة، سـيـدى، لا تـقل لى مـا تـقـوله، فـمـنـذ أربع سنـوات وأنـا لا أورط نـفـسـى فـى هـذه الأمـور، مـنـذ أن سـجـنـونـى فـى مونـتـيـمـور، لابـد أن هـنـاك خـطـأ، فـيـقـول الأونـبـاشـى تـبـاكـو سـيـكـون خـيـر لك ألا تـكـون متـورطـاً، وحينـهـا سـتـطلق الـسـلطـة سـراحك فـى الحـال . ربـمـا لا يـأتـى الأمـر بشـر، ربـمـا هـو إنـذار زائـف، قـرصـة أذن لا سـبب لهـا، ربـمـاً لا يـوجـد أحـد مـخـنـوق، ربـمـا يـنـطـفـئ الحـريـق وحـده، بـدون أن يـضـطـر أحـد لحـرق يـديـه، إذاً من فـضـلك، سـيـدى الأونـبـاشـى، بـلـغ زوجـتـى وقـل لـهـا تـأتـى لـتـتـحـدث مـعـى. لا شـىء أكـثـر طـبـيـعـيـة من قـول ذلك، لـكن الـكـومـانـدا، والـكـومـانـدا هـنـا هـو الأونـبـاشـى لأن جـبـل لافـرى لـيـسـت قـريـة مـهـمـة، هـى مـجـرد قـريـة صـغـيـرة داخـل وسـيـة رحـبـة، لا تـحـتـاج أكـثـر من أونـبـاشـى مـنـوِّب، هـذا الأونـبـاشـى يـجـيـب بـثـبـات كـمـا لـو أنـه الكومانـدا العام صاحب الأمـر فى لشبونـة، لا يا سـيـد، زوجتك لن تسـتـطيع التـحـدث معـك، لا هـى ولا غـيـرهـا، فأنت تعتبر خطراً، أطلب ما ترغب وسيذهب عسكرى ليحضر ما تحتاجه من بيتك .

جـوان المنـحـوس يعـتـبـر خطـرًا! سـاقوه الـى غـرفـة هـى الـزنـزانـة، كـان جـوزيـه كـالمـيـدو مـرة أخـرى من اصطحبه، كما لو أنه لا يوجد غيره فى النقطة، فقال جوان المنـحـوس قـبل أن يـغـلق عـلـيـه الـزنـزانـة إذاً أنت خـدعـتـنـى، فـى الـبـدايـة لم يـرد كـالمـيـدو، كـان يـشـعـر

بالإهانة، أراد أن يفعل خيرًا وهذه هى النتيجة، لكنه لم يستطع أن يلتزم الصمت كمن اقترف جريمة، كنت أريد ألا تأتى مهموماً، جوزيه كالميدو رجل لا يستحق الزى الذى يرتديه، لهذا سيقلعه ذت يوم وسيبدأ حياة جديدة فى أرض لا يعرف فيها أحد أنه كان حارساً، وهذا هو كل ما نعرفه عن حياته .

دارت فاوستينا المنحوس وبنتاها حول النقطة. هربت الدموع الحانية من مآقيهن، لا يعرفن بماذا يتهمونه، كل ما يعرفنه هو أن الزوج والأب سيرحلونه إلى فينداس نوفاس، ولأن المصائب لا تأتى فرادى، هكذا اعتادوا أن يقولوا، ففى اللحظة التى غاب فيها الثلاث، لسبب أو لآخر، جاءت من فينداس نوفاس سيارة جيب بصحبة دورية تحمل بنادق وحرابًا بحثًا عن المجرم . عند عودتهن سيعرفن أن من يبحثن عنه غير موجود، إنهن ثلاث نسوة فى الطريق، أمام باب نقطة الحراسة، المغلق فى وجوههن. إنه غير موجود، إنها أوامر تلقيناها، عدن لبيتكن، ففى الوقت المناسب ستعرفن كل شىء، يقولون ذلك للمسكينات التعيسات، ربما من قبيل السخرية، مثل تلك السخرية التى تحدث بها الحراس القادمون من فينداس نوفاس حين قالوا لجوان المنحوس، هيا، أدخل هنا، فى السيارة، حيث ستتفسح . هذا الرجل لا يستدعيه الحرس ليتفسح فى أماكن أخرى، متنقلا على حساب الوطن، فهذه الأشياء ندفعها جميعًا من جيوبنا، حقًا جوان المنحوس يعشق السفر، يتمنى الخروج من أرض

الوسايا ورؤية أراض أخرى، لكن بما أنهم صنفوه خطرًا فلا ينظرون لتعب الحرس، الذين يقدرون راحته، ولا سعر البنزين، ولا انخفاض قيمة السيارات، وهكذا يعدون فى الحال عربة جيب ودورية ببنادق وحرابًا ليذهبوا لجبل لافرى ليبحثوا عن المجرم ويرحلوه بكل أمان لفينداس نوفاس. أدخل هنا، فى السيارة، حيث ستتفسح"، لو لم تكن هذه سخرية، فأنا لا أدرى ما هى السخرية !

تميز السفر بالقصر والصمت، ونفد ينبوع المرح سريعاً من الحارسين، دائمًا نفس الكلمات الساخرة، وجوان المنحوس، بعد أن فكر وأعاد التفكير، قال لنفسه، ضربوا الأعور على عينه، ومادامت النتيجة واحدة فلن يعرف أحد معلومة من فمه تدين الآخرين، فلتنشق الأرض وتبلعنى قبل أن أتفوه بكلمة أو ليصاب بالعمى من يأتى ليستجوبنى قبل أن يأتى ، حتى لا يرى وجهى لو أكذب. هذا الطريق لى معه ذكريات كبيرة، ففيه مات أوجوستو بينتيو عند عبور هذا الوادى بعربته ذات البغلتين، وهناك، خلف تلك الربوة، ضاجعت فاوستينا للمرة الأولى، كنا فى فصل الشتاء وكان العشب مبتلاً، كيف استطعنا أن نمارس الحب، إنه الشباب. وتروح نفسه لطعم الخبز بلحم الخنزير الذى أكلاه بعدها وكانت هذه أول وجبة لرجل وسيدة متزوجين طبقًا لقانون الطبيعة. يمرر جوان المنحوس يديه على عينيه كما لو كانتا تأكلانه، فلنقبل فكرة أنها دموع، فيقول له أحدهما، لا تبك يا رجل، بينما يصر

الآخر على إذلاله، دائما يتذكرون تلك الدموع عندما نقبض عليهم"، وهذه ليست حقيقة. أنا لا أبكى، يجيبه جوان المنحوس، وهو محق، رغم أن الدموع تملأ عينيه، فما ذنبه هو إن كان الحراس لا يفهمون شيئًا عن الرجال .

الآن يوجد جوان المنحوس داخل مركز الحراسة بفينداس نوفاس، السفر كان حلمًا، ولا شىء يدعو للخداع فى هذا الرجل المرتدى زيًا مدنيًا، فكلهم سواء، إنها خبرة جوان المنحوس الفائضة، يقول صاحب الزى المدنى، بينما يمرر كوماندة النقطة خلة بين أسنانه، أمرك سيدى، هانحن أحضرنا الرجل الذى سيتفسح معى حتى لشبونة، ما هذه الفكرة المحددة لدى هؤلاء البشر، لا يتحدثون سوى عن الفسحة، هيا نتفسح، وأحيانًا تكون فسحات لا نعود منها، هذا ما نسمعه يقال، لكن أثناء ذلك يصير الرجل المدنى حارساً ويصدر أمرًا، كوماندة المركز هنا ليطيع، إنه مأمور، رجل لا قيمة له، خذوا هذا الرجل لصالة الاسترخاء، وليسترح هناك حتى الغد. يشعر جوان المنحوس أنهم يجرونه من ذراعه بأسلوب وحشى وأنهم يسوقونه للجزء الخلفى من المركز، إنها حديقة، تعبر عن الذوق الوردى للحرس الجمهورى، ربما من أجل هذا تُغفر لهم كل خطاياهم الكثيرة، الحراس المساكين يعشقون الزهور، وهذا لأن روحهم المتصلبة لم تفقد كل شىء، فلحظة جمال وبهجة تمسح عن عينى القاضى الأعلى أسوأ الجرائم، وهى جريمة جر

جوان المنحوس من جبل لافرى وإدخاله زنزانة مؤقتة وسجونًا أخرى غير مؤقتة، بدون أن نحكى ما ستعرفونه بعد ذلك. أنا الآن فى زنزانة مركز مديرية، تتكون من دكة وحصيرة وحزمة من البطاطين التى تبعث فى النفس الاشمئزاز، وبها أيضًا صنبور مياه، ألهث من العطش، أضع فمى، ينزل ماء ساخن، أفعل ذلك بعد أن خرج الحارس، الآن نعم أستطيع البكاء، فلا تسخروا منى، لدى أربعة وأربعون عامًا، لكن يا رجل، فى الرابعة والأربعين نكون أطفالا، فى قمة الحياة، هذا ما يدور فى الوسية وفى وجهى من كلام سيئ، عندما أكون متعباً أشعر بنفسى كذلك، بهذه الوخزة التى لا تفارقنى أبدًا، وهذه التجعدات، التى مازالت المرآة تعكسها، إن كانت هذه قمة الحياة، فدعونى أبكى فى سلام .

قضى جوان المنحوس ليله بلا نوم، قضاه فى التجول أربع خطوات ذهابًا و أربع أخرى إيابا، حتى أن الجسد لم يعرف الراحة فوق هذه الدكة. شق النهار الليل، وتسرب التعب لجسد الرجل المتعب والساهد، ماذا سيكون مصيرى، وعندما دقت التاسعة صباحا فُتح الباب وقال حارس، اخرج من هنا أمامى ، هذه هى طريقة كلامه، فلم يعلموه طريقة أخرى، والآن يقول الرجل ذو الزى المدنى، هيا إلى القطار، لقد حان الوقت، هيا لنزهتنا. يخرجان معًا ويمران بباب كوماندة المركز، وهو هنا رجل كثير الوساوس حسن التربية، إلى اللقاء، يقول: ولو كان جوان

المنحوس رجلا بريئًا، فلن يكن بالبراءة التى يظن بها أن هذا الوداع يخصه، وفى الطريق لمحطة القطار، فى تلك الساحة الصحراوية، يقسم بيأس سيدى، أنا رجل برىء. لو لم يكن القطار على وشك الإقلاع، لاستطعنا أن نجلس هنا نتناقش ونوضح ماهى البراءة ومن هو البرىء، وإن كان جوان المنحوس يصدق بالفعل بالقسم الذى أداه وكيف يصدق يمينًا تبدو كاذبة، وسنرى، لو كان أمامنا وقت وسفسطة، لعرفنا الفرق بين البرىء من الذنب والذنب البرىء، رغم أن هذه الدقة لا تناسب مرافق جوان المنحوس الذى يجيب ثائرًا دعك من هذه الأحزان، ففى لشبونة سيرتبون لك سريرك.

يستغرق السفر ساعة، نرى أنه ليس فصلاً مقبولاً فى تاريخ السكك الحديدية البرتغالية. إنه البدن الرفيع يا سيدى الذى استطاع جوان المنحوس أن يخضعه للغفو، تهزه بشدة العربة وارتطام العجلات بالقضبان، فى الترسو، لكنه بعد ذلك كان يفتح عينيه بضيق ليكتشف كل مرة أنه لم يكن يحلم . بعد ذلك يصعدان للمركب الذى يسوقهما لـ تيريرو دو باكو، لو ألقيت بنفسى فى الماء، إنها أفكار سوداء، فبذلك سأقضى على حياتى، وهو ليس فعلاً بطولياً، ولا يمثل لجوان المنحوس حدثاً مميزاً، فهو رجل لم يرتاد السينمات ولم يعرف مدى سهولة القفز بلا أياد فوق باطن جنب المركب ولا كَم التصفيق، ولا الغرق القاسى ولا هذا العوم الأمريكى الذى يفضى بالهارب إلى المركب السرى المؤجر الذى ينتظر بعيدًا مع الكونتيسة

الملثمة التى مزقت الروابط الأسرية وأعراف التراث الكونتى بسلوكها هذا . لكن جوان المنحوس، وسنعرف ذلك فقط فيما بعد، ابن ملك والوريث الوحيد للعرش، العرش الملكى، الملكى من خلال جوان المنحوس ملك البرتغال، هاهو المركب يدنو من المرسى، ومن كان غافيًا استيقظ، وعندما ينتبه السجين يجد أمامه رجلين يسألان: أهذا فقط؟ فيجيب الحارس الذى يرافقه هذه المرة لا يوجد سوى هذا.

نعبر بدون أن نتأمل المشهد المدنى المميز، الترام، السيارات الغزيرة هنا، العابرين، من يكون اليد اليمنى لحصان السيد يوسف؟ يعبرون فى خط قطرى، يتعرف جوان المنحوس على الأماكن، فالميدان الكبير لا يمكن نسيانه، والأقواس، إنها أكبر من أقواس الجيرالدو، لكنه بغتة يرى كل شىء جديداً بالنسبة له، اختصار الطريق عبر الأزقة، السير العسير، وأمامه يظهر الطريق الطويل عندما يعود فجأة قصيرًا، هذا الباب الموارب الذى يفتح، الذبابة المعلقة فى خيوط العنكبوت، إنه ليس إلا وصفًا أكثر رقة وأصالة .

والآن صعود السلم. مازال المنحوس يسير فى وسط حارسين، لا يأخذان شدة حذرهما، لكنهما يفرضان أمنًا عاليًا، فهو يعتبر رجلاً خطرًا. من أسفل لأعلى مكان يشبه مسكن النمل، تفيض منه الجلبة والبلبلة، يعملون كما النحل فى خليته، يتطرق للسمع ضوضاء أجراس التليفونات، لكنه كلما صعد، الطابق الأول، الثانى، الأدوار العليا، كلما تضاءل الضجيج

والاضطراب، يقل عدد الأفراد، وفى الطابق الثالث يسود الصمت شبه التام، لا تصل سوى جلبة مخنوقة، جلبة مواتير السيارات وهمس المدينة تحت قيظ الظهيرة. هناك نجد غرف السطح وهذا الدهليز المفضى لتقسيمات عريضة، قصيرة السقف، حتى يكاد سقفها يلامس الرأس، وفوق هذه الدكك المنتشرة يوجد رجال يجلسون، بجانبهم سأجلس أنا أيضًا، جوان المنحوس، رجل طبيعى وجار من جبل لافرى، أبلغ الرابعة و الأربعين عامًا، ابن دومينجو المنحوس، الإسكافى، وسارة دى لا كونثيبثيون، المجنونة، وأنا المصنف على أنى خطر، كما تكرم وأخبرنى الأمباشى تباكو، الأمباشى نقطة قريتى. ينظر الرجال الجالسون لجوان المنحوس، لكن لا ينبس أى منهم بكلمة. هذا هو بيت الصبر، وهنا يجلس الجميع فى انتظار مصيره. السقف فوق رءوسنا بالضبط، يحترق من القيظ، لو كبوا عليه ماء لغلى، ومنذ أربع وعشرين ساعة لم يتذوق المنحوس الطعام، وهذا الحر بالنسبة له لا يعد قيظاً، بل يوماً من أيام الشتاء، يرتجف كما لو أنه معرض لريح ديسمبر فى الوسية، بلا غطاء سوى جلده المكشوف. ما هذا سوى تشبيه، رقيق مثل التشبيهات الأخرى، وحقيقة صرف، هذه هى دكة العرايا، كل يتعرى بنفسه، وهناك لا يستر البعض البعض الآخر، غط نفسك بشدة وثبات، كأنك فى عزلة الأرض البور، وتحليق الحدأة عاليًا وهبوطها أخيراً لسطح الأرض لتروى لذويها وتقيم شجاعة كل منهم. لكن يجب أن يطعموا الضحايا، وإلا سيفقدونهم

قبل الوقت المناسب. مرت نصف ساعة ونصف آخر، ودخل فى النهاية عسكرى يحضر معه لكل سجين طبقاً به حساء سجنىّ وعشرين لترًا من النبيذ، إنها تحية من الوطن لربائبها هؤلاء، فعليهم أن يشكروا. وعندما كان جوان المنحوس يمسح قعر طبقه بالملعقة، سمع شرطيًا يقول لآخر، وهما عند الباب يحرسان الزريبة ويجمعان الورق، هذا الرجل سيتم عرضه على المفتش بافيا، فأجابه الآخر: إذاً فهو يحمل توصية معه! ، فقال جوان المنحوس لنفسه، إنهما يتحدثان عنى"، وكان خيراً له، كما عرف بعد ذلك، لو ظل على جهله . حملوا الأطباق والأكواب بداخلها، واستمر الانتظار، ماذا عنّا، وعندما كان الليل على وشك الهبوط جاء أخيرًا الأمر بالسير، بعض من هنا وبعض من هناك، إما إلى كاكسياس وإما إلى ألجوبى، تنظيم مؤقت لن يدوم طويلا يليه انتقالات أخرى، كعب دائر، وكلما نطقوا اسماً دار وجه، وعندما يدار وجه كساه الجبن. وكان صوت الوطن بلا شك هو صوت السيدة رعاية، الموظفة بهيئة الخدمة العامة، فلان إلى هنا، علان إلى هناك، والحق أن اسمها على مسمى فهو يناسب وظيفتها الراعية، نفس الشىء يحدث مع السيدة رحمة، التى تتحدث الآن بلا شك مع الأب أجاميديس يبدو أنهم اعتقلوا جوان المنحوس. بالطبع يا سيدتى، لقد اقترف جرائم والآن يدفعها مجتمعة، ولقد تعرضت لكثير من المضايقات من جانبه و جانب الآخرين لكنه يبدو عليه الطيبة. هؤلاء هم أشر الناس، يا سيدة رحمة، هؤلاء هم أشر الناس. كما أنه

لا يرتاد الحانات. أتمنى أن يكون كذلك، فعلى الأقل لن ينشر شره بين الناس. وماذا اقترف. آه، هذا ما لا أعرف قوله، لكنه لو كان بريئاً ما جاءوا لاعتقاله. من الخير أن نساعد زوجته فى المستقبل بأى شىء، سيدتى رحمة، أنت قديسة، فلولا رعايتك الرحيمة لا أعرف ماذا كان سيصير مصير هؤلاء المساكين البؤساء، لكن علينا أن نتركهم بعض الوقت، حتى يتعلموا التنازل عن كبريائهم، فهذا هو أسوأ عيوبهم، الكبر. معك حق، يا أب أجاميديس، والكبر ذنب مميت. أسوأ الذنوب، يا سيدة رحمة، فالكبر هو من يجعل الإنسان يقف ضد ولى نعمته ويعترض على إلهه.

فى طريق الخروج عبرت العربة ب بوا ـ هورا لتأخذ بعض المساجين الذين كانوا ينتظرون حكماً. كل شىء يتم حسابه بدقة، ولتطلع على أمر المركز، يجب أن يستغلوا كل سنتيمتر فى عربة نقل المساجين، وكما يقول المثل من يحمل الورق المتساقط يحمل قشر الشجر، وبما أن الوطن فقير، فالسجناء أول من يتقبلون فقره، ومن يدرى ربما لا يشيرون لذلك. علينا أن نعبر ب بوا ـ هورا. وهناك من يقول داخل نفسه، اسم ملعون، وسنأخذ من هناك من حكم عليهم قضاة نزهاء، وهكذا نذهب جميعنا، فلا يوجد أفضل من الصحبة، فالحسرة الحقيقية هى غياب أوكورديون عن صحبة هذه الأحزان. لم يسافر جوان المنحوس سفراً طويلاً كهذا طيلة حياته. يشبه فى ذلك بقية أبناء الوسية، باستثناء ابنه أنطونيو، العسكرى، الذى جاب

البلاد تحت ضغوط الحياة واحتياجات الفم، حاملا حقيبته على كاهله، كما حمل على ظهره الفأس والمنجل، البلطة والقدوم، لكن أرض الوسية تشبه بعضها، قد يفوق سنديان الفلين فى مكان ما البلوط الأخضر، وفى مكان آخر يفوق القمح الأرز، الحراس رؤساء العمل، المديرون المتعهدين، لكنها فى الآخر تشبه بعضها، مع ذلك يعد هذا السفر مُغامرات أخرى، طريق ممهد مرصوف بالقطران، ولو كانوا بالنهار لكانت الرؤية أفضل . الوطن يراعى أولاده العصاة خير رعاية، كما نرى ذلك فى الأمن المحيط بهذه الأسوار العالية وحذر الحراس، آه يا سادتى، أيكون هذا وباء ينتشر فى كل مكان، أم أنها اللعنة التى صبت عليهم يوم مولدهم وهذا مصيرهم، لعنة تحل عليهم أينما وجدوا، لكن هذه اللعنة لا تهتم بالمصائب المعروفة، فلا عين لها ولا يد، وإنما لتقول: اركب الجيب فنحن سنذهب لنتفسح، أو لتقول: أسرع، أو هيا تقدم، سنذهب للمركز، أو هذا هو نصيبك، ماذا سنفعل لك، هيا ادفع الغرامة واحتمل العلقة ، يجب أن يطبقوا ما تعلموه، فلو لم يفعلوا ذلك ما صاروا حراسًا، فلا أحد يولد حارساً .

يجب أن تميز بين تأمل الراوى وفكر جوان المنحوس، لكن لاحظ أن كل ما يروى صواب، ولو عثرت على أخطاء، فأقسمها بينى وبين المنحوس. هذه البيروقراطية فى التسجيل، فى الأرقام والأسماء، على حالها منذ مولدنا، علينا ألا نتوقف أمامها، إلا إذا كان

ممكنًا ذات يوم أن نأتى هنا لنعرف بالتفصيل أى إيماءات أصدروها وأى معاملة تعاملوا بها، وذلك بدءًا من السطر الذى ذكر فيه الاسم، جوان المنحوس، فى الرابعة و الأربعين من عمره، متزوج، رجل طبيعى وجار من جبل لافرى، أين قيلت هذه العبارات ؟ فى المجلس المحلى بمونتيمور أم فى نوفو؟ يجب أن تكون نعم الإنسان. ساقوا جوان المنحوس إلى صالة يوجد بها سجناء آخرون، فلينم إن استطاع، أما بالنسبة للجوع، فليحتمله، لأن ساعة العشاء قد فاتت. يُغلق الباب، وينتهى العالم. جبل لافرى صار حلمًا، وفاوستينا صارت صماء، يالها من مسكينة، لكن علينا ألا نقول، حتى لا تكون تشبيهاتنا خرافية ومحالة، إن هذه هى ساعة الخفافيش والهامات وأمهات قويق، تلك الحيوانات المسكينة التى لم ترتكب ذنبًا لتكون قبيحة الشكل، أمن الممكن أن تقنع نفسك أنها جميلة؟ فلينظر الأحمق. سيقبع هنا جوان المنحوس أربعًا وعشرين ساعة. لن يجد متسعاً من الوقت ليتحدث كثيراً، برغم أنه فى اليوم التالى سيدنو من سجين ويقول له "اسمع يا صديق، نحن لا نعرف لماذا توقف مصيرك هنا، لكن من أجل مصلحتك اكتب هذه النصائح.

ثلاثون يوماً من العزلة تساوى شهراً لا يمكن أن يسعه أى تقويم . فمهما حسبنا واستعملنا جدول الضرب، دوماً ستفيض أيام، لقد اخترع علم الحساب حفنة من المجانين، فها نحن نعد : يوم، اثنان، ثلاثة، سبعة وعشرون، أربعة وتسعون، وفى النهاية نعرف خطأنا، فلم تمض سوى ستة أيام . لم يسأله أحد عن شىء، أحضروه من سجن كاكسياس، فى وضح النهار هذه المرة ليتمكن من رؤية المنظر الطبيعى من خلال فتحات ضيقة، فتشبه إطلالته بذلك رؤية العالم عبر ثقب إبرة، وبعد أن أمروه بخلع ملابسه، وهو أمر متعلق بأمن الوطن، وقد مر بهذه التجربة من قبل أثناء الكشف الطبى العسكرى، نفع ذلك أم لم ينفع لا يهم، لكن هذه المرة نفع، ومن المؤكد أنهم لن يتركونى أخرج عارياً، فتشوا فى جيوبى، قلبوها، نفضوها، خلعوا فرش حذائى، كم أنتم أناس خبراء تعرفون أين تحفظ الخبايا، لكنهم لم يجدوا شيئًا سوى منديلين قد أحضرتهما معى، أخذوا أحدهما، وعلبتى سجائر أخذوا إحداهما، ووداعاً للمطواة، وأحيانًا ما يشرد

أيضا هؤلاء الشرطيون، والآن فقط يسحبون منى المطواة الأخرى، تخيلوا لو راق لى أن أقتل نفسى! صلوا لأجلى بترنيمة الموتى، عندما نقطع عنه الاتصال لن يستطيع استقبال زيارات ولا الكتابة لأسرته، وعلى العكس تمامًا، سيكون معاقبًا. لكن ذات يوم، فى وقت متأخر جدًا، سمحوا لى آن أكتب وتلقيت ثوبًا نظيفًا، مغسولاً ومكويًا بيد فاوستينا، كان مبللاً بعض الشىء بدموعها، كم نحن شعب عاطفى لم يستطيعوا حتى الآن أن يجففوا ينابيع دموعه .

فى اليوم الخامس والعشرين، فى الساعة الثالثة فجراً، كان جوان المنحوس يعانى الأرق فى نومته، وبالتالى استيقظ فى الحال، فُتح باب الزنزانة وقال الحارس، يا جوان يا منحوس، انهض وارتد ملابسك، عليك أن تترك الزنزانة. يا إلهى، أحقًا سيطلقون سراحى. خيال المنكوبين لا كابح له، يضرب يمنة ويسرة ويفهم صحاً و خطأ كل شىء، يقبل ما يقال، ويشعر بجذب الأطراف، عسى ألا يقطعوا أجنحة خياله. يسوقونه إلى طابق مختلف حيث هناك من ينتظره، إنه كلب حراسة قبيح الوجه، ويقول الحارس بمزاجه المعتاد ها هو القروى جاء ليتفسّح. ولا شك أن قوله هذا من قبيل العادة، فنحن نعرف ما هى الفسحة، فهم لا يخدعون أحداً، لكنهم يعودون ويكررون، كما لو أنهم لا يعرفون قول شىء آخر، ولا يضيفون سوى إضافات طفيفة، هيا، امش أمامى، فأنا سأعلمك طريق الفرقة، هذا ما قاله كلب الحراسة

نابحاً لجوان المنحوس، أما حارس ألجوبى فرجل مرح، شيطان فى هيئة رجل قادر على أن يقول فى هذه الساعة المبكرة من الصباح، رحلة سعيدة. الكلمة لم تكن موجهة للمنحوس، هذا ما كان ينقص، كلها غنائم وأحيانًا يساء استخدامها، وهناك كلمات يجب أن تباع غالية واضعين فى الاعتبار من يقولها ولمن تقال، كما فى هذه الحالة، رحلة سعيدة، كلمة تقال عندما نعرف أن الرحلة أبدًا لن تكون سعيدة، والحق أن الحيوانات أكثر رحمة، فهى على الأقل لا تتكلم. لكن كلب الحراسة هذا يأخذنى فى شوارع مهجورة، يا له من ليل بديع، رغم أنى لا أرى سوى هذا الرواق السماوى الساكن فوق البيوت، على يسارى الكاتدرائية، وعلى يمينى كنيسة القديس أنطونيو، الأصغر حجماً، وبعدها، عند المهبط، كنيسة أخرى، لا صغيرة ولا كبيرة، هى كنيسة المجدلية، إنه طريق كنائس، وأنا أسير فى حماية مملكة السماء، وربما لهذا يحدثنى كلب الحراسة حديثاً ناعماً، لا تقل إننى من أخبرتك، وضعك فى غاية السوء، يكفى أن أقول لك إن أحد زملائك من أرضك أعطاهم اسمك، ومن الأفضل لك أن تعترف بما تعرفه، فهذه هى أسرع طريقة للعودة سريعاً لأسرتك، فبالعند لن تربح شيئًا. هذا الشارع يحمل اسم القديس نيكولاس، والشارع الآخر القديس فرانسيسكو، ولو بقى بين شارع وآخر أى قديس فى الطريق، استغلوه. أنا لا أعرف عما تتحدث، سيدى الشرطى، فأنا لم أرتكب جريمة، وحياتى كانت دوماً

عملاً فى عمل منذ أن ولدت، لا أدرى شيئاً عن هذه الأمور، ذات يوم اعتقلونى، يعلم الله منذ متى، بعدها لم أعد للدخول فى أمور السياسة، قال جوان المنحوس هذه الكلمات، بعضها صادق و بعضها كاذب، وكلها كلمات، وهذه هى ميزتها، إنها تشبه عبور نهر من خلال أحجار، كلها متشابهة، حذار من التعثر، فالماء يجرى سريعاً لدرجة يغم بها العين، احذر. يعوى الآن كلب الحراسة، والمكان يعرفه بالفعل جوان المنحوس، هذا المنحدر بقضبان الترام اللامعة. آه، حقاً، سترى ما يقع فوق رأسك، وساعة الفجر الناعمة تحتمل الشتائم المنطلقة، رجل ابن كذا وابن كذا، وهى شتائم عرفها قليلا فى الوسية. والآن حانت اللحظة التى يشعر فيها جوان المنحوس أنه منهك القوة، فهو ملقى فى الزنزانة منذ خمسة وعشرين يومًا، بلا حركة تقريباً، من الزنزانة للحمام، من الحمام للزنزانة، برأس مسكين لا يتوقف قط عن التفكير، رابطًا أفكار تُقطع فى وسط تأمل ملىء بالحزن، أما لياليه فكانت بلا نوم، والآن يأتى هذا الطريق الذى يبدو له طويلاً مع أنه لا شىء مقارنة بأرض الوسية التى تعرفها جيدًا ساقاه، وفجأة يهاجمه الخوف من ألا يحتمل، الخوف من أن يحكى ما يعرفه وما لن يستطيع معرفته أبداً، لكنه يعود ليسمع صوت سجين كاكسياس، اسمع، يا صديق، نحن لا ندرى لماذا توقف مصيرك هنا، لكن من أجل مصلحتك اكتب هذه النصائح. ولقد جاءت هذه الذكرى فى موعدها، وكانت الأمتار الأخيرة

سريعة مثل حلم، ها هو يعبر الباب، يصعد درجات السلم، الطابق الأول من جديد، لا يرى أحداً، يسود صمت مرعب، الطابق الثانى، الطابق الثالث، لقد وصلنا، مصير جوان المنحوس يكمن هنا، ينتظره بساق فوق ساق، هذا هو أكبر عيوب المصائر، لا تفعل شيئًا، فقط تنتظر، لنرى، ونحن من يتحتم علينا فعل كل شىء، مثل تعلُّم الكلام، وتعلُّم الصمت .

مرت عدة دقائق منذ وصل جوان المنحوس للمكتب حيث دفعه كلب الحراسة، وبقى معه يحرسه، فُتح الباب فجأة ودخل رجل ذو هيبة، حليق اللحية للتوّ، تفوح منه رائحة زيت الشعر اللامع، أشار بإيماءة للآخر ليخرج وشرع فى إطلاق صرخاته، بسبب هذا التيس، هذا الشيوعى الملعون، سيضيع علىّ قداس اليوم. هناك من يحكى تلك الأمور الحقيقية، ومن الممكن ألا يصدقها أحد، لكنها حقيقة، ربما فى هذه العادات الصحيحة تؤثر الجيرة الكنسية التى سبق الحديث عنها عندما كنا فى طريقنا لألجوبى، عندما شاهدنا شوارع الشهداء وميدان الكنيستين، كنيسة البعث و الكنيسة الأخرى، ماذا تسمى ؟ الأب أجاميديس هو من يروق له أن يقطن فى هذا الحى، وربما يسمع اعتراف المفتش بافيا الغاضب؛ لأنه سيضيع عليه القداس، لكن ماذا جرى ! فقسم الشرطة هذا ليس به قس خاص، والآن، لتكون البناية كاملة، علينا أن نتخيل أن جوان المنحوس يقول: سيدى، لا تضيع القداس بسببى، لو أردت

سأصطحبك. لا أحد يصدقه، ولا حتى جوان المنحوس سيعرف كيف قال ذلك، لكننا الآن ليس لدينا وقت لنتفحص ملامح البسالة هذه وعدم الوعى، فالمفتش بافيا لن يتركنا ولا حتى لنفكر. عاهر، تيس، خول، معذرة يا أب أجاميديس، فهذا هو ما قاله بالضبط، والذنب ليس ذنبى، اخرس، وإلا سأسوقك لأرجوحة البهلوان. يا له من سيرك ملىء بالفنون، فنون لم يكن يعرفها جوان المنحوس، لكنه يشاهد المفتش بافيا يتجه صوب ترابيزة، يا له من اسم سيئ، فلو فكرنا فى معناه لوجدنا أنه غبط، هذه البلطة التى تستخدم للقمح والتى أضغطها على صدرى، يخرج المفتش طبنجة من درجها، كذلك عصا الشرطى ومسطرة سميكة. أيقتلنى، فكر جوان المنحوس، وقال له الآخر، أترى هذا، إنه من أجلك إن لم تحك الحكاية من الألف للياء، فاعترف، لأنك لن تخرج من هنا حتى تتقيأ كل ما تعرفه، كله بلا استثناء، وستظل واقفًا على قدميك هكذا، ولن تتحرك قيد أنملة، ولو تحركت ستتجرع من هذه المسطرة.

كل ثلاث ساعات يخرج واحد و يدخل آخر. والضحية هو نفسه لا يتغير. ماذا كنت تصنع فى أرضك؟ كنت أعمل لأعول أسرتى، هذا هو السؤال الأول والإجابة الأولى، الأول سؤال متوقع والثانية إجابة صادقة، وكان من المفروض أن يطلقوا سراح هذا الرجل لأنه قال الحقيقة. أكنت تعمل أم توزع أعضاء ذكورية، أتظن أننا أغبياء ! سيدى، أنا لم يكن

لى دخل بهذه الأمور إذاً لم تكن أنت موزع الأعضاء الذكورية، اتفقنا، فلابد أنك من كنت تقدم مؤخرتك، أنت وزملاؤك كنتم تقدمون مؤخراتكم لرئيس الخلية حتى يعلمكم العقيدة الشيوعية، انظر يا رجل، لو أردت أن تعود لجبل لافرى ورؤية أولادك مرة أخرى سيتحتم عليك أن تروى القصة من الألف للياء، وألا تدارى على هذه العصابة التى كنت تجتمع معها، تذكر أسرتك وحريتك. يتذكر جوان المنحوس الأسرة والحرية، يتذكر قصة الكلب و الحجل، التى رواها سيجيسموندو كاناسترو، ولا يجيب. هيا، احك الحكاية، اعترف بما تقولونه : هؤلاء الأوغاد، لصوص الحكم، لن يعطونا ما نريد، لكننا سنقضى على وجودهم، سننظم الثورات ضدهم وضد قوانين سالازار، أهكذا يتحدث بعضكم إلى بعض، أهكذا تفكرون أن تفعلوا، قل الحقيقة، أيها الشيوعى، لا تتستر على أحد، لو اعترفت بكل ما تعرف، سنطلق سراحك غداً لتذهب لقريتك، وسترى أولادك. وجوان المنحوس، كما هيكل الكلب الذى ينظر لهيكل الحجل، يكرر، سيدى، لقد قلت ما أعرف، تم اعتقالى سنة ١٩٤٥ لكن بعد هذا التاريخ لم أعد أبداً لنشاطى السياسى، ولو قال أحد غير ذلك فهو كاذب". يدفعونه نحو الحائط، يضربونه، يسبونه بكل السباب الموجود فى اللغة البرتغالية، فعلوا ذلك وكرروه، بثبات لا يضاهى، من جانب لآخر، لكن الضحية ظل دوماً على موقفه.

سيظل جوان المنحوس واقفاً على قدميه كما التمثال لمدة اثنتين وسبعين ساعة. ستتورم ساقاه،

سيشعر بالدوار، و كلما انثنت ركبتاه، سيضربونه بالمسطرة وبالعصا، ضربا لا يفضى للموت، فقط الضرب الكافى لجرحه. لم يبك، رغم أن الدموع تسكن عينيه، وتملأ حدقتيه، لو رآه حجر لشعر نحوه بالشفقة . بعد عدة ساعات انفش الورم، لكن تحت الجلد بدأت تظهر العروق المتهيجة، التى وصل سُمكها لسُمك إصبع تقريبًا. يغيّر القلب مكانه، عندما يضربونه بمطرقة تضرب وتصعق، فيتردد صداها داخل الرأس، وحينئذ، فى النهاية، تخور كل قواه، ولا يحتمل البقاء واقفًا، فينحنى و ينحنى، بدون أن ينتبه لنفسه، حتى صار الآن فى وضع القرفصاء، إنه أحد صعاليك الوسية المساكين يعصر خراء ضعفه الأخير. انهض، أيها الحيوان. لكن جوان المنحوس لا يستطيع النهوض، لا يتظاهر بالضعف، وإنما عدم استطاعته حقيقة أخرى تضاف لحقائقه السابقة. فى الليلة الأخيرة سمع صرخات ونهنهات فى الزنزانة المجاورة، بعدها دخل المفتش بافيا بصحبة عدد هائل من رجال الشرطة، وبينما كان صدى الصرخات يكرر من جديد، وكل مرة تشتد حدتها، اقترب بافيا ببطء محسوب وقال بصوت أراد أن يكون مرعبًا، ماشى يا منحوس، ها قد ذهبت لجبل لافرى ورجعت، أتستطيع أن تحكى لنا الحكاية ؟ من عمق البلوة، شبه لامس لألواح الأرض، بكليتين ممزقتين وبعينين يغشاهما الغمام، أجابه جوان المنحوس ليس لدى ما أرويه، لقد قلت كل ما يجب أن أقوله . تلك عبارة متواضعة، عبارة تشبه

هيكل الكلب بعد أن تسمر فى مكانه لمدة عامين، عبارة لا تستحق غالباً أن ندونها تدوينًا خاصًا، فهناك عبارات تاريخية أكثر أهمية مثل "أيها الجنود، أربعون قرنًا من الزمان تطل عليكم من قمة هذه الأهرامات"، "ملكة ساعة أفضل من دوقة طوال العمر"، "حبوا بعضكم بعضًا". لكن دم المفتش بافيا يغلى، إذاً ما معنى أن توزع خمسة وعشرين منشورًا فى قريتك، لو أنكرت ذلك سأقتلك. فكر جوان المنحوس إما الموت وإما الحياة"، والتزم الصمت. سيفقد المفتش بافيا القداس مرة أخرى، إلا إذا اعتبرنا أن الاثنتين وسبعين ساعة التى قضاها المنحوس كما التمثال كافية لتعويض القداس الأول، والحق أنه قال، خذوا ابن الغانية هذا إلى الجوبى، وأريحوه هناك، بعد ذلك أعيدوه إلى هنا ليعترف أو ليدخل قبره .

يتقدم حينئذ تنينان، يمسكان بذراعى جوان المنحوس ويسحبانه على درجات السلم هابطين، من الدور الثالث حتى السفلى، و بينما يجرانه يقولان، أيها المنحوس، اعترف بكل شىء، فذلك خير لك ولذويك، وإن لم تعترف، سيرسلك المفتش إلى معسكر الاعتقال ب تارافال، وأعلم أنه يعلم كل شىء، فصديق لك من فينداس نوفاس قد تحدث عنك، ليس عليك سوى أن تؤكد ما قاله. أما جوان المنحوس، الذى لا يستطيع أن يصلب طوله، والذى يشعر أن قدميه تتساقطان منه من درجة سلم لأخرى كما لو أنهما لا ينتسبان له، فيجيبهما، لو أرادوا أن يقتلونى،

فليقتلونى، لكننى ليس عندى ما أقوله. يرميانه داخل عربة نقل السجناء، كان السفر قصيرًا، ولم يحدث زلزال، فمازالت جميع الكنائس منتصبة ومنتصرة، وعندما دخلوا الجوبى و فتحا باب العربة هيا، اقفز للخارج، سقط المسكين لأنه لم يدس على الرِكاب، فسحباه من جديد جراً، وقد صارت قدماه الآن أكثر ثباتًا، لكن ليست بالشكل الكافى، ودفعاه داخل الزنزانة، التى كانت لأجل الصدفة أو التحديد نفس الزنزانة السابقة . كان جوان المنحوس راقداً على بطنه أمام مرتبة تبنية، على وشك الإغماء، لكنه ما بين اليقظة والحلم خُيل إليه أنه استعاد قوته وسحب نفسه واستسلم للسقوط فوقها، كما الميت، ثمانى وأربعون ساعة . بكامل ملابسه وحذائه. إنه تمثال ممزق، لا يسنده سوى أسلاكه الداخلية، ماريونيت الوسية تطل برأسها من فوق الستار وتعوج قسمات وجهها كلما حلمت، تكبر لحيته ومن شدقيه يهرب خيط من لعابه، يُفتح بتشرد طريق بين شعره وعرقه. خلال هذه الأيام سيظهر السجان ليتحقق إن كان شاغل الزنزانة حياً أم ميتًا، وفى زيارته الثانية سيتنفس الصعداء حيث يجد النائم قد غيّر وضعه، هذا أمر معروف، فعندما يأتون من عمل التمثال ينامون هكذا، فلا يحتاجون حتى الطعام، لكن النوم الآن لا يكفى، وقد صار النوم أقل عمقًا. استيقظ يا رجل، فطعامك على الرف، فيجلس جوان المنحوس على المرتبة التبنية، لا يدرى أحلم أم علم، ففى

الزنزانة لا يجد سواه لكن هناك رائحة طعام، يشعر بجوع ضارٍ يلتهمه، وعند محاولة نهوضه الأولى تنثنى ساقاه وتتعكر عيناه، إنه الضعف، يحاول مجددًا، ليست إلا خطوتان بينه وبين الرف، أسوأ ما فى الأمر أنه لن يستطيع الجلوس، فهناك يؤكل واقفًا حتى يقعدوا سريعًا، وجوان المنحوس رجل قصير القامة، لا يصل حتى الرف، ولكى يأكل يجب أن يقف على أطراف أصابعه، إنه استشهاد بالنسبة لهؤلاء الضعفاء، فلو سقطت على الأرض حتى بقعة، يعرف أنه لن يفر من العقاب، من يمنح الخبز، يحكم .

مرت خمسة أيام، حدثت فيها أشياء كثيرة لتروى، لكن التوقف عندها يعد نقطة ضعف فى السرد، ففى بعض الأحيان يتحتم القفز فوق الزمن، لأن الراوى فجأة يشعر بعجلة، لا ليختم القصة، فهذا ليس وقته، بل للوصول لواقعة مهمة، لتغيير أرض السرد، والحدث هنا هو قفز قلب جوان المنحوس من مكانه؛ لأن السجان دخل الزنزانة فى التو وقال، يا منحوس، جهز نفسك للخروج من هذا السجن، يجب أن تدع البطاطين فى الأمانات، كذلك الدورق والملعقة، أريد أن أرى كل شىء مرتبًا فورًا، سأعود فى الحال. نقيصة رجال الوسية هؤلاء، بالإضافة لكونهم أبرياء، أنهم يفهمون الكلام بمعناه الحرفى، الخبز خبز، الخمر خمر، لهذا يسرّ جوان المنحوس، ويطير من الفرح. سأرى إن كانوا سيطلقون سراحى حقًا، إنه رجل معتوه، سنعرف ذلك عندما يعود الشرطى فى

الحال ليصطحبه إلى الأمانات، حيث يترك البطاطين والملعقة و الدورق، ويتلقى أشياء قليلة ذات استخدام شخصى كانوا يحتفظون بها هناك، والآن، ستذهب للزنزانة المختلطة، لقد رفعوا عنك حظر الاتصال، ويمكنك الآن أن تكاتب أسرتك وتطلب منهم ما تحتاج إليه، وفتح الباب وبالداخل كان عالمًا من الناس من كل الجنسيات، إنها صيغة مبالغة، أريد أن أقول إنهم كثيرون، رغم أن بينهم كان يوجد أجانب، لكن حياء جوان المنحوس وكونه يتكلم لهجة منطقة الينتيجو المحلية لم يسمحا له بالتعامل مع الموجودين بألفة، وبمجرد أن أُغلق الباب، أحاط به البرتغاليون راغبين فى معرفة أسباب سجنه و أخبار البلد بالخارج، إن أمكن ذلك. ليس لدى جوان المنحوس ما يداريه، حكى كل ما حدث له، وبطريقة ما ظل راسخًا فى كلمته أنه منذ سنة ١٩٤٥ لم يمارس أى نشاط سياسى، وظل يردد ذلك هناك، رغم أن أحدًا لم يسأله .

هناك، وجد جوان المنحوس نفسه شعبيًا جدًا، لدرجة أنه، عندما رأى أحد زملاء السجن يدخن، طلب منه سيجارة، وكانت هذه جراءة لم يعرفها من قبل، وحينئذ قدم له عدة زملاء سجائر، لكن أحلى ما قدم له كان من زميل آخر، يجلس نائيًا يتابع الحوار، اقترب منه بعلبة دخان عالى الجودة، و دفتر ورق بفرة وعلبة كبريت، رفيقى، عندما تحتاج شيئًا، قُل، فما يمتلكه الفرد تمتلكه الجماعة. تخيلوا ماذا شعر جوان المنحوس، مع النفس الأول زاد شبرًا، ومع الأنفاس

التالية عاد لحجمه الطبيعى لكن بانتعاش أكبر، إنه رجل ضئيل الجسد وسط آخرين يشاهدونه يدخن ويبتسمون. حتى فى حياة السجناء نجد الميول السعيدة والاتفاق، بعد يومين يستدعون المنحوس فى مكتب خارج الزنزانة المختلطة ويقول له حارس بوجه مبتسم، كما لو كانت الهدية من طرفه، فهكذا الحرس يملؤهم التناقض، يا منحوس، لقد جاءك هذا الثوب وأربع علب دخان و عشرون إسكودو من طرف سيد من قريتك. اهتزت مشاعر جوان المنحوس من ذكر جبل لافرى أكثر من ذكر الهدايا، وسأل: من كان هذا السيد؟ هذا لا يهمنى، فبالنسبة للحارس حامل الشىء هو حامله، ليس إلا ذلك. لم يكن جوان المنحوس يعرف ذلك. عاد إلى الزنزانة المختلطة بكنزه ومجرد أن دلف أطلق صرخة لابد أن صداها تردد فى الوسية الآن من جانب لآخر، الآن يا رفاق، من أراد أن يدخن، فها هو الدخان، فأجابه صوت آخر بصيحة، صوت يشبه مكبرات الصوت، هكذا يجب أن نكون أيها الرفاق، فما يمتلكه الفرد تمتلكه الجماعة، فهنا كلنا أخوة، بنفس الحقوق. بشكل عام، اعتدنا أن نختار للبرهنة على التضامن الواضح أحوال ذات مواد مختلفة، لكن فليأخذ كل واحد ما يحتاجه وليعط ما يملك، سجائر، نُسالات دخان ملفوفة فى كفنها الأبيض، والآن يمررون طرف اللسان المرتعد على طول ورقة البفرة، إنها النهاية، العمل المنتهى، مريض فى إنسانيته من لا يدرك هذه الأفعال العظيمة .

خرج البعض، والبعض الآخر ظل سجينًا، ودخلت وجوه جديدة، لكنها بشكل عام ليست وجوهاً مجهولة، فهناك دومًا من يقول: ياللصدفة، أأنت أيضًا جاءوا بك هنا . وبعد مرور عدة أيام يظهر عند باب الزنزانة المختلطة شرطى يقول: يا منحوس، جهز نفسك، ارتد الجاكيت لأنك ستتفسح، لكنك ستعود فى الحال، فلا تأخذ شيئًا معك . لا تبدو المقولة صدقًا، فكل ما يقولونه أكاذيب، مع ذلك، يستعد المنحوس ليؤكد أن قلبه وقع فى قدمه، وتلك حقيقة أكثر تأكيدًا من كونه لم يمارس نشاطات سياسية فى الأربع سنوات الأخيرة. يكرر نفس الطريق بكلب الحراسة بجانبه، هذه المرة يعد صبيًا أمرد، يبدو متوترًا، ربما يكون غير معتاد على ذلك، يضع يده باستمرار فى جيبه الخلفى ولا ينبس بكلمة، على الأقل يستطيع جوان المنحوس أن ينظر للعابرين، أيعرفون أننى سجين؟ يستطيع أن ينظر للترام، و مع مرور الدقائق ينسى الشعور بالخوف، والآن يداهمه الخوف مجتمعًا، تتشتت أفكاره، يهرب دمه، يشعر بالحنين للزنزانة المختلطة، للسيجارة التى يخمّس فيها الرفاق، للحوارات التى تدور هناك. تخترق جسده مخاوف التمثال، ولا أحد ينتبه له، لكن من يدرى كم يعانى هذا البرونز وهذا المرمر ليظل واقفًا على قدميه! كيف لا تصاب بالانقباض عضلات هؤلاء الرجال ذوى الأذرع المفرودة، وهذه الحيوانات الواقفة فى كامل قوتها، فلا تنحنى ولا تسقط، مع أنها جميعها ينقصها الإرادة

التى يمتلكها إنسان من لحم ودم إلا آنه يصيبه الوهن، فيجلس مقرفصاً، ولا تستطيع حتى أطراف أصابع قدميه آن تساعده على النهوض، فيستسلم للوهن الأخير، وقد يدنس نفسه، ويكفى أن لسانه لا يتكلم إلا لتكرار نفس الكذبة. لكن التنبؤ بأن العاصفة ستجدد الهواء، أو ستلتقى بالألم المعروف من جديد، او تخيل ما هو أسوأ، هذا هو بالتحديد ما يشغل بال جوان المنحوس، وفجأة يحيط بالمدينة ظلام عظيم مع انهم بالنهار، وقيظ يشبه قيظ أغسطس، إنه جو غير مريح، ماذا سيحدث لى، أى استشهاد ينتظرنى .

فُتح من جديد الباب موارباً، صعد جوان المنحوس السلم، يتحرش به كلب الحراسة الصارم، دخلا المكتب، انظر من جاء هنا، إنه رجل فينداس نوفاس، الذى جاء فى الفسحة والسفر حتى تيريرو دو باكو مع جوان المنحوس، يسمى لياندرو لياندرس، ويقول الآن بنبرة ازدراء، أتعرف لماذا جئت لهذه الفرقة العسكرية ؟ بينما المنحوس دومًا ظل مؤدبًا ومحترمًا، لا يا سيدى، لا أعرف، فيقول لياندرو لياندرس، جئت لتحكى لنا بقية الحكاية، ومن الآن فصاعدًا لن أكرر كلامى، فلا يلف مبروم على مبروم. فيجرى نفس التحقيق، كم منشور وزعت، لماذا رجعت للجنة المحلية، ولماذا أقلعت عن الاجتماع معهم، وكم كان عددهم، ومن هم، لدينا هنا أحدهم قد أدلى باسمك، وإن كان قد أدلى فقد صدق، إن لم تعترف لن تخرج حيًا، أحسن لك أن تتكلم، أقول ذلك من أجل

مصلحتك. لكن جوان المنحوس ليس متيقنًا من ذلك على وجه الخصوص، وحتى لو كان متيقنًا فأيضًا سيقول" ليس لى علاقة بالمنشورات منذ أربع سنوات، ولم أر سوى تلك الأوراق التى عثرت عليها بالشوارع والطرقات، والحقيقة أننى لا أتذكر من أعطاها لى، لقد مرت سنون على ذلك، والشىء الوحيد الذى بشغلنى هو عملى، وأقسم لك بذلك. وبرغم أنه كان نفس التحقيق، نفس الأسئلة والأجوبة، نفس الضغط والكذب، إلا أن هذه المرة كانت خالية من الضرب، وتمثال جوان المنحوس ظل فى مكانه الطبيعى محفوظًا، جالسًا على كرسيه، وكان يبدو مستعداً لالتقاط صورة، مع آن روحه كانت تقفز داخل قلبه كمسكينة ومجنونة من الرعب، وإرادته الشاحبة الثابتة تقول: لا يمكن أن تعترف، اكذب كما تشاء، لكن لا تعترف. وكان هناك اختلاف آخر، وجود كلب حراسة أقل رتبة من الأول يكتب على الآلة الكاتبة الأسئلة والأجوبة، وبعد استهلاك الكثير من الورق وجد أن التحقيق لم يكن يستحق التدوين؛ لأنه كان مثل الحرث فى البحر، دائمًا حلقة مفرغة، كما البغلة تطأ روثها والشمس تمضى هابطة، وحينئذ كانت الاعترافات تنتهى وكاتب الآلة الكاتبة يسأل: أين أضع اعترافات هذا الرجل، فيجيبه لياندرو لياندرس اتركها هنا بجانب اعترافات البوركيركيه، بدون أن ينتبه لما يقوله، فوقع الاسم كالصاعقة على رأس جوان المنحوس الذى تعب من كثرة التفكير فيمن سيكون قد اعترف عليه،

والآن يعرف، إنه البوركيركيه، يا له من جرح غائر، يا لها من حسرة، ماذا فعلوا فيه كى يعترف، أم فعل ذلك بمحض إرادته، أم أصابه شىء فى عقله، أحيانًا يحدث ذلك، ولم يتنبأ جوان المنحوس أنه بعد ذلك بسنوات سيرى البوركيركيه ذات يوم، عابرًا بجبل لافرى، هذا الرجل الجبان، الذى كان يقول قبل ذلك إنهم لو جاءوا سأضربهم هكذا، سأطلق عليهم رصاصة، سأفعل و لا أفعل، وفى النهاية تراجع خوفًا، وعندما خرج من السجن نصب نفسه راعيًا للبروتستانتيين، أنا لا أريد شرًا للأديان، لكن كيف يدعو هذا الرجل لإنقاذ البشر أجمعين عندما لم يعرف هو إنقاذ رفاقه القليلين، من يدرى ما سيقوله لنفسه ساعة الموت، لكن جوان المنحوس يشعر اليوم بحسرة، كما يشعر ببهجة لأنه لم ينبس بكلمة، ربما لا يضربوننى الآن من جديد ولا يجبروننى على عمل التمثال، لن أدرى إن كنت سأحتمل .

عاد جوان المنحوس لالجوبى، وبعد عدة أيام يسوقونه إلى كاكسياس، وستُعرف هذه الأخبار أيضًا فى جبل لافرى. سيتبادل خطابات الذهاب والعودة بتفاصيل دقيقة مع فاوستينا، ولا هزل فى ذلك، فيجب أن يسير كل شىء محددًا إن جاءت من بعيد لتكون فى مكان محدد وفى ساعة محددة، حتى لو كان اللقاء خفية، أو حتى لو أن الحارس نفسه هو من يقول: ادخلى. لا شك أن سفرها أمر محفوف بالصعوبات، حيث يجب الذهاب من جبل لافرى إلى

فينداس نوفاس فى عربة، بعدها من فينداس نوفاس إلى بيريرو فى قطار، ومن يدرى إن كانت نفس عربة القطار هى التى يجلس فيها المنحوس وليباندرو ليباندرس، ثم يكون الانتقال فى مركب، هذه هى المرة الثانية التى تشاهد فيها فاوستينا المنحوس البحر، وفم النهر هائل الحجم، وبعدها تركب قطارًا مرة أخرى لتصل حتى كاكسياس، فترى البحر فجأة أكبر حجمًا، "آه يا صاحبتى، أهذا إذاً هو البحر؟ وتبتسم صاحبتها التى ذهبت لتنتظرها فى تيريرو دو باكو وتعيش فى نفس المدينة، تبتسم متفهمة ومتسامحة أمام معرفتها القليلة، وتجيبها بالإيجاب، نعم هذا هو البحر، لكن جهلها يصمت عما تكون حقيقة البحر، فالبحر ليس هذا الشق بين اليابسة، وإنما هو هذا الحنين السائل اللانهائى، هذه الحركة المستمرة لكتل الزجاج والزبد، هذه الصلابة المعدنية التى تتراخى وتتجمد، هذا المكان الذى يحوى الأسماك الكبيرة وحوادث الغرق الفاجعة، البحرهو الشعر .

إنها حقيقة جلية أن من يعرف كثيرًا لا يحيط علمًا بكل شىء، وصاحبة فاوستينا المنحوس عرفت الهبوط من القطار فى محطة كاكسياس، لكن أين السجن، لا تريد أن تظهر جهلها، فتسير فى أى طريق، ربما يكون هنا، نحن فى شهر أغسطس، والحر يحرق فى هذه الساعة التى تقترب من الساعة التى علمت بها و حفظتها فى ذاكرتها باجتهاد، ساعة الزيارة، وحينئذ تحتم عليهما سؤال أحد المارة وعرفتا أنهما

قد أخطأتا الطريق فعادتا للخلف، يسكنهما الغضب لسيرهما الضال، فخلعت فاوستينا حذاءها، لأن قدميها لم تعتادا على فتحاته، وسارت بجوربين مرقعين، لكن هذا يثير فى النفس الألم، و سنكون بلا قلب لو أضحكنا ذلك، إنه خزى يظل يحرق ذاكرتنا ما تبقى فى عمرنا، كان الأسفلت لينًا من شدة الحر ومن خطواتها الأولى التصقا به جورباها، وكلما جذبتهما فاوستينا كلما تمط الجوربان، إنها نمرة فى سيرك، أفضل ما فى الموسم، كفى، كفى، لقد ماتت أم البهلوان فى التو، وكل الناس تبكى، والبهلوان لا يثير الضحك، فالحزن يغلفه، هذا هو حالنا ونحن بجوار فاوستينا المنحوس نصنع حجابًا لتساعدها صاحبتها على قلع جوربيها، بحياء، فحياء النساء لا يصح لرجل أن يلمسه، والآن تسير حافية القدمين ونعود نحن للبيت، ولو ابتسم أحدنا فهى ابتسامة رقة. لكن عندما تصل فاوستينا للحصن تكون الجروح قد أصابت قدميها، وبالإضافة لذلك سيعاقبونها بلبس الحذاء بلا جوارب، شىء مؤسف، سواد الأسفلت ونزيف الدم من الجروح، يا لها من قاسية حياة الفقير .

خرج الزائرون، ومرت الساعة، ولم يأت أحد ليرى جوان المنحوس، يسخر منه زملاؤه، إنها طريقة غبية لإثبات الرجولة، إنها لا تريد أن تعرف شيئًا عنك. هذا ما لم أكن أنتظره، بينما فاوستينا المسكينة تقاتل على الباب من أجل الدخول، أيوجد زوجى هنا؟، تسأل، يسمى جوان المنحوس، فيجيبها حارس البوابة

مازحًا، لا يوجد هنا هذا المنحوس الذى تبحثين عنه، ويزيد الآخر سخرية، وماذا كان يرتدى زوجك عندما جاء للسجن، إنها طرق للتسلية، فهؤلاء الحراس يقضون حياة رتيبة، فحتى لا يضربوا السجناء، حراس آخرون يقومون بذلك، لكن فاوستينا المنحوس لا تميز، نعم يا سيد، إنه هنا، لقد أحضرتموه بأنفسكم، فلابد أنه هنا، و كانت فى حنق عصفورة، فى غضب دجاجة، فى هجوم خروف، شىء لا أهمية له، وفى النهاية قَلَّب الرجل صفحات الدفتر وقال: معك حق، إنه هنا فى زنزانة لكن لا يمكنك أن تريه، لقد فاتت ساعة الزيارة. تنفجر فاوستينا المنحوس فى البكاء وهى محقة. إنها عمود يتهدم، ونرى كيف تُفتح شقوقه وتتساقط أجزاؤه، له قدمان مجروحتان عمود الوسية هذا، الآن أيضًا يمكنها البكاء لهذا السبب، لكل ما عانته فى حياتها ومازال ينتظرها لتعانيه، إنه الوقت المناسب لتذرف كل الدموع، ولتبالغى لو أردتى، يا فاوستينا، تفتتى فى دموع، ربما بذلك تستطيعين تحريك قلب هؤلاء التنانين الحديدى، وإن كانوا بلا قلب، فمن المحتمل أنهم لا يريدون أن تضايقيهم، ولأنك امرأة مسكينة فلن يطردوك بالركلات، ابكى إذاً، اطلبى رؤية زوجك، اسكتى مرة واحدة يا امرأة، سنرى إن كان هناك أى استثناء، هذه لغة لا تفهمها فاوستينا المنحوس، لذا تظن أن هناك سجنًا يسمى استثناء، لهذا يفتحون لها الباب لترى زوجها. حتى الطرق الخطأ تؤدى للهدف، كل ذلك لن يدوم سوى خمس

دقائق، لكنها كافية للتعبير عن حنين جارف، ها هو جوان المنحوس قادم يحمل معه الأمل، ورفاقه يقولون له: لابد أنها زوجتك، وحقًا ما قالوا: فاوستينا، جوان، ويتبادلان العناق، وتهرب الدموع من عينى كل منهما، وهو يريد معرفة حال الأولاد، وهى تريد معرفة حاله هو، وفاتت ثلاث دقائق، وهل أنت بصحة جيدة، وأنت كيف حالك، أتعملين، وكيف حال جراثيندا وأميليا، وأنطونيو، أكلكم بخير، لقد أصبحتِ أكثر نحافة، اهتمى بصحتك ولا تمرضى، خمس دقائق، الوداع، أبلغيهم سلاماتى، سلامات كثيرة، ركزى جيدًا فى الطريق حتى تعرفى العودة، أنا أعرف الطريق الآن، لن أتوه، أنا لم أضل طريقى، الوداع .

سيقومون بزيارات أخرى له، لكنها مختلفة، أكثر هدوءًا، ستأتى بناته، سيزوره أخوه أنسيلمو، كذلك ابنه أنطونيو المنحوس وسيخرج غاضبًا، لم يثر أحد غضبه لكنه سيخرج غاضبًا، سيبقى وقتاً طويلاً يتأمل الحصن بوجه متجهم، حتى لا يبدو أنه أنطونيو المنحوس، سيأتى كذلك مانويل السيف، سيدخل رصينًا ويخرج بنور هادئ فى وجهه، سيظهر أيضًا بعض الأخوال وأولاد الأعمام، بعضهم يقيم فى لشبونة، لكن زيارة هؤلاء ستكون فى الأروقة، خلف ستارة معدنية يصعب من خلالها رؤية الأشخاص فى الجانب الآخر، ودومًا يمر حارس ليستمع للشكاوى. وستمر الشهور، أيام طويلة و ليال أطول فى السجن، وسينتهى الصيف، ويلحقه الخريف، و يقترب الشتاء،

ومازال جوان المنحوس هناك، لا يستدعونه من أجل استجوابات جديدة، لقد نسوا وجوده، من يدرى إن كان سيظل سجينا مدى الحياة! حتى يأتى يوم غير متوقع، يرى فيه البوركيركيه وسيجيسموندو كاناسترو،، كان سيجيسموندو أيضًا مسجونا وهو لا يعرف، سيعرف المنحوس ذلك متأخرًا، عندما يعود لجبل لافرى و يسمعهم يقولون إنهم أطلقوا سراح سيجيسموندو كاناسترو و يعود، وسيتعانق كلاهما بقلب متحرر، لم أعترف، ولا أنا، فعلها البوركيركيه، فيزيد ألم سيجيسموندو كاناسترو، لكنه يضحك، بينما لا يستطيع المنحوس أن يتجنب حزنه، الناتج عن الظلم الذى شاهده منهم. يتحدثون كثيرًا فى الزنزانة (٦) يتناقشون فى قضايا سياسية وقضايا أخرى، هناك من يدرس ويعلم، يعطون دروسًا فى القراءة، فى الحساب، بعضهم يرسم، إنها جامعة عامة، تلك أحوال معروفة، فلا يوجد شىء لأرويه، أو أن الأبدية لن تكفى للسرد.

اليوم يوم التحرير. لقد مرت ستة أشهر، ونحن الآن فى يناير. حتى الأسبوع الماضى كان جوان المنحوس يعمل فى طريق الدخول مع زملاء آخرين من الزنزانة «٦» تحت المطر، وكم كان باردًا، كان كما الجليد الذائب، الآن يجلس مشغولا بمصيره، كثيرون حكم عليهم و هو إلى الآن لا، لكن هناك من يؤكد له أن تلك بشارة خير، أثناء ذلك يفتح الباب ويظهر حارس ينادى، بصوت غليظ كالعادة، جوان المنحوس، وجوان المنحوس يجيب بثبات، كما تقول لوائح السجن،

فيقول الحارس، جهز نفسك لتترك السجن، بسرعة. يااللسعادة التى يشعر بها زملاؤه الباقون فى السجن، كيف يشعرون بذلك، كما لو كانوا هم من أطلق سراحهم، ويقول أحدهم: كلما أفرغوا السجن سريعًا كان أفضل، فهنا لا نفعل شيئًا"، إنه استنتاج منطقى كما يقولون، "كلما أعطونى العدة سريعًا، كلما بدأت فى العمل أسرع، حينئذ تثار الجلبة، وتظهر أمهات يُلبّسن ابنهن، هناك من يلبسه حذاءه أو يساعده فى ارتداء قميصه، ينفضون له جاكيته، كما لو كانوا سيرسلون جوان المنحوس لمقابلة البابا، أين رأى منظرا كهذا، إنهم مثل الصبية، كلهم على وشك البكاء، لم يبكوا بعد، لكن المنحوس بكى عندما سألوه: حسنًا يامنحوس، لابد أنك لا تملك نقودًا لتعود لبيتك. فأجابهم: رفاقى، معى القليل، لكننى سأرتب أمورى"، فبدءوا فى جمع المال، بعضهم دفع خمسة إسكودو، بعضهم دفع عشرة، وحصدوا بذلك مبلغًا يغطى رحلته ويفيض القليل، والآن حقًا، عندما رأى المنحوس أن المال القليل يستطيع أن يخلق الحب الكبير، لم يستطع أن يتمالك دموعه، فيقول: شكرًا يا رفاقى، ووداعًا، حظًا سعيدًا لكم جميعًا، وشكرًا أيضًا على كل ما فعلتموه لأجلى. وكلما خرج أحدهم، أقاموا له حفلة مشابهة، إنها البهجة التى تحدث فى السجن .

كان الليل قد هبط عندما تركت العربة جوان المنحوس على باب الجوبى، يبدو أن شيطان هذه الأرملة الطروب لا يعرف طرقًا أخرى، وعندما نزل

المنحوس، بقدم حرة الآن، قال له الحارس، اختف من هنا، كما لو أنه يتألم عند رؤيته راحلاً، هكذا أفراد الشرطة، يتعودون على المسجون وبعد ذلك يصعب عليهم مفارقته. يسرع جوان المنحوس فى طريقه هابطًا من شارع منحدر، كما لو أن الشيطان مازال وراءه، وهكذا ينظر من فوق كتفه ليرى إن كان أحد يتبعه، فمن أدرانى ان هذه ليست لعبة من ألعاب الشرطة، يطلقون سراح مسجون ثم ينقضون على صيده، ومهما هرب الصيد المسكين، لابد أن يقع فى الشبكة، وهكذا يقيدونه من جديد، يدخلونه فى عربة نقل السجناء، ويضحكون جميعهم بقهقهات، ويمسك الحراس بطونهم من الضحك، ياللضحك، لا أستطيع أن أحتمل ضحكًا أكثر من ذلك، لم أضحك فى حياتى هكذا، ولا حتى فى السيرك. إنهم قادرون على هذا التفنن .

كان الشارع خاليًا، خاليًا بجد، فالليل قد فرد جناحيه على كل مكان، ولحسن الحظ لا تمطر، لكن الهواء بين هذه البنايات العالية يشبه موسى الحلاق غير الحاد الذى يتحرك بسرعة، فيلامس ويلامس ثوب جوان المنحوس الرث، إنه هواء عارٍ مثله، على مايبدو . لا يركض، فقد أقلعت قدماه عن تلك العادة، ويمشى مقطوع النفس، لا يعرف حتى المشى، يرتكز على ناصية بجواله وحقيبته المربوطة بحبال، ورغم أن كل ذلك خفيف الوزن، إلا أن ذراعيه لا تستطيعان احتواء الحمل، لذلك يريحه على الأرض، من رأى هذا

الرجل ومن يراه! من رأى هذه الأحمال التى يحتملها! لا يوجد مخلوق فى الشارع، لو لم يكن البرد قارصًا لترك جسده يسقط على الأرض، فالمعاناة التى عاناها كانت أكبر من أن يحتمل الوقوف على قدميه، إلا أنه مازال واقفًا. يمر بعض الأفراد، دومًا يظهرون فى التو، لا ينظرون له، فكل منهم يسير مشغولا بحياته الخاصة، مازال ينتظرنى جهد كبير، إنهم لا يتخيلون أن هذا الرجل الواقف على الناصية خرج حالا من سجن كاكسياس حيث أمضى هناك ستة أشهر، عمل فيها تمثالا لمدة اثنتين وسبعين ساعة، ولاقى من الضرب ما لاقى، لابد أنهم لا يصدقون أن هذه الأشياء تجرى فى بلدنا الجميل، ومن يروى ذلك فلابد أنه يبالغ. ماذا سيفعل جوان المنحوس فى مدينة لا يعرفها، فلا يجد أى باب يمكنه طرقه، رفاقى، هبونى مأوى هذه الليلة، فلقد خرجت حالاً من السجن، ستكون تلك محادثة مختلفة، كيف يعرف هو ما هذه البيوت، لقد قبض عليه الحارس جوزيه كاليدو فى جبل لافرى، وعليه أن يعود إلى قريته، اليوم لا، فقد هبط الليل، غدًا سيرحل، بهذا المال القليل الذى وهبوه إياه بعض الرجال المحتاجين، هؤلاء هم حقًا رفاق، لكنه سيكون من المضحك أن يعود الآن لكاكسياس ويطرق باب الزنزانة «٦» مفترضًا أنه يستطيع الدخول بكل هدوء الدنيا، وعندما يفتحون له الباب يقول: رفاقى، هبونى مأوى هذه الليلة، فلقد دخلت فى التو، سيكون مجنونًا بلا شك. إما أن يفعل ذلك وإما ينام رغم البرد، ومن المحتمل أن النوم قد

سقط عليه، فهو لم يعد واقفًا كما كان يعتقد، بل جالسًا على حقيبته، ويتذكر، وقد تذكر قبل ذلك، لكنه الآن يتذكر من جديد، أنه يمكنه أن يطرق باب بيت تخدم فيه أخته، و يقول: ماريا دى لا كونثيبثيون، آتعتقدين أن سادتك سيسمحون لى أن أبات هنا هذه الليلة، لكنه لن يذهب، ربما فى ظروف أخرى ما همه ذلك، كانوا سيبعثون ماريا لتفرش لى مرتبة فى المطبخ، فلا يجوز أن يتركوا مسيحيًا ينام فى الشارع مثل الكلاب بلا صاحب، لكن فى هذا الوضع، خارجًا من السجن، من هذا السجن، ولهذه الأسباب، حتى لو وافقوا سيضعون بعد ذلك الوجه الخشب أمام أختى، المسكينة، التى حتى لم تتزوج، ودومًا تخدم نفس السادة، كما لو كانت قد ولدت لأجل ذلك، ومن يدرى ماذا سيقولون حينئذ، ليس من الصعب تخيله، إنهم دخلاء، و لولانا لماتوا جوعًا، سيدفع أخوك ثمن أفكاره الشريرة غاليًا، فأفكاره ضدنا، أتمنى أن تفهمى ذلك، أفكاره ضدنا، الحمد لله أننا أصدقاؤك، ولن نجعلك تدفعين ثمن أفكار أخيك، لكن، بداية من الآن، من الأفضل ألا يدخل هذا البيت، أما أنت فاحذرى، وقد أعذر من أنذر.

هذه هى الابتهالات المنزلية لربة البيت وسيدته، أما السيد فهو حازم، قليل الكلام، لا يضع رجله هنا، وسأبلغهم فى أرضنا فى جبل لافرى حتى لا يعطوه عملا مرة أخرى، و ليذهب الى موسكو . يبدو أن جوان المنحوس راحت عليه نومة مرة أخرى، لا ينام فى

هذا البرد إلا رجل قتله التعب، ينتفض، يضرب الأرض برجله فتدوى جلبة مضاعفة بسبب الأرض المجمدة، آه لو جاء الآن رجل شرطة وقبض علىَّ من جديد بحجة تعكير صفو الجيران، حينئذ يأخذ جوان المنحوس جواله و حقيبته ويعيد الطريق، الشارع المنحدر، يرفع قدميه بالكاد، يعرج، يتذكر بشكل غير واضح أن المحطة تقع على يساره، لكنه يخشى أن يتوه، لهذا يسأل أحد العابرين، فيقول له هذا أنت فى الطريق الصحيح، ويضيف بعض الشروح، الحمد لله، يأخذ المنحوس حقيبته وحزمته بيديه المنملتين ويستعد لمواصلة السير، لكن الآخر يسأله: أتريد مساعدة هنا من الممكن أن نرتجف أمام المغامرة، فالله أعلم إن كان هذا المار لصًا يريد سرقة ما يملكه، لا يوجد شىء صعب، حتى فى الظلام يلاحظ أنه متعب البدن، لا يا سيد، شكرًا، يقول المنحوس بكل أدب، و لم يلح الآخر، فلم يكن حراميًا، ويقتصر على سؤاله هل كنت فى السجن، واضح عليك أنك خرجت منه فى الحال، ونحن من نعرف جوان المنحوس ونعرف مدى رقته أمام الكلمة الطيبة، نسمعه يحكى كل شىء، إنه قضى ستة شهور فى كاكسياس وهو من هناك قادم، وإنهم تركوه هنا وعليه أن يعود لقريته، لجبل لافرى، التابعة لمجلس مدينة مونتيمور، فأنا من مقاطعة الينتيجو، نعم سيدى، ولا يعرف إن كان هناك مركب أو قطار فى هذه الساعة، سأذهب لأرى المحطة، وليس لديه مكان لينام فيه، له أخت تخدم

هنا، لكننى لا أريد مضايقتها، فقد يغضب منها السادة، ويسأله الآخر، و هو رجل فضولى، وإن لم تجد مركباً ولا قطارا، أين ستنام، فيجيبه المنحوس بكل بساطة سأقضى الليلة فى المحطة، فوق أية دكة، أسوأ ما فى الأمر هو البرد، لكننى اعتدته، شكرًا على اهتمامك "، وبقوله هذا يبتعد، لكن الآخر يقول له : سأصطحبك حتى هناك، اترك لى الجوال، أحمله أنا عنك، وجوان المنحوس الذى يشك، يفكر أنه قضى ستة أشهر مع رجال يتصفون بالإنسانية، اعتنوا به، علموه أشياء، أعطوه الدخان ونقود السفر، وليس معه حق فى أن يرتاب الآن، ترك الجوال فى يد الآخر، فى المدينة ترى أحيانًا مواقف مشابهة، وها هما يسيران جنبًا لجنب، يهبطان معًا ما تبقى من الشارع، وبعده الميدان الكبير، على طول عقود الجسر، ثم المحطة، يصعب على جوان المنحوس فهم جدول المواعيد، هذه الأرقام المكتوبة بخط صغير، فيساعده الرجل، يتجول بإصبعه على أعمدة الجدول، لا، لا يوجد قطار حتى صباح الغد، و بمجرد أن سمع ذلك بحث جوان المنحوس عن مكان يرقد فيه، لكن الرجل يقول له: أنت رجل تعبان و يبدو عليك الجوع، تعال ونم فى بيتى، وهناك ستأكل طبق حساء وتستريح، فلو بقيت هنا ستموت من البرد، بعد هذا الكلام، لا أحد يصدق أن هذه الأمور من الممكن أن تحدث، لكنها حقيقة حقًا، ولم يعرف جوان المنحوس سوى قول أنا ممنون لك، فما تفعله عمل خير، لو كان الأب أجاميديس هنا

لألقى خطبة، أثنى فيها على طيبة الرجال، معه حق القس، فهذا الرجل الذى يحمل جواله على كتفه يستحق الصدقة. مع أنه ليس رجل قداس، هو لم يقل ذلك، إنها أشياء يعرفها الراوى، بالإضافة لأشياء أخرى لم تأت مناسبة لرويها، فهذه القصة عن الوسية لا عن المدينة. الرجل أكبر من جوان المنحوس عمراً، لكنه أقوى منه بدنياً و يتمتع بساقين رشيقتين، لذا عليه أن يعتدل فى مشيته حتى يصطحب الخطوة المؤلمة لرجل مبعوث للحياة فى التو، وليشجعه يقول: بيتى قريب من هنا، فى الفاما، ويدور حول شارع الفانديجا، يتحمس جوان المنحوس، بعدها يدخلان فى حوارٍ رطبة و منحدرة، رطبة، ليس غريبًا فى هذا الجو، يجدون باباً، سلماً ضيقاً، درابزين، مساء الخير إيرميليندا، هذا السيد سينام فى بيتنا هذه الليلة، وغدًا سيذهب لأرضه حيث لا مأوى له هنا، وإيرميليندا امرأة بدينة، تفتح الباب كما لو كانت تفتح أحضانها، تفضل، وجوان المنحوس، وليعذروه أصحاب الذوق الرفيع والذين يعتنون فقط ويهتمون بالوقائع الدرامية، فأول إحساس دخله كان رائحة الطعام، شوربة خضار وفاصوليا كانت تغلى، ويقول له الرجل: خذ راحتك، وبعدها يسأله: ما اسمك ؟ كان المنحوس قد جلس واخترق جسده إنهاك مميت، لكنه قال له اسمه و أجابه الآخر: وأنا اسمى ريكاردو ريس، وزوجتى تسمى إيرميليندا"، إنها أسماء أشخاص، وهذا هو ما نعرفه عن أصحابها، وأشياء قليلة أخرى،

وأيضًا أطباق الشوربة هذه التى وضعت على مائدة المطبخ " كل ما يروق لك"، وبدأ البرد فى التضاؤل، أخيرًا أشعر أن لشبونة مدينة ناعمة، هذه النافذة تطل على النهر، توجد بعض ومضات المراكب، فى الضفة الأخرى تقل هذه الومضات، من يراها من هنا سيقول ذات يوم إنها حفلة. اشرب كوب نبيذ أخرى، وربما أيضا لهذا، بسبب كوب النبيذ الجديد الممتلئ الذى شربه، يبتسم جوان المنحوس كثيرًا، حتى عندما يروى ما جرى له فى السجن، يكون الجو قد تأخر عندما ينتهى، فيسقط من النعاس، ويكون ريكاردو ريس متجهم الوجه وإيرميليندا تفرك فى عينيها، حينئذ يقولان له: الآن اذهب لتنام، فقد حان وقت النوم، وعليك أن تستريح، لم يلحظ حتى أنه سرير زوجية، ويسمع خطوات فى الممر، لكنها ليست خطوات السجان، ليست خطوات السجان، ليست خطوات السجان، يتحرر من تلك الفكرة، و يسبح فى سباته.

خلال الأشهر الستة تلك حدثت تغيرات، البعض يراها قليلة، والبعض الآخر تبدو له هائلة . لا تُلاحظ فى المنظر الطبيعى إلا بالكاد، باستثناء تغيرات الفصول، أما التغيرات الأخرى فتصعق من يراها، كيف صار الأفراد عجائز، كيف قفزت الكهولة على أكتاف هؤلاء الآتين من السجن، وهؤلاء الذين لم يخرجوا من جبل لافرى، وكيف كبر الغلمان، ولا يرى ذلك سوى جوان المنحوس وسيجيسموندو كاناسترو، الذى وصل بالأمس وقال يجب أن نلتقى لنتحدث، بصرامة وإصرار، لا يمكن أخذهما على محمل سوء. هناك أناس يحلو لنا رؤيتهم، من هؤلاء جراثيندا المنحوس، آية الجمال، والتى زاد جمالها مع الزواج، هكذا تقول صديقاتها اللاتى يحببنها والبصباصون ذوو العيون الشرهة، لكن هؤلاء يبقون على حالهم، بينما تحدث تغيرات أخرى، فعلى سبيل المثال، الأب أجاميديس، الذى كان طويل القامة ونحيفها صار قصيراً وبديناً، وقائمة البيع بالآجل فى المحل صارت أكبر بشكل هائل، وهذا أمر طبيعى فى غياب الزوج.

لهذا السبب، عندما آن الأوان، ذهب جوان المنحوس مع ابنته أميليا إلى حقول الأرز ب إيلفاس، ولاحِظ كيف تسير جغرافية هؤلاء الفلاحين، ففى جبل لافرى كانوا يقولون إنه هناك تقع مدينة اكستريمادورا الإسبانية، من يدرى إلى أين ذهبوا ليبحثوا عن هذه المعرفة العالمية التى لا ترى حدودًا، وإن أردنا أسبابًا للسفر، فهى الأسباب الاعتيادية، وأهمها سبب رئيسى، سوء ظن الوسية حول مهارات وحيل جوان المنحوس، المسجون السياسى، حقًا خرج بدون إصدار حكم عليه بالسجن، لكن الذنب ذنب الشرطة، التى لا تعمل كما ينبغى. بعد مرور عدة شهور، ستعود المياه لمجاريها، لكن بُعده أفضل مؤقتًا، حتى لا يلوث أرضنا الحبيبة، وقولوا لسيجيسموندو كاناسترو إنه لا يوجد عمل، و ليبحث عن رزقه أين شاء .

ذهب جوان المنحوس لمنطقة إيلفاس واصطحب معه ابنته أميليا، ذات الضب، التى لو كانت أسنانها مستقيمة ما استحقت حتى المقارنة بأختها. عليك أن تقول الآن إن الجحيم ليس ببعيد. إنهم مائة وخمسون رجلا وسيدة مقسّمين لخمس مجموعات، وهذه العقوبة ستستمر أربعة أشهر، إنها فترة محصول الأرز المسبب للجرب والحمى، إنه عمل بالقطعة ملىء بالمعاناة، تنقية وزرع من طلعة الشمس التى لم تسطع بعد حتى بعد غروبها، وعندما يحل الليل يسير مائة وخمسون شبحاً يجرون أقدامهم حتى يصلوا للجبل الذى فيه تقبع أكواخهم، الرجال فى جانب، والنساء

فى آخر، لكنهم متساوون فى حك جرب المشاتل الغزير، كلهم يدبغون حمى حقل الأرز. تتحقق هذه اللذة بالسكر واللبن والأرز، بالإضافة لبعض البيض، يا ماريا، كم مرة قلت لك ذلك ، أريده رخوًا، لا هذا العك، فيجب أكله حبة حبة، لعلك تكونى قد تعلمتى. ليلاً، فى الغرف، تسمع تنهيدات ورجافات هؤلاء المبتلين، حكات أظافرهم السوداء والخشنة بتلهف فى جلدهم النازف، بينما آخرون تصطك أسنانهم وينظرون للسقف بأعين زجاجية من الحمى . لا يوجد فرق كبير بين هذا وبين معسكرات الاعتقال، ربما يبذلون مجهودًا أقل، وقد يرجع ذلك للإحسان المسيحى الكبير والاهتمام الرءوف الذى يجعل أصحاب العمل، كل يوم تقريباً، يشحنون الحافلات بضحايا الجرب والحمى ونقلهم لمستشفى إيلفاس، اليوم يذهب بعضهم، وغدًا بعض آخر، إنها ساقية تلف وتدور، والمساكين يذهبون كما الموتى، الحمد لله أن هناك طباً يداويهم فى ثلاثة أو أربعة أيام يعودون بعدها كمخلوق جديد، نعم يعودون نحفاء وبسيقان مرتعشة، لكن فيما تهم هذه الأشياء التافهة، سأكتب لك إذن خروج، وأنت، وأنت، هكذا يعاملوننا الأطباء، وتعود الحافلة لتفرغ شحنها فى الجبل، بصحة منكسة، إنها مقاولة، فلا يصح تضييع الوقت. هل تحسنت يا أبى ؟ تسأل أميليا، ويجيبها، "أحسن، نعم، يا ابنتى، كما ترين، لا شىء أبسط من ذلك.

نهاية الأمر، لم تطرأ تغيرات كثيرة. فمازالوا يتبعون طريقة جدى فى تنقية الأرز وزراعته، ودويبات

حقل الأرز لم تتغير عن شوكة المنخس واللعاب منذ أن خلق الله الدنيا، ولو قطع لك زجاج غير مرئى إصبعًا، سيكون لون الدم نفس اللون. قد نحتاج خيالاً رحباً لنخترع أحداثًا غريبة. فهذه الحياة تتكون من كلام مكرر و إيماءات معادة، فالقوس الذى يرسمه المنجل مضبوط بالمللى على طول الذراع، ونشر حافة قش القمح الجاف يصدر نفس الصوت، دائمًا نفس الصوت، كيف لا تكل آذان هؤلاء الرجال وأولئك النسوة ؟ إنه أيضًا حال هذا العصفور الأبح الذى يعيش فى شجر البلوط بين القشرة والجذع، ويصرخ كلما انتزعوا له جلده، أو ربما ريشه، ولا يبقى أمام العين سوى اللحم المنفوش والمتألم، لكن هذا ضعف من الراوى، تخيُل أن الأشجار تيأس وتصرخ . سنفعل خيراً لو التفتنا إلى مانويل السيف المتسلق أعلى شجرة البلوط هذه، حافيًا، يشبه حقًا عصفورًا جادًا وحافيًا، يقفز من غصن لغصن، ولا يشدو، لا يروق له الشدو، فصاحب الأمر فى هذا العمل هو البلطة، صف الأحبال، هذا الخط الذى يلف حول الأغصان الغليظة، أو الذى يرسم فى الجذع بشكل طولى، وبعد ذلك يأتى دور مقبض البلطة فى القوة والرفع، والآن نعم، بعدها حقًا، هنا يقبع العصفور الأبح الذى يعيش داخل شجرة البلوط، يطلق صرخة، لكنها ألم لا يشعر به أحد. تمطر الإسطوانات من أعلى نقطة، تسقط فوق ألواح الجذوع المنزوعة، فى هذا لا توجد أشعار، ونتمنى أن نرى من يستخرج من هنا أى سونيتا عندما

تنزلق البلطة من أحد هؤلاء الرجال وتسقط كالأغصان أرضًا، فتثب معه فلق القشرة، وتكون النهاية ضربة فى قدم حافية، قذرة وخشنة، لكنها هشة، فأمام رأس البلطة وجسمها لا قوة تقف، إلا أن هناك فرقاً لا يلاحظ بين قدم الفتاة الحضرية الوردية وجلد مزيل قشور الأشجار المجرب، وتشابه ملحوظ، فعلى الأقل دم كل منهما يستغرق الوقت نفسه فى النزيف .

كنا نتحدث عن الأعمال والأيام، وكنا على وشك أن ننسى تلك الليلة التى وصل فيها جوان المنحوس لجبل لافرى، و فيها اجتمع فى بيته، الذى يسعهم بالكاد، أصدقاؤه الحميمون، بزوجات من مازال لديه زوجة، وقطيع من الأولاد، وبعض الدخلاء الذين جاءوا دون أن تربطهم قرابة بأى من الحاضرين، لكن مَنْ كان يهتم بأمر كهذا. من الحضور أيضًا كان أنطونيو المنحوس، العائد من الخدمة والذى كان يعمل فى قشر الفلين، بالإضافة لأختيه جراثيندا وأميليا، ومانويل السيف، صهره، فى النهاية، حشد من البشر. قضت فاوستينا وقتها فى البكاء، من الفرح والألم أيضًا، وكفاها أن تتذكر اليوم الذى سجن فيه زوجها، بلا سبب ولا وجه حق، فساقوه من فينداس نوفاس إلى لشبونة، والله يعلم متى سيعود لو كان سيعود. لم تتحدث عن واقعة الجوربين الحزينة اللذين أتلفهما الأسفلت، ولا بنصف كلمة، و ستصير هذه الواقعة دومًا السر فى هذا الزواج، فحكيه سيسبب الخجل

لكل منهما، وسيطلع فى جبل لافرى من يسخر من تلك الواقعة، من المرأة التى التصقت جواربها بالقطران، كان يجب أن نشهدها، وأى منا سيدافع أمام هذه الوحشية . روى جوان المنحوس نكباته ولم يدخر شيئًا وهكذا اطلع الجميع على كم المعاناة التى لاقاها على يد تنانين الشرطة والحراسة . كل هذه الحكاوى سيكررها ويؤكدها سيجيسموندو كاناسترو، لكن بشكل مختلف، شكل ملىء بالسخرية، فلم يكن الرجل غير واع بما وقع له، لكنه كان يحكى المرارات كما لو كانت أشياء طبيعية، فيثير فى نفوس مستمعيه انطباعًا بالبساطة فلا تقترب من عيون النسوة دموع الشفقة، أما الغلمان فكانوا يبتعدون متحررين من سحره، كان حديثه شبيهًا بالحديث عن الزراعة، وربما كان كذلك، من يدرى . وربما لهذا اقترب مانويل السيف ذات يوم من سيجيسموندو كاناسترو ليقول له كلمتين، مع احترام فارق السن بينهما، سيجيسموندو، لو قبلونى، سأستطيع أن أساعدكم فى شىء. كنا نخطئ كثيرًا عندما نظن أن هذا القرار نابع من الحكاية الهادئة التى رواها سيجيسموندو، التى، فى النهاية، قد تثير فى سجايا مثل سجية مانويل السيف قرارًا كله نُبل، والدليل على خطأنا أن مانويل قال: لم يعاملوا رجلا مثلما عاملوا حماى، وأجابه سيجيسموندو كاناسترو، لم يعاملوا أحداً مثلما عاملونا، سنتحدث فى هذا الأمر فيما بعد، فالنفوس تتعكر بعد هذا السجن، فلنترك الوقت يمر حتى تلتئم

الجراح، فهذا مثل شبكة صيد، يستغرق الواحد منا فى حياكتها وقتًا أطول من تمزيقها، أنهى مانويل الحديث قائلا، سأنتظر الوقت اللازم .

أحيانا، يبدأ شخص قراءة حكاية هذه الأرض البرتغالية ويجد هذيانًا يثير ابتسامتنا، هذا أقل ما يمكن أن يقال، ومن الأفضل أن تكون الضحكة معلنة هنا، فليس فى ذلك إهانة لأحد، فكل واحد يفعل مايستطيع أو ما تأمره به الطبقة المالكة، ولو كان ما فعلته السيدة فيليبا دى فيلينيا عملاً جميلاً جديراً بالثناء حين سلحت أبناءها الفرسان للحرب من أجل إعادة الملكية للوطن، فماذا سنقول عن مانويل السيف، الذى بلا فرسان يقول: أنا هنا ، ولم ترسله أمه، الميتة بالفعل، و إنما أرسلته إرادته الخاصة كرجل. وتمتعت السيدة فيليبا هذه بمن يشدو لها ويطلق تصفيقاته، فهذا هو جواو بينتو ريبيرو، وهذا كونت ايريثيرا، وهذا فيثنتى جوسماو سواريس، وهذا جاريت، حتى فيرا بورتوجينسى رسم لها لوحة، لكن مانويل السيف وسيجيسموندو كاناسترو لم يجدا من يشدو لهما ويرعاهما، إنها ثرثرة بين رجلين، قالا ما يجب أن يقولاه والآن يمضى كل منهما لحال سبيله، فلا يجدر بهما أن يضيعا الوقت فى ثرثرة وإطراء، فمن أجل هذا يكفى وجود الراوى .

خاصة عندما يتمتع بقوة التجول المتروى مجددًا بالوسية مع فهم هذه الأحداث، بلا هدف خاص ولا

تصور مسبق، فليس علينا سوى أن نأخذ حجراً وغصن شجرة ونسميهما باسميهما، نفس الشىء مع الحيوانات ومعرفة السبب، وعندما نسمع إطلاق النار نسأل ماذا يحدث، ولنبدأ من هنا، انظر إلى الصدفة، هذا هو الطريق الذى سار فيه جوزيه كالميدو قابضًا على جوان المنحوس، يبدو كما لو أن الوسية تحولت لقطعة أرض صغيرة، من السهل أن يلتقى الأشخاص فى الأماكن التى التقوا فيها من قبل. الحقيقة أننا مررنا من هنا فى مرة أقل ضجيجًا من هذه، هنا تقبع أطلال طاحونة الماء، وهناك، فى مكان عال لا يمكن رؤيته، يوجد فرن مصنع القرميد، لكن علينا ألا نخاف من الطلقات، طلقات الرماية الماهرة، ماذا تكون ؟ ماذا لا تكون ؟ إنها طلقة رصاص، عمل رقيق، لا علاقة له بطلقات الرش هذه التى تستخدم فى الصيد، تلك إذاً قصة أخرى .

توقف إطلاق النار، يمكننا أن نعبر بلا خوف، لكن من حيث كانوا يطلقون النار يهبط رجل نعرف أنه من عامة الشعب من تعامله وطريقته، يجتاز الوادى، ملوسة الأرض السوداء هذه، ويعبر من خلال جسر صغير له درابزين منخفض، النهر هنا ليس إلا مجرى صغير عرضه ثلاث خطوات، ويبدأ فى الصعود من هذا الجانب، المليء برقعة من العشب الشوكى الذى يتمتع بطريق واحد ثعبانى الشكل، حتى يتوه من ناظرينا، ماذا سيفعل هنا هذا الرجل، بلا فأس كبير ولا صغير، بلا بلطة ولا مشذب، فلنجلس هنا لنستريح

بينما يصعد هو، يهبط اضطراريًا وفى الحال سنقف على الأمر. هذا مكان مهجور جدًا، هذا ما قاله: نعم إنه كذلك، ولا تعتقد أن الطريق الضيق بين العوسج سينفع كثيرًا الخادم الذى مر. أهذا خادم. نعم يا سيد، إنه خادم. لكنه لا يرتدى ملابس الخدم. مسألة الملابس كانت من العادات القديمة وعفا عليها الزمن، منذ زمن الكونتيسة التى سلحت أولادها الفرسان، لا أدرى إن كنت تعرفها، أما خدم اليوم فيرتدون نفس ملابسنا، لا ملابسك، فأنت من المدينة، ونميز بين السادة والخدم من السلوك فقط. لكن لماذا تقول: إن هذا الطريق الضيق لن ينفعه كثيرًا. لأن ما يبحث عنه يوجد خارج الطريق، ولا يستطيع أن يرجع، فالرجوع أصعب، عليه أن يواصل للأمام، هذه هى الأوامر التى تلقاها، ويمسك بيده عكازًا ليفتح له طريقًا بين العوسج، لكنه كما لو أنه لا يمسك شيئًا. ولماذا يفعل ذلك. لأنه خادم، وكلما زادت الخدوش فى بدنه عند عودته سريعًا، كلما قدروه أكثر. أعندكم أيضا هذه العبودية. نعم، لكن فلنرجع لمرجوعنا، كنت أقول لك إن هذه الأرض صارت مهجورة، لكنها لم تكن كذلك دومًا، تستطيع أن تصدق ذلك، لقد جاء وقت كانت الحدائق فيه تتسع على مدى البصر، فالأرض خيرة، ولا ينقصنا هنا آبار، بالإضافة للنهر. إذاً، كيف صارت صحراء. جميل، حدث أن أب سادة هذا الخادم، الذين كانوا يطلقون النار، ظل يكافح حتى امتلك هذا المكان جميعه، للأبد، حيث كان يسكن هنا مزارعون صغار

يمرون بأزمات مالية، حينئذ قام هذا الرجل، ولا أتذكر اسمه، أكان جيلبيرتو، أم ادالبيرتو، أم يا ترى نوربيرتو، شىء كهذا، قام بتسليفهم نقودًا، ثم لم يستطيعوا سدادها، وكانت سنوات سوداء، فمضى يسحب منهم أرضهم. هذا مستحيل. لا شىء مستحيل فى الأمر، دائمًا ما حدث ذلك فى الوسية، فالوسية مثل البغال التى تصبو عض من يسير بجوارها. ستحكى لى كثيرًا. لا تظن ذلك، فلو حكيت لك كثيرًا سنقضى بقية حياتنا فى الثرثرة، وستستمر الحكاية حتى يراها أحفادنا، لا أدرى إن كان لك أحفاد، لكن انتبه، فالخادم فى طريق العودة، فلنتبعه .

كان الضجيج من شىء ثقيل، حيث كان يجر قدميه بما يحمله على كاهله، فتزحلق، وسقط فجأة وظل يتدحرج لأسفل، متعرضًا لخطر الموت. ماذا يحمل على كاهله. يحمل تنكة، والتنكة هى الهدف الذى يصوب عليه السادة وينتفعون منها كما ينتفعون من الخادم. لكن زمن العبودية انتهى. هذا ما تعتقده حضرتك. لكن كيف يرضى إنسان بهذا. اسأله: بالطبع سأسأله، اسمع، يا صديق، ما الذى تحمله على كاهلك. إنها تنكة. لكنها مليئة بالثقوب، فلا فائدة منها فى حفظ الماء ولا أى سائل آخر، أتريد أن تملأها بالأحجار. إنها هدف سادتى ألبيرتو و أنجيلبيرتو، هما يطلقان النار، بينما أنا أذهب لأبحث عن التنكة ليحصوا إن كانوا أصابوا أم لا، بعد ذلك أعود لأضعها فى نفس المكان، وعندما تصير التنكة

كالمنخل، آتى بأخرى، وهكذا. هل تقبل حضرتك بهذا. الدنيا مشيدة بشكل معين لايصح معه الحوار. يظهران من الجانب الآخر ألبيرتو وأنجيلبيرتو يصرخان بضيق صدر بسبب التأخير المفرط، لقد أوشكت الظهيرة أن تحل ومازال لدينا صندوقان من الرصاص، وسيعنفان الخادم، والرجل المسكين يعبر أعمق مكان فى الوادى بجهد وبخطى قصيرة، يجتاز الجسر، التنكة حدبة هائلة وصدئة، والآن، عند صعوده التل المواجه لا نرى رجلا، بل خنفساء. حسنًا، أمازلت تفكر أن العبودية انتهت. يبدو مستحيلاً. ياللهوس، ماذا تعرف عن المستحيلات. أنا أحاول أن أتعلم. إذاً فلتصغ لهذه الحكاية فقط، على الضفة اليمنى من النهر، بعد عبور الجسر، توجد بعض الشرفات الممتدة حتى التلال، أتراها، اتفقنا، باع الراميان اللذان رأيتهما هذه الأراضى لبعض المزارعين الصغار، ولو كانا من الرجال الأنقياء، كما ينبغى، لباعا حتى ضفة النهر، لكن لا يا سيدى، احتفظوا بعشرة، بعشرين مترًا، وبالتالى تحتم على الفلاحين الذين يحتاجون ماء حفر الآبار، ما رأيك: أرى ذلك مستحيلا. فى الواقع، يبدو مستحيلاً، إنها نفس الحالة التى تكون فيها عطشان وأنا معى كوب ماء وأرفض أن أعطيه لك، ولو أردت ماء، فلتحفر الأرض بأظافرك بينما أفرغ أنا كوبى وأستمتع برؤية الماء يجرى. حتى أن الكلب يستطيع أن يقترب ليشرب من الضفة، ويحرم ذلك على الفلاحين. نهايته، أرى أنك بدأت تفهم شيئًا، أنظر،

هاهو الخادم يأتى من جديد بتنكة جديدة. واضح أن سيديك أصابا فى الرماية بشكل كبير، حقًا سيدى، لكنهما سألانى عنكما، وقلت لهما إننى لا أعرفكما، فقالا إن لم ترحلا فى الحال سيستدعيان الحرس. رحل المتجولان، فللتهديد أهميته والدليل سلطته، غزو دخيل على الوسية، رغم أنها لا سور لها، ستكون جريمة خطيرة لو كان الحرس أبناء حرام، ولن ينفعهما فى شىء إقامة الدليل على أنهم لا يعرفان الحدود، هنا، على سبيل المثال، لعدم وجود خدمة فى الطريق، يمكنهما أن يقولا إنهما كانا محظوظين لأن طلقة لم تأخذهما، فمجرد قول إن رصاصة طائشة أصابتهما، تنتهى القصة، هذا ما كانا يطلبانه هذان الرجلان، يا أخى ألبيرتو .

لكن فى بعض المرات سيكون من العدالة أن ترن فى الوسية قهقهة عندما يروق لنا الضحك، رغم أننى لا أدرى أيستحق الأمر قهقهة، من الطبيعى هنا أن تضحك الناس ويتبع ضحكهم رغبة فى البكاء أو الصراخ من الحنق الذى يسمع فى السماء صداه، أى سماء وأى هراء، فالقس أجاميديس بجانبنا ولا يسمعنا، أو يتصنع الطرش، فلا يسمع صرخة سمعها كل من فى الأرض، سنرى إن كانوا يسمعوننا أيها الرجال ويأتون صوبنا، لكن ربما لا يسمعوننا لأنهم يصرخون مثلنا. فلتسرد علينا حكاية أثناء ذلك وليضحك من يستطيع، خاصة لو وضعنا فى الاعتبار أنه لأجل هذا ينفع الحرس، لا لنسخر منهم. نستعيد

بالله من الفتنة، إلا إذا كانت نداء مبعوثًا، وإن كان حقيقة أنه فى أغلب المرات من يأمر بالفتنة ويستدعيها هو الحاكم المدنى أو سلطات رسمية أخرى، للوسية أيضًا على الفتنة سلطة وقدرة، كما سنرى فى الحكاية الجميلة التى يتدخل فيها أدالبيرتو، وراعى، ومساعدان و ثلاثة كلاب، وستمائة نعجة و عربة جيب، وعربة دورية للحرس الجمهورى، حتى لا نبالغ قائلين إنها فصيلة من الجنود، بالبنادق فى وضع الاستعداد، والخطوة العسكرية، فلتمشوا.

إنه قطيع شارد . يكون فى أراضى بيرتو، يمضى لأراضى بيرتو، إنه افتراض عام وطريقة غير ملائمة للحكى، فالأرض أرض أدالبيرتو وليست لغيره، وفى هذا التنقل يمر القطيع بأرض نوربيرتو، وأثناء المرور يأكل، فالنعاج ليست سرب كلاب يمكن وضع الكمامات على أفواهها، ولو طبقوا ذلك ووافقت به النعاج، فلن يضعوا كمامة للراعى، و إلا ستكون جولته غير مجزية له، رغم أنه بإمكاننا أن نضيف افتراضًا اخر، هو أن يكذب الراعى، ففى حالة عدم معذرته لذهابه من أرض لأخرى، وضلاله وعبوره الحدود عندما تكمن مهارة حرفته فى استغلال الحدود والتعامل بطبيعية متناهية مع هذه الغارات، ذات البراءة المهانة بشكل واضح من قبل الشكوك الظالمة، يقول الراعى لم أنتبه، كنت أسير مع الغنم، ربما أصابنى العمى، اتجهت يمينًا، كنت أظن أننى مازلت فى أرض سيدى. ليس إلا قول ذلك. سيكون الراعى

فى حالة تواطؤ، يقترح ذلك المتسرعون، ولا ينقصهم الحق، لا يا سادة، لكن هذه الأمور ذات حساسية عالية، وأول ما يجب أن يتحققوا منه هو أن تصرف الراعى المعوج لا يحتوى على التفكير فى بطون نعاجه أكثر من مصالح المالك بيرتو أو التستر عليها. و بعد أن دوَّنا هذا حتى لا يبقى فى الخارج أى احتمال، نعود لحكايتنا، إلى الستمائة نعجة، التى تأتى راقصة، فى حماية راعٍ، ومساعدين و كلاب، و فى حمايتنا نحن أبناء المدينة الذين رحبنا بهذا الظل، يستحق الإعجاب رؤية الغنم هابطًا من المنحدر، أو فى الأرض المستوية، يا للصفاء، بعيدًا عن زحام المدينة المؤذى، عن جلبة العاصمة مطلق العنان.. ابدأن، يا ملهماتى، ابدأن قصائدكن الرعوية. أصابنا حسن الطالع لأن القطيع يأتى ناحيتنا، هكذا سنتمكن من تذوق الحدث من بدايته، يا رب الكلاب ما تعض الغنم .

أراد القدر أن يخرج أدالبيرتو فى هذا اليوم ليتنزه فى عربته ويقوم بجولة ريفية يشاهد فيها مزارعه، ومن المعروف أن عشق الطبيعة يحتاج أحيانًا لهذه التوسعات، وإن لم تستطع عربته أن تدخل بين الأعشاب، فى السبل والطرق الوعرة، فعلى كل حال لديه حرية كاملة ليتمشى فى الطرق الممهدة، بمهارة الطيار وصبر الزنبرك، ما ينبغى أن يفعله هو ألا يمشى بتعجل . يسير أدالبيرتو وحيدًا حتى يقدّر بشكل أفضل العزلة الريفية، وزقزقة العصافير، حتى لو عكر موتور العربة هدوء الطبيعة، فالقضية قضية

معرفة تكامل ما هو قديم مع ما هو حديث، وعدم التوقف عند متع الماضى، عند الكاريتا ذات الجواد المخبب، ومن جانب الوجه تظهر القبعة الريفية تحت تموج السوط المتمطط الذى يلمس من حين لآخر ردف الفارس، ليس إلا ذلك، و هو يدرك هذا. إنه جمال الوسية الذى قليلا ما يشاهد، لأن ثمن الجواد يعادل ثروة، بالإضافة لكونه يأكل عندما لا يعمل، ونحن نعرف جيدا أن الحصان حيوان متميز، يذكرنا بأيام الإقطاعيات، لكن الزمن تغير، وماذا نفعل، والحقيقة أن العربة أكثر نظافة، تثير فى الناس الذهول وتتدخر العلاقات الحميمة، هيا بنا لقد تأخرنا .

مع ذلك، يسير أدالبيرتو اليوم متأنيا، راسمًا بكوعه الكريه منحنيات متثاقلة فى النافذة المفتوحة، كل هذه الأرض ملكى منذ لامبيرتو، رغم أنها لم تكن كلها ملكًا للامبيرتو، ستكون حكاية أخرى شيقة حكاية توزيع الأرض وإعادة توزيعها، جمعها وإضافتها، لكننا ينقصنا الوقت، يا ليتنا كنا بدأنا قبل ذلك، الآن يظهر أدالبيرتو بين الأشجار، يلمع عربته ولونها الكرومى، وفجأة يتوقف، "أيكون قد رآنا؟، من الأفضل أن نبدأ فى الهبوط من هذا الجانب، وبذلك سنتفادى أسئلته، أنا رجل مسالم وأحترم ملكية الغير"، وعندما نعود لنرى إن كان يتبعنا ويقترب منا، أدالبيرتو الحانق، نراه بذهول يخرج من عربته، ينظر بوجه غاضب للقطيع المتأنى الذى لم يعره اهتمامًا، كما فعلت الكلاب، التى تسير متشممة الأرانب، وبعدها، بإيماءة تهديد يعود

للعربة، يلف نصف لفة، ينفض الأرض، عقابًا لها على شرها، ويختفى بين سحابة الغبار، كما اعتادت الروايات أن تقول. لن نتحرك من هنا لأن شيئًا ما سيحدث، لماذا رحل الرجل من هنا، إنه قطيع نعاج وليس فرقة أسود، لكن لا أحد يعرف الأسباب سوى أدالبيرتو، المتجه الآن لجبل لافرى فى طريق عظيم، بحثًا عن قوات، هذه القوات هى الحرس الذين يموتون فى نفس هذه الساعة من الضجر داخل كتيبتهم، يحدث هذا فى الوسية، تتعرض لاضطرابات كبيرة ثم لهدنة طويلة يسود فيها النوم، على أى حال هذا هو مصير من يختار العيش من العسكرية، لهذا يقومون بمناورات وتدريبات، لكن، شاويشنا، لا يجهد كثيرًا ولا ينام كثيرًا .

ينزل أدالبيرتو من عربته أمام بوابة كتيبة الحرس، مثيرًا سحابة غبار أخرى، ورغم أن جسده ثقيل بسبب السن و أشياء أخرى، إلا أنه يدخل برشاقة، المكان ليس غارقًا فى الراحة لكنه يسمح له بوضعه هذا أن يعبر بلا عراقيل كثيرة، كما أن عملية دخوله وخروجه المتكررة عندما أثيرت مشكلة الثلاثة وثلاثين إسكودو، جعلتهم يتذكرونه بسهولة، وعندما يخرج، يصطحب معه صحبة، الأمباشى تباكو وأحد العسكر، يركبون السيارة، يا إلهى المقدس، يا عذراء، أين سيذهب الحرس بهذه السرعة، السيدات العجائز الجالسات على مصطبة الباب لا يعرفن ذلك، لكننا نعرف كل شىء، إنهم قادمون إلى هنا من أجل القطيع

الذى يرتع، بينما يرتاح الراعى تحت شجرة بلوط، ومساعدوه يتجولون لرعاية الغنم، بتعزيز من الكلاب، إنها مناورة قليلة الاستراتيجية، لكن لها منطقها، الحفاظ على قطيع كبير العدد مرتعيًا معًا، دون وجود شرخ فى صفوفه، والآن يروق لنعجة أن تتنفس ملء رئتيها. والآن بينما يأتى أدالبيرتو هناك شىء يشغلنى، هذا التفاهم التام بين الوسية والحرس، ما سببه ؟ أهى سذاجة منك أم شرود، بعد أن وصلنا لهذه النقطة فى الحكاية مازالت لديك شكوك، أم يا ترى هو المكر أم تصنع البلاغة، أم حدث ذلك من أثر التكرار، أيًا كان السبب، حتى الصبى الصغير يعلم أن الحرس موجود هنا لحماية الوسية. حمايتها من ماذا، إن لم تهرب الوسية؟. حمايتها من أخطار السرقة، من النهب والنكائب الأخرى، فهؤلاء الناس الذين تحدثنا عنهم من سلالة واطئة، تخيل، هؤلاء البؤساء الذين لم يفعلوا شيئًا فى حياتهم بأكملها وحياة آبائهم وأجدادهم و آباء أجدادهم، سوى أن يتمزقوا جوعاً، كيف لا يتحتم عليهم الطمع فى خيرات الآخرين. هذا أمر سيئ، الطمع. أسوأ ما يكون. أتسخر منى ؟. نعم، أسخر منك، لكن يوجد هناك من يأخذ كلامك مأخذ الجد ويقول إن هذه الشرذمة من الريفيين يريدون سرقة أراضيهم، هذه الوسايا المقدسة التى جاءت من بعيد، وحينئذ وضعوا الحرس هنا لحفظ الأمن، هنا لا أحد يستطيع أن يحرك إصبعه. وهل يروق ذلك الحرس ؟. نعم يروق لهم ذلك، فلهم مكافآتهم، زيهم،

أحذيتهم، بنادقهم، سلطتهم التى يستخدمونها ويسيئون استخدامها، وامتنان أصحاب الوسايا، سأضرب لك مثلا، ففى هذه العملية العسكرية الغريبة، سيتلقى الأمباشى تباكو عشرات الليترات من الزيت، وبعض العربات المحملة بالحطب، والحارس، لو أخذ الأونباشى سبعين، سيأخذ هو أقل قليلا، بسبب مسألة الرتبة، فيتلقى ثلاثين أو أربعين، ففى هذا الأمر توفى الوسية بوعدها، فلا تستدين بشىء، والحرس، بالإضافة لذلك، من السهل إسعادهم، ولك أن تتخيل ما سيحدث فى لشبونة خلف الأبواب المغلقة. إنها أحداث محزنة. لا تشرع فى البكاء، ماذا ستفعل إذاً لو جئت من بعيد حاملا على كاهلك جوالا به حطب، بعد قلع الأعشاب الضارة، حاملاً ولاهثًا مثل حيوان يحمل أثقالاً، وطلع لك فى الطريق الحرس، مصوبين بنادقهم ناحيتك، ارفع يديك، ماذا تحمل معك، فتجيبهم، أنا قادم من المكان الفلانى أو العلانى، وهم يتحققون من صدقك، وإن لم يتحققوا، فليتولاك الله برحمته. إذاً فجوزيه القط أفضل منهم. نعم القط أفضل منهم، لكن أسوأ شىء أن تقابل بعد سيرك بقليل عربة محملة بستة أو ستمائة أو ألف كيلو حطب منشور بشكل جيد ومتساو من أجل الحرس، هدية من الوسية مقابل خدماتهم الجليلة والمخلصة. هناك من يبيعون أنفسهم بثمن بخس. من يبيع نفسه يبيع نفسه، فلا فرق بين ثمن بخس وثمن غال، فالشر يكمن فى بيع النفس سواء بسنت واحد أو بمليون .

لم يواصل حديثه، توقف اهتمامه، لكن الراوى يستطيع أن يقول ما كان يريد هو قوله، وهذه ميزة، والآن نعم، جاء أدالبيرتو وجيشه، توقفت العربة، فتحت أبوابها، إنه غزو، إنزال جنود، ومن أعلى نقطة يقومون بإيماءات كبيرة للراعى، لكن هذا الراعى كسلان، حيوان يهرش فى عزلته، كان جالسًا، ومازال جالسًا، وفى النهاية، بتفاخر متظاهرًا أن عمله شديد الصعوبة، ينهض ويطلق صيحة، ماذا يحدث ؟ والشاويش يأمر بتنزيل السلاح، بالهجوم، بالضغط على زرار القنابل، الأفضل ألا تبالوا بهذه المبالغات الحربية، ماذا سنفعل له، ففرصهم قليلة، الآن انتبه الراعى لما يحدث، حدث ذلك ذات مرة مع أبيه، كل هذا يشعر به فى داخله كمعركة من الضحك، يلاحظ عليه ذلك فى تجعيدات عينيه، على وشك أن يتقلب فى الأرض. أتظن أنه يصح أن تسير هكذا، بلا إذن. هذا سؤال الأمباشى تباكو، الذى يفرض العقوبات، سيد القانون والبندقية. ستدفع غرامة خمسة اسكودو عن كل نعجة. علينا أن نعد، إنها ستمائة نعجة فى خمسة إسكودو، خمسة فى ستة بثلاثين، نضع الأصفار، ياللهزل، ثلاثة آلاف إسكودو غرامة، ياله من عشب غالى الثمن، وحينها يقول الراعى، هناك خطأ ما، فالنعاج نعاج السيد الذى يسمعنى، وأنا فى أرض من ممتلكاته. ماذا، ماذا قلت، غضب تباكو، ونظر العسكرى للسحاب، ورد أدالبيرتو غاضبًا، أهذا إذاً ملكى. نعم يا سيدى، وأنا راعى هذه النعاج، وهى

نعاجك. اذهبن يا ملهماتى العزيزات. وانتهت الحكاية .

انسحبت القوات لثكناتها، والتزم الصمت رءوس الحملة الثلاثة، وأصدر أداليبرتو أوامره بشأن الزيت عند وصوله لبيته، بينما حفظ الأمباشى تباكو والعسكرى الأسلحة فى صندوقها حاسبين الفائدة ومصلين لرئيس الملائكة القديس ميجيل ليجزل عطاءه عليهم فى مغامرات أخرى ذات خطر مساو وفائدة مساوية. إنها أحداث صغيرة تجرى فى الوسية، لكن حجر على حجر يصنع جدارًا، وحبة قمح مع حبة قمح تصنع محصولا، وما هذه الزقزقة؟ إنها أم قويق، وسريعًا ما يرد عليها طائر آخر، اسمه دومينجو، هذا الذى يقبع قريبًا من العش .

ليس معنى أن سيجيسموندو كاناسترو قد حكى لنا، فى أجمل فترات حياته، حكاية الكلب ثابت والحجل، أن نعتقد أنه المُطلّع الوحيد على أحداث الصيد النادرة . فقد عاش أنطونيو المنحوس أيضًا هذه الأحداث، بالإضافة لما عرفه بالسمع، وبهذا الكم والتنوع الذى يسمح له جيدًا بأن يكون هو راوى هذه الحكاية المشار إليها، ومضيفًا لسيجيسموندو كاناسترو تأكيدًا على صدق ما حدث من خلال برهان الحلم الذى لا يدحض. حكايات عن الحرية والتغيير والعجائب، ليس فى جعبتها سوى الحديث عن الوسية المتسعة، عن ضياع الكلمات واكتشافها، حكايات ستروى بعد أيام كما ستروى بعد قرون، فمثلا، تجلس تحت شجرة بلوط وتسمع المحادثة العظيمة بين الجذع وجاره، حكايات شديدة فى القدم، ومشوشة فى الحقيقة، فمع مرورالسنين تهذى أشجار البلوط قليلا، لكن لا ذنب لأحد فى ذلك، أو ربما الذنب ذنبنا لأننا لم نشأ أن نتعلم هذه اللغات. من يتوه فى هذه الأماكن يصل للتمييز بين المنظر الطبيعى والكلمات الموجودة

فيه، لهذا نقابل أحيانًا بالصدفة رجلاً واقفًا فى وسط الحقل، كما لو كان أثناء سيره وتنزهه قد أوقفه فجأة شخص ما، أنظر، أنصت، والحق والمؤكد أنه يسمع كلمات، أحداثًا، وقائع، ولأنه مر فى اللحظة المناسبة، ولأنه هو الشخص المنتظر، فقد ارتجفت السماء وتجلت حكاية الكلب ثابت، المعجزة، كما تجلى البرهان الحقيقى لفضول الأرانب، الذى فسره أنطونيو المنحوس وتحقق منه من خلال كل أحلام سيجيسموندو كاناسترو، بالإضافة لأحلام من أراد أن يرويها لنا .

أولا علينا أن نجد حجراً مستوياً بشكل جيد، طوله شبر وعرضه يسع نصف صفحة جريدة. يجب ألا يكون يوماً عاصفاً، حتى لا تتناثر كومة الفلفل الأسود، التى فى تشوش العناوين والحروف الطباعية المائلة والمستديرة، ستكون زناد هذا السلاح. كما نعرف جميعاً، الأرنب البرى فضولى. أكثر من القط ؟ ليس هناك وجه مقارنة، يكفى أن نقول إن القط لا يريد معرفة شىء عما يدور فى الدنيا، بينما الأرنب البرى يهتم كثيرًا بمعرفة كل شىء، حتى أنه لا يستطيع أن يرى جريدة ملقاة فى الطريق دون أن يقترب منها فى الحال ليرى ما يحدث، ولأنه كذلك فهناك صيادون قد اكتشفوا نظامًا يضعون به أجهزة ترقُب خلف سياج، وعندما يقترب الأرنب البرى ليطلع على الأخبار، بوووم، تنفجر القنبلة، أسوأ ما فى الأمر أن الجريدة تتمزق إرباً من الرصاص ويجب المضى بحثًا عن

جريدة أخرى، لقد رأينا أحد الصيادين بخزنة مليئة بالجرائد، قبيحة المنظر والفلفل الأسود، ما فائدته ؟ يكمن سر المهنة فى الفلفل الأسود، من الضرورى ألا يتحرك الريح، وهذا الشرط أيضاً يُفرض عندما تكون الجريدة فى الطريق، فلو هب الريح وطارت الجريدة، يهرب الأرنب البرى، لأنه يهوى قراءة الأخبار فى هدوء مناسب. يبدو لى أمراً غريباً هذا. هناك أمور أغرب ستبدو لك عندما يأتى وقتها المناسب، وحينئذ، مسلحاً بكل هذه الأسلحة، الحجر، الفلفل الأسود، الجريدة، على الصياد أن ينتظر، وإن تحتم عليه انتظار طويل، فذلك يرجع للمكان نفسه الذى تقل فيه الأرانب البرية، وهذا يحدث أحيانًا، حتى لا يمضى شاكيًا بعد ذلك من أنه لم يجد صيداً، فالذنب ذنبه وحده، لكن عندما يعرف الأرض جيدًا، لا يقع فى خطأ، وفى الحال يظهر أول أرنب برى، قافزًا، يعض هنا، يضغط هنا، وفجأة يبقى بأذنين واقفتين، لقد رأى الجريدة وماذا يفعل حينئذ؟ مسكين، ولا حتى ينتابه الشك، يسير بهذا الحنين لمعرفة الأخبار، يركض نحو الجريدة، و يبدأ فى القراءة، إنه أرنب برى سعيد ومسرور، لا يفوّت سطرًا، لكن أنفه تدنو حينئذ من كومة الفلفل الأسود و يتنفسها. وماذا يحدث حينها؟ مثلما يحدث لك لو كنت مكانه، يعطس، فتصطدم رأسه فى الحجر ويموت. وبعد ذلك ؟ وبعد ذلك، الشىء الوحيد الذى يجب أن يفعله الصياد هو المضى بحثًا عنه، لكن، لو يفضل ذلك، يمكنه أن يمر

بعد عدة ساعات وسيجد حلقة من الأرانب البرية، واحدًا تلو الآخر، فهكذا هم، إنهم فى غاية الفضول، لا يستطيعون أن يمسكوا أنفسهم أمام جريدة. قل لى، أحقيقة ما تقول؟ اسأل من تريد، فحتى الطفل الرضيع يعرف هذه الأشياء .

لا يمتلك أنطونيو المنحوس بندقية حديثة، والحمد لله . فلو امتلكها لصار صياداً سوقياً مسلحاً بدلاً من كونه مخترع فلفل سان هومبيرتو الأسود، لكن هذا لا يعنى أنه يستخف بفن الرماية، والدليل على ذلك نجده فى بندقيته التى ترجع للقرن السابع عشر التى كانت تعبأ من فوهتها والتى اشتراها ذات يوم بعشرين إسكودو من فلاح مسرف، وصنع بها العجائب. من يعيش فى المدينة تربى على عدم الثقة، و يطلب أدلة وقسماً على أى شىء، وهو أمر سيئ، لأن علينا أن نصدق الأشياء كما قيلت لنا، فما حدث لأنطونيو المنحوس، بعد أن صار مالكاً للبندقية العتيقة، أنه كان لديه بارود، لكن كان ينقصه رصاص. كانت هذه هى فترة الأرانب، وينبغى أن نوضح ذلك حتى لا يظهر لنا هنا من يسأل لماذا لم يستخدم أنطونيو المنحوس نظام الحجر والفلفل الأسود والجريدة، كما كان يفعل مع الأرانب البرية. وحدهم الذين يجهلون مبادئ فنون الصيد لا يعرفون أن الأرانب البيتية حيوانات مجردة من أقل فضول، فرؤية جريدة فى الأرض أو سحابة فى السماء، سيان عندها، فالفرق بينهما أن السحابة تمطر أما الجريدة

فلا، لهذا لا يمكن الاستغناء عن البندقية أو المصيدة أو الهراوة، لكننا الآن نتحدث عن البنادق العتيقة .

ليست هناك مصيبة أكبر من أن يمتلك الصياد سلاحاً جيدًا، حتى ولو كان من الصوّان، وبارودًا بالكمية، ولكن ينقصه الرصاص. ولماذا لم تشتر الرصاص؟ لم يكن معى نقود، وهذا هو العيب وماذا فعلت حينئذ؟ فى البداية لم أفعل شيئًا، لكن بعد ذلك بدأت أفكر وهل اكتشفت شيئا ؟ اكتشفت، نعم يا سيدى، لأن من يفكر ينتهى مكتشفا شيئا وكيف حللت المشكلة ؟ كان عندى صندوق مسامير صغيرة عريضة الرأس كنت أستخدمها لنعالى فعبأت بها البندقية القديمة ماذا تقول لى! أعبأت البندقية بالمسامير الصغيرة ! نعم يا سيدى، واضح أنك لا تصدقنى. بل أصدقك، لكننى لم أسمع شيئا مشابها ذات مرة سيتحتم عليك أن تصدق بما لم تسمع به من قبل احك لى البقية . كنت أمضى فى الحقل عندما خطرت ببالى فكرة جعلتنى على وشك أن أتراجع. ماذا تقول لى!. إنها حقيقة، لقد انتبهت أن الأرنب لو ضرب بمسامير سيتحول إلى مزيج من اللحم و الدم، ولن أستطيع أكله. وحينئذ؟. بدأت أفكر من جديد. وهل خطرت ببالك فكرة ؟ نعم خطرت ببالى، فعندما يفكر الواحد منا، عادة ما تداهمه فكرة، وقفت أمام شجرة ذات جذع غليظ، كانت موجودة هناك، وانتظرت. وهل انتظرت كثيرًا؟ انتظرت ما هو ضرورى، فلا ننتظر أبدا لا أكثر ولا أقل. حتى جاء

الأرنب ؟. نعم سيدى، و ما أن رآنى خرج ركضاً نحو الشجرة، وأنا كنت قد درست الملعب، وعندما مر ملتصقا بالشجرة تحركت وصوبت. حينئذ لم يتمزق إربًا. يا رجل، لماذا تظن أننى فكرت كثيرًا، لقد لحقت به المسامير فى أذنه، وغرزته فى جذع شجرة البلوط، وكانت شجرة بلوط حتى أضيف لك تفصلا أكثر. هذه حقا فكرة نيرة. نعم فكرة نيرة، فلم ينبغ على سوى أن أسدد له ضربة فى الرقبة وأخرج منها المسامير، تخيل كيف كان حالى و أنا آكل الأرنب ونعلى المسمر شاهد

لقد خلق الإنسان بشكل ما حتى عندما يكذب يقول حقيقة أخرى، وفى المقابل لو أراد أن يخرج حقيقة من بين أسنانه، دائمًا ما تأتى حقيقة يشوبها أكذوبة، حتى ولو لم يكن عن قصد. لهذا لن نصل أبداً لنهاية لو بدأنا نناقش ما فى حكايات صيد أنطونيو المنحوس من حقائق وأكاذيب، ويكفى أن نعرف وأن تكون لدينا المروءة لنعترف أن ما ورد فى الحكاوى يمكن لمسه بأيدينا، سواء كان الأرنب البرى أو الأرنب البيتى بعد صيده، البندقية القديمة، التى مازالت موجودة لزماننا، البارود رخيص الثمن، المسامير الصغيرة عريضة الرأس التى تمسك نعال الفقراء، والنعل هو الشاهد، والفلفل الأسود الذى يعد عجيبة قادمة من بلاد الهند، والحجر الموجود دائمًا، والجريدة التى تقرأها الأرانب البرية أفضل من الرجال، وأنطونيو المنحوس الموجود هنا، حاكيًا

للحكاوى، فلن توجد حكايات ما لم يوجد من يسردها. لقد حكيتُ لك حكاية، وحكايتين، والآن سنروى الثالثة، فثلاثة رقم مقدس اختاره الرب: الأب، الابن، والروح القدس لأذن الأرنب التى اشتبكت فى السلك فى الحكاية الظريفة التى سأرويها عليك. تفقد الحكاية رونقها إن عرفنا نهايتها. وما أهمية ذلك، فنهاية الإنسان الموت إلا أن أفضل ما فيه حياته وما يحكيه وما يحكى عنها. هيا، احك لنا حكاية الأرنب. "كان عندى نفس البندقية العتيقة، ولقد تعودت عليها لدرجة أننى كنت أسخر من هذه البنادق الحديثة ذات الماسورتين، أو ذات الأربع، وهى أسلحة حرب يجب أن تُحرّم. لماذا؟ ألا ترى أنه من الأفضل أن تعبىء البندقية من فوهتها بالبارود وبقياس الرصاص عندما يوجد، وبكل هدوء، وأن ترى مرور الصيدة وتقول لنفسك داخل قلبك، حسنًا، لقد هربت هذه المرة، وتجلس مليئا بالصداقة نحو الحيوان ذى الريش أو الشعر الذى يبتعد، إنها مسألة إيمان بالقدر، فلم تأت ساعته بعد. إنها طريقة خاصة لرؤية الأمور، وبعد ذلك؟ بعد ذلك، لا شىء، أما قبل ذلك فحدث أنى كنت مفلسا أيضًا من النقود لأشترى طلقات رش. يا رجل، أأنت دائما مفلس! مما أنت مندهش، ألم يحدث لك أبدا أن أفلست ! جميل، فلنرجع لمرجوعنا، فأنا أعرف جيدًا عن احتياجاتى، واصل حضرتك. حينئذ لم يكن لدى نقود لأشترى رصاص، لكن كان لدى بلية من الفولاذ، من هذه التى تأتى فى المحامل،

عثرت عليها فى نفايات ورشة، وحينها طبقت نفس الوصفة، لكن هذه المرة بلا شجرة، فالشجرة كانت فقط من أجل المسامير الصغيرة. ماذا، اشرح لى بشكل أوضح . فكرت أن بلية من الفولاذ مصوبة بشكل جيد ستكون مثل رصاصة، فلا تمزق لحم الحيوان ولا تهشم جلده، إنها فقط مسألة مهارة فى الرماية، وفى هذا أنا محترف، ولا أقول ذلك مدحاً فى ذاتى. وبعد ذلك؟ بعد ذلك ذهبت للحقل، لمكان كنت أعرفه، أرض رملية اعتاد أن يسير فيها أرنب بحجم الجدى، كان أبو الأرانب، بجد، أما ما لم أرها أبدًا فكانت أمه، فهى لا تخرج أبدا من جحرها، هذا الجحر شديد العمق مثل هوة جسر كافا، تحفر الأرض لأعماقها ولا يعرف أحد نهايتها. وجميل، لكن هذه حكاية أخرى" . " أنت مخطىء، كلها نفس الحكاية، لكن ليس أمامى متسع من الوقت لأحكيها الآن. وبعد ذلك؟ بعد ذلك، لعب الأرنب الدنيئة معى عدة مرات، فهو يتمتع بفن خاص فى الاختفاء ما أن أرفع بندقيتى، هذا فى الأحوال التى كنت أسير فيها بالرصاص. إذاً لم يكن يهمك أن تهشم جلده. مع أرنب بهذا الحجم لا يهمنى. لكنك قلت لى فى التو ... انظر، أنا لا أستطيع أن أواصل حكايتى هكذا. اتفقنا، واصل. انتظرت، وانتظرت، مرت ساعة، مرت ساعتان، وفى وقت متأخر ظهر الحيوان متقافزا، هو مجرد تشبيه له بالجدى، كما قلت من قبل، وفى لحظة ما عندما كان يتقافز فى الهواء خيل إلى أنه حجل،

وبووووم، نار. أقتلته؟. لا سيدى، فقد نفض الأرنب أذنيه قبل أن يسقط على الأرض، وانتهت الوثبة، ووثب أخرى، وثالثة، وأنا أصبحت بلا سلاح، وشرع في الجرى منطلقا نحو السياج، وعاد ليتقافز، هذه التقافزات الطويلة، وكان يبدو أنه سيطير فوق هذا السياج، وكان هذا بعيدًا مثل من هنا لهناك، وماذا أرى. ماذا ؟ الأرنب المسجون، يحرك ساقيه، كان يبدو كما لو أن أحدا يمسكه من إحدى أذنيه، وحينئذ اقتربتُ ورأيتُ كل شىء. يا رجل، لقد ساد صمتك وقتًا طويلاً وأنا الفضول يأكلنى. أنت أيضا مثل الأرانب البرية . دعك من الهزل واحك لى البقية. "كانوا هناك يصلحون السياج ووضعوا سلكًا شائكًا برءوس حديدية بحجم هذا الإصبع، و بما أن الطلقة خرقت أذن الأرنب، فقد شبكت الأذن المخروقة فى السلك الشائك، تخيل . وحينئذ قفزت عليه، أعطيته ضربة خلف أذنيه . لا يا سيدى، سلّكته من السلك وأطلقت سراحه. هذا مستحيل!. فأنا أرى أن إصابته فى أذنه لم تكن مهارة فى الرماية، بل صدفة، وحظًا، وأبو الأرانب لا يمكن أن يموت بالصدفة. يالها من حكاية عظيمة. كلها حقائق، حقيقة أيضا أن الأرانب فى هذه الليلة ساروا يرقصون حتى الصباح، وكان القمر بدرا. ولماذا؟. كانوا سعداء لأن أبا الأرانب قد نجا. أرأيتها حضرتك ترقص؟. لا، لم أرها، لكننى حلمت بها .

هنا مربط الفرس. تموت من خياشيمها السمكة، الصغيرة فى الشص والحزينة فى المقلاة، عندما لا

يعيدها الصياد للماء، ولو أعادها فلا نعرف هل أنقذتها شفقة الصياد على الصغار أم تصوره مستقبلها، بعد أن تنمو وتظهر، لكن أبا الأرانب، الذى لم يكن لينمو أكثر من ذلك بالتأكيد، قد أنقذته نزاهة أنطونيو المنحوس، القادرعلى ابتكار حكايات رائعة، لم يبتكر أفضل من حكاية الأرنب، واضعين فى الاعتبار أن التنشين فى الأذن أصعب من بقية الجسد، حتى لو كان الصياد ماهراً، وفى صمت الوسية اعترف سريعًا، بعد أن انطفأت أصداء الرصاصات فى جدامات القمح، إنه ما كان ليمتلك سلام الضمير بقية حياته لو تذكر عين الأرنب المرعوبة والمتسعة تنظر له وهو يقترب من السياج .

الوسية حقل محوّط بأسلاك شائكة، فى كل سلك نجد أرنبًا عيل صبره، بأذن مخروقة، ليس بسبب رصاصة، و إنما بالميلاد، وتبقى هناك طيلة حياتها، تحفر الأرض بأظافرها، تسمدها بفضلاتها، ولو نبت عشب هناك تأكله حيث تستطيع أسنانها أن تصل، ببوز متذلل ملتصق بالأرض، بينما تسير حولها خطوات الصيادين، أموت أم لا أموت . وذات يوم، فلت أنطونيو المنحوس من السلك الشائك واجتاز الحدود، وفعل ذلك خلال خمس سنوات، مرة كل عام، وعبر لأراضى فرنسا، شمال فرنسا، نورمانديا، سار مساقا من أذنه، مختاطا بثقب الحاجة، الحق أنه لم يتزوج ولا أنجب أولاداً يطلبون منه الخبز، لكن صحة أبيه لم تكن على ما يرام، إنها عواقب السجن، لم يقتلوه لكنهم

طحنوه جيدًا، وفى جبل لافرى كانت البطالة تسود، ففى فرنسا على الأقل هناك عمل مضمون كما أن الأجرة أفضل مقارنة بما يُدفع فى الوسية، ففى شهر، أو أكثر قليلا، يدفعون خمسة عشر أو ستة عشرة ألفًا، ثروة . وحصل عليها، ولكن عند عودته لجبل لافرى تطير أغلبية ما ادخر فى دفع الديون والقليل يدخره للمستقبل .

وفرنسا، ما هى فرنسا ؟ إنها حقل لا نهائى من البنجر، يعملون فيها فى عزق الأرض ست عشرة ساعة يوميًا، أو سبع عشرة، إنه كلام، لأنها ساعات طويلة، فهم يعملون كل ساعات النهار وعددا من الليل. فرنسا هى عائلة من النورمانديين التى ترى أنه يدلف من بوابتها ثلاثة حيوانات أيبيرية، برتغاليان وإسبانى من الأندلس، وهم : أنطونيو المنحوس وكارولينو دا أفو، من جبل لافرى، وميجيل ارنانديث، من فوينتى بالميرا، وهذا الأخير يعرف بعض الكلمات الفرنسية، سلاح المهاجر، وبهذه الكلمات يقول إنهم يعملون هناك بالأجرة . فرنسا هى مرتبة من التبن قليلة الراحة للنوم القليل وطبق من البطاطس، إنها أرض خالية بشكل غامض من أيام الآحاد والأيام المقدسة . فرنسا هى أرض وجع الكليتين، وسكينان مغروزان هنا وهنا، وحزن ناتج عن عبور مميت، وصلب فى جزء من الأرض. فرنسا هى أرض تشاهدها بعينيك كأربعة أشبار من جذع البنجر، فغاباتها وآفاقها من البنجر، ليس بها سوى ذلك. فرنسا هى هذا الإزدراء، هذا

النظر بتعال، هذا الحديث بسخرية . فرنسا هى هذا الشرطى الذى يأتى ليتحقق من أوراقنا، سطرا سطرًا، مقارنًا ومستجوبًا، واقفًا على بعد ثلاث خطوات منا لتجنب رائحتنا الكريهة. فرنسا هى هذا الارتياب الواقف دوما مستعدًا كنوبتجى، هى هذه الرقابة التى لا تكل ولا تمل، هى هذا النورماندى الذى يمضى مفتشا على العمل المنتهى ويضع قدمه كما لو كان يدوس على أيادينا بتعمد. فرنسا هى هذه المعاملة السيئة فى الغذاء والمرحاض، وعلينا ألا نقارن أنفسنا بخيول المزرعة، هذه الخيول البدينة، العزيزة، الثرية فى مؤخرتها . فرنسا هى سياج من الأسلاك الشائكة بأرانب مثقوبة الأذن مثل الأسماك فى الشص، حتى الهواء ينقصها، وكارولينو دا أفو أقلهم احتمالا، وأبدنهم خصرا، وأكثرهم تراخيا، يشبه مطواة كسرت منها فجأة سوستتها، وصار سلاحها باردًا، وسنها ملتويًا، وفى العام القادم لن يعود. فرنسا سفر طويل بالقطار، وحزن هائل، وكومة من التذاكر المربوطة بدوبارة، وحقد أحمق من جانب من لم يسافر ويغتاب من سافر" إنه ثرى"، إنه حسد الفقير، وأسوأ شىء هو أن يحب بعضهم بعضا من أجل المصالح .

يعرف أنطونيو المنحوس وميجيل ارنانديث كثيرًا عن كل ذلك، وفى فترة الراحة يتبادلان الرسائل، المنحوس من جبل لافرى، وارنانديث من فوينتى بالميرا، رسائل بسيطة، بها أخطاء إملائية ربما فى كل كلمة، بحيث إن ما يقرؤه ارنانديث ليس برتغالية صحيحة، ولا ما يقرؤه المنحوس إسبانية صحيحة، إنها لغة

مشتركة بينهما، لغة قلة المعرفة و كثرة القول، ويتفاهمان، تفاهم يشبه إيماءات يقوم بها كل منهما من جانبى الحدود، فعلى سبيل المثال، فتح وغلق الذراعين، إيماءة ليس لها معنى سوى العناق، ووضع اليد على القلب، ليس إلا إشارة لحب الخير للآخر، أما النظر فقط، فعلامة على الكشف، وكلاهما يوقع الرسائل بنفس الصعوبة، بنفس اليد غريبة الشكل التى تجعل من القلم مقبضا للفأس، لهذا تخرج حروفهما شديدة الوضوح، هكذا : ميجيل ارنانديث أو أنطونيو المنحوس. ذات يوم، سيتوقف ميجيل ارنانديث عن الكتابة، و تظل رسالتان لأنطونيو المنحوس معلقتين بلا جواب، والرجل، حتى ولو لم يرغب، يجرحه الاستياء، لا يشعر بنكبة بالضبط، ولا أفقد شهيتى عليه، هذه الكلمات تقال كنوع من الفضفضة، فالله وحده يعلم إن كان ارنانديث قد مات، أو سجنوه كما سجنوا أبا أنطونيو المنحوس، مَنْ يستطيع أن يذهب لفوينتى بالميرا ليطلع على الأمر؟ وخلال سنوات طوال سيظل أنطونيو المنحوس يتذكر ميجيل ارنانديث، وعند حديثه عن أيام فرنسا سيقول: كان صديقى ميجيل، وتسقط غمامة أمام عينيه، ويضحك حتى لا تلاحظ دموعه، ويحكى حكاية الأرانب والأحجال، فقط ليسلّى الآخرين، لا شىء من الخيال، حكايات حقيقية، حتى أن موجة الذاكرة تذوب وترتاح. فى هذه الأوقات فقط يشعر بالحنين لفرنسا، لليالى الثرثرة فى المرتبة التبنية، للحكايات الأندلسية والبرتغالية، عن خائين و ايفورا، عن جوزيه القط و

بابلو قاطع الطريق، وهذه الليالى الهائجة، فى نهاية عقد العمل، عندما كانا يذهبان للماخور، لسرقة المتعة المباعة، هيا هيا، مازال الدم يعترض بلا شبع، وكلما زاد التعب، زادت الرغبة . كانا يخرجان للشارع، تطاردهما لغة غريبة لا يعرفانها، ale negres هذا هو ما يحدث لهذه السلالة قمحية اللون، كلنا زنوج بالنسبة لمن ولد فى نورماندیا ويتباهى بأنه من أصل نقى، حتى و لو كانت أمه عاهرة .

حينئذ جاء عام قرر فيه أنطونيو المنحوس ألا يعود مرة أخرى لفرنسا، أيضًا لأن صحته قد تدهورت. وبداية من الآن سيكون مرة أخرى أرنب الوسية، يتعلق بالشوك، يحفر بأظافره، يعود الثور للساقية، والمياه لمجراها المعروف، بجانب مانويل السيف والآخرين، ليقلع الفلين، ليحصد، ليقلم الأشجار، ليقلب الأرض، لينظفها، كيف لا يكل الناس من هذه الرتابة، كل يوم يتساوى بعضهم مع بعض، على الأقل فى الطعام القليل، والتطلع لكسب شىء من المال من أجل الغد، الذى يعد أكبر تهديد لهذه الأماكن، الغد، الغد أيضا يوم، مثل الأمس، بدلا من أن يكون ومضة أمل، حتى ولو كانت نسمة خفيفة، إن كانت هذه هى الحياة .

فرنسا موجودة فى كل مكان . وسية كاريكا تقع فى فرنسا، الخريطة لا تقول ذلك، لكن هذه هى الحقيقة، ولو لم تكن حقيقة فنورماندیا هى بروفينزا،

كلها سواء بسواء، لكن ميجيل ارنانديث لا يسير بجوار انطونيو المنحوس، وإنما مانويل السيف، صهره وصديقه أيضا، رغم أن طباع كل منهما مختلفة عن الآخر،، كلاهما يحصد، بالقطعة، وسنرى كيف. إلى هنا جاءت أيضًا جراثيندا المنحوس، صارت حبلى فى النهاية بعد أن ظنت أنهما لن ينجبا، ويقطن ثلاثتهما خلال فترة الحصاد فى كوخ هجره المزارعون، اقترب منه مانويل السيف أولا لينظفه من أجل راحة زوجته، فمنذ خمس أو ست سنوات لم يسكنه أحد، كان مليئًا بالقمامة، بالحيات والسحالى، وكل أنواع الهوام، وعندما كان على وشك الانتهاء ذهب مانويل السيف ليبحث عن حزمة من الأسل وفرشها فى الكوخ ليستريح، وكان هذا مرطبا، فرطب الأرض، وكان على وشك أن يغوص فى نومه، كان جداراً من الطوب اللبن مغطى بالجولق والتبن الذى كان يستخدم كسقف، وفجأة مرت عليه حية، غليظة مثل دمية، ليست مثل الحيات النحيفات. لم تطلع جراثيندا المنحوس على الواقعة، فمن يدرى ماذا كانت ستفعل لو علمت، ربما لم تكن لتهتم، فنساء هذه الأرض لا يغشى عليهن لأمر تافه كهذا، وعندما وصلت للكوخ رأت كل شىء مرتبًا، بفراش حقير للزوجين وآخر أعده مانويل لصهره، ينفصل بينهما جوال كجدار فاصل، إنه اختلاط يحدث فى أرض الوسية هذه. لا تعترض يا أب اجاميديس حيث تسير، فهؤلاء الرجال لن يناموا هنا، وإن رقدوا ذات مرة فى السرير فقد فعلوا حتى لا

يموتوا، والآن نعم نستطيع أن نتحدث عن الشروط، إنهم يقبضون كذا اسكودو فى اليوم خلال أسبوع، أى أكثر من خمسمائة اسكودو لبقية الحصاد، ويوم السبت يجب أن ينتهى العمل . يبدو الأمر غاية فى التعقيد، لكنه أبسط الأمور الموجودة هنا. خلال أسبوع كامل سيحصد مانويل السيف وأنطونيو المنحوس ليلاً ونهاراً، من الجميل أن نفهم ما معنى ذلك، عندما يكونان قتيلين من يوم عمل كامل سيذهبان للكوخ ليأكلا وبعدها سيعودان للأرض وسيعملان فيها، فى الحصاد، لا فى جمع الخشخاش الأعمى، حاصدين طوال الليل، وعندما تطلع الشمس سيذهبان للكوخ ليأكلا أى شىء، ولو استراحا، سيكون لمدة عشر دقائق، كل منهما فى فراشه الحقير، يشخر مثل المنفاخ، ثم سينهضان وسيعملان اليوم بأكمله، وسيعودان ليأكلا، لا يهم ماذا سيأكلان، وسيعملان طوال الليل، نعرف أنكم لن تصدقوا. هؤلاء ليسوا بشرا. بل هم بشر يا سيدى، فلو كانوا حيوانات لسقطوا مستسلمين، ميتين، لقد مرت فقط ثلاثة أيام، وصارا مثل شبحين يمشيان تحت ضوء القمر بين حقل القمح شبه المحصود. أتعتقد أن بوسعنا أن نحصده كله. نعم بالطبع، فيجب أن نحصده كله. وأثناء ذلك كانت جراثيندا المنحوس تذهب لتقشير الأرز، تسير حاملاً، وعندما لا تستطيع التقشير ستذهب للماء، وعندما لا تستطيع أن تذهب للماء ستصنع طعاما لثلاثتهم، وعندما لا تستطيع أن تصنع

طعاما لثلاثتهم، ستعود للتقشير، وتذهب البطن لورد الماء، و بدلا من أن تنجب ولدا سيطلع لها عنكبوت .

أخيرًا ينتهى الحصاد، وينتهى فى الوقت المتفق عليه، أتى جيلبيرتو ودفع، وأمامه كان يقف شبحان، لكن جيلبيرتو اعتاد على رؤية أشباح كثيرة مشابهة، وذهب أنطونيو المنحوس ليعمل فى جانب آخر من فرنسا هذه، فى جانب آخر من هذه المذبحة. فى كوخ الفلاحين مازال يعيش مانويل السيف وزوجته جراثيندا، حتى جاءها ألم الولادة. ذهب مانويل السيف لجبل لافرى يترك زوجته وعاد إلى وسية كاريكا، ولحسن حظه وجد عملا . من لا يجد فى كل هذا جديدًا يحتاج لأن ننزع الغشاوة من فوق عينيه أو أن نفتح له ثقبًا فى أذنيه، إن لم يكن لديه ثقب ويرى فقط الثقوب فى آذان الآخرين .

وَلَدَت جراثيندا المنحوس ولادة متعسرة. جاءت أمها فاوستينا و الداية العجوز للوقوف معها فى ساعات الطلق. الداية ولاّدة من الزمن القديم، هى المسئولة عن بعض حالات الموت أثناء الولادة، سواء موت الأم أم الابن، وكنوع من التعويض، هى أيضًا صانعة أجمل سُرّات فى جبل لافرى، حكاية تبدو مضحكة لكنها ليست كذلك، حيث ينبغى أن تكون موضوع بحث فى التوليد، ليتحققوا كيف كانت هذه الداية تقص وتخيط الأحبال السرية بطريقة تجعلها تبدو بعد ذلك مثل كئوس ألف ليلة و ليلة، وهو الشىء الذى، لو توافرت الفرصة والجرأة، قد يمكن التحقق منه بمقارنة هذه البطون بالبطون المكشوفة للراقصات العربيات اللاتى يأتين فى الليالى الغامضة ليخلعن نقابهن عند ينبوع الأميرو. أما بالنسبة لآلام جراثيندا المنحوس فلم تكن لا أكثر ولا أقل من آلام بقية النساء منذ ذنب حواء السعيد، نقول ذنبًا سعيدًا للمتعة التى سبقته، وهى وجهة نظر يعارضها، لأسباب مهنية وربما بسبب الاعتقاد، هذا الأب أجاميديس،

المدافع عن أقدم عقاب فى تاريخ البشرية، حيث يقول إن يهوه قد حدد، "بالوجع تلدين أولادًا"، وهكذا يحدث الألم كل يوم و لكل النساء، بما فيهن تلك النسوة اللاتى لا يعرفن هذا القول ولا حتى يعرفن يهوه . فى النهاية، أحقاد الآلهة أكثر دواماً من أحقاد البشر. البشر هم هؤلاء الشياطين المساكين، القادرون نعم على ارتكاب انتقامات فظيعة، لكن ضد هؤلاء الذين لا يحرك قلوبهم شىء، وعندما تأتى ساعتهم المضبوطة والضوء المناسب، يقعون فى ذراعى العدو باكين من كونهم رجالاً و نساءً وبشراً. الرب، سواء كان يهوه أو غيره، هو هذا الذى لا ينسى شيئا، فمن ارتكب خطيئة يعاقب عليها، و من هنا يأتى هذا العرض للفروج المفتوحة، الواسعة، البركانية، التى يتدفق منها الدم القذر والصديد ليخرج رجال جدد و نساء جديدات، يتساوون جميعهم فى البؤس، ثم يختلفون بعد هذه الدقيقة، طبقا للأذرع التى ستتلقاهم، و النفوس التى ستدعمهم، والثياب التى ستسترهم، بينما الأم تلم لداخل بدنها دوخة المعاناة هذه، بينما يقطر من لحمها الممزق بعذوبة آخر زهرة فى دمها، بينما يتحرك بترو الجلد المتراخى لبطنها الواسعة فيكوّن تجعيدات، ومن موقعى، يبدأ الشباب فى قضاء نحبه

أثناء ذلك، تكون شرفات ملكوت السماء خالية، والملائكة يغوصون فى نوم قيلولتهم، أما عن يهوه وغضبه المتبقى فلا توجد أخبار تتجلى فى العقل البشرى، و لم يثبت أن صُنّاع الألعاب النارية

السماويين قد تم استدعاؤهم ليتصوروا و يركبوا ويطلقوا أى نجم جديد ليضىء، خلال ثلاثة أيام وثلاث ليال، فوق البيت المخروب الذى تعيش فيه جراثيندا المنحوس و زوجها مانويل السيف، بالإضافة لابنتهما الأولى، وسيكون اسمها ماريا اديلايدا . ومع كل، نحن فى أرض لا ينقصها رعاة، بعضهم كان راعيا فى فترة صباه، و البعض الآخر مازال كذلك ولن يكون شيئا آخر حتى تتوفاه المنية. هناك قطيع عدده هائل، نرى أحدهم يمتلك ستمائة نعجة، و بعض قطيع أيضًا من الخنازير، لكن هذا الحيوان لا يناسب أعياد الميلاد، حيث ينقصه هذا المظهر الأنيق الذى تتمتع به الخرفان، فينقصه هذه الفروة، ملمس الصوف، يا حبى، أين وضعت الإلية، فبهذه الحيوانات يمكنهم أن يصنعوا البدع، لكن بالخنزير، بعد غياب الفرحة بمولده، بهذا المظهر الشبيه بالكرامل الوردى، يعود أخرقا و نتن الرائحة، عاشقا للزريبة، لا فائدة سوى من اللحم الذى يرميه. أما الثيران، فيمضون يعملون، فعددهم ليس كبيرًا فى الوسية ليفيض منهم من يقوم بأعمال متأخرة، وبالنسبة للحمير، فلا توجد تحت البرادع سوى قرحات، وحولها تأز الدبابير يثيرها الدم، بينما فى بيت مانويل السيف، يحوم الذباب فوق جراثيندا المنحوس محموماً برائحة المرأة حديثة الولادة،" هشوا هذا الذباب من هنا"، تقول الداية العجوز، أو ربما لا تقول حتى هذا، فهى معتادة على هذا التاج من الملائكة المجنحين و الطنانين الذين يأتون فى كل صيف كلما وضع مولود .

وبرغم كل شىء، توجد معجزات. المولودة الحديثة ترقد فوق الملاءة، ضربوها عندما جاءت للدنيا ولم يستلزم الأمر ضربا كثيرا لأن فى حنجرتها كانت تتكون بإرادتها أول صرخة فى حياتها، وسيتحتم عليها أن تصرخ صرخات أخرى لا يمكن أن يتخيلها أحد اليوم . تبكى، بلا دموع، كنوع من ضم الجفون، من التملق الذى قد يثير خوف أحد سكان كوكب المريخ، و مع ذلك قد تجبرنا أن نبكى بلا توقف، ولأنه يوم حار تنيره الشمس الجلية، ولأن الباب مفتوح، يسقط فى هذا الجانب من الملاءة نور منعكس، ولا نهتم من أين يأتى، وتكون فاوستينا المنحوس، الصماء لدرجة لا تسمع معها بكاء حفيدتها، هى أول من ترى عينيها، الزرقاوين، مثل عينى جوان المنحوس، الشبيهتين بقطرتى ماء سماويتين، ببتلتين مستديرتين من الأورطنسيا، لكن لا شىء من هذه التشبيهات السوقية فهى تشبيهات من لا يعرف الوصف بشكل أفضل، إلا أننا لا يمكن أن نجد وصفًا آخر، حتى لو بذل عشاق صاحبة هاتين العينين ما فى وسعهم، إنهما عينان زرقاوان، لا هما بالمائيتين ولا بالسماويتين، و لا هما مائلتين للون النباتى، ولا لون الماء السابح تحت الأرض، إنهما عينان زرقاوان بكثافة ولمعة، مثل عينى جوان المنحوس، و عندما يصل هذا الأخير سنقوم بالمقارنة و حينها سنعرف أية زرقة هذه. فى هذه اللحظة تنتبه لهما فاوستينا وحدها، ولهذا تستطيع أن تعلن لها عينان مثل عينىّ جدها تماما، والمرأتان

الأخريتان، الداية التى طُعِنت فى أولى حقوقها كمولدة، وجراثيندا المنحوس الذئب الغيور على ولده، الأولى والثانية تريد أن تراهما، لكن الداية تسىء استخدام حقها فتقترب و تحجب الرؤية، لهذا تكون جراثيندا آخر من تشاهدهما، ولا يهم، فلديها متسع من الوقت عندما يكون فم طفلتها الماص مربوطا بحلمة ثديها، ولديها متسع من الوقت لتنسى أن تنظر لهاتين العينين الزرقاوين بينما يتدفق لبنها لفم صاحبتهما، نعم، متسع من الوقت تحت هذه القراميد المهترئة، وفى وسط الحقل، وتحت شجرة بلوط، و واقفة عندما لا تستطيع أن تظل جالسة، ومسرعة عندما لا يصح البطء، سيكون لديها متسع من الوقت لتعطى القليل والكثير من هذا الثدى، من هذه الحياة، من هذا الدم الأبيض الذى يتكون منه الدم الآخر، الأحمر .

حينئذ جاء الملوك الثلاثة العظماء. أولهم كان جوان المنحوس، جاء سيرا على قدميه، وكان ضوء النهار مازال قائمًا، فلن تعين له نجمة، وإن لم يكن قد وصل قبل ذلك فهذا يرجع لمسائل متعلقة بالحياء الرجولى، فقد كان بإمكانه حضور الولادة لو كانت هذه الأشياء مسموحاً بها فى هذا الزمان و هذا المكان، ما أسوأ أن يرى ابنته نفسها تلد!، لكن لا يصح ذلك، فالهمسات و الغمزات ستنتشر، و لنبق هذه الأفكار للمستقبل. وصل مبكرا لأنه أنهى عمله، كان يحرث قطعة أرض أعطوها له ليصلحها، وعندما دخل

البيت لم يجد زوجته، فأخبرته الجارة أنه أصبح جدا لطفلة، فشعر بفرحة، لكنها ليست الفرحة الكبيرة المتوقعة، كان يفضل أن تنجب رجلا، عادة ما يفضلون إنجاب الرجال، وحينئذ عاود الخروج من جديد، وسار بخطوته المتأرجحة بين ألمين، أولهما هنا، وثانيهما هنا، الوخزة القديمة للأحمال الثقيلة عندما كان يعمل فى الفحم، والإنهيار الأصم للتمثال . يبدو مثل بحار ذى رفعة هبط فى الحال من سفينته ويتعجب من سكون الأرض التى يدوسها، أو كما لو كان يسافر على سنام جمل، سفينة الصحراء، وهذا التشبيه يرسم اللوحة بالضبط، لأن جوان المنحوس، بما أنه أول ملك عظيم، فمن العدل أن يأتى فى سفر بهذا الشكل وهذا التقليد، أما الآخران فيأتيان كما يستطيعان، وعن الهدايا لن نتحدث، إلا إذا كان قوس الألم المحفور فى قلب جوان المنحوس يعد هدية، خمسون عاما من المعاناة، بلا ذهب، أما البخور فهو دخان الكنيسة، الأب أجاميديس، ولو تحدثنا عن نبات المر فسنجد موتى فى الطريق. إنه قليل، ومضر، لنقدمه لمن ولد حديثا، لكن هؤلاء الأجراء يمكنهم فقط أن يختاروا بين المسموح لهم به، عرقًا كلما تحتم ذلك، سرورًا على ألا يكون أكثر من بسمة تظهر منها أسنان قليلة، وأرضًا، الضرورى منها لترمم عظامهم، أما الأرض الأخرى فلآخرين .

ذهب إذاً جوان المنحوس بيده فارغة، لكنه فى الطريق تذكر أنه قد ولد أول حفيد له، ومن سياج مزهر يقتلع زهرة جرانيوم، ساقا ممتلئا بالعقد، تفوح

منها رائحة قوية، رائحة بيت فقير، ومن الجميل أن نرى الملك العظيم فوق جمله بتجفافه الذهبى والكرمزى، يميل بتواضع ليأخذ زهرة من بستانية، دون حتى أن يأمر أحد عبيده الكثيرين الذين يصحبونه و يخدمونه، انظروا لهذه الخيالات الرحبة. وعندما يصل جوان المنحوس لباب بيت ابنته، بدا أن الجمل يعرف واجباته، فثنى ركبتيه ليسهل نزول سيد الوسايا هذا، حينها قام كل عساكر كتيبة الحرس الجمهورى بتعظيم سلام، رغم أن الأمباشى تباكو كان لديه شكوك فى أحقية أن تسير حيوانات بهذا الحجم وهذا المزاج فى الطريق العام. إنها هلاوس ناتجة عن الشمس العنيفة، المفتوقة فى السماء لكنها مازالت تحرق كل أحجار الطريق، هذه الأحجار الساخنة كما لو أن الأرض قد ولدتها فى الحال. ابنتى الحبيبة، حينها يرى جوان المنحوس أن عينيه خالدتان، إنهما هنا بعد رحلة طويلة، لم يكن يعرف المسافة التى تفصلهما عنه، من أين جاءتا، كيف حدث ذلك، يكفيه أن فى جبل لافرى لا توجد عينان شبيهتان، لا فى عائلته ولا خارجها، أبناء ابنتى هم أحفادى، وأبناء ابنى أيكونون أحفادى أم لا، لا أحد يتحرر من الوساوس العامة، أبناء ابنتى أحفادى ولا أحد يمكن أن يشك فيهم، انظروا، انظروا لهاتين العينين الزرقاوين، وانظروا الآن لعينى حفيدتى، التى سنسميها ماريا أديلايدا وهى الصورة الحية لجدتها تلك التى عاشت منذ خمسمائة سنة، بالإضافة لهاتين العينين التى ورثتهما عن جدها، مغتصب الصبايا

الأجنبى . كل هذه العائلات لها أساطيرها، بعضهم لا يعرفها، مثل إسطورة عائلة المنحوس، الذين يمكنهم أن يشكروا الراوى .

وصل الملك العظيم الثانى بهبوط الليل. كان قادمًا من عمله، ولم يكن هناك نور فى البيت، فالنار منطفأة، والقدر الممتلىء لم يبق له أثر، حينها ارتجف قلبه وارتجف مرة أخرى عندما قالت له نفس الجارة لقد وضعت أختك طفلة، وأبوك وأمك هناك، الآن يعرفون أن المولود طفلة ولها عينان زرقاوان، ومعرفة ذلك تسلية لجبل لافرى، لكن الجارة لا تقول شيئًا حول النقطة الأخيرة، إنها امرأة طيبة تعتقد أن للمفاجآت مكانها ولحظتها، فأى ظرف فى أن تقول لأنطونيو المنحوس، ابنة أختك لها عينان زرقاوان"، فبعينيه العسليتين سيرى وسيحتفل بما يراه. لقد قبع الحرس فى ثكنته، ولن يجد أنطونيو المنحوس من يعطيه تعظيم سلام، وهذا ما كان ينقص، مجنون من يصدق ذلك، لكنه بلحمه وشحمه ملك عظيم هذا الذى يهبط للشارع، قذرا كما ينبغى أن يكون القادم من عمله. لم يستحم، لم يكن لديه وقت، لكنه لا ينسى واجباته فيأخذ زهرة مارجريت من علبة مكلسة بجانب باب، وحتى لا تذبل بين أصابعه وضعها بين شفتيه، يغذيها من ريقه، وعندما يدخل أخيرا يقول" أختى"، ويعبر عن حبه، وهو أمر غاية فى الطبيعية، ويقدم زهرتها باسمها، كما رأينا مع الجرانيوم والبستانية و كما سنرى مع القرنفل .

الحمد لله أن أنطونيو لم يصر على رؤية هاتين العينين الزرقاوين. الصغيرة تنام فى سلام تام، مغمضة العينين، وكان هذا قرارها، ستفتحهما فقط للملك العظيم الثالث، لكن هذا سيصل متأخرًا، بعد منتصف الليل، لأنه يأتى من بعيد و يسير المسافة كلها على قدميه، ويكرر هذا السفر منذ ثلاثة أيام، أو ثلاث ليال، لمن يحلو له أن تكون لديه معلومات دقيقة، أعرف إذاً أن مانويل السيف يدخل فى الليلة الثالثة بلا نوم تقريبًا، وهو معتاد على ذلك، وهو ما ينقذ هؤلاء الناس، ولتفهم بشكل أوضح، سأشرح بشكل أوضح، فلتسمع، بما أن مانويل السيف يعمل بعيدًا جدا عن بيته، ينام حيث يعمل، فى كوخ رعاة أو حظيرة فى جبل، لا يهم هذا فيما نرويه، لكن لاقتراب ساعة الولادة، ماذا يجب أن يفعل مانويل السيف؟ إذاً يترك عمله عند غروب الشمس، يصل بيته بعد دخول منتصف الليل، لا يرى جنينه سوى داخل بطن أمه، يستريح ساعة بجانب جراثيندا المنحوس وبعدها ينهض ويعود للعمل، بين الليل والفجر، وهذه ليلته الثالثة، والثالثة ثابتة، وعند وصوله سيرى امرأته والدة و ابنته مولودة، و سنرى كيف تسير الأمور .

تناولت فاوستينا مع جوان وأنطونيو المنحوس عشاءها من الدجاجة المذبوحة للنفساء جراثيندا، التى شربت حساء مفيدًا للمرأة حديثة الولادة، وأثناء ذلك جاء أخوال و أقارب، دخلوا وخرجوا، كانت جراثيندا فى حاجة للراحة، اليوم على الأقل، مع

السلامة، إلى اللقاء غدا، إنها طفلة جميلة وصورة من جدها. ساعة الحائط أشارت لمنتصف الليل، وإن لم يعق الحظ مسيرة المسافر، إن لم تنزلق قدمه فى منحدر أو تصطدم فى سياج، إن لم يقابله قاطع طريق يكسر القاعدة ويهاجم على فقير مثله، لن يتأخر الملك العظيم الثالث فى الوصول، أى هدايا سيحضرها معه، أى موكب، ربما يأتى فوق حصان عربى بحدوة من ذهب ولجام من فضة مرجانية، يا ليت ذلك يحدث، وبدلا من أن يطلع له قاطع طريق ملتحى وشرير تطلع له حورية عرابة وتقول: لقد ولدت ابنتك، ولأن لها عينين زرقاوين أهديك هذا الجواد حتى تتمكن من رؤيتها فى أسرع وقت ممكن، لكن حتى لو حدث ذلك، إنه ضرب من الخيال، فهذه الطرق وعرة، وبالليل تزداد وعورتها، والجواد قد تعب بالفعل أو كسرت له ساق، و بالتالى سيقوم مانويل السيف بالسفر على قدميه، يا له من ليل هائل ملىء بالنجوم، ملىء بالمخاوف والهمسات الخفية . ألدى الملوك العظماء سُلطات أور (١) وبابل، بطريقة أخرى قد لا يمكن تفسير أن يطير أمام مانويل السيف يراعان (٢)، لا يوجد أى خطأ، يكفى السير وراءهما كما لو أنهما حافتا الطريق، من يقول إن هذه العرافات ممكنة، أن يكون طائرًا قادرًا على قيادة إنسان، وهكذا يصعدون تلالا ويهبطون لأودية، تحيطهم حقول أرز ويجتازون

(١) أور مدينة سومرية تقع جنوب العراق، وكانت عاصمة للسومريين سنة ٢١٠٠ ق. م. (المترجم).

(٢) اليراع: ذباب يطير بالليل يضىء ذنبه (المترجم).

أرضا ممهدة، ها هى تظهر أولى بيوت جبل لافرى، والآن استراحا اليراعان فوق قوائم الباب، بمحاذاة الرأس، مضيئين، مجدًا للإنسان فى الأرض، وبينهما يمر مانويل السيف، فعلى الأقل يضيئان فى هذه الساعات لمن يأتى من عمل ثقيل و يتحتم عليه أن يعود قبل طلوع الشمس.

لا يُحضر مانويل السيف هدايا، لا من هنا ولا من بعيد. يمد يديه وكل واحدة منها كما الزهرة، يقول: جراثيندا، فلا يعرف كلمة أخرى، ويقبلها فى وجنتها، قبلة واحدة، لكن هذه القبلة الوحيدة لا نعرف ما كان فيها ليثير فى حلقنا غصة، حتى ولو كنا من العائلة، حتى ولو كان لدينا ما نقوله، ما كنا نستطيع، وخلال هذه الإيماءات والهمسات الخاصة تفتح ماريا أديلايدا عينيها، كما لو أنها كانت منتظرة أبيها، إنها أول شطارة لها كطفلة، وترى كتلة كبيرة و يدين ضخمتين مفتوحتين، إنه أبوها، مازالت لا تعرف معنى ذلك، يعرفه مانويل السيف، لدرجة أن قلبه يخفق بداخل صدره، وترتجف يداه الفارغتان، كيف سيحمل تلك الطفلة التى هى ابنته ؟ الرجال حمقاء، وحينئذ تقول جراثيندا المنحوس، "إنها تشبهك"، ربما، ففى هذه السن، بعد ساعات قليلة من الميلاد، لا يتضح شىء، لكن جوان المنحوس محق تماما عندما يعلن هاتان العينان هما عيناى، بينما ينصت أنطونيو المنحوس صامتا لأنه فقط مجرد خال، وفاوستينا، الصماء، تخمن كل ما يقال، وتقول: حبى، ولا نعرف

لماذا تقول ذلك، إنها كلمات غير مستخدمة فى هذه الوسايا، مسألة حياء أو رصانة .

بعد ساعتين، رغم أن الوقت يبدو كأنه يطير، خرج مانويل السيف من بيته، ينبغى أن يشد خطوته ليصل للعمل قبل طلوع الشمس. يشرع اليراعان، اللذان كانا فى انتظاره، فى الطير من جديد، بالقرب من الأرض، لدرجة أن حراس مساكن النمل صرخوا لداخلها معلنين، من كثرة الضوء، أن الشمس طلعت.

تتكرر قصة الحصاد بثبات واضح لكن يطرأ عليها بعض التغيرات. والأمرلا يتعلق بحصد القمح سريعا قبل موعده أو بعده، لأن هذا يتوقف على هطول المطر أو شحه، ولا على الشمس التى تتعسف فى قيظها أو تنسى طلوعها، كما أنه لا يتعلق أيضًا بزرع القمح فى التلال أو الوديان، فى الأرض الترابية أو الرملية. لقد تعود رجال الوسية على نكائب الزمن وأخطائه، ولن يضيعوا الأخضر و اليابس من أجل أشياء كهذه لا يمكن تفاديها. والحق أن التغيرات المشار إليها، كل واحدة على حدة وبجمع آثارها، قد تستحق حديثًا مسهبًا، سردًا بطيئًا، عودة للوراء من أجل هذه الكتلة الترابية المنسية، دون أن يتحتم علينا المعاناة من غضب ضيقى الصدور الذين ينصتون لنا، والحقيقة أيضًا أن هذه التأملات غير مقبولة، لسوء الحظ، فى السرد القصصى، حتى لو كنا نحكى عن وسية كهذه. فلنبق إذاً بحسرتنا أمام رؤية هذه الاختلافات والعجز عن حكيها، ولنضم للشوائب

الصغيرة هذا التصنع الخطير بأن الحصاد فى كل عام يشبه سابقه، ولنسأل فقط ما هذا التأخير، لماذا لا يدخل الحصّادون والماكينة فى الحقل، بينما يرى بجلاء رجال المدينة الجهلاء أن الأوان قد آن ويشاهدون ما يحدث، وأن همس السنابل الجافة عندما تمر الريح همس خشن مثل ملمس أجنحة اليعسوب. فى النهاية، أى أذى يُعدِوه هنا وضد مَنْ .

تتكرر قصة الحصاد ويطرأ عليها تغيرات. لكن سير الرجال الآن فى سرور عنيد لطلب أجرة أكبر لا يعد تغيرًا. لنقول الحقيقة، إنها نفس سلسلة ابتهالات كل عام، فى كل المواسم وطلبات العمل، يبدو أنهم لم يتعلموا قول شىء آخر، يا أب أجاميدس، وبدلاً من أن يشغلوا بالهم بنجاة أرواحهم الخالدة، إن كانوا لديهم أرواح، ينشغلون فقط بمتعة الجسد، لم يتعلموا الدرس من الزهاد، يفكرون فقط فى المال، ولا يسألون إن كان موجودا ولا يسألون إن كنت أستطيع دفعه. الكنيسة هى المعزى الأكبر فى هذه المواقف، تتجرع فى الخفاء مشروب الطقوس الدينية المسكر، من فضلك، إعطنى قطرة أخرى، لا تبعدوه عنى، وآسفة ترفع عينيها للسماء حيث تنتظر الجوائز لأجل الوسية، عندما تأتى ساعتنا، وكلما تأخرت كان أفضل. السيد الأب أجاميديس، ما رأيك فى هؤلاء الكسالى الذى يمشون هناك هاتفين بحياة

الجنرال(*)، لا يمكن الثقة فى أحد، فالرجل العسكرى كان أكثر ثقةِ فى نفسه، كان محبًا للنظام الذى صنعه، والآن كما ترى، يسير هناك مضللا الحشود، كيف سمحت الحكومة أن تصل الأمور لما وصلت إليه؟". إلا أن الأب أجاميديس لا يعرف جوابا لهذا السؤال، فمملكته ليست دوما فى هذه الدنيا، لكنه شاهد وضحية أساسية للرعب القومى الكبير، هذا الرعب الذى يرفع شعار " فليستقيل، فليستقيل"، مَنْ، مَنْ، السيد الأستاذ سالازار، فحتى الانتخابات لم تكن انتخابات، يجب أن يكون المنتخب مؤدبًا، لكن جاء الأمر بعكس المطلوب، و يقولون إنه يسير هاربا، كنا نعيش جميعا فى سكينة والآن يأتوننا بهذه الاحتدامات"، "لكن بينى و بينك، يا أب أجاميديس، الآن حيث لا يسمعنا أحد، كان من الممكن أن تنتهى الأمور بشكل سيئ، لقد احتاجوا مهارة كبرى حتى لا

(*) الجنرال المقصود هنا هو الجنوال هومبيرتو ديلجادو الذى شارك مع سالازار فى تشييد ما سمى بالدولة الجديدة سنة ١٩٣٣، وظل بجانبه وتولى العديد من المناصب المهمة، ثم انقلب على سالازار وطالب بالديمقراطية ووقف فى صف المعارضة ودخل فى الانتخابات الرئاسية ضد أميريكو توماس" الذى حكم البرتغال من سنة ١٩٥٨ ـ ١٩٧٤ حيث قامت ثورة القرنفل لتسقط حكومته"، وخسر ديلجادو فى الانتخابات نظرًا لمساندة سالازار لتوماس وتزوير الانتخابات، وفى ١٩٦٢ قام ديلجادو بتمرد باء بالفشل، ثم طالب ونال اللجوء السياسى فى الجزائر، وفى سنة ١٩٦٥ طالب لقاء سالازار، وفى الطريق إليه تم اغتياله. والمؤلف يعرض هنا هذه الخلفية التاريخية ليعكس رأى أبناء الوسية المؤيد لديلجادو ضد الدكتاتورية، وخاصة ضد توماس الذى كان لعبة فى يد سالازار المناهض للشيوعية. (المترجم).

يفلت منهم زمام الأمور، والآن يجب أن يكونوا مراقبين، وأول ما يجب أن يفعلوه هو إعطاء عبرة لهؤلاء الصعاليك، ولن يحصد ساق قمح هذا العام، حتى يتعلموا، يا سيد نوربيرتو. حتى يتعلموا يا سيدى القس أجاميدس .

لا ندرى أين ولد هذا الشعار المتمرد. أجاء من لشبونة، أم من إيفورا، أم بيجا، أم يا ترى من بورتاليجرى، أم أنه قيل على سبيل المرح فى طائفة حرفية فى مونتيمور أم جرأة الكونياك أخرجته، أم أن لياندرو لياندرس أحضره من بيت التنانين، أيا كان الوضع المهم أنه فى أيام قليلة انتشر فى الوسية بأسرها، من نوربيرتو إلى جيلبيرتو، من بيرتو إلى لامبيرتو، من ألبيرتو إلى انجيلبيرتو، ولأنه وجد قبولاً عاما، تم استدعاء رؤساء العمل وأصدروا الأوامر المناسبة لهم. أوقفوا ما تحصدونه، ولا تبدأوا فى حصاد جديد. ربما يكون ذلك لوباء ما، ربما تكون الغلال مجذومة والوسية تشفق على أولادها الحصادين ولا تريد أن تراهم مشوهين، بأصابع مقطوعة وسيقان مجتثة وأنوف غائبة، فيكفيهم مصائبهم . هذا الخبز مسمم، بث الرعب فيهم بوضع جماجم ظاهرة الأسنان على المزروعات، لتصب الخوف حتى فى النفوس الأكثر ثباتا، ولو ظلوا مع ذلك يصرون على الدخول، استدعى الحرس حتى يردهم لصوابهم . يقول رئيس العمل: لن يكون ذلك مقنعا، فلا أحد أحمق ليبدأ فى الحصاد قبل أن

يضمن الأجرة، ولا أحد سيضحى بنفسه لو كانت البندقية فى ظهره، أسوأ ما فى الأمر هو الأذى الواقع. يقول ألبيرتو: افقدوا الخواتم من أجل الأصابع، فلو تركنا القمح فى الحقول هذا العام، لن تخرب بيوتنا . يقول ئيس العمل: يريدون زيادة الأجرة، يقولون إن الأسعار ترتفع مع مرور الوقت وإنهم يعانون شظف العيش، يقول سيجيسبيرتو، أنا لا علاقة لى بهذا، سندفع الأجرة التى نريد دفعها، فالأسعار آيضا ترتفع علينا. ويقول رئيس العمل، يقولون إنهم سيجتمعون ليتحدثوا مع صاحب الوسية. ويقول نوربيرتو لا أريد أن تتبح خلفى الكلاب .

فى الوسية بأسرها لا يُسمع سوى عواء الكلاب. نبحوا من المينيو إلى الجرافى، من شاطىء البحر إلى الحد الشرقى، عندما انتفضت الناس باسم وفعل الجنرال، نبحوا نباحًا جديدًا يعنى فى اللغة البشرية بوضوح إذا أردتم أن يرفعوا أجوركم، فانتخبوا ديلجادو حبيبكم. هذا العشق للقافية يأتى من بعيد، ماذا بأيدينا، فنحن بلد شعراء، ومن كثرة نباحهم سويا جاءوا لينبحوا على الأبواب، سيدى القس أجاميديس، سريعًا ما سيبدءون فى تدنيس الكنائس، هذا أول ما يفعلونه، تدنيس الكنيسة المقدسة الأم، لا تحدثينى عن ذلك، لا تحدثينى عن ذلك، يا سيدة رحمة، فرغم إننى لا أرفض تخيل الاستشهاد، إلا أن ربنا لن يسمح بتكرار الاعتداءات فى هذه الأرض، تلك الاعتداءات الشبيهة باعتداء سانتياجو دو اسكورال، حيث تحولت

الكنيسة لمدرسة، تخيلى، لم أر ذلك ولم أكن هناك، لم يحدث ذلك فى زمنى، لكنهم حكوا لى ذلك. وحقًا ما حكوا لك، كان حقا، مثل وجودنا هنا الآن، يا أب أجاميديس، إنها اهتراءات الجمهورية التى لن تتكرر، إن شاء الله، وخذ حذرك عند الخروج، كيلا تعضك الكلاب. عندما يطل الأب أجاميدس من باب بيته، يطلق برجفة صوته الحاد و يسأل: اربطوا الكلاب، وهناك من يجيبه بلا مبالاة هؤلاء نعم، وبهذه الإجابة لا ندرى أى كلاب سجنت و أيها مازالت طليقة، لكن الأب أجاميديس يثق أن المعلومة تدافع له عن سلامة سمانته، ويخرج للرواق، الحقيقة أن الكلاب مسجونة، لكن عندما يجتاز واجهة البيت ويخرج للشارع، يجد تجمع أفراد، لا ينبحون، فهذا ما كان ينقص، رجال يعوون، لكن إذا كان هذا الهمس لا يشبه دمدمة كلب، فليختف اسمى من الوجود، ولا يرى الأب أجاميديس النمل الذى يسير بطول البيت رافعا رأسه كما الكلاب، ورغم إنه صامت، إلا أننا نفكر ماذا سيكون مصيرنا لو اتحد كل هذا السرب .

لقد تحدثنا عن العقاب الناتج عن وقاحة طلب تحسين الأجور وعن الجريمة الاستثنائية بمساندة ديلجادو ومن أجله القَسَم فى كل مكان مسكون أو مجلس محلى، لا عمل فى الحصاد هذا العام. يقول أدالبيرتو. بالنسبة لى، يهمنى أن يضمنوا لى أن حكومة الأمة موافقة. الحكومة موافقة ونحن أيضا، حيث تبدو لنا فكرة رائعة، يقول لياندرو لياندرس.

والأضـرار، سـيـدى الحـاكم المـدنى، سـتـوجـد أضـرار، تستطيعون أن تعتمدوا على إرادتنا المخلصة، لكن عندما يدفع الجميع، وهذا إصلاح مبرر، يعمل فى أى مكان فى وسية غير محددة، قد تكون مدينة، ماذا سيفعل الحاكم المدنى فى قرية صغيرة إن لم يفتتح شيئا، أيا كان المكان، فمن يدرى فقد يكون شرفة مفتوحة على المنظر بأكمله لا تشغل بالك، يا سيد بيرتو، إنهم يدرسون بالفعل وسائل مساندة الزراعة، فحكومة الأمة تعرف تطلعات الفلاحين ولن تنسى خدمات وطنية كالخدمة الحالية. لم يكن ينقص سوى القليل لترفرف الأعلام، لكن الأمر لا يستحق، فقد مر يوم الانتخابات، وصار أميريكو توماس هو رئيس الجمهورية، الأمر سيان، إذا استخدم الآخرون القافية لمَ لا أستخدمها أنا الآخر، أنا لست أقل منهم وأستطيع أن أنشد أغانى مقفاة جميلة جدًا، ما رأيكم فى هذه على سبيل المثال:

الجوع يأكلنى فى الشتاء والربيع والموت يهجرنى، فهل لى من شفيع، وبعد هذه الأغنية المغناة بصوت جماعى يسود صمت عميق فى الوسية، ماذا سيحدث، و بينما نحن متطلعون، بعيوننا فى الأرض، يمر ظل سريع وعندما نرفع رءوسنا نرى الحدأة الكبيرة، الآن تنحدر، فسببت صرختها هذه رجفة فى صدرى .

فى تلك الليلة ذهب سيجيسموندو كاناسترو لبيت جوان المنحوس، تحدث معه ومع أنطونيو، ومن هناك خرج لبيت مانويل السيف، حيث قضى وقتا

أطول. زار ثلاثة بيوت أخرى، كان اثنان منهما منعزلين فى الحقل، متحدثًا بهذه الطريقة وتلك، مستخدما لغة مختلفة من مكان لآخر، فلا يصح الحديث مع جميع الناس بنفس اللغة، ولو حدث ذلك، ستتفاوت درجات الفهم، والرسالة التى أراد توصيلها هى أن يذهبوا بعد يومين لمونتيمور ليتظاهروا أمام البلدية، وجمع أكبر عدد ممكن من الأشخاص المنتمين لهذه البلدية ليطالبوا بالعمل الموجود والذى لا يريدون إعطاءه لهم. فى الطريق سيقولون ما يعتقده رجال الوسية فى السخافة التى وضعت المعتوه اللين المدعى حاضر حاضر فى رئاسة الجمهورية البائسة، مرة واحدة كفاية، لكن كم مرة ستتكرر. هذه المرارة فى الحلق ليست نتاج الشرب الكثير ولا هى شبع من المضغ، فهذا إفراط لا يستخدم فى الوسية، رغم أن هناك من يسكر بشراهة، لكن حتى هذا معذور، لأنه يجد نفسه طيلة حياته سجينا مكرها على أمره، التدخين والشرب طريقتان مختلفتان للهروب، لكن بالشرب تهرب أكثر، حتى لو كان موتاً بطيئاً. مرارة فم هؤلاء ناتجة عن الكلام الكثير و انتظار الكلام بشكل أفضل، آه لو جاءت الحرية، وفى النهاية لم تأت الحرية، هل رأى أحد الحرية، يتحدثون عنها كثيرًا، لكن الحرية ليست امرأة تسير فى الطرقات، ولا تجلس على حجر فى انتظار أن يدعوها إلى العشاء أو النوم فى سريرنا مدى الحياة. تنقل الرجال و بعض النساء فى القرى، قالوا فليعش، والآن نلاحظ أفواهنا المُرة كما لو كنا قد

شربنا، العيون ترى رماد دخان و شيئًا آخر قليلاً، حقولا للحصاد، ماذا سنفعل يا سيجيسموندو، فأنت أكبرنا سنا وأكثرنا خبرة سنذهب يوم الإثنين لمونتيمور، لنطالب بخبز أبنائنا وآبائهم الذين عليهم أن يعولوهم. لكن هذا هو ما فعلناه دائما، والنتيجة؟ هذا ما فعلناه و نفعله و سنفعله، مادام ليس أمامنا حل آخر إنه تعب لا نهاية له. فى يوم ما سينتهى عندما نموت جميعنا وتظهر عظامنا إن وجدت كلاب لتنبش قبرنا سيكون هناك عدد هائل من الأحياء عند مجىء هذا اليوم، ابنتك كل يوم يزداد جمالها. إنهما عينا أبى، هذا ما تقوله جراثيندا المنحوس، التى كانت محادثتها السابقة مع مانويل السيف، وهو من يقول: أدفع حياتى للشيطان مقابل هذا اليوم، على ألا يكون غدًا، بل اليوم جراثيندا المنحوس ترفع من الأرض ابنتها ذات الثلاث سنوات، وتوبخه، إلهى، مانويل، ما تقوله لا يقال. ويبتسم سيجيسموندو كاناسترو، أكبرهم سنا وخبرة الشيطان لا وجود له، فلا يعقد صفقات، فالقسم به والوعد منه ماهو إلا كلام فارغ، فما لا تحصل عليه بالعمل لا تحصل عليه بشىء آخر، والعمل الآن هو الذهاب لمونتيمور يوم الإثنين، سيذهب أناس من كل بقعة .

ليالى يونيه ليال جميلة . إن كان القمر ساطعا، ترى الدنيا من علو جبل لافرى هذا، كما لو أنها هكذا، ولسنا جهلاء لدرجة أننا لا نعرف أن الدنيا أكبر من ذلك بكثير، كنت فى فرنسا، وهو بلد بعيد،

سيقول أنطونيو المنحوس، وفى هذا الصمت، قد يصدق الجميع، حتى أنا، لو قالوا له" ليست هناك دنيا آخرى، إلا مونتيمور، حيث سنذهب يوم الإثنين لنطلب عملا". أما إن كان القمر مختبئا، فالمكان الذى أضع فيه قدمى هو دنيتى، والبقية نجوم، من يدرى إن كان فيها أيضا وسية ولهذا يذهب كرئيس أمير نهرى لعب بالأربعة آسات وبالأربعة جوكرات، لا شىء يضاهى أن تكون محتالا وموقرًا . قد يخطر هذا الخبث على بال سيجيسموندو كاناسترو، ونتراجع على ضفة الطريق، بالقبعة فى اليد، مذهولين من استنارة أهل الوسية، لكن ما يفكر فيه أنه تحدث مع كل من كان يجب عليه التحدث معه، قائلا لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد، ولهذا لا نعرف ماذا نفعل فى القبعة، ولا حتى نعرف إن كان ينبغى أن نضعها فى يدنا، سيجيسموندو كاناسترو انتهى فى الحال من تنفيذ واجبه، واجبه فقط ولا شىء آخر. ولأنه، رغم خطورة القرارات المتخذة، يكمن بداخله جزء من الخبث و السرور، كما بُرهِن فى هذه القصة أكثر من مرة، مر أمام بوابة ثكنة الحرس، ووجدها مغلقة ومنطفئة الأنوار، فاقترب للسور وتبول بمتعة ولذة كما لو أنه يتبول فوق الهيئة بأكملها .إنها أفعال عجوز متصابى، ولن ينفعه عضوه كثيرا، ولا حتى فيما يفعل، كم هو رى جميل يبحث طريقه بين الأحجار، كم أتمنى أن يكون عندى لترات من البول لأظل أتبول هنا طول الليل، حتى أكوّن سدًا مثل سد جسر كافا، ما يجب علينا فعله أن نتبول كلنا

فى نفس الوقت، أن نغرق الوسية، وسنرى من ينجو. الليلة غاية فى الجمال، بنجوم لا حصر لها مرشوقة فى السماء. يزرر سيجيسموندو كاناسترو فتحة بنطلونه، انتهت الكوميديا، وأحيانا تسيل الدماء، من يدرى .

فى زمن التغرب كانوا يقولون إن كل الطرق تؤدى إلى روما، وكان يكفى أن تذهب وتسأل، وبهذه الطريقة كانوا يركبون الأقوال التى تبقى فيما بعد وتتكرر بشكل مسل، مثل هذا القول الآخر، من له لسان سيصل لروما"، قول خاطىء، فهنا كل الطرق تؤدى لمونتيمور، وكل هؤلاء الرجال لا لسان لهم، لكن من لا يسمع الخطاب العالى الذى يدوى فى الوسية ليس إلا أصم. يأتى بعضهم على قدميه، بعض منهم يقطن قريبًا وبعض آخر بعيدًا، لن يجدوا وسيلة نقل أفضل، وهناك من يبدّل دراجات قديمة تطن مثل العربات الكارو وتهتز، ومنهم من جاء فى عربة أجرة، وهكذا يقتربون، قادمين من كل اتجاهات الريح، كم هى ريح عظيمة تلك التى أحضرتهم. يشاهد مراقبو الحصن الجيوش العربية قادمة، يحضرون معهم علم رسولهم مثنيا فوق قلوبهم، يا أم الإله القديسة، إنهم الكفار، خبئوا أيها السادة بناتكم ونساءكم، أغلقوا أبوابكم وارفعوا الجسر المتحرك، أقول لكم الحقيقة بجد: اليوم يوم القيامة. إنها مبالغات من الراوى، ناتجة عن دراسته لتاريخ العصور الوسطى، تخيل جيوش أفراده مسلحين ورايات كتائب الفروسية بينما

الأمر لا يتعدى مجموعة متناثرة من الريفيين، ولو أحصينا عددهم قد لا يصلوا لألف، ولو كانوا كذلك، فى هذا الزمن، يعد عدداً هائلاً. مع ذلك، فلنضع كل أمر فى مكانه، فمازالت لدينا ساعتان، ومونتيمور فى هذه اللحظات تعتبر فقط أرض سكانها فى الشارع أكثر من العادة، يمشون من هنا متناثرين فى ميدان السوق، أكثر المشكوك فيهم يتجرعون كأسًا، ويتحدث بعضهم لبعض بصوت خافت، هل وصل أهل اسكورال؟ لا أدرى، فنحن جئنا من جبل لافرى"، الحقيقة أنهم ليسوا كثرة، لكنهم جاءوا، ويُحضرون معهم امرأة، فجراثيندا المنحوس أرادت أيضا أن تأتى، لم يعد هناك أحد يحبس النساء، هذا ما يظنه العجائز والقدامى، لكنهم لا ينبسون بكلمة، ماذا كانوا سيفعلون لو سمعوا هذا الحوار، مانويل، سأذهب معك، ومانويل السيف، رغم كونه من يكون، يعتقد أن زوجته تمزح فيجيبها، ويجيب من فمه عدد أصوات لا يعلمها إلا الله، هذه ليست مسألة تشترك فيها النساء"، آه يا إلهى، ماذا تقول، على الرجل أن يكون رصينا عندما يتكلم، فلا يرمى الكلام هكذا كالحجارة من فمه، وبعدها يصير منظره مضحكًا ويفقد السيطرة، الحمد لله أن كلا منهما يعشق الآخر، جراثيندا ومانويل، لكن حتى لو كان بينهما عشق. تحدثا فى المسألة طول الظهيرة، تبقى الطفلة مع أمى ونذهب سويًا، فما بيننا ليس فقط النوم فى نفس السرير، فى النهاية رضخ مانويل السيف وصار مسرورا لرضوخه، وضع ذراعه

فوق كتف امرأته وأحضرها إلى هنا، إنها إيماءات الرجال ودلال النساء، والطفلة نائمة لا تسمع شيئا، ينام أيضًا سيجيسموندو كاناسترو فى سريره، أراد ذلك واستطاعه، ربما فى المرة القادمة يكون فى حال أفضل، فالرجل لا ينتهى هكذا، يا رجل .

إنها مسائل لا يتحدثون عنها فى مونتيمور، ماذا فعلوا مع زوجاتهم أو أزواجهن هذه الليلة أو سابقتها، وما سيفعلونه الليلة القادمة عندما ينتهى هذا اليوم. خرجت كتيبة الفروسية من ثكنة الحرس، كما العادة، وبالداخل يتحادثان النقيب مسرور ولياندرو لياندرس، لقد أعطوا أوامرهم بالتعبئة، الآن ساعة انتظار، لكن هناك من قرر الانتظار فى مكان آخر، إنهم أصحاب الوسايا الذين يقطنون فى مونتيمور، وليسوا قلة، أخيرا يبدو أنها حقيقة، كنا نتكلم عن المراقبين بكذب روائى وهذا سياج فى أسوار قلعة أصحاب الوسايا، حيث يجلس أكثر الأطفال شجاعة فى أسنان السور المرممة، إنها صلوات الآباء والأمهات، يرتدى الغلمان زى الفروسية وترتدى الصبايا الألوان الملونة. سيقول المؤرخون ذوو الألسنة الطويلة إن هؤلاء وأولئك قد هربوا خشية غزو الفلاحين، وهى فرضية لا تخلو من صواب، لكن علينا أيضا ألا ننسى أن فى هذه الأرض، بعيدًا عن مصارعة الثيران والسينما، ليست هناك أماكن كثيرة للتسلية، هذه المرة كما لو أنها رحلة للحقل، فيها الظلال ومتعتها، ولو كان ضروريًا فيمكن طلب السلوى من دير سيدتنا المعلنة، صلوا لأجلنا. مع

ذلك، بقى جليا و مؤكدًا أنهم تركوا بيوتهم بسبب خوف لم يشعروا به حتى تلك اللحظة، وبقى الخدم فى البيوت يحرسونها، فبعد سنوات طوال فى البيت صاروا مخلصين له، كما هو حال أميليا المنحوس، الخادمة أيضا فى مونتيمور، إنها لعبة التناقضات والاحتياجات، رغم أننا فى زمن لا يصح فيه أن يثق أحد فى أحد، فليس معنى أن يتجمع سائلو الوسية هناك، أن يسيروا اليوم بيد ممدودة، نريد عملا، وإنما ببساطة لأننا نرى كيف يستطيعون أن يقبضوا هذه الأيادى، هنا يسود رعب عظيم، ومؤامرة، يا خالتى، مؤامرة. هنا من أعلى نقطة نرى كيف تتدفق الجموع فى الحارات لتصب فى ميدان المجلس المحلى. يبدون كما النمل، يقول أحد الورثة المتخيلين، ويصحح له أبوه" يبدون كما النمل، لكنهم كلاب، إنهم يعرفون كيف يقولون كل شىء فى عبارة قصيرة وواضحة، ويسود حينئذ صمت، لا يمكن الآن أن نفقد شيئا مما يحدث، أنظر كيف يتشكل أمام المجلس المحلى فصيلة من الحرس، فليحيا الحرس، وهذا شاويش، ماذا يحمل فى يده؟ إنه مدفع رشاش،فكرت أيضًا جراثيندا المنحوس، وعندما رفعت عينيها رأت القلعة مليئة بالناس، من هؤلاء؟ .

امتلأ الميدان . أهل جبل لافرى يقفون معا. جراثيندا هى المرأة الوحيدة، معها زوجها مانويل السيف، وأخوها أنطونيو وأبوها جوان المنحوس، وسيجيسموندو كاناسترو الذى يقول: علينا ألا ننتظر. كما يوجد أيضا اثنان يسميان جوزيه، أحدهما جوزيه

بيكانسو، حفيد عائلة بيكانسو الطحانين بجسر كافا، والثانى جوزيه ميدرونيو، من عائلة لم نتحدث عنها تحديدا حتى الآن. إنهم بحر من البشر، تتسلل الشمس هذا البحر وتلهبهم كلصقة حروق، وتُفتح فى القلعة مظلات، إنها حفلة. تلك البنادق معبأة، يلاحظ ذلك فى وجوه الحرس، فالرجل بسلاح معبأ يصير له تعبيرات وجه مختلفة، يصير قاسيا، يبقى باردًا، تتبض شفتاه، وينظر لنا بحقد. هناك أيضًا من يعشق الخيول، وأحيانا يسمونها بأسماء إنسان، مثل هذا المهر الذى يسمى السعيد، ما لا أعرفه ألهذه الخيول الموجودة هنا اسم، هذه الخيول الواقفة فى مدخل الشارع، ربما يعطونها أرقامًا، ففى الحرس كل له رقمه، يصيح سبعة وعشرون ويتقدم الجواد و الرجل الذى يمتطيه، إنها بلبلة .

لقد بدأت الصيحات بالفعل، نريد عملاً، نريد عملاً، نريد عملاً ، لا يقولون أكثر من هذا، سوى سبة تتال هنا وهناك، "لصوص"، وبصوت خافت كما لو أن من يقولها يخجل أكثرممن يفعلها، وهناك من يصيح انتخابات حرة، ما فائدة ذلك الآن، لكن الصياح الكبير يتصاعد ويخنق الآخرين، نريد عملاً، نريد عملاً، ما هذه الدنيا التى نعيش فيها و التى فيها من يخلق من راحته وظيفة ومن لا عمل له لا يحق له طلبه. أحدهم اصدر إشارة، أو كانوا متفقين عليه بعد عدة دقائق من التجمع، أو ربما هاتف لياندرو لياندرس، أو النقيب مسرور، أو أمر العمدة من النافذة، "هاهم

الكلاب"، وحدث ما حدث، أشهر الحرس سيوفهم من فوق خيولهم، آه يا أمى، ياللخوف، كلهم داهمهم الرعب أمام هذه البسالة، وأمام هذا الحشد من الأبطال، أنسى لهيب الشمس، أنصال السيوف المزينة تتحرك وتصدر وميضا مدهشاً، يبقى الواحد منا مرتجفاً من العاطفة الوطنية، دلونى على من لا يرتجف!

شرع الخيل فى الخبّ، والمكان غير صالح لفروسية متهورة، فوقع و تمرمغ فى الأرض من حاول الهرب بين ركلات وضربات الحسام. يستطيع رجل أن يقبل هذه النكاية، لكنه أحيانًا يكون مجبرًا، أو يغمض عينيه سريعا، وحينئذ نهض البحر، وارتفعت الأذرع، الأيادى تمسك الزمام أو ترجم بالحجارة المأخوذة من الأرض، أو الحجارة التى فى جيوبهم، إنه حق الأعزل من سلاح آخر، ومن الخلف ستطير، والمؤكد أنها لم تصب أحدا، لا فرسا ولا فارسا، فالحجر كان يرمى هكذا، بلا هدف بعينه، هذا إن كانت هناك أحجار بجد، عندما تسقط تموت. كان مشهدا لمعركة جديرة بالتصوير فى صالة القيادة أو فى جمهورية الضباط، الخيل الهرم، الحرس الامبريالى بسيوفه المشهرة، التى يضرب بسن نصلها أو ببطنها، حسب، الأجراء البسطاء الثائرون يتقهقرون للخلف مثل مد وجزر يعود فى الحال، ملاعين. كان هذا تمرد ٢٣ يونيه، ركزوا جيدًا فى التاريخ، احفروه فى الذاكرة، يا أطفال، رغم وجود تواريخ أخرى تزين تاريخ الوسية، وهى تواريخ

مجيدة لأسباب مماثلة أو شبيهة. هنا أيضًا لمع سلاح المشاه، وخاصة الشاويش أرمامينتو، رجل ذو عقيدة عمياء وقانون مخطىء، هناك تطير أول دفعة من رشاشه، والثانية، لكنهما فى الهواء، مجرد إنذار، وعندما يتطرق لسمعهم فى القلعة دوى الرصاص، يطلقون سرورهم فى شكل تصفيق ودعاء بالحياة، يصفقون جميعهم، وفتيات الوسية الرقيقات يتلونّ بالحر والشعور الدموى، وآباؤهن و أمهاتهن، وجناح العشاق المتلهف للقيام بهجمة، للخروج من بوابة المدينة، برمح على مسنده، وانهوا العملية التى بداتموها، اقتلوهم جميعا. الدفعة الثالثة خرجت من رشاش قليل المهارة فى الرماية، الآن يعرفون مزايا تدريبات الرماية على الهدف، يرتفع الدخان، ليست نتيجة سيئة، رغم إمكانية وجود نتيجة أفضل، هناك ثلاثة فى الأرض، والآن واحد منهم ينهض ماسكا ذراعه، كان محظوظًا، والآخر يزحف ويجر ساقه، والثالث لا يتحرك، إنه جوزيه أديلينو دوس سانتوس، إنه جوزيه أديلينو"، يقول أحد أبناء مونتيمور الذى يعرفه. لقد مات جوزيه أديلينو دوس سانتوس، أصيب بطلقة فى رأسه ولم يكن يصدق فى البداية، فنفض راسه كما لو قرصته حشرة، لكنه أدرك بعد ذلك، آه أيها الملاعين، لقد قتلتمونى، وسقط على ظهره، مهجورًا، لم تكن زوجته بجواره لتساعده، نزف الدم منه مكونا وسادة تحت رأسه، وسادة حمراء، شكرًا. يصفقون فى القلعة من جديد، يخمنون أن هذه المرة

بجد، وتعبأ كتيبة الفروسية، لتبعثر الشعب المسكين، يجب أن يؤخذ الجسد، فلا يقترب أحد .

سمع أهل جبل لافرى صفير العيارات النارية، ونزيف الدم يشق وجه جوزيه ميدرونيو، كان محظوظًا، مجرد جرح، لكن أثره سيبقى مدى الحياة. تبكى جراثيندا المنحوس وهى تمسك بزوجها، تجول الحوارى المحيطة بصحبة أناس آخرين، يا نلبؤس، تُسمَع صيحة الحرب الظافرة يطلقها الحرس الذى يمضى قابضًا على من يجده، وفجأة ظهر ليـاندرو ليـاندرس بصحبة تنانين آخرين من فصيلته، نصف دستة، رآهم جوان المنحوس وشحب وجهه، وحينئذ قام بفعلة جنونية، وضع نفسه فى طريق العدو، مرتجفًا، لكن ليس من الرعب، يا سادة، يجب أن نعرف إدراك هذه التصرفات، ولم يره الآخر، أو لم يعرفه، رغم أن هاتين العينين لا يمكن نسيانهما، وعندما عبرت التنانين لم يستطع المنحوس أن يتملك دموعه، كانت دموع الغضب، والحزن العميق أيضًا، متى سينتهى استشهادنا هذا. توقف جرح جوزيه ميدرونيو عن النزف، مَنْ يقول إنه كان بينه و بين تهشيم وجهه كاملا سنتيمتر واحد، كيف كان سيصير حاله الآن. يلهث سيجيسموندو كاناسترو، والآخرون بخير، وجراثيندا المنحوس طفلة لا تستطيع أن تكف عن البكاء، لقد رأيته، كان ممددا على الأرض، كان ميتًا، هذا ما تقوله هى، لكن هناك من يقسم نافيًا ذلك، يقول إنهم حملوه للمستشفى، ولا يعرف كيف، أفوق

نقالة أم بين الأذرع، فلا يمكن أن يتجرأوا على جره، رغم أن النية لا تنقصهم، اقتلوهم جميعا، يسمعون هذه الصيحة تنطلق من القلعة، لكن عليهم أن يحترموا بعض الإجراءات، فالرجل لن يُعَد ميتا قبل أن يقول الطبيب ذلك، حتى لو كان ميتا. يأتى الدكتور كوردو، مرتديًا البالطو الأبيض، يا رب يكون قلبه بنفس اللون، وعندما يكون فى طريقه للبدن يطلع له فى الطريق ليأندرو ليأندرس و يقول بصوت ملىء بالسلطة، هذا الرجل مصاب، ويجب أن يذهب فى الحال للشبونة، ومن المناسب أن ترافقه أنت للحفاظ على حياته. فلنندهش جميعا فى هذه الحلقة من قصة الوسية التى نستمع إليها عندما نرى التنين ليأندرو ليأندرس يشعر بالشفقة على الضحية ويريد إنقاذه، رافقه يا دكتور، هاهى عربة الإسعاف قادمة، بسرعة، ليس هناك وقت لنضيعه، كلما مشى من هنا مبكرا كان أفضل، وعند سماعه يتحدث هكذا، متعجلا متسرعًا، كيف سنصدق ما فعله لجوان المنحوس، أو ما قال هو إنه حدث له عندما كان سجينا منذ ثمان سنوات، ربما لم يعاملوه بهذا السوء الذى يقوله، وكان ذلك مجرد تصفية حسابات، ربما حدث فقط انهيار التمثال، و الدليل على ذلك أنه جاء من جبل لافرى إلى المظاهرة، ولم يتعظ، وكان محظوظًا لأن تلك الرصاصة لم تصبه .

يقترب الدكتور كوردو من جوزيه أديلينو دوس سانتوس ويقول: هذا الرجل قضى نحبه، هذه العبارة كان يجب أن تكون قاطعة بلا نقاش، فالطبيب فى

نهاية الأمر رجل قضى سنوات طوال ليدرس وقد تعلم على الأقل كيف يميز الميت من الحى، لكن ليإندرو ليإندرس لا يعتد بهذه الشهادة، فهو يعرف الميت من الحى بطريقة مختلفة، وعن طريق هذا العلم وهذه الخبرة يلح، يا دكتور، انظر له جيدا، فهذا الرجل مصاب، ينبغى أن ترافقه للشبونة، يعرف حتى الطفل أن هذه الكلمات المنطوقة تحمل نبرة تهديد، لكن الطبيب يرد عليه، فهو فى النهاية رجل ذو روح بيضاء مثل البالطو الذى يرتديه، ولو وجدنا فى البالطو دماء، فلا نستغرب، فالروح أيضا بها دماء، أنا أرافق جرحى، لا موتى، ويفقد ليإندرو ليإندرس هدوءه، ويسحبه ناحية مكتبه حيث لا يوجد أحد آخر، "انظر ما تفعله، إن لم ترافقه ستدفع الثمن غاليًا، ويجيبه الطبيب افعل ما تشاء، فأنا لن أرافق رجلا ميتًا، وانصرف بعد قوله هذا، ذهب ليعالج جرحى حقيقيين، وكانوا كثرة، ذهب بعضهم مباشرة من هناك إلى السجن، وكان عدد الجرحى وغيرهم يتخطى المائة، ولو حملوا جوزيه أديلينو دوس سانتوس إلى لشبونة، فهذه هى كوميديا البوليس السياسى، إنه نوع من الكذب ليتظاهروا أنهم فعلوا كل ما كان فى وسعهم لإنقاذه، كلها طرق مختلفة للسخرية من الناس، لو حملوا جوزيه أديلينو للمستشفى، فهذا يعنى أنهم حملوا أيضا غيره من المعتقلين، هؤلاء الذين تعذبوا كما تعذب جوان المنحوس، وقد روينا عذابه .

هرب أهل جبل لافرى من الدوريات التى كانت تطوف و تجول المدينة، عادوا جميعًا باستثناء واحد، انطونيو المنحوس، الذى قال لأبيه سأبقى فى مونتيمور وغدا سأعود"، وأجاب كل من ترجاه و من لم يترجاه قائلا: لقد زال الخطر، عودوا مطمئنين"، لم يفهموه ولا هو كان يفهم ما يريد، كانت فقط رغبة لديه فى عدم الابتعاد، وحينئذ شقوا طريقهم فى السبل القديمة عبر الحقول، وسيصلون منهكين، ربما لو خرجوا للطريق الرئيسى البعيد قد يجدوا من يحملهم لجبل لافرى، حيث اطلع ساكنوه على أخبار الطلقات النارية، وانظر لعجائب الطبيعة، فاوستينا المنحوس، هذه المرأة الصماء، سمعت عندما طرقوا الباب واطلعت على كل شىء كما لو أنها تتمتع بأرهف سمع فى الدنيا، وبعد ذلك سيقولون إنها تتصنع الصمم بإرادتها .

فى تلك الليلة، التى كانت أيضا مليئة بالنجوم لا القمر، نساء كثيرات كن يبكين فى مونتيمور بينهن واحدة تبكى أكثر من الجميع، بينما فى ثكنة الحرس كانت هناك سعادة جمة . خرجت الدوريات من جديد لتبحث فى ضواحى المدينة، دخلوا البيوت، أيقظوا الناس، ساروا يتحرون فى لغز الأحجار التى كانت تتساقط فوق السقوف، فتمزق القرميد وبعض الزجاج، إنه ضرر على الأملاك القومية، كانت الأحجار زلطا متوسط الحجم، من يدرى إن كان انتقامًا من الملائكة أم شقاوة منهم بسبب مللهم من الجلوس فى شرفات السماء، فالمعجزات ليست فقط

رد البصر للأعمى أو منح ساق للأعرج، فالرجم بالحجارة قد يكون له مكانه بين أسرار الكون و الدين، هذا على الأقل ما فكر فيه أنطونيو المنحوس، الذى بقى من أجل ذلك، ليصنع المعجزة، بإطلاق الحجارة بذراعه القوى، مختبئا فى أعلى نقطة فى التل، فى أسود ظل يصنعه الحصن، وعندما تتقدم دورية لهناك، يدخل فى كهف وسريعًا ما يسترد حياته، لم يره أحد، كان محظوظًا على الأقل فى هذه الحالة. فى الواحدة صباحًا ألقى حجره الأخير، كان ذراعه قد أنهك، وكان يشعر بالحزن كما لو كان على وشك الموت. أحاط الحصن من جنوبه، هبط من الجبل، إنه رجل متعب و جوعان، وطوال ما تبقى من الليل، سائرًا بجانب الطريق الرئيسى لكنه بعيدا عنه مثل المتشرد الذى لا يثق حتى فى نفسه، مشى أربعة فراسخ كانت تفصله عن جبل لافرى، وكان يلف عندما يجد حقول قمح لم تلمس تقطع عليه طريقه، لم يكن يستطع أن يدوسها، وكان عليه أن يظل مختبئا من حرس الوسية الذين يخرجون للصيد، ومن الحرس الآخرين، ذوى البنادق و البزات .

كانت السماء صافية، صفاء تميزه فقط العيون الخبيرة بحالها، عندما وصل جبل لافرى. عبر النهر بالمعدية، حتى لا يراه أحد فى الجسر، وسار بعد ذلك بمحاذاة الماء، ملتصقا بالصفاف الأبيض، حتى بدأ فى الصعود، دائمًا مُختبئًا، فربما يمر الحرس من هنا ليعالجوا أرقهم. وعند وصوله بالقرب من البيت، رأى

ما كان ينتظره، ضوءا، كان القنديل مشتعلا، مثل عمود إضاءة للصيد فى المياه الإقليمية، وحوله كانت المرأة تسهر من أجل ابنها البالغ الآن واحد وثلاثين عاما وذهب ليلقى بالحجارة وعاد متأخرا للبيت. قفز انطونيو المنحوس من فوق سياج الحديقة، سالما، لكن فاوستينا لم تسمع هذه المرة، كانت مشغولة بدموعها وظنونها، لكنها سمعت جلبة قضيب إغلاق الباب أو ربما كان ارتجافا حدث فى روحها، ابنى، ويتعانقان كما لو كان عائدًا من عمليات حربية عظيمة، ولأنه يعرف أنها ثقيلة السمع، لم ينتظر منها أسئلة، وقالت، كما لو كانت سلسلة ابتهالات، لقد وصل أبوك بالسلامة، وكذلك جراثيندا وزوجها، والآخرون أيضًا، انت فقط من جعلتنى أقضى ساعات سوداء. يعانقها انطونيو المنحوس من جديد، العناق أفضل جواب يقال وافضل رد يفهم. حينئذ، من الغرفة المجاورة، وفى الظلام، يسأل جوان المنحوس، بصوت ليس صوت من استيقظ فى التو، أوصلت بالسلامة، ويجيبه أنطونيو، نعم يا أبى. ولأنه قد حان الوقت لأكل شىء، أشعلت فاوستينا النار ووضعت الكنكا فوقها .

الوسية بحر من الداخل. به أسراب أسماك رقيقة وصالحة للأكل، وبه سمك البركودة والضارى ذو النهاية الفظيعة، به كذلك الأوقيانوسى والحيتان والسمك ذو الطبقة الجيلاتينية، وهى حيوانات عمياء تجر بطنها فى الوحل وتموت فيه، كما توجد أيضًا حيوانات خانقة ذات دوائر لولبية. الوسية مثل البحر المتوسط، لكن يحدث فيها مد وجزر وتيارات سفلية، تيارات رقيقة تستغرق وقتا طويلا لتعطى لفة كاملة، واحيانًا تكون سريعة فيرتجف معها سطح الماء، إنها عصفات ريح تأتى من الخارج، أو مصارف من تدفقات فجائية، بينما تنثنى الأمواج ببطء فى الأعماق الدامسة ساحبة إعصار الطمى القوى، منذ متى يحدث ذلك. إن قولنا إن الوسية كالبحر، تشبيه فيه أوجه شبه كثيرة وقليلة أيضا، لكنه سيتوافر فيه اسباب تيسير الفهم، فلو حركنا هذه المياه، ستتحرك كل المياه المحيطة بها، وأحيانا تتحرك المياه الأشد بعدا لدرجة أن العين تنكره، لهذا قد يكون من الخطأ ان نسمى هذا البحر خزانا، وحتى لو كان كذلك،

فمخطئ من يعيش مؤمنا بالمظاهر، حتى لو كانت المظاهر مظاهر موت .

ينهض الرجال كل يوم من أسرّتهم، ويضطجع الرجال كل ليلة فى نفس الأسرّة، وعندما نتحدث عن السرير نقصد كل ما يقوم مقامه، كل يوم يجلسون أمام الطعام أو الإرادة الكافية لامتلاكه، كل يوم يشعلون و يطفئون النور، لا جديد تحت وردة الشمس. هذا هو بحر الوسية الكبير، بضباب من الأسماك القطيع و الحيوانات الملتهمة، ولو كان هذا هو الوضع دائما، فليست هناك أسباب ليتغير، حتى لو تحتم عليهم احتمال أى تغيير، فيكفى أن الرقابة لا تشرد، فكل يوم تذهب المراكب المسلحة للماء بشباكها التى يجب أن تصطاد الصياد. من أين سرقت جوال البلوط هذا ؟ أو أرنى حزمة الحطب هذه،، أو، ماذا تفعل هنا فى هذه الساعة ؟، من أين أتيت وأين تذهب؟ ، إنه ليس سيدا ليضع قدمه خارج الإطار المحدد له، إلا إذا كان مستأجرًا، و حينها سيأتى مراقبًا. مع ذلك، يأتى كل يوم بحزنه و أمله، أو ربما يكون ذلك ضعفًا من الراوى، الذى من المؤكد أنه قرأ هذه العبارة أو سمعها فراقت له، لأن اليوم الذى يأتى بحزنه وأمله يوم لا ينتهى فيه الحزن والأمل لا يصير سوى أمل، والقس أجاميديس لا يستخدم كلمات أخرى، فهو يتحدث فقط عن الحزن والأمل ومن هذا يرتزق، ومن يظن عكس ذلك فإما أنه أحمق أو ضال. قد نصيب لو قلنا إذاً إن كل يوم يأتى بما فيه، كما أتى الأمس بما فيه،

وإن الأمس واليوم يكونان الغد، قد يعرف الطفل هذه الأشياء البسيطة، لكن هناك من يعتقد أنه يمكن تقطيع اليوم كما يقطع قشر البطيخ للخنازير، فكلما كانت القطع صغيرة كلما كان وهم الخلود اكبر، لهذا تقول الخنازير" آه يا رب الخنازير، متى سيأتى اليوم الذى نقتل فيه الجوع للأبد

لبحر الوسية يصل تيار سفلى، جزاف، أمواج، تصل حدتها لدرجة تكفى لهدم سور، أو ببساطة تخطيه، كما عرفنا أنه حدث فى بينيتشى(*)، وهو ما يعطى معنى لما قلناه عن البحر، فـ بينيتشى ميناء للصيادين، وقلعة بها سجون، مع ذلك هربوا، وعن هذا الهروب سيتحدثون كثيرا فى الوسية، أى بحر! أى عدم ! ما هذه، إنها أرض فى أغلب المرات جافة، لهذا يقول الرجال" متى سنتمكن من قتل ظمأنا، وظمأ آبائنا الآخر، وقتل هذا الظمأ الثالث الذى يستعد لأبنائنا القادمين، إن أنجبنا. جاء الخبر الذى لا يمكن مداراته، ووجد من يروى ما لم تذكره الصحف، فلنجلس تحت شجرة البلوط هذه، فهذه هى المعلومة التى عندى. إنها فرصة لترفع الحدّأة أجنحتها لتحلق عاليا، لتصيح فوق هذه الأرض المتسعة، من يفهمها جيدًا ينبغى عليه أن يروى، ولنكتفى الآن بلغة الرجال هذه. لهذا تستطيع السيدة رحمة أن تقول للقس

(*) بينيتشى: مدينة برتغالية تطل على الأطلنطى بها قلعة من القرن السادس عشر استخدمها سالازار كسجن للشيوعيين،واستطاع أن يهرب منه القائد الشيوعى ألفارو كونيال وأتباع له،وهو ما يشير إليه المؤلف (المترجم)

أجاميديس، لقد انتهى الهدوء الذى لم يوجد أبداً، تبدو جملة تناقض بعضها، مع ذلك لم تتحدث هذه السيدة أبدا بهذه الدقة، إنه الزمن الجديد الذى يأتى طائرا، هذا يبدو كحجر يدور هاويا من منحدر جبل، بهذا أجابها القس أجاميديس، لأنه لا يروق له أن يستخدم عباراته الخاصة، إنها عادات المنبر، لكننا فى النهاية لدينا الطيبة الإنجيلية لنتفاهم ذلك، فما يقصده بعبارته أنهم إن لم يبتعدوا عن طريق الحجر يعلم الرب ماذا سيحدث، ولنعذره على هذا الطُعم، فنحن نرى بوضوح أنه ليس من العدل أن ننتظر الرب لنعرف ماذا سيحدث لمن يقف فى طريق الحجر الدوار، فلا ينجو منه لا دابة و لا طير .

لم نكد نقول ذلك حتى انضم تدنيس المقدسات للفوضى القائمة، وعبارة "لم نكد" مجرد قول لأنه قد مرت عدة أشهر من الهواجس المضرة، والفوضى هنا كانت بسبب عدم توخى الحذر من الزنزانة، وتدنيس المقدسات يعنى رؤية مركب كان يسمى قبل ذلك القديسة مريم والآن يبحر باسم الحرية المقدسة، كيف لا ينبغى إذاً أن توجد السيدة رحمة فى محراب بيتها تصلى بلهفة وشوق من أجل إنقاذ الكنيسة والوطن، دون أن تنسى طلب عقاب مثيرى الاضطراب، ولأننا لم نعطهم عبرة فى وقتها وصلنا لهذه النكبة، فبحياة الآخرين لا يُلعب ولا بممتلكاتى. لكن ما هذه سوى فضفضات ربة منزل، بين أربعة حوائط، وحتى فى وضعها هذا من العدل أن يستمع لها نوربيرتو بهدوء،

إن لم يكن من أجل الأب أجاميديس من كان سيستمع لهذه السيدة، التى لا تخرج تقريبا، إلا من حين لحين إلى لشبونة لتعرف أحوال الموضة، أو إلى فيجيرا لزيارة حمام كتقليد عائلى، لدرجة تبدو معها أنها تهذى، ربما بسبب السن، عند قولها "ممتلكاتى" عندما تقصد مركبًا يبحر فى البحر، وليس داخل بحر الوسية، ربما فقدت السيدة رشدها، يضل كثيرًا من يعتقد ذلك، فهى تملك أسهما ورثتها من ألبيرتو، أبيها، فى شركة الملاحة الكولونيالية، ياللمجد، وهذا هو ما يؤلمها .

هذا البرد القارص الذى يسود فى الوسية ليس سببه فقط أننا فى يناير. كل نوافذ البيوت موصدة، ولو كان هذا قلعة للامبيرتو وليس بيتًا كبيرًا لنوربيرتو، لرأينا رجالا مسلحين يزينون الشرفات، كما رأينا منذ قليل أناسا خوافين وسفاكين للدماء ساكنين فى أطلال مونتيمور، إنه اختلاف الزمن، الآن تجول بالوسية جموع الحرس، بقدم تنتعل حذاء برقبة وأخرى تنتعل الحرب، بينما يقرأ نوربيرتو الجرائد ويستمع للراديو، ويصرخ فى الخادمات، فهكذا الرجال عندما يصيبهم الغضب. وأكثر الأمور استفزازًا جو السعادة الساخرة من قبل القرية أسفلا، يبدو كما لو جاءهم فصل الربيع قبل أوانه، لا يشعرون ببرد، فقد عززتهم الفرحة لحسن الحظ، وبعد يومين يتحتم عليهم الفزع، فالرب لا ينام، و سريعا سيأتى العقاب بلا شك، لقد بعثت القديسة مريم، فصلوا لأجلنا، ولا

نرغب شرا كثيرًا للأب اجاميدس، الذى أصابته فى النهاية خطيئة الحسد، وتأخر فى هذه الخطيئة المقدسة، فلم يستطع أن يقيم القداس شكرًا للرب، ففى أرض جبل لافرى البائسة، بأهلها الكفار، لا يكون إلا موظفا سيئا .

إنه عام أسود على الوسية. تتنزه الصبية فوق فرسها، تموج تنورتها و تجفافه، يطلق الهواء حجابها كما العادة، ليست هناك صورة أبهى من هذه، وفجأة يتعرقل الفرس، إنها طرق من العصور الوسطى، يا سيدى، تهوى على يديها، آه يا يسوع، تسقط على الأرض وتنكشف بواطنها الحميمة، يبدو أنها لم تتعرض لأذى كبير، الأذى كان عند اندفاع الجواد عند نهوضه، حيث لفزعه فصلها عنه وركلها، كم أنت مسكينة يا صغيرة . ومن هنا جاء المثل الذى يقول: الأدهى من كبوته، رفسته، إنها طريقة فروسية لإعلان حزن أكثر، والمصائب لا تأتى فرادى . هرب بالأمس سجناء بينيتشى، الشيوعيون الفظعاء، آكلو الأطفال، آه يا جارتى، ألم ترى أولادى هنا، وارتجفت بالأمس النفوس والمحيطات بحكاية القراصنة الجديدة، من أطلق النار على الجميع، مركب غاية فى الجمال، يكتسى بالأبيض، مركب القديسة مريم يسير فوق الماء كابن إلهى، والآن تأتى أخبار عن إفريقيا، إنهم الزنوج، دوما أقول يا أختى إننا نعاملهم معاملة حسنة أكثر من اللازم، لقد حذرتهم، فلم يرغبوا أن يسمعوا لى، فمن عاش هناك يعرف كيف يعاملهم، إنهم لا يريدون

العمل، فهم عبيد، إن لم يعملوا بالكرباج لا يعملوا بالحسنى، وهاهى العاقبة، نعاملهم بكل تقدير، كما نعامل المسيحيين، وفى النهاية، انظرى، لكن زمام الأمور لم يفلت من يدنا بعد، فلن نضيع إفريقيا، فلو امرنا الجيش، سيشن حربا جادة، ولنتذكر ما حدث فى جونجونيانا، عندما نطق السيد رئيس الحكومة بكلام شهد، بسرعة و قوة، لو كان قد درس العسكرية لصار رئيس حرب بارع، مع ذلك قال ما يجب أن يقال. تبدد الحلم الامبريالى فى وقت قصير، هيا نركض الآن، فالترقيع رث الهيئة، والخياطة تفككت، الزنجى الآن هو المواطن البرتغالى، فليحيا الزنجى الذى لا يحمل السلاح فى يده، لكن حذار منه، والآخر سريعًا ما يموت، وفى يوم من هذه الأيام، عندما نصحو مستعدين، سنقول إن المحافظات التى تقع خلف البحر تحولت من مستعمرات إلى دول مستقلة، فى مسألة الأسماء كل سيان، فالصواب أن الخراء لا يتغير ومازال هؤلاء يؤكلونه لمن تعودوا أن يتغذوا عليه، بيضا كانوا أم سودا، ومن يلاحظ الفرق فله جائزة .

لكن يبدو، سيدى القس أجاميديس، أن الرب والعذراء قد حولا عيونهما الطيبة عن الأرض البرتغالية، انظر لهذه الأرواح التى تسير حزينة وقلقة، لابد أن الخبث قد استحوز على قلوب البرتغاليين الطيبة، ربما لم نصلِ صلاة التسابيح بشكل كاف، لقد حذرنا الرعاة الروحيين، ومن جانبى فعلت كل ما فى وسعى ولست مقتصدا فى إسداء النصائح النافعة،

سواء فى المنبر أو فى الاعتراف، إنه حوار مختلط، الآن يتحدث أولهما، الآن يتحدث الآخر، لكن ما يفكر فيه الأب أجاميدس عندما يأوى إلى بيته شئ آخر، حيث يصير أميل لرجل من هذا العصر أو لعصر آخر كانوا فيه يحكمون الأرواح بالنار والحديد. إنهم لا يحتاجون سوى الضرب بالعصى على رءوسهم، هكذا يحدث نفسه .

ولا أحد يعرف أين المصير . الآن تتحرر قلاع الهند، ابكوا، يا رجال فاسكو دا جاما، يا البوركيركيه وألميدا وآخرون من نورونيا، فهذا ما كان ينقص، أن تبكى قلوب الذكور، لقد صدر الأمر بالمقاومة حتى الرجل الأخير، وسنعطى للعالم مثلا عما يساويه البرتغالى، يخون وطنه من يتقهقر خطوة، فى النهاية، تضيع الأصابع من أجل الحفاظ على الخواتم،[1] والحكومة تثق وتتواعد الجميع بتأدية الواجب الذى يناسبهم . ويأتى كريسماس حزين على بيت ألبيرتو، لا لنقصان نعمة الرب وبركته، فالفلين كان جيدًا هذا العام، الحمد لله، وإنما لسواد الغمامة التى تحلق فوق البلد والوسية بعواصف فى أحشائها، ماذا سيحل بالبرتغال ويحل بنا، الحق أن لدينا من يحمينا، فها هم الحرس، لكل واحد منهم هدية، الرائد، النقيب، الشاويش، الأونباشى، كم هم مساكين، ما نعطيه لهم عدلاً، فهم يربحون قليلا، ودوما يدافعون عن ممتلكاتنا، تخيلوا لو تحتم علينا نحن أن نبحث عمن يحرسها لنا، كنا سندفع الكثير و الكثير. يرتجف قلبه

عندما يتذكر أنه لم يعر أبدًا انتباها لـ جوا و داماو ديو، والآن يسلبوننا آخر أعلام الوجود البرتغالى فى الشرق، جنودًا وبحرية، أفندم، يالها من فكرة، ليس هذا هو الحاضر، ليس الرائد والنقيب والشاويش والأونباشى، لأننا تحدثنا عنهم بالفعل، كل منهم جاء بحثا عما يهمه فى تحفظ وحماس حتى لا تطوله الألسنة الطويلة، لكن الهدية التى أتحدث عنها مختلفة، إنها هدية للجنود و البحرية الذين، على وشك الموت، ينهضون على أكواعهم و فوق نزيفهم ليصيحوا، يلبون النداء، فيكتبون غياب، إنها ممارسة قديمة، عندما نعرف جميعا أنه حتى الأموات يدلون بأصواتهم. حمدًا لله أن هذه الأمور تحدث بعيدا، فى الهند، وإفريقيا أيضًا ليست قريبة، حيث تشتعل الحرائق بعيدًا عن مجاوراتى، فبيننا وبينهم بحر، بحر هائل، فهنا لا تصل والبرتغال لا ينقصها أبناء يدافعون هناك عن الوسية هنا، لا تعض يد سيدك التى امتدت لك، فهو شال من فمه وأعطاك . لا تصدقوا هذه الأمثال واشتكوا بعد ذلك .

تقول السيدة رحمة لأولادها و أولاد أختها غدًا عام جديد، هذا ما يقوله التقويم، فلتضعوا آمالكم فى العام الذى يبزغ ويقدم أفضل أصواته من أجل راحة كل البرتغاليين"، هذه ليست كلمات السيدة رحمة، التى استخدمت دوما لغة أخرى، لكنها الآن تتعلمها، فكل منا يختار مدرسيه، كانت العبارة مازالت فى الهواء عندما جاء خبر من بيجا يقول إنه تم الاعتداء

على كتيبة المشاه العسكرية رقم «٣» وبيجا ليست فى الهند، ولا فى أنجولا و لا كينيا، بيجا هنا بجوار بابنا، إنها وسية، وهاهو سرب الكلاب يعوى، ورغم أن المحاولة الجريئة قد تم السيطرة عليها لن يتكلموا عن شىء آخر خلال الأسابيع القادمة، والشهور القادمة، فالنتيجة أنه من الممكن الهجوم على ثكنة عسكرية، فقط كان ينقصهم الحظ، فدائما ما ينقص شىء فى الساعة الأخيرة، أو ربما ينقص فى الساعة الأولى دون أن ينتبه له أحد، إنه قدرنا، تسقط حدوة الحصان الذى يحمل الرسول، الذى يحمل أمر المعركة، الذى كان ينبغى أن يغير مجرى التاريخ، وهكذا تعزز عدونا، فبسبب حدوة سيخرجون منتصرين، دائما يرافقنا سوء الحظ. وبهذا نحن لا نقل أدبنا على من خرج من سكينة بيته ليحاول هدم أعمدة الوسية، فليمت سانسون ومن يتبعوه، وعندما يذهب أحد ليرى ماذا جرى، بعد نثر البارود، يجدون أن من مات هو سانسون ومازالت الأعمدة قائمة، ربما لو جلسنا تحت شجرة السنديان هذه وحدث بعضنا بعضا عن الأفكار التى تدور فى رأسه وفى قلبه، لكن المشكلة فى عدم الثقة، فكل واحد فى جانب، خيرًا فعلوا عندما أخذوا مركب القديسة مريم، وخيرًا فعلوا باعتدائهم فى بيجا، لكننا، نحن كلاب و نمل الوسية، لم يسألنا أحد إن كان هذا الإبحار إبحارنا وإن كانت هذه الاعتداءات اعتداءاتنا، أيمكنكم أن تتيقنوا أننا نقدر ما تفعلوه، بدون حتى أن نعرفكم، لكن لكوننا كلابًا ونملا، ماذا

سنقول غدا عندما نعوى سويًا وتسمعوننا بانزعاج كما يسمعونا أصحاب الوسية هؤلاء الذين تريدون حصارهم وإغراقهم و هدمهم. إنه وقت العواء معا والعض بالتأكيد، يا قائدى العام، وأثناء ذلك انظروا إن كان ينقصكم حدوة حصان أو معكم ثلاث طلقات عندما ستحتاجون لأربع .

وُلِدَ هؤلاء الرجال وأولئك النسوة من أجل العمل، إنهم قطيع مطيع أو قطيع شارد، يخرجون أو يُسحبون من بطون أمهاتهم، يجعلونهم يكبرون بأية طريقة، فالأمر سيان، فما يحتاجونه هو أن يشتد عودهم و يمتلكون قوة وبراعة اليدين، حتى لو كان من أجل عمل إيماءة فقط، وليس مهمًا أن يكونوا بعد سنوات قلائل بطاء ومتخشبين، إنهم جذوع متنقلة، يصلون للعمل فينفضون أنفسهم ويخرجون من صلابة أبدانهم ذراعين وساقين يتحركان ذهابًا و إيابًا، هنا نرى إلى أى مدى وصلت طيبة الخالق ومقدرته، يحركون بكفاءة أدوات الحفر والحصد، ويشذبون الأشجار وطريق العمال فى الوسية، حيث لهم طريق غير طريق المالك .

ولأنهم ولدوا من أجل العمل، فركونهم للراحة يعد تناقضا لطبيعة ما خلقوا له. فأفضل ماكينة هى القادرة على العمل المستمر، بتشحيم قليل وكاف يجعلها تواصل، وبغذاء متواضع، إذا كان متاحًا الحد الاقتصادى الأدنى للمعيشة، لكن أهم شروطها أن

يوجد بديل لها لو عطلت أو شاخت، ومستودعات هذه الخردة تسمى مقابر، لكن قبل مرحلة المقابر تجلس الماكينة أمام مدخل البيت، يعلوها الصدأ و التذبذب، لتشاهد من يمر، ماذا، لا شىء، ناظرة ليديها الحزينتين، من رآنى ومن يرانى. بشكل عام، الرجال والنساء فى الوسية يشيخون قبل الأوان، ويدهشنا كيف يصلون للشيخوخة، فمجرد أن نتمشى، نجد رجلا يبدو للبصرعجوزًا ونسمعه يقول إنه فى الأربعين من عمره، وهذه السيدة الذابلة ذات البشرة المتغضنة لم تبلغ الثلاثين بعد، فى النهاية الحياة فى الريف لا تطيل العمر، إنه قول مختلق يشاع فى المدينة، مثل هذا المثل المتكرر النوم مبكرا والاستيقاظ مبكرًا يمنح الصحة ويساعد على النمو. من المثير للضحك أن نراهم هنا ماسكين يد الفأس بعينين تسبحان فى الأفق فى انتظار الشمس، أو ماقتين يشتاقون للغروب الذى لم يصل بعد، الشمس كائن بائس، يتعجل ليسطع ويتباطأ فى الانطفاء. مثل الرجال .

لكن زمن الخضوع أوشك على الانتهاء . يجوب صوت فى طرقات الوسية، يدخل القرى و النجوع، يتحدث فى الجبال وغابات السنديان، صوت يقول كلمتين أساسيتين وكلمات أخرى تشرحهما ثمان ساعات قول هذا يبدو قليلا، لكن لو قلنا ثمانى ساعات عمل، سيستوعبون بشكل أفضل، وسنجد من يعترض مصعوقًا، ماذا يريد هؤلاء، أن يناموا ثمانى ساعات وأن يعملوا ثمانى أخرى، وماذا سيفعلون فى

الثمانى المتبقية، أنا أعرف جيدا ما كل هذا، إنها دعوة إلى التكاسل، لا يريدون أن يعملوا، إنها الأفكار الحديثة، والذنب ذنب الحرب، التى أفسدت العادات، من كان يظن ذلك، سرقوا منا الهند ويريدون الآن أن يطردونا من إفريقيا، ويزداد الطين بلة بهذا المركب الذى يجوب البحار مثيرًا فضيحة دولية، جنرال يقف ضد من وهبوه النجوم، فيمن نثق؟ قل لى، والآن يأتى من يطالب بثمان ساعات، ياللمصيبة، الشر يكمن فى مخالفة قانون الرب، ساعات النهار اثنتا عشرة وساعات الليل اثنتا عشرة، بما فيها ساعة الشروق والغروب، ولو لم يكن قانون الرب فليكن قانون الطبيعة وبالتالى يجب طاعته .

الصوت الذى يجوب الوسية ربما لم يسمع هذه الأقوال، ولو سمعها، كأنه لم يسمعها، فهذه حوارات تاريخية قادمة من زمن لامبيرتو، حقيقة، العمل هو تسليته، فإن لم يعمل سيقضى وقته فى الحانة، ثم يعود للبيت لينفض زوجته، نساء مسكينات . لكن لا تعتقدوا أن الطرق ممهدة . فمنذ عام يجوب هذا الصوت الشوارع والطرقات، ثمانى ساعات، ثمانى ساعات عمل، وهناك من لا يصدقه، ومن يصدق أن هذا سيحدث يعتقد أن العالم أوشك على نهايته ويريد صاحب الوسية أن ينقذ روحه، أن يقدم نفسه يوم القيامة قائلا للملائكة ورؤسائها، لقد كنت رحيما بعبيدى، كانوا يعملون ساعات طويلة، لكن لحبى لله طلبت منهم أن يعملوا فقط ثمانٍ ساعات فى اليوم،

وأعطيتهم يوم الأحد إجازة، وكما فعلت خيرًا بهم أنتظر مكانى فى الجنة، على يمين الرب، لا فى مكان آخر. هكذا يفكر بعضهم، الشكاكون والجبناء، أن التغيير يكون للأسوأ. إلا أن حاملى الأصوات لم يستريحوا طوال العام، تجولوا فى الوسية من أقصاها لأقصاها معلنين الشعار، بينما الحرس والبصاصون يفردون كالمراوح آذانهم القلقة مثل الحمير عندما يطارده الذباب. عندئذ تتناثر الدوريات الحانقة والحربية، ولا ينقصها سوى أن يتقدمها طبول ومجموعة أبواق، وإن لم يفعلوا ذلك فليس لأنه لا يروق لهم، بل لأن خطة المعركة لم تسمح به، ولم يحن موعده، فقد يكون المتآمرون مجتمعين فى جبل مهجور أو خلف شجيرات، ويسمعوا من بعيد دق الطبول، تاتارا. تاتا، وبذلك لن يمسكوا بأحد. تعزز الحرس، تعززت الشرطة، وأية قرية بلا طبيب صار بها الآن الطب من عشرين لثلاثين حارسًا بالأسلحة المناسبة، دون أن ينسوا التواصل المستمر مع التنانين الذين يدافعون عن الدولة ويطاردوننى أنا، مساكين هؤلاء التنانين الحقيقيون، قبحاء مثل الضفادع الجبلية والهوام، لكنهم لا يصنعون شرًا يثقل ميزانهم، والدليل على ذلك أن الجنة مليئة بتنانين يقذفون نارًا من أفواههم، وهم الأغلبية. وبما أن أى حارس يتمتع بالمكر والنفاق، فقد ابتكروا فنا ذكيا الوضع تحت حجر، بحيث يكون تحت بصر حتى الأعمى، وضع منشورات الاتهام تحت حجر لهؤلاء الشيوعيين الذين

يجوبون الوسية قائلين شعارات ثورية، مثل شعار ثمانى ساعات عمل، يريدون أن يسلموا الدولة لموسكو. وبعد إتمام العملية بمهارة، يختبىء الحرس خلف سياج أو أرض مرتفعة أو شجرة ساذجة أو حجر ضخم، وعندما يمر البرىء غير محتاط، من الممكن أن يأخذ المنشورات ويضعها فى جيبه، أو تحت قبعته، أو بين جلده وقميصه،هذه الأوراق البيضاء ذات الخط الأسود الصغير، ليس فقط لا يمكن قراءتها بل أن النظر لا يستطيع تمييز حروفها، وبعد أن يسير عشر خطوات يقطع عليه الحارس الطريق، ارفع يديك، أرنى ما فى جيبك، لو لم يكن ذلك مكر حية كبيرة. علينا أن نختم قائلين أن هناك هجومًا حادًا ضد الحرس، وأنهم لا يستحقون سوى الإطراء على تطبيقهم الرائع لمبادىء النفاق والتزييف الخسيس، مطعمين فى الوقت نفسه بفنون السلاح وتقنيات الهجوم .

الرجل المسكين محاط بدائرة من البنادق، وليس امامه من حل سوى أن يفرغ جيوبه، مطواة غجرية، تبغ سجائر، علبة ورق بفرة، خيط، كسرة خبز مقضومة، مسكوكة قيمتها عشر سنتات، لكن هذا لا يرضى الحارس الذى لديه طموحات أخرى، انظر احسن، فهذا من مصلحتك، فلو بحثنا نحن، نستطيع أن نصنع لك عاهة مستديمة مدى الحياة، وحينئذ يخرج من بين قميصه وجلده أوراقا مبتلة بعرقه، ليس من شدة القيظ، بل لأنه إنسان من لحم ودم لا من

حـديـد، وفـى وسـط الحـرس الـذين يـضـحـكـون والآن يـرتـسـمـون الجـديـة، يـدخل الأمـبـاشـى تـبـاكـو أو زعـيم الحـمـلـة، يـعـرف جـيـدًا مـا هـذه الأوراق لـكـنـه يـتـصـنـع الجهل، يتفحصها وبعدها يقول، بمكر، "أنت متورط، لقد ضبطنا معك منشورات شيوعية، يجب أن تأتى معنا للنقطة، وسينتهى مصيرك فى مونتيمور أو لشبونة، لم أكن أتمنى أن أكون أنا فى رفقتك" . وعندما يريد الرجل المسكين أن يشرح أنه عثر على هذه الأوراق فى الحال، وحتى لم يقرأها، ولا حتى يعرف القراءة، وأنه كان مارا من هنا ورآها، أخذوه، إنها إيماءة طبيعية، لم يستطع أن يؤديها، لأنهم سيطلقون عصيهم فى صدره أو ظهره، هذا إن لم يضربوه بالشلوت، هيا للأمام وإلا سأطلق عليك عيارًا هنا. الأسلحة مشهرة و البارونات فى وضع الاستعداد.

هذا الحكى يشبه الكريز، فما أن تقول عبارة حتى تخرج عبارات أخرى متعلقة بها، أو ربما مثل شجر الطلّح عندما يكون متشابكًا، فما أصعب أن تفك بعضه عن بعض، نفس الشىء يحدث مع الكلمات، فالكلمة لا تأتى أبدا بمفردها، حتى أن كلمة "العزلة" تحدد من يعانى منها، والحمد لله. هؤلاء الحرس لديهم إيمان راسخ أنهم يجب أن يذهبوا حيث تستدعيهم الوسية، بلا سؤال ولا جدال، فما هم إلا مجموعة مأمورين، وانظر لما حدث فى الأول من مايو، تغيب الرجال والنساء فى يوم عطلتهم كعمال، وفى اليوم التالى عائدين إلى شغلهم، وقف لهم الحرس

بالمرصاد،" يعمل هنا من عمل بالأمس، إنها أوامر"، وقول هذا كان فقط طريقة حتى لا يبقون صامتين، لأن من ناحية الغياب قد غاب جميعهم. والآن ماذا سيحدث، تجمع العمال فى جانب، ناظرين، كيف ستحل هذه المعضلة، ولأن الحرس قد شغلوا الأرض كلها ورئيس العمل يختبىء بينهم، دون أن يظهر فى الصورة كرجل خبير، قررالعمال العودة لبيوتهم، حدث هذا فى الصباح الباكر، فكان يومًا أكثر من عطلة، وظل الحرس يحرسون النمل الذى يجرى على رزقه ويثير الإعجاب عندما يرفع رأسه مثل الكلاب. لكن قبل رحيلهم قام الرتبة، بجانب الإدارى أو المكلف أو المتحكم، وكلها أسماء مختلفة، لها سلطتها، بعمل تطبيق لمناهجه الاستجوابية الذكية، انظروا، لماذا لم تأتوا للعمل بالأمس؟، أهذا هو السؤال الذكى، يا له من رجل، "لم نأت لأنه كان الأول من مايو، والأول من مايو هو عيد العمال، وبما أننا عمال لم نأت. إنها إجابة بريئة، ها هم أمامى، يا أونباشى الحرس، ويظنون أنهم سيضحكون على، كما لو كنت سأصدقهم، كلهم ينظرون لى بعيون حادة، هذا هو ما لدى هؤلاء التيوس، يتصنعون الجدية بنظرهم للواحد منا ومن يستطيع أن يتنبأ بما يفكرون فيه، لكنى أقول لهم إننى قادر عليهم، ومن الأفضل أن تعترفوا بالحقيقة، لم تأتوا أمس للعمل لأسباب سياسية، تعتقدون أنكم ستخدعوننى، وهم يلحون، لا يا سيد، ليس لأسباب سياسية، فالأول من مايو هو عيد

العمال، وعندما يقولون هذا، أجيب أنا بقهقهة ساخرة، ماذا تعرفون أنتم عن هذا، وأحدهم من الخلف يرد، لم نر وجهه لسوء الحظ، إنه عيد العمال فى كل الدنيا، وأنا غاضب ومعى كل الحق، إذًا فهنا لسنا فى الدنيا، نحن فى البرتغال، وبالأخص فى ألينتيجو، ولنا قوانيننا الخاصة، ويقترب منى رئيس العمل حينئذ ليقول لى سرًا ما، لكنه ليس سرًا لأننا أجمعنا عليه، وأنا أقرر، بالسلطة المخولة لى، هنا فقط يعمل من لم يتغيب بالأمس، وبمجرد أن قلت هذا ابتعدوا جميعا، معا، إنها عادتهم، يفعلون نفس الشىء عندما يغنون، وبعد عدة دقائق رحلوا بالفئوس على أكتافهم، حيث كان عملهم بالفأس، وعادوا لبيوتهم، معا، وهو موقف جدير بالاحترام، ولا أعرف لماذا. الكلمات مثل شجر الطلح، تبدأ بالكريز، وتظهر فى مايو، وإن كنت احترمتهم فهذه ليست المرة الأخيرة لكنها على الأقل المرة الضرورية .

فى إبريل، تتضارب الأقوال. فى الحقول تجرى اجتماعات ليلية كبيرة، يصعب معها رؤية وجوه بعضهم لبعض، لكن تسمع الأصوات، وتكون مخنوقة إذا لم يكن المكان آمنا بما فيه الكفاية، وتكون مجلجلة وواضحة فى الخلاء، على أى حال يقوم نوبتجية بحمايتهم، كمن يدافعون عن معسكر. إنها حرب مسالمة. وإن اقترب الحرس فى سواد الليل، وهم ليسوا حارسَين كما يحدث فى الأيام العادية، وإنما يأتون دستات وأنصاف دستات، ويدخلون بعرباتهم

وعربات الجيب حيث تسمح لهم الطرق، وإن جاءوا هكذا يقتربون، يقفون صفوفا، كمن يستعد للصيد، حينها يتراجع النوبتجية لينبهوا المجتمعين، ويحدث حينئذ أمر من أمرين، إما أن يمر الحرس دون توقف، والصمت هو أفضل دفاع، فيتسمر الرجال فى مكانهم جالسين أم واقفين، كاتمين أنفاسهم وأفكارهم، مثل الأحجار المنتصبة، كنصب تذكارى من أزمنة أخرى، وإما أن يأتى الحرس مباشرة صوب الاجتماع وحينئذ تكون كلمة السر هى الانتشار فى كل الطرق الوعرة، والحمد لله أن الحرس حتى ذلك الوقت لم يكن مزودًا بكلاب .

سيستمر الحوار فى الليلة التالية من النقطة التى توقفوا عندها، فى نفس المكان أو غيره، وهذا صبر لا نهاية له. وعندما يكون متاحا يتقابلون بالنهار، فى مجموعات أصغر، أو يمرون على البيوت، يثرثرون بجانب القبس، بينما تغسل النساء الصينى صامتات وينام الصبية فى الأركان. وعندما يكونون فى الصف رجل بجانب آخر، يكون الشعار المنطوق به والمسموع مثل ضربة شاكوش على وتد، يزداد عمقه مع الوقت، وعند ساعة الأكل، بالصينية أو القدر الموضوع على الأرض، بين السيقان، وبينما ترتفع الملعقة وتنخفض ويرطب النسيم الأبدان، يعود الكلام لنفس النقطة،إنه حديث متقطع يقول: يجب أن ننال ثمانى ساعات عمل، فكفانا عملا من شروق الشمس لمغربها، وحينئذ يخاف المحتاطون من المستقبل، وماذا سيكون حالنا لو

امتنع السادة عن إعطائنا عملاً، لكن النسوة اللاتى يغسلن أطباق العشاء بينما النار تلتهب، يخجلن من أن يكون هذا المحتاط هو زوجها ويبدين موافقتهن مع الصديق الذى طرق بابهن ليقول،" هيا نعمل ثمانى ساعات، فكفانا عملاً من الشروق للغروب"، لأنهن أيضا يعملن هكذا، بالإضافة لذلك يتألمن أكثر، فيعملن حائضات، حوامل، ببطونهن على وشك الانفجار، بل ويعملن وهن نُفَساء واللبن الذى يجب أن يرضعه الرضيع يهدر هباء، إنه حظهن، لم يخترنه، وهناك من يخطئ ظانًا أنه يكفى رفع العلم وقول هيا . الحق أن إبريل شهر الألف شعار، لأن حتى المتيقنون والمقتنعون تمر عليهم لحظات تردد، احتضار، قنوط، ها هو الحرس، هاهم تنانين البوليس السياسى، ها هو الظل الأسود الذى يتجول فى الوسية، ولا يهجرها أبدًا: لا يوجد عمل، ونذهب نحن بأنفسنا لإيقاظ الحيوان النائم، لننفضه ونقول له: غدا سأعمل فقط ثمانى ساعات، وهذا ليس الأول من مايو، فالأول من مايو لا أعمل، لا أحد يستطيع أن يجبرنى على العمل ، لكننى لو قلت ثمانى ساعات، هذا فقط ولا شىء آخر، فهو مثل إثارة كلب مسعور. ويقول الصديق، الجالس هنا فى الفلين، أو بجانبى فى الصف، أو فى وسط ليلة مظلمة لا أتمكن معها من رؤية وجهه القضية ليست فقط قضية ثمانى ساعات، فنحن سنطالب أيضًا برفع الأجرة لأربعين اسكودو، إن أردنا ألا نموت من التعب والجوع"، إنها أشياء جميلة لنطالب بها ونعيشها،

الصعوبة تكمن فى الحصول عليها . الحمد لله أن كثرة الآراء يصاحبها كثرة أصوات، وفى الاجتماع ينهض صوت، هذا ليس كلامًا، بل حقيقة، فهناك أصوات تنهض على قدميها، ماهذه الحياة التى نعيشها، فى عامين مات لى ابنان من مرض الجوع، والابن الذى يتبقى لى لا أريد أن أربيه ليعمل حيوان احمال، اجيبونى، وأنا أيضا لا أريد أن أظل حيوان احمال"، إنها كلمات تجرح الآذان الرقيقة، لكن هنا لا توجد آذان رقيقة، يوجد فقط فى هذا الاجتماع من لا يريد أن ينظر فى هذه المرآة ليرى نفسه حاملاً عريش عربة كارو وبردعة وأجراس، نحن هكذا منذ ولدنا .

حينئذ جاء صوت آخر، جاء من هناك، فسقط فوق ظل الليل ظل آخر لا نعرف من أين أتى، يا لها من فكرة تلك التى خطرت بباله، لا يتحدث عن الثمانى ساعات ولا عن الأربعين اسكودو فى اليوم، هذه هى القضايا التى عقد من أجلها الاجتماع، مع ذلك لم يكن بوسع أحد أن يقاطعه، إن ما أرادوه دائما هو أن يهينوا كرامتنا، وعند سماعه كلهم يعرفون من المقصودين، إنهم الحرس، البصاصون، الوسية وصاحبها أدالبيرتو أو داجوبيرتو، التنين والرائد، الجوع و العظم المكسور، التصدع والحنين، أرادوا أن يذلوا كرامتنا، لكن لا يمكن أن تستمر الأمور هكذا، يجب أن تنتهى، اسمعوا جميعًا ما حدث لى ولأبى الميت، لقد كان سرا بيننا، لكننى اليوم لا أستطيع أن ألتزم الصمت، ولو لم يقتنع الرفاق بهذه الواقعة،

فليس بوسعى أن أفعل شيئا، فنحن تائهون، ذات مرة منذ سنوات طويلة، فى ليلة مظلمة كهذه الليلة، ذهب معى أبى، أو ذهبت أنا معه، لنجمع بلوطا لنأكله، لم يكن لدينا شىء فى البيت، وكنت أنا رجلا وأرغب الزواج، أخذنا معنا كيسًا، ليس بكبير، كيسًا مطولا، وذهبنا معا من أجل الصحبة لا من ثقل الحمل، وعندما كان الكيس على وشك الامتلاء، ظهر الحرس، فما خطر ببالنا خطر ببال آخرين موجودين هنا، وهذا ليس عارًا، فأخذ البلوط المتساقط على الأرض ليس سرقة، وحتى لو كان سرقة، فالجوع سبب كاف للسرقة، فمن سرق جوعا غفر له مائة عام، أعرف جيدا أن المثل ليس كذلك، لكنه يجب أن يكون هكذا، فلو كنت أنا لصًا لأننى سرقت بعض البلوط، فصاحب البلوط أيضا لص لأنه لم يحرث الأرض ولم يزرع الشجر ولم يشذبه ولم ينظفه، وحينئذ جاء الحرس وقالوا، لا داعى لأن أكرر ما قالوه لأننى لا أتذكره بالضبط، لكنهم سبونا، وقد يبدو أكذوبة أننا احتملنا كل هذه الشتائم، وعندما طلب منهم أبى من أجل حب الله أن يتركونا نأخذ البلوط الذى جمعناه من الأرض ونسير، أطلقوا قهقهاتهم وقالوا اتفقنا، يمكننا أن نأخذ البلوط لكن بشرط، واسمعوا جميعًا الشرط، أن نتعارك أنا وأبى حتى يشاهدوننا، لكن أبى قال إنه لن يتعارك مع ابنه، وأنا لن أتعارك مع أبى، حينها قالوا فلنذهب إذاً للنقطة، لندفع الغرامة وربما يضربوننا بالعصى حتى نتعلم أن نعيش مثل الشرفاء، عندئذ

وافق أبى على التعارك، فلنتعارك إذاً، وأستحلفكم بأغلى ما عندكم يا رفاقى، ألا تسيئوا الظن بالعجوز المسكين الذى رحل عن دنيانا، وليغفر الله لى على ما ارتكبت من ذنب، لكن الجوع كان كافرا، تظاهر أبى حينها أنه يضربنى، وتظاهرت أنا أننى أسقط على الأرض، فى محاولة منا لخداعهم، هكذا كنا نعتقد، لكنهم قالوا إما أن نتعارك بجد حتى يسيل الدم، وإما أن يسجنونا، لا أعرف كيف أحكى لكم البقية، كان أبى يائسا، وضع شيئًا على عينيه وضربنى، تألمت كثيرًا، لكن ليس من قوة اللكمة، ورددت له اللكمة بنفس الطريقة، وبعد دقيقة واحدة كنا نحن الاثنين نتمرمغ فى الأرض، والحرس يفطس من الضحك، وفى لحظة وضعت يدى على وجه أبى فلاحظت أنه مبتل، لكن ليس بالعرق، فجن جنونى، أمسكته من كتفيه ونفضته كما لو كان ألد أعدائى، وهو، من تحتى، كان يسدد لى اللكمات فى صدرى، إلى أين نريد أن نصل ؟، والحرس لا يزالون يضحكون، كانت ليلة مظلمة مثل هذه وكان البرد يكسر العظم تحت اللحم، وكنا فى وسط الحقل، فلم نجد من يرفع أحجارًا، ربما خُلق الرجال من أجل ذلك، وعندما انتبهنا كنا بمفردنا، فقد رحل الحرس، أعتقد لاحتقارهم إيانا، وهذا ما كنا نستحقه، حينئذ شرع أبى فى البكاء وأنا هدأته كما لو كان طفلاً، وأقسمت أننى لن أروى ما حدث لأحد أبدا، لكننى اليوم لا أستطيع أن أغلق فمى، أنا لم آت من أجل قضية الثمانى ساعات والأربعين

اسكودو، بل جئت لأننا يجب أن نفعل شيئًا حتى لا نستمر فى هذه العيشة، مذلولين، جئت لأن الحياة بهذا الشكل ليست عادلة، رجلان يتعاركان، أب وابن، حتى ولو لم يكونا أبًا وابنًا، فيكفى أنهما يتعاركان لتسلية الحرس، الذين لا يكفيهم امتلاكهم للأسلحة ونحن عزل، لن نكون رجالا لو لم ننهض هذه المرة من الأرض، ولو لم يكن من أجلى، فليكن من أجل أبى الذى رحل عن دنيانا ولن يحيا حياة أخرى، إنه عجوز مسكين، أتذكر أننى ضربته، بينما كان الحرس يضحكون، كأنهم سكارى، لو كان هناك إله لظهر فى تلك اللحظة". عندما صمت هذا الصوت نهض الرجال جميعهم، ولم يحدث حوار آخر، وسار كل منهم فى طريقه، بخطى ثابتة مثل خطى الأول من مايو، من أجل الثمانى ساعات والأربعين اسكودو، ومع ذلك، وبعد مرور سنوات طوال، لم يعرف أحد من هذا الذى تعارك مع أبيه . كلما كان الألم عميقًا، لا تحتمل العين رؤيته .

كالنار فى الهشيم، انتشرت هذه الكلمات وكلمات أخرى فى الوسية، لكن ليست حكاية العراك، فهذه لا يصدقها أحد، مع أنها حقيقة محققة، وفى جبل لافرى أيضًا عقدوا اجتماعات توحدوا فيها واتفقوا، فلو كان هناك أفراد جبناء، هناك أيضا شجعان، بحيث عندما جاء الأول من مايو كان كل شىء مقررًا، وأكثرهم جبنا كانوا ينضمون لمن يبدى شجاعة، فى الحروب أيضا يحدث ذلك، كما يشرح من عاشها،

سواء كان شجاعًا أم جبانًا. كان يوما استهلكوا فيه جازا كثيرًا وسولارًا، وكان هواء الربيع مشبعًا بالنسائم، كانت العربات الجيب و العربات البوكس التى تحمل بنادق و أقنعة الحرس تجول فى الطرقات، وكان الحرس يرتدى الأقنعة من خجله مما يفعل، وعندما كانوا يصلون لمكان مأهول، كانوا يتبادلون الأوامر ويسيطرون على الموقف، كيف تسير الأمور فى منطقة سيتوبال، وجنوب ألينتيجو، وشمالها، وفى ريباتيجو، التى هى أيضا وسية، فلنتذكر ذلك. دوريات مسلحة تجوب الشوارع و الحوارى، متشممة مكان الثورة، ومن الأماكن العالية كان يلقون نظرات صقر صياد على البحر الداخلى، فربما يلمحون علم قراصنة أسود أو أحمر، مَنْ سيورط نفسه الآن فى أمر كهذا ؟ لكنها وساوس الحرس، فلا يعرفون التفكير فى شىء آخر، وأقصى ما اكتشفوه كان شيئًا لا يختبىء، رجالا يسيرون الهوين أو يتحدثون فى الميادين، يرتدون أفضل ما لديهم من ثوب، بترقيعات مختاطة بشكل جيد، فنساء الوسية ماهرات فى الرتق، فى وضع الرقعة على مؤخرة البنطلون أو الركبة، فيراهن الواحد يبحث فى سلة الخرق يحاولن استخلاص قصاصة من قطن، بعدها يضعنها على ساق البنطلون الممزق، وبعد استعمال المقص بحرص شديد يسمع الرقع بالخيط، إنه عمل غاية فى الدقة، جالسة أنا على عتبة بيتى، أرتق بناطيل زوجى هذه، فلا يصح أن يمشى عاريًا فى عمله، ويكفينى أن أشعر به هكذا بين الملاءات .

يبدو أن كل هذا لا علاقة له بالأول من مايو والثمانى ساعات، والأربعين اسكودو، هناك من يعتقد ذلك، وهم أناس شاردون لا ينتبهون للعالم، يعتقدون أن العالم هو هذه الكرة التى تدور فى هذا الفراغ، علوم فلك، كان أجدر بهم أن يكونوا عميانًا، فلا شىء له علاقة أوثق بالأول من مايو من هذه الإبرة وهذا الخيط فى يد هذه المرأة التى تسمى جراثيندا المنحوس، حتى يذهب زوجها مانويل السيف مُرقّعا إلى الأول من مايو، عيد العمال. يمر الحرس هناك أمام بابها، فى سيارة جيب حربية، وجراثيندا المنحوس تنادى على ابنتها الوحيدة، ماريا أديلايدا، والطفلة، ابنة السابعة وذات العينان الأكثر زرقة فى الدنيا، تشاهد العرض العسكرى، يبدو مستحيلا ألا ينشط هؤلاء الصبية أمام مقامْ الزى الرسمى، ها هى ماريا أديلايدا بنظرتها الصارمة، لقد رأت فى حياتها الكثير حتى تميز أى حرس هؤلاء وأى زى هذا .

يعود الرجال لبيوتهم بالليل. سينامون نومًا قلقًا، يشبه نوم الجنود فى ليلة المعركة، من يدرى إن كنت سأعود حيًا، الإضراب شىء و التمرد شىء آخر، إنها عادة قديمة، نحن نعرف بماذا يرد الملاك والحرس عادة، بينما يكون هذا تحد كبير، رفض لسلطة ورثها أصحاب الوسايا من أجداد أجدادهم، ستعمل عندى من شروق الشمس لغروبها كل يوم من أيام حياتك، بينما أنا أتلذذ وأتنعم، فيماعدا ذلك افعل ما شئت. الآن لا يضطر أن يصحو مبكرا لا سيجيسموندو

كاناسترو ولا جوان المنحوس، لا أنطونيو المنحوس ولا مانويل السيف، ولا أحد من الرجال الآخرين ولا النساء، فمازالوا مستيقظين حتى هذه الساعة يفكرون فيما سيحدث غدا، إنها ثورة، ثمان ساعات عمل فى الوسية، إنه تحد، إما أن نربح و إما أن نخسر، فى مونتاجريل تقدموا وفازوا، ولن نكون أقل منهم، فى عز الليل نسمع سيارة الحرس الجيب تجوب شوارع جبل لافرى، يريدون أن يرهبونا، لكن ذلك لن يكون .

إنه كلام أفواه أخرى، قاله جيلبيرتو و ألبيرتو، "سيرون"، وكانت لحظة عظيمة فى تاريخ الوسية، حتى أصحاب الوسايا استيقظوا مبكرًا ليشاهدوا ميلاد هذا اليوم، فمن لا يرى ما يخصه يأخذه الشيطان، لقد طلعت الشمس بالخارج ولا تُرى روح واحدة تقترب من العمل، الناظر والمشرف والمدير يقتلهم التوتر، والحقل سلوى للعيون، مايو، مايو المزدهر، ينظر نوربيرتو فى ساعته، السابعة و النصف، ولا أحد جاء، "أتشمم رائحة إضراب، يقول خادم، لكن أدالبيرتو يجيبه غاضبا اسكت، إنه حانق، لديه هدف محدد، كلهم لديهم هدف محدد، يكفى الانتظار. وحينئذ يبدأ الأجراء فى الوصول، معا، فى الساعة التى اختاروها، يلقون عليهم التحية بكل طيبة، فلم الكراهية، وعندما تصل الساعة للثامنة يبدءون فى العمل، هكذا قد قرروا العمل فى هذه الحقول، لكن داجوبيرتو يطلق صرخة توقفوا، فيقفون جميعا بنظرة بريئة . ماذا حدث يا سيدى، هذا الهدوء يستطيع أن

يفقد الرجل صوابه، "من أمركم بالمجىء للعمل فى هذه الساعة، يريد نوربيرتو أن يعرف، وفى هذه المجموعة يتولى مانويل السيف مسئولية الرد لقد قررنا ذلك بأنفسنا، فهناك أماكن يعملون فيها ثمانى ساعات، ونحن لسنا أقل من رفاقنا فى الأراضى الأخرى، فيتجه صوبه بيرتو، كأنه سيضربه، لكن لا، لا يتجرأ لهذا الحد، فى أراضىّ موعد العمل كما كان دائما، ومن أراد أن يعمل فليعلم، من شروق الشمس لغروبها، والآن قرروا، إما أن تبقوا وتعوضوا غدا الوقت الذى ضيعتموه اليوم، وإما أن ترحلوا، فأنا لا أريد أحدا هنا. هذا هو الكلام، ستقول السيدة رحمة عندما يتفاخر زوجها ببطولاته، وبعدها، بعدها أجاب هذا المانويل السيف، زوج بنت جوان المنحوس، والذى كان زعيم المجموعة، قائلا نعم يا سيد، سنرحل، ورحلوا جميعا، وعندما عادوا لجبل لافرى سأل أنطونيو المنحوس والآن، ماذا سنفعل ؟، لا لأنه كان قلقًا أو خائفًا، بل لأنه كان يفتح حوارًا مع صهره، الذى أجاب" الآن نفعل ما اتفقنا عليه، نجتمع فى الميدان، وإذا ظهر الحرس وأراد أن يطلق علينا النار، نتفرق ويذهب كل منا لبيته وغدا نعود للعمل، وفى الثامنة نبدأ فى الحصاد، مثل اليوم، كان هذا نفس الكلام تقريبًا الذى قاله جوان المنحوس فى مجموعة أخرى، وقاله سيجيسموندو كاناسترو فى مجموعة ثالثة، وهكذا تجمعوا كلهم فى الميدان، ورأوا مرور الحرس، وجاء الأونباشى تباكو، أمعنى هذا أنكم لا

تريدون العمل، كلا يا سيد، نريد العمل، لكن نعمل فقط ثمانى ساعات، وصاحب الوسية لا يقبل ذلك، لا توجد حقيقة أكثر حقيقية من هذه، لكن الأونباشى يواصل استجوابه إذًا ليس هذا إضراباً، لا يا سيد، نحن نريد العمل، والمالك هو من أرسلنا للبيت، قال إنه لا يوافق بالساعات الثمانى ، وأمام هذا الجواب الواضح سيقول الأونباشى تباكو بعد ذلك لا أعرف ماذا أفعل سيدى داجوبيرتو، إنهم يقولون إنهم يريدون العمل، وإن حضرتك من...، ولا يصل ليتمم جملته، حيث يقفز داجوبيرتو إنهم مجموعة كسالى، إما أن يعملوا من طلوع الشمس لغروبها وإما أن يموتوا جوعاً، ففى أراضىّ لا يوجد عمل لهم، ولتعلم أن الحكومة لم تصدر أوامر بالعمل ثمانى ساعات فقط، وأننى أنا المالك، وبهذه العبارة انتهى الحوار مع الأونباشى تباكو، وهكذا انتهى اليوم، كل واحد فى بيته، والنساء يردن أن يعرفن ماذا حدث، كما رأينا فى السيدة رحمة، وهو أيضا حق للنساء الأخريات.

يحسبون حساباتهم، اليوم لم يربحوا يومية، كم يوم سيأتى مثل هذا؟، هذا يتوقف على المكان، فهناك مكان يستسلم فيه أصحاب الوسية بعد يومين، وأماكن اخرى بعد ثلاثة أيام، أربعة أيام، وهناك أماكن مرت فيها أسابيع فى هذه اللعبة، لعبة التحقق ممن لديه قوة أكبر وصبر أشد. فى النهاية لم يذهب الرجال للعمل ليروا إن كانوا سيوافقون بشروطهم هذه، بقوا فى قراهم، هذا الآن يعد إضرابًا، وعندما يزيد الأمر

عن حده، ينقلب ضده، فيعود الحرس لعادة الضرب، ومن أقصى الوسية لأقصاها سارت جرافات الحرب، والأمر لا يستحق تكراره، فلا يوجد من لا يعرفه. قاوم فى حصونهم داجوبيرتو وألبيرتو، هومبيرتو وبيرتو آخر، لكن رويدا رويدا ذاب الحلف المقدس ومن أماكن أخرى جاءت أخبار الخضوع، ماذ سنفعل، فلنتركهم يتجولوا فلن يتلف الحصاد بالتأخير، أعرف جيدا يا أب أجاميديس أن أفكار الانتقام ليست مسيحية، وبعد ذلك سأتوب. الأمر ليس كذلك بالضبط يا سيدى ألبيرتو، فقد ذكر فى سفر التثنية: الانتقام لى، الأب أجاميديس هذا شعلة من الحكمة، كيف يكون ممكنا أن يحفظ عن ظهر قلب من كتاب ضخم مثل الكتاب المقدس مقطعا بهذه الدقة، لسنا فى حاجة لتبرير.

هنا فى جبل لافرى، أنقذهم من الموت أصحاب المتاجر الذين يبيعون لهم بالآجل، ويحدث ذلك أيضاً فى أماكن أخرى، لكننا قد روينا تفاصيل ذلك فى هذه القصة، جوان المنحوس يتجول فى الشوارع محتملاً الإحساس بالخزى من ديونه التى لا يستطيع سدادها، تصحبه زوجته فاوستينا التى تبكى من البؤس والحزن الممزق، والآن هو من يذهب من محل لمحل ليلقى رسالته، وعندما يساء استقباله، يتصنع كأنه لم ينتبه، لقد عودته المعاناة على الخشونة، والحاجة التى يحملها على كاهله ليست حاجته وحده، يا سيدة جرانيزا، العمال يقاتلون من أجل ثمانى ساعات عمل والمُلاّك لا يريدون أن يتنازلوا، لهذا نحن فى إضراب،

وجئت لأطلب منك أن تصبرى ثلاثة أو أربعة أسابيع، فمجرد أن نعود للعمل سنبدأ فى السداد، فلن يبقى أحد عليه دين، وهذا معروف أطلبه منك"، وصاحبة هذا المحل، وهى امرأة طويلة ذات عينان عسليتان ونظرة غامقة، تضع يديها فوق البنك وتجيبه، بأدب شابة، سيدى جوان المنحوس، من العدل كما أصبر أنا أن يتذكروننى يومًا، بيتى مفتوح لك، وهذه الكلمات المختصة بالعِرافة تروق كثيرا لهذه المرأة، التى لها مناجاة صوفية وسياسية مع الأبرشيين وتروى حكايات وأحداث عن شفاءات إعجازية وكرامات، ففى الوسية تجد كل شىء، لا فى المدن وحدها. مشى جوان المنحوس يعانق الخبر السعيد، وفتحت ماريا جرانيزا دفترا جديدا للمديونين، ليتهم يسددون لها جميعا، كما يستدينون منها مرتين .

تصحو الطيور عند الفجر فلا ترى أحدا يعمل. أرى الدنيا وقد تغير حالها، يقول العلعل، لكن الحدأة، التى تطير عاليا وبتأن، تصيح أن الدنيا قد تغيرت كثيرا أكثر مما يظن العلعل، وليس فقط لكى يعمل الرجال ثمانى ساعات بالضبط، وإنما لأنهم تعلموا من النمل الذى رأوه كثيرًا وله ذاكرة قوية، لا ينبغى أن يدهشنا هذا، فالنمل يسير دائما متحدًا. ما رأيك فى هذا سيدى القس أجاميديس؟ لا أعرف ماذا أقول لك يا سيدة رحمة، سلامًا على الدنيا، التى يسوء حالها يوما بعد يوم .

يلزم جوان المنحوس فراشه. سيكون اليوم يوم وفاته . هذه الأمراض التى تصيب هؤلاء الفقراء المساكين غالبًا ما يصعب تعريفها، فيصعب على الأطباء بالتالى كتابة شهادة وفاة، فيستسهلون، فالفقراء يموتون بشكل عام من ألم ما، من ورم ما، وكيف يمكن ترجمة هذا فى مفاهيم واضحة ذات تصنيف مرضى، لم ينفعهم فى شىء قضاء سنوات طوال فى الكلية. قضى جوان المنحوس شهرين فى مستشفى مونتيمور، ولم ينفعه ذلك كثيرا، رغم أنه لم يفتقر لعناية، فهناك نجاة مستحيلة، لذا أحضروه ليموت فى بيته، وهى ليست موتة مختلفة، لكن الموت فى البيت تصحبه سكينة أخرى، فرائحة سريره، وأصوات العابرين فى الشارع، وجلبة قفص الدجاج عندما تستريح الدجاجات على حافته ليلاً ويرجف الديك جناحيه بشدة، كلها أشياء ربما يشتاق إليها فى العالم الآخر. عانى جوان المنحوس ما عاناه فى المستشفى، قضى الليالى ساهدا، مستمعا للتنهيدات والأنات، وكل أحزان غرفة المرضى، وكان يصالحه

النوم فقط مع دخول الفجر. هو الآن لا ينام أفضل من المستشفى، لكنه فقط يعانى ألمه وحده، إنها مسألة سيتم حلها بمناجاة الجسد والروح التى مازالت تحتمل، بدون أى شهود سوى عائلته، وحتى هؤلاء لن يستطيعوا فهم شىء، وستصلهم ساعتهم بالفعل، ولن يستبقوا ما كان بذله أنفع، من معرفة ما يعنى أن يكون الرجل وحيدًا لحظة موته، ومعرفة، بدون أن يخبرهم أحد، أن اليوم يوم وفاته. إنها يقينات تعبر بالذهن عندما يصحو الواحد مبكرًا جدًا ويتطرق لسمعه صوت المطر، يسيل على الحواف مثل خيوط نافورة، فى صغرنا كنا نصعد على عارضة الباب الداخلية، وبينما كنا نطل من فتحة الباب، نمد يدنا للماء المتساقط، هكذا فعل جوان المنحوس وآخرون لم يفعلوا. تنام فاوستينا فوق كنبة، أصرت على ذلك حتى يأخذ زوجها راحته فى السرير الكبير، ولا خطورة من أن تنسى هذه المرأة واجباتها، فكل ليلة، عندما تشعل ضوء البيت الخافت أو لمبة الزيت، يرى عينيها تلمعان، ربما لأنها صماء تلمع عيناها كثيرا، إنها تعويضات. لكن لو غلبها النوم ولم يستطع جوان المنحوس أن يحتمل ألمه وحده، هنا يأتى دور الدوبارة التى تربط رسغ الرجل الأيمن برسغ المرأة الأيسر، فلن يفترقا الآن، بعد أن صارا عجوزين، وبأقل شدة تخرج فاوستينا من سباتها الخفيف، فتنهض بثوبها وتقترب من سريره، وفى صمت صممها العميق تمسك يد زوجها، وكأن ليس بوسعها أن تفعل شيئا آخر تحدثه

بحنان، هذا الحنان الذى لا يستطيع كثيرون أن يتباهوا به .

اليوم ليس يوم أحد، لكن بهذا المطر، والحقول الغارقة، لن يستطيع أحد أن يذهب للعملَ. سيحيط بجوان المنحوس عائلته بأكملها، وهى ليست عائلة كبيرة، فلا يصح أن نعد هؤلاء الذين يعيشون بعيدًا ولن يستطيعوا المجىء، أخته ماريا دى لا كونثيبثيون، التى مازالت تخدم فى لشبونة، دائما مع نفس السادة، أيوجد إخلاص مثل هذا، تسلم لهم الذهب فيجدونه كاملا وربما يزيد، وأخوه أنسيلمو، الذى منذ ذهب ليعيش فى الشمال لم يعرفوا أخبارًا عنه، ربما مات، إن كان جوالا، مثل دومينجو فى سنة من تلك السنوات، مَنْ يتذكره، مَنْ اشتاق إليه . هناك بعض الحيوات أكثر شحوبا من أخرى، لكن هذا يرجع لانشغالنا بأمور كثيرة، وفى النهاية لا نركز فيها ويأتى يوم يداهمنا فيه الندم، شرًا ما فعلت، كان يجب أن تعيرها اهتمامًا أكبر، حقًا، يا ليت ذلك قد خطر ببالى من قبل"، إنها تأنيبات تأتى وتُنسى فى الحال، حمدا لله. لن تأتى أيضا ابنته أميليا، وكلنا نعرف أنها تخدم منذ صغرها فى إحدى بيوت مونتيمور، ويكفيها حظا أنها استطاعت أن تزوره فى المستشفى، وهكذا شعر معها بالصحبة، والحمد لله أنها استطاعت أن تدخر لتركب طقم أسنان صناعية، فهذا كان حلمها، لكن الابتسامة لم تتخطاها بعد. سيتغيب أيضًا أصدقاء له، الصديق توماس السيف، الذى تألم كثيرًا

بعد موت زوجته فلور مارتينيا، ولم يره أحد أبدا بدوبارة تربط رسغهما، فهناك أشياء لا تُرى لكنها توجد، وربما لا يعرف أصحابها شرحها، وسيأتى سيجيسموندو كاناسترو، أكبرهم سنا، وجوانا كاناسترو ستساعد فيما ينبغى المساعدة، فتعاون فاوستينا، يعرفان بعضهما من زمن طويل لا يمكن تحديده، تجلسان وتتبادلان النظر، بلا بكاء، فاوستينا لأنها لا تستطيع وجوانا لأنها لم تبك أبدا، إنها أسرار الحياة، مَنْ يستطيع أن يقول لنا السبب فى عجز واحدة عن البكاء وعدم معرفة الأخرى للبكاء .

سيحضر أيضًا أنطونيو المنحوس، ابنى، الذى ينهض الآن ويأتى حافيًا. كيف حالك يا أبى ؟، وأنا، من أعرف أن اليوم تأتى ساعتى، أجيبه، بخير، من يدرى إن كان سيصدقنى، يجلس على قدميه ساندا كوعيه على عمود السرير، ينظر لى، لا لم يصدقنى، لا أحد يقنع أحدًا بشىء إن لم يكن مقتنعًا، من رأى هذا الشاب ومن يراه الآن، مازال بعيدًا عن الخمسين بكثير ورغم ذلك قضت عليه فرنسا، كل شىء يقضى علينا، هذا الألم، هذه الوخزة، أو ربما لا تكون الوخزة، بل الألم الكامن تحتها، لا أعرف كيف أشرح ذلك. سيأتى أيضًا مانويل السيف، زوج ابنتى، وستأتى جراثيندا ابنتى، سيقبعان هنا كلاهما بجانب السرير، سريرى هذا الذى سيأتى من يسحبنى منه اليوم، ربما يكونان رجلين، أشد قوة منى، لكن سيغسلنى النساء، فتغسيل الميت عملهن عادة، كم تفعل النساء من أشياء! وما

يسلينى أننى لن أسمعهم يبكون. ستأتى أيضا حفيدتى ماريا أديلايدا، ذات العينان الزرقاوان مثلى، لا، هذه ليست حقيقة، لماذا أتباهى، فعيناى مثل طفيتى سجائر مقارنة بعينيها، ربما عندما كنت شابًا، عندما كنت أتجول برقصاتى و أعشق فاوستينا، عندما خطفتها من بيت أبويها، حينئذ لابد أنهما كانتا زرقاوين مثل هاتين العينين التى دخلت صاحبتهما فى الحال، فلتحل البركة عليك يا جدى، كيف حالك، اتحسنت، وأنا أقوم بإيماءة بيدى، فهذا هو ما تبقى من البركة، لم يعد أحد يؤمن بها، لكنها العادة، وأجيبها بأننى بخير، وأعيد النظر إليها لأراها بشكل افضل، آى، يا ماريا أديلايدا، يا حفيدتى، كم يروق لى النظر إليك، لا أقول ذلك بل يعبر برأسى، تضع حجاباً على رأسها وترتدى معطفاً منقطاً، وتنورتها مبللة، فقليلا ما نفعتها المظلة، وفجأة تنتابنى رغبة عارمة فى البكاء، فأخذت ماريا أديلايدا يدى، فبدا لى أننا قد بدلنا عيوننا، يالها من فكرة مجنونة، لكن الرجل الذى يموت قد يخطر بباله كل أفكار الدنيا، وهو محق، فلن يكون لديه أيام أخرى ليصنع أفكاراً أخرى أو يعيد القديمة، ففى أية ساعة سأموت. والآن تقترب فاوستينا بكوب لبن، ستسقينى إياه بالملعقة، اليوم سيان بالنسبة لى أن أبقى جائعا، لأرحل خفيفًا، شخص آخر سيشربه، أود لو تكون حفيدتى، لكنى لا أستطيع أن أطلب منها ذلك، ستغضب فاوستينا وأنا لا أريد أن أسبب لها هذا الحزن فى يومى الأخير، مَنْ

سيواسيها من بعدى عندما تقول آه، زوجى المسكين، حتى اللبن لم أسقه لك يوم موتك، لدرجة أن الجدة قد تكره حفيدتها ما تبقى من حياتها، ربما تتمكن من إعطائى الدواء بعد قليل، كما قال الطبيب، بعد الأكل بنصف ساعة، برغبات مستحيلة، ستخرج ماريا أديلايدا، جاءت فقط لتطمئن على حالتى، وأنا بخير، وسيأتى أبوها وأمها، والآن تخرج، فمازالت صغيرة على هذه المشاهد، فلديها ستة عشر عاما وعينان زرقاوان مثلى، أعتقد أننى قلت ذلك من قبل .

يفيق جوان المنحوس من غفوته التى غاص فيها بعد أن تناول الدواء، وكان هذا من حظه، فقد عاش فى راحة مطولة من الألم حيث للعلاج تأثير السحر، لكن الألم يعاوده من جديد، فيفيق بأنين، كما لو غرزوا فى جانبه مسماراً، وعندما يسترد بصيرته كاملة يرى أنه محاط بناسه، فلا تسع الغرفة أكثر من ذلك، تميل ناحيته فاوستينا وجراثيندا، وأميليا أيضا التى جاءت مؤخرا، كانت أناته هى التى استدعتهن، أما جوانا كاناسترو فكانت بعيدة، حيث إنها ليست من العائلة، بينما الرجال يقفون بعيدا فلم يأت وقتهم بعد، فيقفون بجانب الباب المطل على فناء البيت، مانعين دخول الضوء، وهم سيجيسموندو كاناسترو، ومانويل السيف، وأنطونيو المنحوس .

لو كان لدى جوان المنحوس أى شك، فقد انتهى اليوم، والجميع يعرفون أن اليوم يوم وفاته، لابد أن بعضهم خمن ذلك، بعدها صرحوا به، لكن إذا كان

الأمر هكذا لن يسمعون أنينى، هذا هو ما ظنه جوان المنحوس، وجز على أسنانه، إنها مجرد مقولة، فأين هى الأسنان، قليلة منها أعلى وقليلة منها أسفل، هذه ما تبقت، وغير متناسقة فلا يمكن معها الجز، فيكون الضغط على اللثة، آه يا شيخوخة، ومع ذلك هذا الرجل لم يبلغ سوى السبعة والستين عاما، ليس شابًا بالطبع، فزمن الشباب ولى، لكن يسير هناك آخرون أكبر منه عمراً وأفضل منه صحة، إنهم هؤلاء الذين يعيشون بعيدا عن الوسية. فى النهاية، القضية ليست أن لديه أسنانا أم فقدها، ليس هذا هو الأمر المهم، الأمر المهم هو قطع الأنين عند مولده، إيقاف الألم عن النمو، لكن لا يمكن تجنب ذلك، سوى بكتم صوته، بإخراسه، كما أخرسوه من عشرين عام، عندما ساقوه للسجن وأجبروه على القيام بدور التمثال، عندما قتله ألم الكليتين، عندما ضربوه دون أن ينظروا أين، يتصبب العرق من جبهته، تنقبض كل أعضائه، ذراعاه نعم، لكن ساقيه، لا يشعر بهما جوان المنحوس، فى البداية يظن أنه لم يستيقظ كلية، لكنه بعد ذلك يعرف أنه مدرك، يريد أن يحرك قدميه، على الأقل قدميه، لكن قدميه لا تتحركان، يريد أن يثنى ركبتيه، هباء، ولا أحد يتوقع ما يحدث تحت الملاءة والبطانية، إنه الموت، رقد بجانبى ولم يوجد من يراه، نعتقد أنه يدخل من الباب أو من الشباك وفى النهاية استقر بجانبى، منذ متى؟ كم الساعة، إنه سؤال متكرر وله دوما إجابة، معرفة الساعة، تشرد الناس مفكرة فى

الوقت الذى مازال يتبقى أو الوقت الذى مضى، وعندما يقال لهم كم الساعة، لا أحد يفكر فى أكثر من هذا، إنها ليست سوى كسر أى شىء أو تحريك أى شىء كان ساكنا، ليس هناك وقت الآن لنعرفه، فقد جاءت الساعة المنتظرة . ينظر جوان المنحوس بشرود، يوجد حوله أقاربه الأقربون وأصدقاؤه ، ثلاثة رجال وأربع نسوة، فاوستينا بالدوبارة المربوطة فى رسغها، جراثيندا التى شاهدت الموت فى مونتيمور، أميليا الخاضعة دائما، جوانا المرأة الصلبة، سيجيسموندو الرفيق، مانويل ذو الوجه الصارم، أنطونيو ابنه، آه يا بنى، وهؤلاء هم من أرحل عنهم، أين حفيدتى، فترد جراثيندا، بصوت يغلفه الدموع، ذهبت للبيت لتحضر بعض الثياب، لقد خطرت فكرة إبعادها على رأس أحد، فمازالت صغيرة على هذا المشهد، ويشعر جوان المنحوس براحة كبرى، فبذلك مازال الخطر بعيدا، فأسوأ شىء أن يجتمعوا جميعا هنا، فلن يموت فى غياب الحفيدة، لن يموت حتى يجتمعوا جميعا هنا، يا ليتهم يعرفون ذلك، ليبقى أحدهم دائما بالخارج، الأمر غاية فى البساطة .

يغرز جوان المنحوس كوعيه فى المرتبة التبنية، يسحب بدنه لأعلى، يساعدونه، هو الوحيد الذى يعرف أنه بدون مساعدتهم لن يحرك ساقيه، لديه يقين أنه متكئ سيشعر براحة، ستخف عنه ضيقة النفس التى واتته فجأة، هو لم يشعربخوف، فهو يعرف أنه لن يقع له مكروه فى غياب الحفيدة، وربما

يخطر فى بال أحد الموجودين الخروج، سنرى هل ستصفى السماء، القيظ خانق فى هذه الغرفة، افتحوا هذا الشباك، إنه الشباك المطل على فناء البيت، مازال المطر ينهمر، فقط فى الروايات تصفى السماء فى مناسبات كهذه، إنه نور أبيض هذا الذى يدخل، وفجأة يتوقف جوان المنحوس عن رؤيته، ولا هو نفسه يعرف كيف .

تعمل ماريا أديلايدا بعيدًا، صوب بيجويس. بين بيتها وعملها مسافة كبيرة، أكثر من ثلاثين كيلومترًا، ويكفى النظر للخريطة، لذا لا تستطيع الإياب منه، إنه عمل شاق، قولوا ذلك لمن لم يطأوا بأقدامهم مزرعة عنب ولا قبضوا بأيديهم على فأس، آن أوان الحفر. وهذا العمل لا ينتهى فى ستة أيام، فماريا أديلايدا هنا منذ ثلاثة أشهر، وفى أحوال مثل هذه، لا يتغير لون العين . تعود للبيت مرة كل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، يوم أحد، وحينها تستريح فى البيت كما تستريح النساء فى الوسية، ثم تعود لمزرعة العنب والفأس، تحت أنظار بعض الجيران الذى يعملون فى نفس العمل، وهو ما يسبب راحة دائمة لأبويها، فأمام اندفاع ابنته الوحيدة كيف لا يساوره الريب، وخاصة عندما يكون فى جبل لافرى، تلك الأرض التى تغطيها الشكوك فى مسائل الخطبة، فلا يصح أن يروا شابًا يتحدث مع فتاة، ولو لم تكن ماريا هذه، أو أورورا تلك، شرسة مثل الحيوانات المتوحشة، ولو كانت تتحدث مع الأولاد بشكل طبيعى، فتضحك معهم حينما يتحتم

الضحك، يا ويلها، فهذا عار وجنون. الشىء الوحيد الذى فعلاه، تحت ضوء النهار وفى وسط الشارع، هو حديثهما المتبادل لمدة دقيقتين. من يدرى ماذا يدبران، هكذا تهمس السيدات العجائز والأقل عجزًا، وعندما يصل الكلام لآذان الآباء و الأمهات يبدأ التوبيخ، من كان هذا، ماذا كنتما تقولان، لقد حذرتك، يقولون ذلك رغم أن قصص غرامهم الخاصة كانت جميلة، مثل قصة مانويل السيف وجراثيندا المنحوس، والتى لم نحكها كما تستحق. الآباء يتمتعون بهذه النقيصة، نقيصة النسيان السريع لكل شىء، والعادات تتغير بتأن. ماريا أديلايدا تبلغ بالكاد التاسعة عشرة وحتى الآن لم تنعم بعمل، رغم أنها تعمل أعمالا شاقة بالفأس فى مزرعة عنب، ليس هناك طريق آخر، فالنساء لم يخلقن ليكن أميرات، كما برهنا على ذلك فى هذه القصة .

كل الأيام متساوية لكنها غير متشابهة. وفى منتصف الظهيرة تصل للمزرعة أخبار تبث القلق بين العاملين، لا أحد متيقن مما حدث، يقولون إن هناك شيئا حدث مع العسكريين فى لشبونة، سمعت ذلك فى الراديو، لو كان الأمر كذلك كان ينبغى معرفة الخبر بأكمله، قد يكون خطأ تصديق أن فى مزرعة كروم بعيدة عن جهنم بسبعة أشبار من الممكن أن تجد الأحداث شرحًا كافيًا، فالناس هناك لا يحفرون بالراديو فى رقابهم كما لو كان جرسًا صغيرًا أو جُلجُلا، أو يضعونه فى جيوبهم، فيصير جسدًا متحدثًا

ومغنيًا، فكل هذا عبث غير مسموح به، الشخص الذى قال خبر الراديو كان عابرًا وأخبر به رئيس العمل، ومن هنا جاءت البلبلة . وفى غمضة عين اختل إيقاع العمل، وصار إيقاع الفأس لهواً مخزياً، وماريا أديلايدا ليست أقل من الآخرين، فهى تُلمّع أذنيها وتستمع بفضول، فتبدو مثل أرنب يرى رأى جريدة، كما قد يقول خالها أنطونيو المنحوس، ماذا جرى، ماذا حدث، لكن رئيس العمل ليس موجودًا هنا ليمثل دور بشير الملك، ولا يتقاضى راتبه عن ذلك، بل عن مراقبة العمال وفرض النظام على الجموع . ماذا يا هؤلاء، هيا لتعملوا، وبما أننا ليست لدينا أخبار أخرى، عودوا للفأس واحفروا، ومن ينتبه لهذه الأحداث يتذكر داخل نفسه أنه منذ شهر خرجت قوات من مدينة كالداس دا راينيا للشارع، وفى النهاية لم يحدث شىء. استمرت الظهيرة وانتهت، ولو وصلت أخبار جديدة ما قوبلت بتصديق. فى هذا المكان من الوسية، البعيد جدا عن كارمو دى لشبونة، لم يسمع الناس رصاصة ولا يسير الناس صارخين فى البوادى، لم يكن من اليسير فهم ما تعنيه كلمة ثورة ولا كيف تنشب، ولو بدأنا بشروح الكلمة فأغلب الظن أن أحدا سيسأل، بانطباع من لا يصدق، آه، هذه ثورة .

وبالرغم من كل شىء، سقطت تلك الحكومة. وعندما تجتمع المجموعة فى الثكنة، ثكنة المأوى والمسكن المدنى، لا ثكنة العسكريين، يكون الجميع مطلعًا على الأحداث أكثر مما كانوا يتخيلون، فأصبح

لديهم الآن على الأقل راديو صغير، من هذا الذى يعمل ببطارية ويتحدث بصوت مشروخ، ويصدر صريرا، وعلى بعد شبرين لا يستطيع أحد أن يسمع شيئا، لكن لا توجد مشكلة، فما يسمعونه يفهمون منه ما لا يسمعونه، وحينئذ انتشرت الحمى، وساروا جميعهم متوترين، يتحدثون كثيرا، وماذا سنفعل الآن، إنها اضطرابات كبرى وأشواق مَنْ خلف الكواليس يعد نفسه ليدخل خشبة المسرح، وإن كان حقًا أن هناك مسرورين، فحقًا أيضًا أن هناك حزناء، لا يعرفون فيما يفكرون، ولو بدا ذلك غريبًا لأحد، فليتخيل الوسية التى بقت بلا صوت ولا صواب وبعدها فليرو لى. دخل الليل، وفى النهاية شرحوا ما جرى، دائمًا ما نجد شرحًا، إنه مجرد قول، فعادة نعرف ما وقع بعد وقوعه، ولا نعرفه بمجرد الشروع فيه، هذه هى القضية. حينئذ قرر هؤلاء الجيران الذين كانوا برفقة ماريا أديلايدا، وهم زوج وزوجة وابنة، أصغر من ما ريا، وكانوا يدعون عائلة جيرالدو، قرروا العودة فى اليوم التالى لجبل لافرى، وعلينا أن نقول إنها نزوة إن لم نقبل أسبابهم الوجيهة، كانوا يريدون البقاء فى البيت، سيخسرون أجرة يومين أو ثلاث، لكنهم سيطلعون على الأخبار بشكل أفضل، فمزرعة العنب كأنها صحراء، سألتها عائلة جيرالدو إن كانت تريد العودة معهم، فقد كانت تحت مسئوليتهم، سيحب أبوك ذلك، قالوا ذلك بلا أى قصد آخر، فالشىء الوحيد الذى يعرفونه يقينا عن مانويل السيف أنه

رجل طيب ويحب العمل، وبالنسبة للشكوك الأخرى، فهى شكوك طبيعية تحدث فى القرى الصغيرة، حيث عادة ما يخمنون ما لا يعرفون. هناك آخرون قرروا العودة لأراضيهم، ربما يذهبون ويرجعون، وآخرون كثيرون رحلوا وتحتم على المشرف التخلى عنهم، ما الحل! أسوأ ما فى الأمر أنه فى وسط الأخبار بحّ الراديو فجأة، سعال فظيع لم يسمح للمستمعين بفهم الكلام، اليوم بالذات كان يجب أن ينال منه الخراب. خلال هذه الليلة بطولها قامت الثكنة بتخيل الجزيرة المفقودة فى بحر الوسية هذا، ببلد يحيط بها ولا يريد أن يذهب للسرير، مكدسًا الأخبار والإشاعات، الإشاعات والأخبار، كما يحدث عادة فى أحوال مشابهة، وليس أمامهم سوى انتظار ما يجود به الجهاز الخرب، ذهب كل إلى حصيرته، ونام منهم من استطاع .

فى الصباح الباكر خرج المسافرون للطريق، الواقع على بعد فرسخ من هناك، راجين من القوى السماوية أن تقرر مرور أوتوبيس خط خال من الركاب، وعندما هل الأوتوبيس وجدوه خاليًا، لاحظ ذلك المعتادون على ركوبه من غياب الرءوس المتكدسة فيه ومن بهجة السائق التى لا شرح لها. هذا هو الأوتوبيس المتجه لفينداس نوفاس، تركبه فقط عائلة جيرالدو وبصحبتهم ماريا أديلايدا، ولم يرغب أن يصعد اثنان أو ثلاثة من جبل لافرى أيضًا، ربما لأنهم لا يطلقون الصواريخ أو لأنهم لا يريدون الالتزام بشىء

أو بسبب النقود، فقد يكونوا فى حاجة إليها أكثر من الآخرين. وبقى على الطريق من كان لهم قبلة مختلفة، ولم نعرف ماذا حدث لهم، ولا عن الخير الذى كانوا ينتظرونه وهل نالوه. كانت السيارات على الطريق معدودة، فصارت الرحلة سريعة، وتضاءل فى الأتوبيس كل قلق وجزع، فهناك إجماع بين المحصل والسائق والركاب، لقد سقطت الحكومة، وانتهى توماس وانتهى مارسيلو، والآن، مَنْ يحكم؟ هنا بدأ الاختلاف العام، فلا أحد يعرف يقينا، هناك من يتحدث عن جمعية، لكن الآخرين يراودهم الشك، فجمعية ليست اسما لحكومة، جمعية قد تكون فى الأبريشية أو من أجل منتجات المواشى، أو من أجل القمح، لابد أن هناك خطأ ما هنا. يدخل الأوتوبيس فينداس نوفاس، يبدو أنه يوم إجازة لازدحام الناس، فتضطر آلة التنبيه أن تصرخ بأعلى صوتها لتفتح طريقا للأوتوبيس فى الشارع الضيق، وعندما ندخل الميدان فى النهاية، لا نعرف لماذا، نرى القوات بزيها العسكرى، وتبث الخوف فى الجميع، وماريا أديلايدا، لأنها شابة وتتصرف كمن فى سنها ووضعها، كما لو قطعوا لها ساقيها، تنظر من نافذة الأوتوبيس للجنود الواقفين أمام الثكنة، وللمدافع المغطاة بغصون شجر الأوكاليبتوس، وآل جيرالدو يقولون ماذا، ألا تأتين، كانت كمن عاشت دائما بعينين مغمضتين والآن، أخيرًا، تفتحهما، فى البداية عليها أن تعرف ما هو الضوء، إنها أمور يسهل دائما الشعور بها ويصعب

شرحها، والدليل أنها عندما تصل لجبل لافرى وتعانق أباها ستكتشف أنه كان يعرف كل شىء عن حياتها، رغم أنهم لا يتحدثون فى البيت سوى أنصاف كلمات ملثمة، أين أبى، اضطر للسفر بعيدا لبعض المسائل، ولن يعود الليلة للبيت، وعند عودته لا تتجرأ أن تسأله عن هذه المسائل، أولا لأن البنات لا يسألن آباءهن، ثانيًا لأن للحوائط آذان وعندما تكون الأسرار لا تخص البيت فمن الأفضل الاحتفاظ بها خارجه. يريد الراوى أن يروى أحداثًا أثناء حدوثها ولا يستطيع، فمثلا، ماريا أديلايدا جالسة الآن فى كرسيها بالأتوبيس، تبدو دائخة، وفجأة نجدها فى الميدان، كانت أول من خرج، إنه الشباب. ورغم أنها تذهب مع آل جيرالدو إلا أنها لا تعيش تحت أجنحتهم، فهى مالكة حريتها فتستطيع أن تعبر الشارع وتقترب لترى الجنود عن قرب، وتحييهم بإيماءة، وينتبه لها الجنود، ويحتوون على توتر من يرد بالسلاح وقد يضطر ليرد على التحية بنفس السلاح، وبانتهاء المعركة وتحقيق النصر واستتباب الأمن، يرد الجيش تحيتها، خاصة أنهم لا يرون كل يوم عيونا بهذه الزرقة .

أثناء ذلك ذهب جيرالدو الأب ليستأجر وسيلة مواصلات لجبل لافرى، وهو مسعى شديد الصعوبة فى الأيام الأخرى، لكن اليوم، من يستطيع أن يقول إنها كانت صعبة دوماً؟ فنحن فى أرض أصدقاء حميمين، هنا يجدوا عربة صغيرة، يسيرون ملتصقى الأبدان، لكن من يفكر فى هذه المضايقات الطفيفة،

فهذه قرية اعتاد أهلها على النوم فوق دكة ووسادتهم مقبض محراث، والأجرة ستكون ثمن السولار، أو حتى ولا هذا، اقبل بكوب، أقبل حتى لا تحتقرنى، بعدها لو شرعت ماريا أديلايدا فى البكاء لا تندهشوا، ستبكى هذه الليلة عندما تسمع فى الراديو مقولة " فلتحيا البرتغال، ربما تبكى فى هذه اللحظة، وربما تكون قد بدأت بكاءها مع أخبار الأمس الأولى، أو عندما عبرت الشارع لترى الجنود عن قرب، أو عندما ردوا على تحيتها، أو عندما عانقت أباها، ولا حتى هى تعرف متى شرعت فى البكاء تحديدًا، ستنتبه إلى أن الحياة تغيرت وربما تكون هى من قالت: كم كنت أتمنى أن يكون جدى. . .، وتعجز عن إتمام عبارتها، إنه اليأس الذى لا علاج له .

لكن لا نظن أن كل الوسية تغنى مديحاً للثورة. ولنتذكر ما قاله الراوى عن البحر المتوسط وأسماكه البراكودة والأسماك الأخرى الخطيرة، ولنتذكر أيضًا السمك المرتدى زى الراهب وانكبابه المعتاد على العبادة . كل عائلة لامبيرتو هوركيس مجتمعة فى البلاط الملكى، أو جالسة حول موائدها المستديرة، بجبين مقطب، ونظرات مخيفة، وأقلهم عدوانية يطلق عبارات يعلوها الشك والحيطة، نعم، مع ذلك، لا يزال، مع كل، ربما، وهذا هو أعظم إجماع فى الوسية، ما رأيك يا أب أجاميديس؟ "، هذا سؤال عادة ما جاء مصحوبًا بجواب، ودائما الجواب يناسب الجميع، فحيطة الكنيسة لا نهاية لها، فالأب أجاميديس، لكونه

عبد الله الفقير المرسل للوسية لتنصير الأرواح، ولأنه يعرف كثيرًا عن الحيطة و الكنيسة، يقول" هذه الدنيا ليست مملكتنا. إعطوا ما لقيصر لقيصر و ما لله لله. لقد خرج الزارع للحقل، فعندما يكون الأمر مشتبهًا فيه يخرج الأب أجاميديس كما الشعرة من العجين، يتحدث بالأمثال، فقط ليكسب الوقت حتى تأتى الأوامر من الأسقف، لكن يمكن أن نحكى عنه. من لا يمكن أن نحكى عنه، لسوء الحظ، هو لياندرو لياندرس، المتوفى من عام مضى، مات فى سريره وقُدِس فيه، كما يليق به، وعن خلفائه الكثيرين وشركائه وإخوانه أو رؤسائه نعرف أنهم هربوا، ومن لم يهرب اعتقلوه فى البلد بأسره، وفى لشبونة حدثت مقاومة بالرصاص قبل استسلامهم، حصدت أرواح، وسنرى الآن ما سيفعلونه فى هؤلاء. عن الحرس أيضا نعرف القليل اليقينى، إن لم يُحتفظ به فى طى الكتمان، وبطريقة لائقة وفى انتظار الأوامر، ذهب الأونباشى تباكو إلى بيت نوربيرتو ليقول نفس الشىء، بخجل، ومتقهقهرًا كما لو كان عاريًا، وعندما خرج، خرج بنفس الطريقة التى دخل بها، بعينين مغروزتين فى الأرض، باحثًا عن الوجه الذى سيرتديه عندما يعبر جبل لافرى، أمام هؤلاء الرجال الذين ينظرون له ويتابعونه من بعيد، ليس لأنه خائف، فأمباشى الحرس الجمهورى لا يشعر أبدًا بالخوف، بل لأن هواء الوسية صار فجأة لا يمكن تنفسه، يبدو أن عاصفة ستهب .

وحينئذ يبدأ الحديث عن الأول من مايو، إنه حوار يتكرر كل عام، لكنه الآن غبطة عامة، والناس تتذكر أنهم حتى العام الماضى كانوا يمشون مختبئين من هنا ليتفقوا وينظموا، وكانوا يعودون اضطراريًا إلى البداية باستمرار، فيتصلون بمن هم أهل ثقة، ويحمسون المترددين، ويهدئون من فزع الخائفين، وحتى الآن هناك من لا يصدق أن عيد الأول من مايو يمكن الاحتفال به علانية كما تقول الجرائد، كلما تكون الصدقة كبيرة يرتاب فيها حتى الفقير. لكن هذه ليست صدقة، يقول سيجيسموندو كاناسترو ومانويل السيف، وتُفرد جريدة من لشبونة، إنه هنا مكتوب، سيمكن الاحتفال بالأول من مايو بكل حرية، حيث إنه يوم عيد فى البلد بأسره. وماذا عن الحرس؟، يلح أصحاب الذاكرة القوية،" الحرس هذه المرة سيظل يتفرج علينا ونحن نمر، من كان يصدق أن ذلك سيحدث ذات يوم، الحرس ساكن وصامت، بينما أنت تصيح فليحيا الأول من مايو . .

ولأننا نضع فوق المسموح لنا به ما نتخيله دائما، وإلا ما كنا رجالا نستحق أكل الخبز، بدأوا فى قول إن على الجميع أن يفرد مفارش الأسرّة فى النافذة، ويضع زهورًا، كما لو كان يوم خروج رب الخطوات إلى الميدان، وبعد قليل كنسوا الشوارع ودهنوا الواجهات بالجير، ما أسهل الصعود على سلالم الفرحة. مع ذلك، كل الدراما الإنسانية هكذا، قد تكون مبالغة تسميتها دراما، لأنها بلا شك ارتباكات، والآن ماذا

سأفعل أنا وليس عندى فى البيت مفارش أسرّة ولا حدائق قرنفل وورود، فكرة من هذه الفكرة. لماريا أديلايدا نصيبها فى هذا القلق،، لكن لكونها شابة ويفيض منها الأمل تقول لأمها إن عليهم أن يفعلوا شيئا، فلو لم يكن لديهم مفارش أسرة فليفردوا مفرش ترابيزة مكانه، قماشًا غاية فى البياض معلقًا على فتحة الباب، علم السلام فى الوسية، قد يكتشفه باحترام رجل مدنى عابر، ولكونه من الحرس أو العسكريين الراسخين بتحية عسكرية سيقيمون حفل تكريم أمام باب مانويل السيف، العامل والرجل الطيب. ولا تشغلى بالك بالزهور، يا ست الحبايب، فأنا سأذهب لبئر أمييرو لأبحث عن زهور برية تغطى فى شهر مايو الوديان والتلال، ولأن أشجار البرتقال قد ازدهرت، سأحضر معى غصونه وبهذا سيكون بيتنا نافذة مزينة كشرفة فى قصر، فلن نكون أقل من الآخرين، لأننا نساوى الكثير .

هبطت حينئذ ماريا أديلايدا إلى منطقة البئر، بدون حتى أن تعرف لماذا اختارت هذا المكان بالتحديد، فلو كان كما قالت لكونه مليئا بالزهور التى تغطى الوديان والتلال، ستسير من الطريق بين الحواجز، ومن هناك يكفيها أن تمد يدها، لكنها لم تفعل ذلك، إنها قرارات قديمة تسرى فى دمها، فى هذا المكان الرطب لا يمكن حصد سوى الزهور، والسرخس الغزير، وبعيدًا فى أرض مستوية حيث تسطع الشمس كاملة، لا أريد زهور برية، توجد زهور

قد تغير اسمها منذ حمل أنطونيو المنحوس غصنا إلى بنت أخته ماريا أديلايدا فى يوم ميلادها. للصبية حركة ذراع ناضرة، كوكبة من شموس ذات قلب أصفر، الآن ستعاود صعود الطريق، ستمضى قاطفة غصون البرتقال المزدهرة من فوق السور، لكنها تشعر فجأة بإنهاك، لا أعرف ما أشعر به، أنا لست مريضة، ففى حياتى كلها لم أشعر أننى أفضل من اليوم، ولا أسعد من اليوم، أيكون الألم ناتجًا عن هذا الغصن الذى أحتضنه فى صدرى، أحتضنه، بكل عنف عذب أحتضنه، أضمه إلى صدرى. جلست ماريا أديلايدا على سور البئر، كما لو أنها فى انتظار أحد. كان حجرها مليئا بالزهور، لكن لم يظهر لها أحد .

إنها حكايات جميلة تلك المرتبطة بالينابيع المسحورة، بالنساء العربيات اللاتى ترقصن على ضوء القمر والنساء المسيحيات المعتدى عليهن يتأوهن فوق السرخس، من لم يقدّر هذه الحكايات فقد ضاع منه مفتاح قلبه، وهذا أقل ما يوصف به. لكن، بعد مرور إبريل ومايو بقليل، تعود للوسية الصرامة المعروفة، ليست صرامة الحرس و البوليس السياسى، فالثانى قد انتهى والأول يسكن داخل ثكنته، ناظرا للشارع من خلال النافذة المغلقة، أو، عندما يضطر للخروج، وهذا يحدث فقط لأشد الضروريات، يمشى بجانب الحائط، فلا من رأى ولا من درى. الصرامة التى أتحدث عنها هى صرامة الآخرين الذين اعتادوا عليها، يجب أن نراجع ما قرأناه ونعيد ما قلناه، كان

القمح فى الأرض ولم يحصدوه، لم يتركوهم يحصدونه "، الحصاد غزير، وعندما يذهب العمال ليطلبوا عملا،" لا يوجد عمل"، ما معنى هذا، أى تحرر هذا، ستنتهى الحرب فى إفريقيا ولن تنتهى فى الوسية. لقد تحدثوا كثيرًا عن الرقصات الكثيرة والآمال الكبيرة، وخرجت القوات من كتائبها، وتوجوا المدافع بغصون الأوكاليبتوس والقرنفل النفاذ، قولى القرنفل الأحمر، يا سيدتى، قولى الأحمر، فالآن نستطيع أن نقولها، فالراديو و التليفزيون يمضون داعيًا للديمقراطية والمساواة، وأنا أريد أن أعمل ولا أعرف أين، مَنْ يشرح لى ما هذه الثورة. الحرس يتمطعون فى الشمس، مثل القطط عندما تسن مخالبها، أخيرًا، قانون الوسية مازال كما هو حتى يطبقه نفس الأفراد، أنا مانويل السيف، أنا أنطونيو المنحوس، أنا سيجيسموندو كاناسترو، أنا جوزيه ميدرونيو، صاحب العاهة المستديمة فى وجهى، أنا جراثيندا المنحوس وابنتى ماريا أديلايدا التى بكت عند سماعهم يصيحون تحيا البرتغال، وأنا رجل أو امرأة من الوسية، وريث فقط لعدة العمل، إن لم يستهلكوها قبلى أو يقسموها، كما استهلكونى أنا وقسمونى، عاد الحزن إلى حقول الينتيجو، وسيعود سفك الدم من جديد .

سنرى فى النهاية من الأقوى، فإن لم نهبهم عملاً سيتكفل الزمن الذى يمر ببطء أن يعيدهم إلينا ليأكلوا ما فى أيدينا"، هكذا يقول نوربيرتو لكلاربيرتو،

وهى كلمات يغلفها الازدراء والحقد من قبل من ظل حبيس قوقعته المنزلية فى صمت خلال فترة زمنية من كثرة خوفه، ملحفا زوجته وأقاربه بأخبار الثورة المخيفة التى كانت تأتى من لشبونة، كل الناس فى الشوارع، مظاهرات ضد كل شىء ولا شىء، أعلام، والشرطة مضطرة لتسليم السلاح، يالهم من مساكين، إنها إهانة كبرى لنشاطات هيئة قدمت خدمات كثيرة وربما مازالت تقدم، لكن ما يحدث مثل أمواج البحر، لا يمكن أن تواجهها ببدن مشدود، فذلك يبدو شجاعة لكنه فى الحقيقة حماقة، إعط للموجة ظهرك وستمر دون أن تؤذيك، انزلقت الموجة ولم تجد من تضربه، والآن نعم، تجاوزتَ نقطة الاندفاع، الرغوة والتيار، إنها مصطلحات صائد سمك، لكن كم مرة سنحتاج أن نقول أن الوسية بحر داخلى، فيه البراكودة والضارى والأخطبوط الكبير، ولو كان لديك عمال اطردهم، ابق وحدك مع الرجل الذى يرعى الخنازير والنعاج، وحارس المزرعة، حتى لا يفقدوا احترامهم لك .

نحن نعرف بالطبع مصير الغلال، مفروشة فى الأرض، ويقترب موسم الزرع، ماذا سيفعل جيلبيرتو، هيا نسأله فى بيته، نحن نعيش فى بلد حر ومن حقنا جميعا أن نتحاسب، قل لسيدك إنه يوجد هنا بعض الأفراد الذين يريدون معرفة ماذا سيحدث، فقد تساقطت الأمطار الأولى وحان موسم الزرع، وبينما ذهبت الخادمة لتعرف الرد، بقينا نحن على الباب، فلم تدعونا للدخول، وتعود الخادمة بوجه مكفهر،

أتمنى ألا تكون هذه أميليا المنحوس التى تحدثنا عنها فى هذه القصة، وتقول: السيد أمرنى أن أقول إن الأمر لا يعنيكم، فالأرض أرضه، ولوعاودتم المجىء سيطلب لكم الحرس، وبمجرد أن أنهت كلامها أوصدت الباب فى وجوهنا، معاملة سيئة لا تليق حتى بصعلوك، فالصعاليك يخبئون مطواة يموت منها هؤلاء خوفًا. الأمر لا يستحق أسئلة أخرى، جيلبيرتو لن يزرع، نوربيرتو لن يزرع، وإن زرع أحد باسم آخر سيزرع خوفا من القوات أن تأتى وتسأله،" قل لنا ماذا يجرى هنا، لكن هناك طرقًا أخرى لقتل هذا الذباب، مثل قول اتفقنا، رسم ابتسامة على الشفاه وإظهار النية الطيبة، يا رجل، لم لا، هذا يسرنا، وفى النهاية فعل عكس ما يقولون، وتدبير المكيدة، يسحبون النقود من البنك ويهربونها للخارج، وهناك من يتكفل بفعل هذا مقابل عمولة معقولة، وهم كثيرون، أو يصنعون بعض المخابىء فى سيارتهم، وحرس الحدود يغمضون عيونهم، إنهم مساكين، لن يضيعوا الوقت فى الرقود تحت السيارة، فهم ليسوا صبية ليفعلوا ذلك، أو يدسونها تحت معاطفهم، إنهم موظفون يستحقون التقدير، يجب أن يحتفظوا بالزى الرسمى نظيفًا، وهكذا يهربون خمسة ملايين، أو عشرة، أو عشرين، أو مجوهرات العائلة، الفضة والذهب، أو ما يرغبون، بدون أية جلبة. إنهم جهال ولا حل لهم هؤلاء الأجراء الذى ما أن رأوا شجر الزيتون طارحا، أسود وناضجًا، ولامعا، كما لو كان يرشح سائله، حتى مضوا

يحصدونه بعد أن فكروا كثيرا وقرروا، كيف يكون، ماذا سنفعل، وبعد حصده جنّبوا اليومية التى تناسبهم طبقا لأجرة الفترة وسلموا الباقى لصاحب الوسية،" من سمح لهم بهذا"، الحمد لله أن لم يعبر من هناك أحد الحرس، وإلا كان سيطلق عليهم رصاصة حتى يتعلموا ألا يتدخلوا فيما لا يعنيهم، يا صاحب الوسية، لقد نضج شجر الزيتون وكان يجب حصده، لو انتظرنا أكثر من ذلك لفقدناه، وها هو الزيتون الذى تبقى بعد أن أخذنا نصيبنا، وهاهو نصيبنا من الزيتون مقابل العمل، ومن السهل تصفية الحسابات، لكننى لم أسمح بذلك، ولن أسمح حتى لو طلبوه منى، لكننا قررنا الحصاد. وكانت هذه الواقعة دليلا على أن الزمن تغير، لكن كيف كانوا سينقذون ثمار الأرض لو أمر أداليبرتو بمرور الماكينات فوق الغلال، لو أدخل أنجيلبيرتو المواشى فى الزرع، لو أشعل أنسبيرتو النار فى القمح . البعض يهدر القمح والبعض الآخر يعانى من الجوع المميت .

من أعلى نقطة فى برج التكريم، ساندا يدى المحارب والغازى على الشرفة، يدان صلّبهما مقبض السيف، تأمل نوربيرتو عمله ووجده على ما يرام، وكما تاه فى حساب الأيام، لم يسترح، يستطيع شياطين لشبونة أن يدمروا الإرث الذى تركه لنا أجدادنا، هنا فى الوسية نحترم الوطن المقدس لأقصى حد وكذلك العقيدة بشكل مختلف، يأمر الشاويش أرمامينتو بالدخول، الأمور تسير على ما يرام، يأمر الأب

أجاميديس بالدخول، يا أب أجاميديس، منظرك فى غاية الجمال، يبدو أنك استعدت شبابك، ربما من كثرة صلواتى من أجل صحة سعادتك والحفاظ على أرضنا. أرضى، يا أب أجاميديس. معك حق يا سيدى، أرض سعادتك، هذا هو ما يقوله أيضا السيد شاويش الحرس، بالضبط، كانت هذه هى الأوامر التى تلقيتها من السيد جوان الأول، ونقلتها بدون تغيير لكل أجيال الشاويشية، وبينما كانوا يتحدثون هكذا فى البيت، جاء الشتاء وقرص الأجراء، وليس لأنهم قد اعتادوه يتحتم ألا يشعرون به، ماذا سنفعل، إنه نفس البؤس الذى عانيناه من قبل. السادة هم أصحاب الأرض وأصحاب من يعمل فيها"،" نحن أقل من كلاب بيت الأشراف والبيوت الكبيرة، فالكلاب تأكل كل يوم، يضعون أمامها القدر ممتلئا، لا أحد يترك الحيوان يموت جوعا. من لا يعرف أن يعامل الحيوان، فأجدر به ألا يمكله. لكن مع الرجال الأمر مختلف، فأنا لست كلبا وبالتالى لم آكل منذ يومين، وهذه المجموعة من الرجال القادمين ليتحدثوا يشبهون سرب كلاب الصيد، منذ فترة لم ننبح، وفى يوم من هذه الأيام سنصمت ونعض، كما يفعل النمل الأحمر، فلنتعلم منه، إنه هذا النمل الذى يرفع رأسه مثل الكلاب، انتبه لقرصته، لو لم تكن يدى خشنة ومتصلبة من مقبض المنجل، لنزفت .

قول تردده الألسنة بلا اقتناع: الدواء الذى يُسكّن لا يداوى . وبالتالى سيان بالنسبة لى أن أستعد أم لا، فعلى سبيل المثال، هؤلاء يعملون وماذا يستفيدون من

عملهم، يأتى رئيس العمل، بوجه وقح ولا يهمه أن يدارى وقاحته ويقول: هذا الأسبوع لن تتقاضوا أجركم، الصبر، الصبر، الأسبوع القادم قد تتقاضوه، وفى جيبه يبث الراديو أغنية يؤديها السيد جوان الثانى والسيدة ماريا الأولى فى دويتو غنائى، وبعد أسبوع يقول نفس الشىء، ومن يقول بعد أسبوع يقول بعد اثنين وثلاثة وأربعة وستة، أما عن النقود فلا يرون ظل رائحتها، المالك ليس معه سيولة، فالحكومة لا تسمح بسحب نقود من البنك، لا أحد يستطيع أن يصدق ما يقوله رئيس العمل هذا، إنها قرون من الكذب لا يمكن لأحد حتى أن يتخيلها، لكن على الحكومة أن تأتى هنا لتشرح هذا، فلا فائدة من كتابته فى الجرائد التى لا تفهمها الناس، وفى التليفزيون تمر الأخبار سريعة كالبرق، وقبل أن نستوعب كلمة تأتى مائة، ماذا كانوا يقولون، وفى الراديو لا نرى وجوه من يتحدث، لا أستطيع أن أصدق شيئا مما يقال إن لم أر وجه المتحدث .

وحينئذ فى مكان ما فى الوسية، وستذكر الحكاية ما اسمه، احتل العمال مزرعة. لا لشىء سوى العمل، وليصبنى الجذام فى يدى اليمنى إن كنت أكذب. وبعدها فى مزرعة أخرى دخل الأجراء وقالوا، جئنا لنعمل. وما حدث هنا، حدث هناك، كما يحدث فى الربيع، تتفتح معا زهرات المارجريت فى الحقل، وإن لم تتفتح تذهب ماريا أديلايدا فى الحال لتقطفها، آلاف من المارجريت يولد فى يوم واحد، أيهما تفتحت

أولا، كلها زهرات بيضاء وتنظر للشمس، مثل عرائس هذه الأرض. لكن بياض العرائس ما صار بياضا، صار منطفئا، وتتناثرمساكن النمل فى الوسية، الأرض مليئة بالسكر، أبدًا لم نر من قبل هذا العدد الهائل من النمل برأس مرفوع. جاءتنى أخبار سيئة من أبناء أعمامى وأقارب آخرين، يا أب أجاميديس، يبدو أن صلواتك لم يستجب لها الرب، بعد أن وصلتُ لهذا العمر أرى هذه النكبة الكبرى، إنه اختبار كان مدخرا من أجلى، أن أرى أرض أجدادى فى يد هؤلاء اللصوص، تأتى نهاية العالم عندما يُعتدى على الملكيات الخاصة، إنه مبدأ إلهى ودنيوى لحضارتنا المادية والروحية، تقصد أن تقول إنه مبدأ علمانى، فعلمانى أشد دقة من دنيوى، معذرة على تصحيحى لك. لا، فلتكن دنيوى، فهم يقدسون ماهو دنيوى، وسترى أن نفس الشىء يحدث فى سانتياجو دو اسكورال، إنها جريمة يجب أن يدفعوا ثمنها ذات يوم. كنا نتكلم عن هذا بالأمس، ماذا سيكون حالنا. يجب أن نكون صبورين، يا سيدة رحمة، صبرًا لا حدود له، فمن نحن حتى نتدخل فى حكمة الرب وفى طرقه الوعرة، إنه هو الوحيد الذى يعرف الكتابة المستقيمة فوق سطور معوجة، فمن يدرى ربما ينقص من مقدارنا اليوم حتى يرفع غدا شأننا أضعافًا مضاعفة، ومن يدرى فربما بعد هذا العقاب لا يأتى جزاء الأرض والسماء، كل يأتى فى موعده وفى مكانه، أمين.

بكلمات مختلفة لكنها تحمل نفس المعنى شرح لامبيرتو للأونباشى تباكو، ظل الصورة العسكرية المعروفة، يبدو مستحيلا، كيف يشهد الحرس هذه الأحداث الفظيعة، كيف يتركونهم يغزون الوسايا التى واجبهم الدفاع عنها من أجلى، بدون أن يتحركوا قيد أنملة، بدون أن يطلقوا رصاصة، ولا حتى يركلوهم، ولا يسددون لهم لكمة، ولا حتى شلوت، ولا يحرضون كلبا على بناطيل هؤلاء الصعاليك، إذاً فما فائدة الكلاب الغالية، المستوردة، ألا ندفع من أجل هذا ضرائبنا، التى بدورى توقفت عن دفعها، لأنها ستذهب للخراب، أنا سأسافر للخارج، للبرازيل، لإسبانيا، لسويسرا، التى تتمتع بحيادية هائلة، أو إلى أى مكان، لكن بعيدا عن هذا البلد الذى يخزينى. مع حضرتك كل الحق، يا سيدى لامبيرتو، لكن الحرس الذى أنا أونباشى فيه صارت أياديه مقيدة، فماذا سنفعل نحن بدون أوامر، لقد تعودنا على الأوامر والآن لا تأتى تلك التى تعودنا عليها، وأستطيع أن أقول لحضرتك بصراحة، فحضرتك محل ثقة، إن القائد العام للحرس يتفق مع الأعداء، أعلم عن يقين أننى أكسر الانضباط عندما أتحدث هكذا، لكن ربما ذات يوم يرقونى شاويشًا، وحيئذ سيدفعون الثمن مجتمعا وبالفوائد، أقسم لك على ذلك، يا سيد لامبيرتو. إنها تهديدات بلا اقتناع، ليست علاجًا، لكنها تسكن الألم، وأثناء ذلك علينا أن ننسى الرياضة الصباحية، تعليمات السلاح. كيف حال قلبى، يا دكتور. مختل. الحمد لله .

لا تتوقف الأمواج ذهاباً وإيابًا فى بحر الوسية الداخلى. ذهب مانويل السيف ذات يوم ليتحدث مع سيجيسموندو كاناسترو، والاثنان بحثًا عن أنطونيو المنحوس، والثلاثة بحثوا عن جوستو كانيلاس، "علينا أن نتحدث"، وبعدها جاء الدور على جوزيه ميدرونيو، واكتملوا ستة بحضور بيدرو كالساو، وكان الأخير هو أول من بادر بالحديث. فى الاجتماع الثانى زادوا أربعة أصوات، رجلان: جواكيم كاروسو ومانويل مارتيلو، وامرأتان: إيميليا بروفيتا وماريا أديلايدا السيف، وهو الاسم الذى تفضله، وكلهم فى الخفاء تكلموا، ولأنهم كانوا يحتاجون من يرد عن المجموعة، فقد اختاروا مانويل السيف. فى الأسبوعين التاليين تجول الرجال فى الوسايا، كمن لا يريد شيئًا، وباتباع منهج قد اتفقوا عليه كانوا يتركون شعارات، شعارًا هنا، شعارًا هناك، يتناقشون ويستقرون على خطة، فلكل واحد منهم معاركه، ولا نأخذ هذه الكلمة على محمل السوء، وقرروا بعد ذلك الدخول فى المرحلة الثانية، وهى دعوة مشرفى الوسايا التى كانت تعمل، ويقولون، فى

ليل هذا الصيف القائظ، غدا، فى الثامنة، كل الأجراء، أيا كان مكانهم، يركبون العربات ويتجهون لوسية مانتاس، سنحتلها، وبالاتفاق مع المشرفين، لقد تحدثنا معهم واحدا واحدا، ونبهنا الكثيرين ممن ذهبوا كجنود أساسيين فى هذه المعركة، وقد ذهب كل واحد منهم لينام نومته الأخيرة فى السجن .

هذه شمس كما يقول الكتاب. تحرق وتلهب جدامات القمح الجافة، بعظمها البنى المغسول أو الخشن، المتبقى من زرعة قديمة ومضطرمة من الحر القائظ والمياه غير المعتدلة. تحتشد الماكينات من كل أماكن العمل، إنها مدرعات تتقدم، آه من هذه اللغة الحربية، من يستطيع أن ينساها، إنها جرارات تتقدم، تسير ببطء، يجب أن تكون على اتصال بالجرارات القادمة من أماكن أخرى، التى وصلت بالفعل، تصرخ من جانب وآخر، والطابور يصير أكبر وأكبر، وتشتد قوته، تسير الجرارات محملة، بينما هناك من يمشى على قدميه، إنهم الأجراء الأصغر سنا، وهذا بالنسبة لهم فسحة، ويصلون لوسية مونتاس، هنا نجد مائة وخمسين رجلا ينتزعون الفلين، ينضمون للآخرين، وفى كل وسية يحتلونها تبقى مجموعة قائدة، الصف الآن يتكون من أكثر من خمسمائة رجل وامرأة، ستمائة، وسريعًا ما يصلون لألف، إنه عيد مقدس، حج يقام فى طرق الاستشهاد، خطوات فى طريق آلام المسيح .

بعد مانتاس يتوجهون إلى وادى دا كانسييرا، إلى ريلفاس، إلى جبل دا أريبا، إلى فونتى بووكا، إلى

سيراليا، وبيدرا جراندى، يأخذون مفاتيح جميع الوسايا ويقومون بجردها، نحن عمال، لم نأت لنسرق، لا أحد هنا يقول عكس ذلك، فكل الأماكن التى تجولنا فيها واحتللناها، من جبال وبيوت ومطامير وزرائب واصطبلات ومتابن وحظائر وأكواخ وأحواش وزرائب خنازير وعشش دجاج، لم نجد فيها لا نوربيرتات ولا جيلبيرتات، أين ذهبوا، الله أعلم. الحرس لا يخرج من نقطته، والملائكة تكنس السماء، إنه يوم الثورة، كم عددهم؟

تتنزه الحدأة وتشدو، عددهم ألفاً، بدون عد غير المرئيين، فالعمى قدر الأحياء، الذين لا يدركون كم فرد قام بالثورة، ألف حى ومائة ألف من الموتى، أو مليونان من التنهيدات التى تنهض من الأرض، أى عدد سيكون صحيحًا، وكله سيكون صغيرا لو جمعناهم من بعيد، الموتى يطلون من الدرابزين، ينظرون للداخل باحثين عن أحد يعرفونه، عن أكثر الأقربين قلبًا وقالبًا، وإن لم يجدوا من يبحثون عنه، ينضمون لمن يسيرون على أقدامهم، إنه أخى، أمى، زوجتى، زوجى، لهذا فمن الطبيعى أن نتعرف على سارة، ها هى تسير، تحمل زجاجة نبيذ وقماشة، ودومينجو المنحوس، بطرف حبله حول رقبته، والآن يعبر جواكيم كارانكا، الذى مات جالسا على باب بيته، وتوماس السيف، الذى أمسك أخيرا بيد زوجته فلور مارتينيا، كم تأخرت، كيف لا ينتبه هؤلاء الأحياء، أيعتقدون أنهم وحدهم. يسيرون فى مشاغلهم كأناس أحياء.

عندما يموت الواحد منا يدفنونه، هذا هو ما يعتقدونه، لكن الموتى يأتون مرات كثيرة، الآن بعضهم، فى وقت آخر بعض آخر، لكن هناك أيامًا، وهى أيام قليلة بالطبع، يخرجون فيها جميعهم، ومن يستطيع أن يحبسهم فى قبورهم الخاصة عندما تتحرك الجرارات فى الوسية والشعارات لا تتوقف، مانتاس، بيدرا جراندى، وادى دا كانسييرا، جبل دا أرييا، فونتى بووكا، وجوع كثير، سيراليا، لا يرحل أحد للجبل الفقير والوادى الفقير، وهنا فى ثورة الطريق هذه يمكث جوان المنحوس باسماً، قد يكون منتظرًا أحدا، أو ربما لا يستطيع الحركة، فقد مات بقدمين مشلولتين، ربما لهذا نتقدم للموت بكل عيوبنا وآخرها، لكن من الخطأ أن نفكر هكذا، لقد عادت لجوان المنحوس قدما صبى والآن يتقافز، إنه راقص يطير، وسيجلس بجانب عجوز صماء فى غاية العجز، فاوستينا زوجتى يا من أكلتى معى خبزا ولحما ذات ليلية شتوية وبللتى تنورتك، أشواق لا نهائية .

يريح جوان المنحوس ذراعه ذا الدخان غير المرئى على كتف فاوستينا، التى لا تسمع شيئا، ولا تشعر به، لكنها تشرع بمرح فى غناء لحن لرقصة قديمة، إنه الجزء الخاص بها فى الكورال، تتذكر الزمن الذى كانت فيه تراقص زوجها جوان، المتوفى منذ ثلاث سنوات، فليسترح فى جنة الخلد، هذا هو حكم فاوستينا الخاطىء، الذى لن تستطيع معرفته. وناظرين من أعلى نقطة، بمحاذاة الحدأة، نستطيع أن

نرى أوجوستو بينتيو، الذى مات مع بغلتيه ذات ليلة فى موسم الزرع، وخلفه، ربما ممسكة به، زوجته ثيبريانا، وأيضًا الحارس جوزيه كالميدو، القادم من أراض أخرى ومرتديا ملابس مدنية، وآخرون لا نعرف لهم اسمًا، لكننا نعرف حياتهم . يسيرون جميعًا، الأحياء و الأموات. وأمامهم، متقافزًا والطريق ممهد له، يسير الكلب ثابت. فكيف يغيب فى يوم أساسى كيوم الثورة .

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «إنتر».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية نجوى شعبان، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١- «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى - إيتالوكالڤينو.
رواية (عدد خاص) جائزة «فياريچيو».

١٢- القلعة البيضاء / للكاتب التركى أورهان باموق - رواية - «جائزة نوبل».

١٣ - أين تذهب طيور المحيط/ للكاتب المصرى إبراهيم عبدالمجيد - أدب رحلات - «جائزة التفوق».

١٤ - قرية ظالمة / للكاتب المصرى محمد كامل حسين - عدد خاص - «جائزة الدولة للأدب».

١٥ - الرجل البطىء / للكاتب الجنوب أفريقى ج . م . كوتسى - رواية - «جائزة نوبل».

١٦ - طحالب / للكاتبة الجنوب إفريقية مارى واطسون - متتالية قصصية / «جائزة كين» .

١٧ - شوشا / للكاتب البولندى اسحق باشيفيس سنجر/ رواية / «جائزة نوبل».

١٨ - شارع ميجل/ للكاتب من ترينداد/ ف. س. نايبول. رواية/ «جائزة نوبل».

١٩ - الحياة الجديدة - للكاتب التركى «أورهان باموق» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٠ - عشر مسرحيات مختارة - للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» - مسرح - «جائزة نوبل».

٢١ - الآخر مثلى - للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٢ ـ المستبعدون ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٣ ـ الأنثى كنوع ـ للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس» ـ قصص ـ «جائزة بن مالامود».

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى ـ للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» ـ رواية ـ «جائزة الجونكور».

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتَّه كروناور» مختارات جائزة «چورج بوشنر الكبرى».

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. «جائزة نوبل».

٢٩ ـ إليزابيث كُسّتلّو.. للكاتب الجنوب إفريقى ج. م. كوتسى .. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية بريچيته كروناور .. قصص.. «جائزة چورج بوشنر الكبرى».

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية أمبارو دابيللا.. قصص.. «جائزة بيربياروبيا».

٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. «جائزة البوليتزر».

٣٣ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو»..
رواية.. «جائزة نوبل للآداب».

٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. «جائزة البوكر».

٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. «الجائزة الوطنية للآداب».

٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث» رواية.. «جائزة الأورانج».

٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقي ج. م. كوتسى.. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٩ - قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى إيريك فوتورينو.. رواية.. «جائزة الفيمينا».

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. «جائزة نادال».

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية چويس كارول أوتس.. رواية.. «جائزة الفيمينا».

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. «جائزة بلانيتا».

٤٤ ـ ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية كيران ديساى.. ر واية.. «جائزة البوكر».

٤٥ ـ الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٦ ـ بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ ـ «ملك أفغانستان لم يزوجنا».. انجريد توبوا.. «جائزة الرواية الأولى فى فرنسا» ٢٠٠٧.

٢ ـ «الكهف.. جوزيه ساراماجو».. «جائزة نوبل للآداب» ١٩٩٨.

٣ ـ «يوميات عام سيء».. ج. م. كوتسى.. «جائزة نوبل للآداب» ٢٠٠٣.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg